

تأليف

أبو بكر جابر الجزائري

الناشر
مكتبة العلوم والحكم
ش الستين - ص ب ٦٨٨
هاتف ، ٨٢٥١٩٤٢ - ٨٤٥٢٢٧٢
المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية

توزيع
مكتبة الصفا

أبو بكر جابر الجزائري
المدرس بالمسجد النبوي الشريف

Abu Bakr Jaber AlJazaery
Teacher in Masjid Al-Nabawi Al-sharef

التاريخ ٢٩/١١/١٤٢٢هـ الموافق / / ٢٠٠

إلى من يهمه الأمر

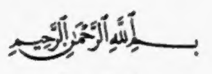
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم أجمعين
وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد
فإن كل من يطلع على هذا الإعلان الهام أؤكد ما تقدم من قبل وهو
حصر حقوق جميع مؤلفاتي بمكتبة العلوم والحكم بالمدينة النبوية،
ونظراً للالتباس الذي وقع للبعض والتدليس عليهم وإما الكذب بأنه
لهم حق الطبع فإني أكرر مؤكداً ما سبق من حصر طباعة جميع كتبي
ومؤلفاتي بجميع اللغات محصورة بمكتبة العلوم والحكم فقط، وفي جميع
أنحاء العالم، ولا يحق لمكتبة أضواء المنار السعودية، وكذا
دار لينة وممثلها محمد زكي الخولي - لا يحق لهم ولا لغيرهم من دور الكتب
المذكورة - طباعة أي من مؤلفاتي. ولا يجوز لأحد التعامل مع
مؤلفاتي إلا من خلال مكتبة العلوم والحكم بالمدينة - وقد حصرت هذا
الحق رسمياً من طريق الجهات المعنية في المملكة العربية السعودية/
لمكتبة العلوم والحكم - وللأهمية القصوى جرى هذا التنويه إبراءً
للذمة - والله الموفق لكل خير والهادي إلى سواء السبيل من

كتبه
أبو بكر جابر الجزائري



Madina Munawwara
Tel. 04 - 8371500
P.O. 871 - Saudi Arabia

المدينة المنورة
هاتف: ٨٣٧١٥٠٠ - ٠٤
ص ب: ٨٧١ - المملكة العربية السعودية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. وصلاة الله وسلامه ورحماته وبركاته على صفوة عباده وخيرته من خلقه، محمد عبده ورسوله، وعلى أهل بيته الطاهرين، وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فهذه رسالة في سيرة الحبيب محمد ﷺ رَغَّب في جمعها وتأليفها بعضُ إخوة الإسلام لتكون تكملة «المنهاج المسلم» الذي اشتمل على أصول الدين وفروعه إلا ما كان من السيرة العطرة للحبيب محمد ﷺ، وتحقيقًا لرغبتهم وضعت هذا الكتاب معنونًا بهذا العنوان:

هذا الحبيب محمد ﷺ

يا محب

فكان حقًا - الكتاب - رسالة العلم والإيمان والحب الصادق للحبيب محمد ﷺ.

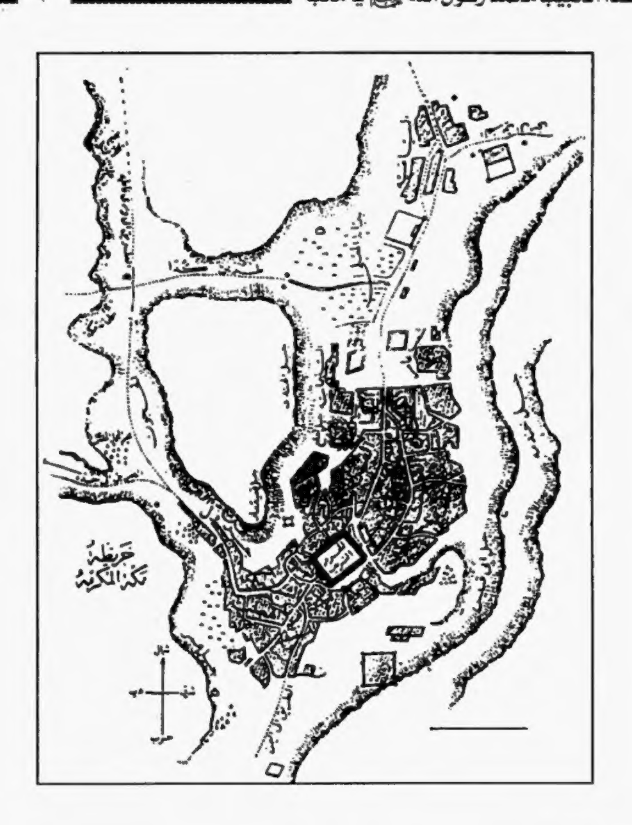
ونظراً لكثرة ما جُمع وأُلف في الدين في هذا الفن - السيرة - فإني - تجنبًا للتكرار والإطالة والاختصار - سلكت بتوفيق الله مسلكًا في جمعه وتأليفه ما جعله بفضل الله تعالى أمثلَ ما كُتِبَ في هذا الفنّ سهولةً ووضوحًا وشمولاً مع حسن التبويب، وجمال التفصيل، وزانه ما امتاز به من ترصيع كل مقطوعة منه بذكر نتائجها وعبر قد لا تخلو منها في غالبها. فكان بحمد الله تعالى كتاب البيت المسلم الذي يُشيع بين أفراده حبَّ الحبيب المصطفى، وينيرُ ببيان حُسْنِ الأسوة مَعَالِمَ الهدى، في دروب الحياة كلها الدينيّة منها والاجتماعية والسياسية. ولهذا فإني أدعو أهل كل بيت مسلم أن يجتمعوا على قراءته فيقتطعوا نصف ساعة من يومهم - أو ليلتهم - يقرءون فيها صفحة أو صفحتين حسب طول المقطوعة من الكتاب وقصرها، ويقفون على ما فيها من النتائج والعبر يقوّون بذلك إيمانهم، وينمّون معارفهم، ويهذبون أخلاقهم. وأعظمُ من ذلك اكتسابُهم حبَّ نبيّهم وحبّ أهل بيته الطاهرين، وصحابته الغر الميامين.

وأخيرًا، فاللهم اجعل عملي في هذا الكتاب صالحًا واجعله لوجهك خالصًا، وارزقني به - ومن يقرؤه مؤمنًا محتسبًا - حبّ نبيّك وشفاعته في النجاة من النار، واللحاق بمنازل الأبرار مع الرفيق الأعلى يا ذا الجلال والإكرام.

سبحان ربّك ربّ العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين





هذه مكة

هذا البلد الأمين.

هذا الوادي الذي قال إبراهيم فيه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أرض النبوة

بجبال فاران، بالوادي الأمين؛ بالأرض المباركة حيث بُني فيها أولُ بيت للناس، كلُّ الناس بمكة المكرمة دائرة المجد، ومهبط الوحي.

بالبلد الأمين حيث كان مولد سيد جميع العالمين.

بديار الحجاز معقل الإيمان[1] في آخر الزمان. بها - مكة - طابت مغانيها، وجلَّتْ عن الحصر معانيها، بعث نبيُّ آخر الزمان، الذي سنحدِّثُ عنه - إن شاء الله - الأحباء ببيان أيّما بيان.

ولْنحبسِ الآن القلم ساعة؛ لنعود إلى الحديث عن أرض النبوّة بعد ساعة.

الدّوحة الكريمة

من ديار الكفر والطغيان، من أرض الشرك والظلم للإنسان خرج مهاجراً إبراهيمُ مع ابن أخيه هاران لوط عليه وعلى إبراهيم وآله السلام.

واتخذ إبراهيم الأرض المباركة مهاجراً أرض الشام التي باركها الله للأنام، حل إبراهيم يومًا بديار مصر، وهو يحمل رسالة التوحيد، فكان أن أكرم الله سارة[2] زوج إبراهيم بعطية هي نِعم الهدية إنها هاجر المصرية، أم إسماعيل وجدة العدنانين أجمعين.

ووهبت سارةُ الكريمةُ جاريتَها إبراهيم، فتسرّاها، فأنجبتْ إسماعيل. ويسوق الله أقدراً إلى أقدار، فتضيق بسارة الدار حيث آلمها أن تلدَ جاريتُها غلامًا زكيًّا، وتُحْرَمَه هي!!

ويإذن من الله يخرج إبراهيم بجاريته - أمِّ ولده - مستخفيًا مستحيًا، فتُعَفِّي هاجرُ آثار أقدامها مبالغة في إخفاء أمرها.

ولْنخرج القلم الآن من الحبس؛ لنتابع الحديثَ عن أرض الأنس والقدس.

إنه بالواد الأمين، المحاط بجبال فاران من أرض طيّبة مباركة، وتحت دوحة عظيمة، وضع إبراهيم هاجر وطفلَها، تاركًا لهما جرابًا فيه طعام، وسقاءً فيه ماءٌ وقفل راجعًا. ونظرت إليه هاجرُ، والدهشةُ تأخذها، والحيرة تنتابها، ثم تقول: إلى من تكلنا يا إبراهيم؟ وأردفتْ تساؤلها قائلة: آلله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ فأجابها السيد الرحيم قائلاً: نعم. فردت عليه -

---

(١) ثبت هذا المعنى بالحديث.

(٢) تقرأ هذه القصة في صحيح البخاري. «كتاب الأنبياء».

وهي قريرة العين - إذًا فاذهب، فإن الله لا يضيِّعنا. وذهب إبراهيم عائدًا إلى أرض الشام.

ولما بعد - حيث لا تراه هاجر - استقبل مكان البيت قبل بنائه وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقفة قصيرة

فهيّا بنا - معشر الأحباء - نجلس مع هاجر نؤانسها في وحشتها، ونَستَجلي العبرة من موقفها:

هاجر امرأة مؤمنة كسائر المؤمنات تهاجر من بلدها، وتخرج من دارها حتى لا تؤذي وليَّة نعمتها، تلك المؤمنة الأولى «سارة» بنت هاران عم إبراهيم الزوج الكريم. علمت هاجر ما أصاب سارة من الغَيْرة فآثرتْ غربتها عن أذيَّة سيدها. فياله من موقف تقفه هذه المصرية الزكية فهلاّ تأسّى بها الضرات[(١)]!!.

وهلا عرف هذا أحباؤنا - أحبهم الله - فيؤثر أحدهم بالنفع أخاه، ويتحمل الأذى في سبيل رضاه!!.

هذه عبرة، وأخرى: تُتْرَكُ هاجر بوادٍ قفر موحش، لا أنيس به من قريب ولا من بعيد، وتُظهر مخاوفها ولا تكتم ما انتابها من غم وهمّ. فتقول لإبراهيم: إلى من تكلنا؟ وما إن تسمع جواب إبراهيم: نعم، اللهُ أمرني بهذا ، حتى تتجلى حقيقة إيمانها في مستوى لن يرقى إليه غيرها من نساء العالمين، إذْ تقول: اذهب؛ فإنه لا يضيِّعنا.

هذا هو الإيمان الذي نطلبه أيها الأحباء. وهذا هو التوكل، الثمرة الشهية لعقيدة الإيمان الحيَّة.

إن إيمانًا لا يثمر توكلاً كهذا إيمان ناقص قصير، وقليل يسير. فَلْنَنْشُدْ - أيها الأحبة - إيمانًا كاملاً يُثْمر لنا الخشية والمحبة معًا وتوكّلاً كهذا!!!.

ولنترك هاجر تبيت ليلتها بالواد الأمين، لنعود إليها بعد حين نستقصي أخبارها، ونتعرف على أحوالها؛ لأنها رحم لنا، ومنبت عزّ ومجد كانا لنا، إنها أمُّ إسماعيل، أحد

(١) تأسى: أي اقتدى. والضرات جمع ضرة: المرأة تكون مع أخرى تحت رَجُلٍ واحد، والضرة مشتقة من الضرر، لأن كل واحد منهما تتضرر بالأخرى.

آباء سيد المرسلين محمد الحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

تقول الأخبار الصادقة: إن هاجر نفد ماءُ سقايَتها، وعطشت وعطش إسماعيل طفلها، فدارت تطلب الماء، وحارت وكبدها تكاد ترْفَضُّ[١] وهي ترى طفلها يتلوَّى من شدة العطش. ونظرت، فإذا أقرب مكان عالٍ إليها، هو جبل الصفا، فأتته ورقيته، ونظرت يمينًا وشمالاً فلم ترَ ماءً ولا أحدًا، ونظرت أمامها، فإذا أقربُ مكان عالٍ إليها جبلُ المروة، فهبطت ذاهبةً إليه.

فانتهت إلى بطن الوادي، فأسرعت وخبّت[٢] فيه حتى اجتازته، وواصلت سعيها حتى انتهت إلى جبل المروة فرقيته، ونظرت يمينًا وشمالاً فلم ترَ شيئًا، فهبطت عائدة إلى الصفا حتى اكتمل سعيها بين الصفا والمروة - وهي تطلب الماء لولدها ولها - سبْعَ مرات.

وعندها - وهي على أحد الجبلين - تسمع صوتًا غريبًا، فتقول في لهفة: أسْمَعْتَ أسْمَعْتَ فهل من غياث!؟

وترمي ببصرها نحو ولدها، فإذا برجل - قائم على رأس الطفل تحت الدوحة[٣] وما أن دنت منه حتى قال بَعقبه هكذا - يرفس الأرض - وإذا بعين ماء تفور، وكم كانت فرحة هاجر بسقيا إسماعيل!؟ وأخذت تزمُّها بالتراب والحجارة؛ تمنع سيلانها على وجه الأرض خشية أن تنضب، ولو تركتها - فلم تَحُطْها بما أحاطتها به من تراب وحجارة - لكانت عينًا معينًا كما أخبر بذلك حفيدُها السيِّد الجليل محمد إمام المرسلين وسيدُ جميع العالمين، عليه أفضل الصلاة وأزكى وأبرك التحية والتسليم.

ثمرة القصة:

إن لهذه القصة - التي قصصناها - ثمرةً من أغلى الثمار وأشهاها إلى النفوس المؤمنة الطاهرة الزكية، إنها ثمرة التوكل على الله بتفويض الأمر إليه، والاعتماد عليه. أتذكر أيها المحب لمَّا قالت هاجر لإبراهيم: إلى من تتركُنا، آلله أمرك بهذا؟ فقال لها: نعم. فقالت: إذًا فاذهب؛ فإنه لا يضيعنا! إنها توكلت على الله ربنا وربها وأحسنت الظنَّ به تعالى. فهذه العين الثَّرة (زمزَم) كانت ثمرة توكلها على ربها وحسن ظنها به - عزّ وجل -.

---

(١) فضَّتْ الكبد: تفتتت من العطش أو الحزن أو كادت.

(٢) وخبّت: أسرعت.

(٣) الدوحة: الشجرة العظيمة ذات الظل الوارف.

بداية أمر مكة:

لما أكرم الله تعالى هاجر أم إسماعيل بماء زمزم، مرت رفقة من قبيلة «جُرْهُمْ»(١) قريبًا من وادي مكة، فبعثوا من يرتاد لهم ماء ينزلون عليه، فرأى رائدهم طائرًا يحوم، فعلم أن هناك ماء، فأتى المكان وإذا فيه هاجر وولدها إسماعيل - وهما إلى جنب ماء زمزم فعاد الرائد فأخبر رفقته، فأتوا الماء واستأذنوا هاجر في النزول معها، فأذنت لهم، واشترطت ألا يكون لهم حق في الماء، فقبلوا الشرط ونزلوا، فكانت هذه بداية عمارة مكة في العهد الإبراهيمي السعيد.

عبرة:

أين الذين يتشدقون بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية؟ أين هم؟ إنهم في الحضيض الأسفل إزاء هذه الواقعة التاريخية الثابتة بالوحي الإلهي: امرأة غريبة الدار، تملك بئر ماء في صحراء تستأذنها في النزول إليها رفقةٌ كاملة برجالها ونسائها، تستأذنها في النزول في جوارها، فتشترط عليهم في النزول بجوارها - وهي تحب الأنس: ألا يكون لهم حق في الماء فيقبلون الشرط ويرضونه وينزلون!!.

هذه خلة فاضلة كريمة من خلال العرب في الجاهلية فكيف بهم في الإسلام لولا الصرفة التي صُرِفوها بِمكر الثالوث الأسود: المجوس واليهود والنصارى.

عمارة مكة

عمرت مكة بهاجر أم إسماعيل أولاً ثم بنزول الرفقة الجرهمية ثانيًا. وكبر إسماعيل، وأصبح أهلاً لأن يسعى ويعمل ولو برعْي الماشية وصيد الظباء والطيور. وجاء إبراهيم يتعهد تركته إسماعيل ابنه وهاجر أم ولده عليهم السلام، وأوحى إليه الربُّ تعالى منامًا - ورؤيا الأنبياء وحيٌ - أن اذبح إسماعيل قربانًا لنا. واستشار إبراهيمُ إسماعيلَ في ذلك قائلاً: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] فأجاب إسماعيل قائلاً: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأراد إبراهيم تنفيذ أمر ربه، فخرج بإسماعيل ولده إلى منى، ليذبحه قربانًا لربه حيث أمره، ولمَّا تلَّه للجبين والمُدْيَةُ بيده - وقبل الإجهاز عليه ناداه ربّه: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ

---

(١) جرهم: قبيلة يمانية قحطانية وقحطان من ذرية سام بن نوح - عليه السلام -.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٤﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، وفداه بذبح عظيم، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش، وفاز بالرضا الولدُ والوالدُ.

عبرة:

إن في صبر هاجر على ذبح ولدها - وصبر إسماعيل على ذبح نفسه - لآيةً دالة على طيب الأم وولدها، فلذا اختيرا لأن يكونا جدَّينْ لسيد المرسلين الحبيب محمد ﷺ. إن طيبوبة الأصول تنتقل إلى الفروع، وقد تزهو الفروع على أصولها.

وجاء الخليل مرة أخرى يتعهد تركته[1] وكان إسماعيل - عليه السلام - قد كَبر وبلغ وتزوج امرأة جرهمية من الرفقة التي جاورتهم بمكة، ومن لحق بهم من قومهم. فدخل إبراهيمُ وسَلَّمَ على امرأة ابنه، وكانت هاجر قد توفيت، فقال: أين إسماعيل؟ قالت: ذهب يصيد، وسألها عن حالها مع زوجها، فلم تذكر خيراً، فقال: إذا جاء زوجك، فأقرئيه السلام، وقولي له يغيّرْ عتبة بابه. وجاء إسماعيل من الصيد، وأخبرته بالخبر، فقال: ذاك أبي وقد أمرني بطلاقك، فالتحقي بأهلك.

مضى زمن - يطول أو يقصر - وبَدا[2] لإبراهيم أن يتعهد تركته، فجاء مكة ودخل حجْرَ إسماعيل فسلَّم وقال: أين إسماعيل؟ وسألها عن حالهم، فذكرت خيراً، فقال لها: إذا جاء زوجك، فأقرئيه السلام، وقولي له: ثَبتْ عَتَبةَ[3] بابِك.

وعاد إبراهيم إلى الشام، ومضت الأيام - وقد تطول أو تقصر - وبدا لإبراهيم أن يطلع على تركته، فجاء مكة فوافق إسماعيل من وراء زمزم - يُصلح نبلاً له تحت دوحة عظيمة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنعُ الوالدُ بالولد، والولدُ بالوالد. فقال إبراهيم: يا إسماعيل، إن الله تعالى أمرني بأمر. قال إسماعيل فاصنع ما أمرك ربك، قال إبراهيم: وتُعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتًا، وأشار إلى أكَمَة مرتفعة على ما حولها.

نتائج وعبر:

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة وعِبَرها ما يلي:

(١) التركة: ما تركه الإنسان وَخَلَّفه وراءه، ومن هذا تركة الميت.

(٢) بدا: أي ظهر له. (٣) كناية عن امرأته.

١ - تعهدُ الوالدِ أهل ولده بزيارتهم، والتعرُّفُ على أحوالهم من الوقت إلى الوقت.

٢ - قوة الفراسة والعمل بها، فإن إبراهيم - عليه السلام - تفرس في امرأة ابنه أنها غير صالحة له؛ لِمَا سمعه منها من شكاة، وإن إسماعيل عمل برأي والده وطلّق امرأته.

٣ - مشروعية استعمال الكنايات في المخاطبات، فقد كنّى إبراهيم عن المرأة بعتبة الدار.

٤ - مشروعية معانقة الولد للوالد وعكسها، ويُقاس عليهما غيرهما.

٥ - مشروعية استشارة الوالد ولَدَهُ، وطلبُ العون منه على أمره.

٦ - قدم البيت العتيق، وأنه أول بيت وضع للناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

بناء إبراهيم - عليه السلام - للبيت العتيق

ولمَّا وافق إسماعيل على إعانة والده على بناء البيت، شرع إبراهيم في البناء، وقد هداه ربّه تعالى إلى مكانه الذي كان به قبل رفعه(١) عام الطوفان، أو هدمه بفعل السيول الجارفة، وعدم وجود من يقوم ببنائه، فأخذ إبراهيم يبني، وإسماعيلُ يناوله الحجارة، وهما يقولان ما أخبر تعالى به عنهما في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

ولما ارتفع البناء جاء إسماعيل بحجر كبير مرتفع، فصار إبراهيم يَعلُو فوقه، ويواصل رفع البناء حتى فرغ، وبقي الحجر تحت جدار البيت، وقد ارتسمت عليه قَدَمَا إبراهيم - وهو صُلْبٌ ليس برطب - لتكون آية للعالمين.

ولما جاء الإسلام - ومرحبًا به - شرع الله تعالى الصلاة خلفه؛ إذ قال تعالى من سورة البقرة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تبارك وتعالى أن يؤذن في الناس بالحج، كما قال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

فطلع إبراهيم - عليه السلام - على جبل أبي قُبَيْس - وهو من أقرب الجبال إليه -

(١) ذكر أهل العلم قولين في البيت، منهم من قال: إن الله تعالى رفعه قبل الطوفان. ومنهم من قال: لم يرفعه وإنما انهدم بمفعول الطوفان كغيره من سائر المباني، والله أعلم بأي القولين أصح.

ونادى باسم الله تعالى قائلاً: أيها الناسُ، إن ربَّكم بنى لكم بيتًا فَحُجُّوهُ، والتفت بندائه يمينًا وشمالاً - كما يلتفت المؤذن اليوم في أذانه للصلاة - فأسمع الله تعالى نداءَه، كلَّ نسمة خلقها الله تعالى، فمن لَبَّتْ حَجَّتْ، ومن لم تُلبِّ لم تَحُجَّ أبدًا، ومعنى لَبت: قالت: لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ أي أجبتُ طلبك مرّة بعد مرة.

نتائج هذه المقطوعة من الحديث:

لهذه المقطوعة من سيرة الحبيب العطرة نتائجُ نُجْمِلها فيما يلي:

١ - تقرير بناء إبراهيم للبيت العتيق، شَرَّفه الله وكَرَّمَهُ.

٢ - بيان تعاون إبراهيم مع ولده إسماعيل على بناء البيت.

٣ - بناء البيت كان على أسس وقواعد قديمة كان عليها قبل حادثة الطوفان. وفي هذا ترجيحٌ للقول بأن البيت كان من عهد آدم - عليه السلام -.

٤ - ارتسام قَدَمَيْ إبراهيم على صخرة المقام آيةٌ خالدة من آيات الله تعالى التي كان يعطيها الأنبياء عليهم السلام.

٥ - تقريرُ القول بأن الأرواح مخلوقة قبل خلق أجسامها، وأن المَلَك الموكَّل بالأرحام ينفخها في المضغة بإذن الله تعالى فتسري فيها، فتحيا.

بداية أمر الحبيب

محمد ﷺ

إنه أثناء قيام إبراهيم ووَلَدِه إسماعيل ببناء البيت العتيق، كانا - عليهما السلام - يتقاولان ما أخبر به تعالى عنهما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] إذ الضمير في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾ عائدٌ على ذريّة إسماعيل وإبراهيم - عليهما السلام -. فكان هذا مبدأً أمر الحبيب محمد ﷺ.

وقد قَرَّرَ هذه الحقيقة بنفسه ﷺ: إذ سُئِلَ عن مبدأ أمره، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم[(١)] وبشارة أخي عيسى» - عليهما السلام -.

---

(١) صح هذا الخبر بروايات سليمة صحيحة.

إسماعيل وذريته

لقد عاش إسماعيل بجوار البيت العتيق، وفي مكة أصهارُه من قبيلة جرهم اليمانيّة القحطانية، وقد نُبِّئَ فيهم، وأُرسل إليهم وإلى كافة من بالحجاز من العماليق. وأنجب إسماعيل أولادًا بلغوا اثنى عشر ولدًا، منهم نابت - وهم أكبرهم وهو حلقة السلسلة الذهبية المحمدية - فنابت من أولاد إسماعيل الاثنى عشر، هو الذي اختِيرَ لأنْ يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. واختفت حلقات السلسة الذهبيّة فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء - ما بين نابت بن إسماعيل وعدنان - يقدر بستّة آباء، والجميعُ عاشوا بالحرم المكيّ ولم يخرجوا منه ومع هذا لم تضبط أسماءُ هؤلاء الآباء الستة. وصاحبُ النسب الزكيّ الشريف حبيب الأحباء وسيدُ الأنبياء محمد ﷺ انتهى بذكر نَسَبه جازمًا بما ذكر إلى عدنان، ثم سكت وقال: كذب[1] النسَّابون. قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [الفرقان: ٣٨]. فلهذا كان الانتهاء إلى حيث انتهى النبي ﷺ بنسبه أولى.

نتائج هذه المقطوعة:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج، هي كالآتي:

١ - النسب الشريف بين إسماعيل وعدنان مجهول، ولا يصح الجزم بما ذكر النسابون حيث بلغوا بالنسب الشريف إلى آدم - عليه السلام -.

٢ صحة النسب الزكي من عدنان إلى عبدالله بن عبدالمطلب والد النبي ﷺ بالصحة لا يخالطها شك أبدًا.

٣ - توهينُ أقوال النسابين، وعدمُ الجزم بما يقولون.

سلسلة الطهر

النسب الشريف

بين يدي الحديث عن سلسلة الطهر الذهبية أُقدم كلمةً عن العرب موجزة؛ لِمَا لهم من شرف الأصل، وطيب المحتد، فأقول: إن العرب بأقسامهم الثلاثة: العرب البائدة، والعاربة، والمستعربة يعودون إلى أصل واحد هو سام بن نوح - عليه السلام -. أمَّا الذي

(١) رمز إليه السيوطي في جامعه بالصحة.

ينسب إليه العرب ويعرفون به، فهو يعرب بن يشجب بن قحطان بن ع ر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الرسول - عليه السلام -.

العرب البائدة:

إن العرب الذين بادوا - أي هلكوا - هم طَسْم وجديس، وعاد وثمود[1]، هكذا يقول النسابون والمؤرخون. فأما طسم وجديس فقد اقتتلوا، أي قاتل بعضهم بعضًا حتى هلكوا جميعًا، وأما عاد وثمود فقد أصروا على الشرك والتكذيب لرسوليهم - هود وصالح - عليهما السلام - حتى أهلكهم الله تعالى، وقد جاءت أخبارهم في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ[2] (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١ - ٦].

العرب العاربة:

إن العرب العاربة هم الأصلاء في نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، ولذا يقال لهم: القحطانيّون، وبنو عمهم هم العمالقة[3] الذين يسكنون الحجاز والشام ودخلوا مصر وتفرقوا في البلاد المجاورة للجزيرة العربية. وبنو أميم أيضًا وقد لازموا الجزيرة ولم يخرجوا منها. أما القحطانيون - وهم أولاد يعرب بن يشجب بن قحطان - فقد لازموا الديار اليمانية زمنًا، ثم تفرقت قبائلهم[4] في الجزيرة والشام[5] ومن قبائلهم - الذين[6] سكنوا الحجاز - قبيلةُ جرهم التي سكنت مكة بإذن هاجر أم إسماعيل - عليه السلام -.

العرب المستعربة:

إن العرب المستعربة هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليه السلام - وقيل

---

(١) ثمود أخو جديس.

(٢) الطاغية: هي الصيحة التي أخذتهم. وقيل فيها: طاغية؛ لأنها تجاوزت الحد في صوتها.

(٣) العمالقة: هم أولاد عملاق، وبنو أميم هم أولاد أميم، وعملاق وأميم هما أولاد لاوذ ابن سام بن نوح.

(٤) من أشهر قبائلهم حميَّر وكهلان.

(٥) ممن سكن الشام: لَخم وجذام وأولاد جفنة ملوك الشام.

(٦) وكذا طيئ إذ سكنوا شمال الحجاز، وسكن الأوس والخزرج المدينة النبوية حيث نزلها جدهم ثعلبة بن عمرو الأزدي مهاجراً من اليمن بعد خراب سد مأرب بمفعول سيل العرم الذي ذكره الله تعالى في سورة «سبأ».

لهم: العرب المستعربة؛ لأن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن من أولاد يعرب، وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ولذا كانت لغته غير العربية - وهي السريانية لغة الكلْدَانيين من سكان بابل العراق، كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام أيضًا عند هجرته إلى الشام، ولم يتكلم بالعربية.

وأما إسماعيل - عليه السلام - فإنه - بحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم اليمانية القحطانية التي سكنت مكة بإذن والدته هاجر كما تقدم - تعلم العربية وتَنفسَّ أهلها فيها، أي تفوق عليهم فيها بيانًا وأدبًا وبلاغة، كما تعلمها أولاده منه ومن أمهم السيدة بنت مضاض الجرهمية ومن أخوالهم المجاورين لهم بمكة أيضًا؛ فلهذا قيل لهم: العرب المستعربة؛ نظرًا إلى أن جدهم غير عربي وهو إبراهيم، وأن ولده إسماعيل استعرب هو وبنوه، حيث تعلموا لغة العرب وتكلموا بها وفازوا فيها، ومن هنا قيل في القبائل العدنانية[1] عامةً: العرب المستعربة.

عودة سريعة إلى النسب الشريف

سبق أن ذكرنا أن النسب الشريف ما بين إسماعيل وعدنان فيه غموض وخفاء، حتى إن صاحب النسب الشريف ﷺ قال: «لا ترفعوني فوق عدنان». ولذا، فكلُّ ما يحسن أن يقال: هو أن أولاد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وهم اثنا عشر ولدًا عاشوا مع أخوالهم من جرهم، ونبيّهم ورسول الله إليهم أجمعين هو إسماعيل - عليه السلام -. وكان من بين أولئك الإخوة نابت وقيذار، والإجماع على أن عدنان هو ابن أحدهما لا محالة. ثم إن عدنان أنجب من البنين عكًّا ومَعَدًّا، أما عك فقد نزح إلى اليمن وعاش بها مع أصهاره الأشعريين. وأما معدٌّ فقد بقي بمكة وأنجب من البنين نزارًا، وقضاعة، وقُنُصًا وإيادًا، أمّا قُنُص فقد هلك بنوه إلا قليلاً منهم، وكان منهم النعمان بن المنذر. وأما إياد فقد أنجب قبيلة - والنسبةُ إليها إيادي. ومنهم قس بن ساعدة الإيادي. وأما قضاعة، فقد نزحت إلى حمير باليمن وأقامت بها. وأما نزار فقد عاش بالحرم كأخيه إياد، وأنجب مضرًا وربيعة وأنمارًا. وأنجب مضرُ إلياسَ وعيلان، وأنجب إلياسُ مدْركة[2] وطابخة

---

(١) نسبة إلى عدنان أحد أبناء ذرية إسماعيل - عليه السلام -.

(٢) اسم مدركة: عامر، واسم طابخة: عمرو واسم قمعة: عمير، والأسماء المذكورة ألقاب لهم لقبوا بها لحادثة معروفة.

وقمعـة، وأنجب مدركةُ خزيمـةَ، وهذيلاً، وأنجب خزيمةُ كنانةَ وأسـداً، وأسَدَةَ والهَوْن. وأنجب كنانة ملكان والنضـرْ ومالكًا وعبدمناة. وأنجب الـنضرُ - وهو أبوقيس حيث كـافة قبائلهـا تعود إليه - أنجب مالكًا ومخلدًا. وأنجب مالك بن الـنضر فِهْرًا[1]. وأنجب فهر غالبًا ومحاربًا والحارث وأسدًا. وأنجب غالب بن فهر لؤيًّا وتيْمًا وقيسًا، وأنجب لؤي بن غالب كعبًا وعامراً وسامة وعوفًا. وأنجب كعب بن لؤي مُرة وعديًّا وهَصَيْصًا. وأنجب مرةُ ابن كعب كلابًا وتيمًا ويَقَظة. وأنجب كلاب بن مرة قُصيًّا وزُهرة، وأنجب قصيّ بن كلاب عبـدمناف، وعـبدالدار، وعـبدالعُـزى وعبـدقصي. وأنجب عـبدمناف بن قـصي هاشـمًا وعبدشمس والمطلب ونوْفل. وأنجب هاشم بن عبـدمناف عبدالمطلب، وأسداً وأبا صَيْفي ونَضلة. وأنجب عبدُالمطلب العباسَ وحمـزة وعبدالله وأبا طالب والزبير والحارث وحَجْلاً والمقومِ وضراراً وأبا لهب.



---

(٢) اسمه قريش أو لقب له وهو أب قريش الأول.



تنبيه: المقطوعُ بصحته من الشجرة المباركة، هو ما بين صاحب النسب الشريف محمد ﷺ، وبين عدنان. وما بين عدنان إلى إسماعيل وإبراهيم مقطوعٌ بصحته لكن لا على التعيين. وما بين إبراهيم إلى نوح أقل صحة، وهكذا ما بين نوح وإدريس، وما بين إدريس وآدم - عليه السلام -.

قبل الفجر المحمدي

حالة العرب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والدينية

لقد اجتمعت كلمة المؤرخين عامةً على أن العالم الإنساني قاطبة - والعالم العربي بصورة خاصة - كان يعيش في دياجير ظلام الظلم والجهل، وظلمات الطغيان والاستبداد، تتنازعه الامبراطوريتان الفارسية شرقًا، والرومانية غربًا. ويؤكد هذه الحقيقة قولُ الحبيب محمد ﷺ : «إن الله نظر إلى سكان العالم فمقتهم[1] عربَهم وعجمهم جميعًا إلا بقايا من أهل الكتاب»[2]. فالأحوال متردية ساقطة هابطة في العالم الإنساني بأسره، لاسيما في العالم العربي حيث الفساد في كل جوانب الحياة السياسية منها كالاقتصادية، والاجتماعية كالدينية، الكل سواء.

وهذه نظرة خاطفة نلقيها على ديار العرب، وكلمة عابرة نقولها على تلك الأوضاع المتدهورة المتهالكة، ليُعرف مدى الحاجة إلى فجر النبوة المحمدية لتبديد تلك الظلم المتراكمة، وإبعاد تلك الويلات الملازمة للحياة الخاصة والعامة في ربوع ديار العروبة قاطبة؛ إذ لا فرق بين يمنها وشامها، ولا بين حجازها ونجدها. ولتَعْظُمَ عند ذي الوعْي العاقل مِنَّة أنوار الفجر المحمدي التي ستغمر الجزيرة - والكون من ورائها - هداية ونوراً.

ولنبدأ بالحالة السياسية في بلاد العرب.

الحالة السياسية في بلاد العرب

إن مُجمل القول في الحالة السياسية في بلاد العرب، هو أن بلاد العرب - وهي شبه جزيرة لوقوعها بين ثلاثة أبحر؛ الأحمر غربًا، والهندي جنوبًا، والخليج شرقًا - من المناطق السياسية ذات الأثر على الحياة الاجتماعية. ففي اليمن حيث ملوك حمير من التبابعة وغيرهم. والحيرة شرقًا إلى العراق حيث المناذرة، والشمال حيث الغساسنة. أما الوسط وهو نجد والحجاز وتهامة فإنه دائرة المجد، وموضع طلوع الفجر، فأرض حماها مولاها من سطوة الجبابرة، وسياسة المتاجرة، فلم تصل إليها يدُ الأحباش الأوباش، ولا

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة ضمن خطبة له ﷺ.

(٢) يعني من اليهود والنصارى، ومعنى مقتهم: اشتد بغضه لهم؛ إذ المقتُ شدةُ البغض.

يد الفوارس الأنجاس، ولا يد الروم ولا الرومان الأنكاس، لأنها مشرق الأنوار، ومكمن الأسرار، وعما قريب يطلع نجمها ويعلو كعبها، وتسود الدنيا وما فيها.

فالبلاد اليمانية تداولتها ملوك حمير من التبابعة وغيرهم، كما حكمها في فترات ملوك الأحباش مباشرة أحيانًا، وبواسطة أبنائها أحيانًا أخرى، وقد عظم ملكُ اليمانيين أحيانًا حتى غزوا الشرق، ووصلت طلائع جنودهم إلى بلاد فارس متجاوزةً أرضَ العراق إلى أعماق الشرق. وآخر ملوكهم ذو نواس - وهو صاحب الأخدود وكان يهودي العقيدة - فكان آخر ملوك حمير ببلاد اليمن. كما أن آخر ملوك التبابعة باليمن كان أبا كرب تبّان بن أسعد الذي غزا المدينة ودخل مكة، وكسا الكعبة المشرفة وعاد إلى اليمن، وهلك بها.

وأما المناذرة بالحيرة فإن ملوكهم - وآخرهم النعمان بن المنذر - كانوا تابعين في الغالب لملوك إيران. وكذلك الحال بالنسبة إلى الغساسنة بأرض الشام، فإنهم تابعون في الغالب لملوك الروم. مع العلم بأن ملوك الحيرة كملوك الشام، أصلُهم يمنيّون نزحوا من اليمن بعد خراب سد مأرب، بواسطة سيل العرم، والأوس والخزرج بالمدينة النبوية، وطيئ بجبل طيّئ شمالاً، والكلُّ من مهاجري اليمن بعد خراب سدهم الذي كان مصدر غناهم وثروتهم، إذْ أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم؛ عقوبةً لهم بعد ما ظلموا. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[1] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٥، ١٦].

وأما العدنانيون - وهم سكان مكة وما حولها من ديار تهامة والحجاز فمجملُ القول في الحال السياسية عندهم: أن قبيلة جرهم - التي استوطنت مكة مع هاجر أم إسماعيل وعاشت زمنًا في ظل حكم إسماعيل وأحفاده إلى أن استولت على الحكم بمكة وانتزعته من يد أبناء إسماعيل - عليه السلام - وبقي الحكم في جرهم إلى أن جارت وظلمت، واستحلت المحرّم في مكة فسلط الله تعالى عليها - كما هي سنته تعالى في الظالمين المعرضين عن طاعة الله وطاعة رسوله - بني بكر من كنانة، وغبشان خزاعة[2] فأجلوهم

---

(١) اسم أبي قبيلة سبأ، وكان يسمى عبد شمس، فلما سُبِيَ - وكان أول من سبي - قالوا فيه: سبأ.

(٢) خزاعة قبيلة يمانية قحطانية وسميت خزاعة؛ لأنها تَخَزَّعَتْ أي تأخرت بمكة وأقامت بها، وذلك عند هجرة أهل اليمن بعد خراب سد مأرب.

عن مكة، وهم يبكون، فالتحقوا باليمن - ديارهم الأولى - والأبياتُ التالية ترسم صورة صادقة لجرهم بمكة وحزنها عند جلائها عنها:

وقائلةٍ والدمعُ سَكْبٌ مبادرٌ
وقد شَرِقتْ بالدمع منها المحاجرُ
كَأنْ لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامرُ
فقلتُ لها والقلبُ مني كأنما
يُلجلجهُ بين الجناحَيْن طائرُ
بلَى، نحن كُنَّا أهلها، فأزالنا
صروفُ الليالي والجدودُ العواثِرُ
وكنا ولاة البيت من بعد نابت
نطوف بذاك البيت، والخيرُ ظاهرُ
ونحن ولِينا البيتَ من بعد نابت
بعزٍّ فما يحظى لدينا المكاثِرُ
ملكنا فعزّزنا فأعظم بملكنا
فليسَ لَحيٍّ غيرِنا ثَمَّ فاخر

إلى أن قال:

وصرنا أحاديثًا، وكنا بغبطة
بذلك عَضَّتنا السنون الغوابرُ
فسحّت دموع العين تبكي لبَلْدَة
بها حَرَمٌ أمْنٌ وفيها المشاعرُ
وتبكي لبيت ليس يُؤذَى حمامه
يظل به أمنًا وفيه العصافرُ
وفيه وحوشٌ - لا تُرامُ أنيسةٌ
إذا خرجت منه فليست تُغادَرُ

ولاية قصيّ بن كلاب:

وبعد مرور زمن طويل ومكة يحكمها بنو بكر وغُبشان[1] خزاعة، أي من يوم انتزعوا الحكم من يد جرهم، تغلبت غبشان خزاعة على بني بكر واستقلوا بالولاية وتداولوها زمنًا، وكان آخر من وليها منهم حُليل بن حُبشيّة ابن سلول الخزاعي، فخطب ابنتَه حُبَّى قصيٌّ بن كلاب، فزوّجه إياها فولدت له عبدالدار، وعبدمناف وعبدالعزّى، وعبدًا وكبروا وكثر مالهم وعظم شرفهم، ومات حُلَيْلُ، فرأى قصيّ أنه وبنيه أولى بولاية الكعبة، فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة طالبًا نصرتهم فأعانوه على إخراج خزاعة وبني بكر فأخرجوهم، واستتب الأمر لقصي وبنيه بعد قتال شديد بينهم وبين خزاعة وبني بكر انتهى بصلح وتحكيم عمرو بن عوف الكناني، كانت نهايته ولاية قصي على مكة والكعبة، فجمع قصيّ قومه من قريش من منازلهم إلى مكة وملكوه فكان أول أمير من قريش في مكة المكرمة، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة، والندوة واللواء، وبهذا حاز شرفَ مكة كلّه.

وَجَمَعَ قصيّ قبائلَ قريش في مكة والحرم، وبذلك سُمّيَ مُجمعًا، وفيه يقول الشاعر:

قصيّ - لعمري - كان يُدعى مجمعًا
به جمع الله القبائل من فهر

حقائق وعبر:

من استعراضنا للحالة السياسية في بلاد العرب، نستخلص الحقائق التالية:

١ - إن البلاد اليمانية اعتورتها حكومات، متعددة أعظمُها حكومات التبابعة من قبيلة حِمْير.

٢ - إن كلا من الأحباش والفوارس، قد استعمروا اليمن بواسطة اليمنيين الذين يستنجدونهم في ظروف معينة.

٣ - شرق الجزيرة من الحيرة إلى العراق، لم يكن في الحقيقة إلا ولايات تابعة للحكم الفارسي طيلة الدهر حتى جاء الإسلام، وأن ملوك المناذرة لم يكونوا مستقلين في الغالب، وإنما هم تابعون سياسيًا للحكم الفارسي المجوسي.

---

(١) أبو غبشان يُقال له سليم وهو من خزاعة.

٤ - وسط الجزيرة - حيث الحرم وما جاوره من ديار العرب العدنانيين - كان مستقلاً، لا يحكمه الروم ولا فارس ولا الأحباش؛ كرامة الله تعالى لحرمه وسكانه وجيرانه، وهي عبرة لمن اعتبر. وحتى عهد الاستعمار الغربي الذي حكم العالم الإسلامي، فإنه لم يحكم هذه الديار الطاهرة؛ كرامة الله لحرمه وحرم حبيبه محمد ﷺ وسكانهما وجيرانهما.

وفي هذه المقطوعة من العبر ما يلي:

١ - إن الظلم لا يدوم(١) وإن طال زمانه، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

٢ - حماية الله لبلده وحرمه بإهلاك وإبعاد كلِّ من يظلم فيهما، ويستبيح المحرم فيهما.

٣ - من فضائل قريش الرفادةُ والسِّقاية(٢)؛ إذ الرفادةُ هي جمع المال من أفراد القبائل القرشية سنويا وإنفاقُه في إطعام الحجاجِ كلَّ عام. والسِّقايةُ كذلك، وهي إحضارُ الماء محلى أحيانًا بالزبيب، وسقيُ الحجاج أيام حجّتهم من كل عام.

الحالة الاقتصادية في بلاد العرب

إن بلاد العرب - بأقسامها الآنفة الذكر - لم يكن فيها اقتصاد ذو قيمة تُذكرُ، بَوَادٍ صحراويَّة، إلا ما كان من بلاد اليمن، فقد كانت بلادًا خصبة في الجملة ولاسيما أيام سد مأرب حيث ازدهرت الزراعة والفلاحة عامة بصورة تدعو إلى العجب، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ [سبأ: ١٥] فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله، فسلبهم الله تعالى ما أعطاهم، فخرب سدهم، وأجدبت أرضهم؛ ورحل عنها أكثرهم، فالتحق بعضُهم بالعراق، وبعضُهم بيثرب - ومنهم الأوس والخزرج - وآخرون بالشمال والشام. ومع هذا، فقد وجدت في اليمن صناعات فاخرة في وقتها كصناعة الكتان، والسلاح: من سيوفٍ، وحراب، ودروع، وغيرها.

هذا بالنسبة إلى أهل اليمن، أما القبائل العدنانية، فكان جلُّها يعيش في الصحراء، ينتجع الكلأ والعشب لماشيته، ويعيش على ألبانها ولحومها إلا ما كان من قبائل قريش

---

(١) إشارة إلى ظلم جرهم وجلائها، وظلم خزاعة وغبشانها وجلائها.

(٢) كانت قبائل قصي تتقاسم هذه المكارم لكل قبيلة لهم منها، وقد كانت السقاية لآل العباس، والحجابة لبني عبدالدار.

القاطنين بالحرم، فإنهم يعيشون على رحلتي الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام، وقد امتن الله تعالى ذلك عليهم في قوله: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ١، ٢] فكانوا في رغد من العيش، على خلاف غيرهم، فإنهم كانوا على شظف العيش وضيقه، وما كان لقريش من سعة الرزق، إنما كان لها من أجل حماها للحرم وتقديسها له، كما هو كرامة الله لأرحام وأصلاب ينتقل فيها رسولُ الله ﷺ.

نتائج هذه المقطوعة:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:

١ - بيان أن الاقتصاد في بلاد العرب - بصورة عامة - لا يُعتبر شيئًا يُذكر إلى جانب غيره في البلاد الأخرى.

٢ - بيان أن شمال بلاد اليمن كان ذا اقتصاد لا بأس به؛ لوجود خصب وصناعة.

٣ - خرابُ سد مأرب وهجرةُ أهله من بلادهم كان نقمةً إلهية، سببُها الكفر والإعراض عن طاعة الله ورسوله.

٤ - بيان إكرام الله تعالى لقريش بتحقيق أهم هدف للإنسان في هذه الحياة، وهو الأمن من الخوف، والإطعام من الجوع.

٥ - وجوب شكر الله تعالى على نعمه، إذ طَلَبَ ذلك من قريش بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] والعبادة هي الشكر، وأعظمها، إقامة الصلاة فمن لم يُصَلِّ ما شكر.

الحالة الاجتماعية في بلاد العرب

إن الفترة التي عاشتها الأمة العربية بدون وحي إلهيّ - ولا من يحمل هدايته - كانت طويلة جدًا، وهي تلك التي كانت بين إسماعيل والنبيّ الخاتم محمد ﷺ. فلذا نشأت في المجتمع العربي عادات سيئة للغاية، وأخرى حسنة للغاية أيضًا إلا أنها قد أخفتها العادات السيئة، وإني ذاكرٌ من كل منهما طرفًا، وبذلك تعرف بوضوح الحالة الاجتماعية للأمة العربية في الجاهلية قبل الإسلام، والقصدُ من ذكر ذلك أن تعرف السيئة لتُجتنبَ، والحسنة لتُرتكب، ويحمد الله ويشكر على ما منَّ به على أمة العرب من نعمة الإسلام. وبهذا نكون قد توخينا ما يتوخاه العلماءُ من كتابة التاريخ وقراءته.

العادات السيئة:

من جملة العادات السيئة التي هبطت بالمجتمع العربي قبل الإسلام، هي:

١ - القمار والمعروف بالميسر، وهي عادة سكان المدن في الجزيرة، كمكة والطائف وصنعاء وهجر ويثرب ودومة الجندل وغيرها. وقد حرمه الإسلام بآية سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٢ - شرب الخمر والاجتماع عليها والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها، وكان هذا عادة أهل المدن من أغنياء، وكبراء وأدباء شعراء، ولمَّا كانت هذه العادة متأصلةً فيهم متمكنةً من نفوسهم، حرمها الله تعالى عليهم بالتدريج شيئًا فشيئًا وذلك من رحمة الله تعالى بعباده فله الحمد وله المنّة.

٣ - نكاح الاستبضاع، وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم، فتطهر، فَيَطْلُب لها أشراف الرجال وخيارهم نسبًا وأدبًا؛ ليطئوها من أجل تُنجِب ولدًا يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك الواطئون لها.

٤ - وأدُ البنات، وهي أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حيَّة في التراب خوفَ العار. وجاء في القرآن الكريم التنديدُ بهذا العمل، وتقبيحُه، وذلك بذكر توبيخ فاعله يوم القيامة. قال تعالى من سورة التكوير: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

٥ - قتل الأولاد مطلقًا ذكورًا أو إناثًا، وذلك عند وجود فقر وحالة مجاعة، أو لمجرد توقع فقر شديد عندما تلوح في الأفق آثاره، لوجود محل وقحط بانقطاع المطر أو قلته. فحرم الإسلام هذه العادة السيئة القبيحة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] في آية الأنعام، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] في آية الإسراء. والإملاق شدة الفقر وعظَمه.

٦ - تبرّج النساء بخروج المرأة كَاشفةً عن محاسنها، مارةً بالرجال الأجانب، متغنجة[1] في مشيتها، متكسرة، كأنها تعرض نفسها وتُغري بها غيرها.

٧ - اتخاذُ الحرائر من النساء الأخدانَ من الرجال، وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحبِّ

(١) تغنجت المرأة: تدللت على زوجها بملاحة، كأنها تخالفه وليس بها خلاف.

معهم في السرّ، وهن أجانبُ عنهنّ فحرم الإسلام هذه العادة بقوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] من سورة النساء، وحرم على الرجال ذلك بقوله من سورة المائدة: ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

٨ - إعلان الإماء عن البَغْي بهن، وذلك بأن تجعل إحداهن رايةً حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بَغِيٌّ ويغشاها الرجالُ، وتأخذ على ذلك أجراً، أي مالاً مقابل الاستبضاع.

٩ - العصبيّة القبلية، هي مبدأ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فجاء الإسلام فأمر بنصرة الأخ المسلم قريبًا كان أو بعيدًا، إذْ الأخوةُ المعتبرة هنا هي أخوة الإسلام. ونصرتُه - إذا كان مظلومًا - بدفع الظلم عنه، ونصرتُه - إذا كان ظالمًا - بمنعه من الظلم وحجزه عنه، قال رسول الله ﷺ في رواية البخاري: **«انصُر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»**، فقيل: يا رسول الله! أنصره إذا كان مظلومًا، فكيف أنصره إذا كان ظالمًا؟ قال: **«تحجزه عن الظلم»**.

١٠ - شن الغارات والحروب على بعضهم بعضًا؛ للسلب والنهب. فالقبيلة القوية تُغير على الضعيفة لتسلبها مالَها؛ إذ لم يكن لهم حكم ولا شرع يرجعون إليه في أغلب الأوقات وفي أكثر البلاد.

ومن أشهر حروبهم حربُ داحس والغبراء التي وقعت بين عَبْس من جهة وذبيان وفزارة من جهة أخرى. وحرب البَسوس حتى قيل: أشأم من حرب البسوس، التي دامت كذا سنة وكانت بين بكر وتغلب. وحرب بُعاث التي وقعت بين الأوس والخزرج بالمدينة النبويّة قبيل الإسلام وحرب الفجَار التي دارت بين قيس عيلان من جهة وبين كنانة وقريش من جهة مقابلة، وسُميت حربَ الفجار؛ لأنها وقعت في الأشهر الحرم.

١١ - عدم الامتهان تكبرًا وأنفةً؛ إذ كانوا لا يمتهنون الحدادة والحياكة والحجامة ولا الفلاحة، وإنما يسندون هذه المهن لإمائهم وعبيدهم. أما الأحرارُ، فحسْبُهم التجارةُ، وركوبُ الخيل، وشنُّ الغارات، وإنشادُ الشعر، والمفاخرات بالأحساب والأنساب.

هذه معظم العادات السيئة التي كانت في المجتمع العربي قبل الإسلام، وهي - كما مرّت تُحيل المجتمعَ إلى مجتمع ساقط هابط لا سعادة فيه ولا هناء، إلا أنه - إزاء ذلك - كانت فيه كمالات نوردها تحت عنوان:

العادات الحسنة: هي:

١ - الصّدق، والمراد به صدق الحديث، وهو خلق كريم عُرِف به العرب في الجاهلية قبل الإسلام، فزاده الإسلامُ تقريراً وتمتيناً.

٢ - قريَ الضيف، وهو إطعامه، وهو من الكرم الذي يُحْمد صاحبه عليه، ويُحمَد له ويثنى به عليه فجاء الإسلام بتقريره وتأكيده؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» في رواية البخاري.

٣ - الوفاء بالعهود، وعدم نكثها مهما كلفت من ثمن، وهو خلقٌ سامٍ شريفٌ، وجاء الإسلام بتقريره، وتأكيده قال تعالى: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ [البقرة: ١٧٧] في بيان صفات المؤمنين في سورة البقرة.

٤ - احترام الجوار، وتقرير الحماية لمن طلبها، وعدم خفره مهما كانت الأحوال، وفي الحديث: «**أجَرْنا مَنْ أجَرْتِ يا أمَّ هانئ**» وأجار المسلمون أبا العاص بن الربيع - وهو مشرك - حتى دخل المدينة واستردَّ ودائعه وأمواله وعاد إلى مكة ثم أسلم بعد.

٥ - الصبر والتحمل، حتى قالوا: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» وجاء الإسلام فزاد هذا الخلق قوة ومتانة، وفي القرآن: ﴿**اصْبِرُوا وَصَابِرُوا**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وفي الحديث: «**مَنْ صَبَرَ ظَفَر**».

٦ - الشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة، وهي خلال امتاز بها العربُ نساءً ورجالاً، وفي أشعارهم وأقاصيصهم شواهدُ ذلك.

٧ - احترامُ الحرَم والأشهر الحُرُم، بعدم القتال فيها إلا من ضرورة، وتأمين الوافدين إلى الحرم، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر.

٨ - تحريمهم نكاحَ الأمهات والبنات.

٩ - اغتسالهم من الجنابة.

١٠ - المداومة على المضمضة والاستنشاق.

١١ - السواك والاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط.

١٢ - الختان للأطفال، والخفاض للبنات.

١٣ - قَطْعُهم يدَ السارق اليمنى.

١٤ - الحج والعمرة.

فهذه جملة من العادات الحسنة الحميدة التي عُرف بها العرب في الجاهلية قبل الإسلام، وإنها - وإن لم تكن عامة في كل فرد - فإنها الطابع العام على غالبيتهم ولولا إرادة الاختصار، وثقة القارئ فيما أقدمه له، لذكرتُ شواهد ذلك من كلامهم ووقائعهم نظمًا ونثرًا، وحَسْبُنا من ذلك أن أبا سفيان بن حرب لمَّا حضر عند هرقل ملك الروم بالشام وسأله عن النبي ﷺ لم يكتمه شيئًا مما سأله عنه، مع العلم بأنه ما زال مشركًا وفي حرب مع الإسلام والمسلمين.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا لنا نبرزها للقارئ إزاء الأرقامَ الآتية:

١ - إن الصفات الذميمة - كالحميدة - لا تخلص كاملة لأيّة أمة من الأمم مهما كان رُقيها أو انحطاطها، وإنما العبرة بالحال الغالبة فقط، فمتى غلبت الصفات الحميدة كان المجتمع راقيًا صالحًا، ومتى غلبت الصفات الذميمة كان المجتمع هابطًا فاسدًا.

٢ - لما جاء الإسلام - وهو دين الله عز وجل الذي لا يقبل دينًا سواه - أقر العادات الحسنة ورغّب فيها وواعد عليها بحسن المثوبة حتى أصبحت دينًا يُتقرب بها إلى الله عز وجل.

وأبطل العادات السيئة الذميمة، ونفّر منها، وتوعّد عليها بالعذاب، ووضع لبعضها حدودًا رادعة، فاقتلع جذورها وطهر المجتمع العربيّ منها؛ إذ لا مقام لها بين أمة الإجابة والقيادة.

٣ - الخلال الحميدة - كالذميمة - صفاتٌ يُساعد على تأصّل الأولى في الإنسان وتثبيتها فيه الإيمانُ والعلمُ ومجاهدة النفس ومقاومة الشيطان والهوى. ويساعد على تأصّل الثانية وبقائها في الإنسان الكفرُ والجهلُ واتباع الشيطان والشهوات والهوى.

٤ ضعف الإيمان وقلةُ العلم في الأمة الإسلامية اليوم - وقبل اليوم - أصَّلَ فيها كثيرًا من عادات الجاهلية الأولى، وذلك كالتبرج، وارتكاب الفواحش وعدم احترام الحرم، وشرب المسكرات، ولعب الميسر، وإجهاض الحبالى التي كانت في الجاهلية وحرمها الإسلامُ. وسببُ عودتها ضعفُ الإيمان والجهل واتباع الأهواء والجريُ وراء الشهوات والعياذ بالله تعالى.

الحالة الدينيّة في بلاد العرب

إن مما لا شك فيه أن هاجر أم إسماعيل كانت مسلمة، وأن ولدها إسماعيل كان مسلمًا كأبيه إبراهيم وأمه هاجر، وأن الله تعالى نبّأه وأرسله رسولاً إلى أهل بيته من زوجَة وولد، وإلى أخواله وجيرانه من قبيلة جرهم اليمانيّة، وأن دين الله - وهو الإسلام - قَد عمَّهم وانتظم حياتهم زمنًا طويلاً لا يُعرف منتهاه.

وكما هي سنة الله في الناس، إذا انقطع الوحي عنهم، جهلوا وظلوا كالأرض إذا انقطع عنها الغيث - المطر - أمحلت وأجدبت، وتحولت خضرتها ونضارتها إلى قترة وظلام يجهل فيه الإنسان ذاته ويتنكر فيه لعقله.

وأول ما بدأ الشركُ في العرب المستعربة من ولد إسماعيل، أنهم كانوا إذا خرجوا من الحرم لطلب الرزق، أخذوا معهم حجارة من الحرم، فإذا نزلوا منزلاً وضعوها عندهم، وطافوا بها طَوَافَهُم بالبيت ودعوا الله عندها وإذا رحلُوا أخذوها معهم، وهكذا. وبموت من أحدث لهم هذا الحدث، وبمرور الزمان - نشأ جيلٌ جاهل ينظر إلى تلك الأوثان من الحجارة وأنها آلهة يتقرب بها إلى الله تعالى ربّ البيت والحرم.

فكان هذا مبدأ الوثنيّة في أولاد إسماعيل من العدنانيين.

أما الأصنام والتماثيل فإن أول من أتى بها من الشام إلى الديار الحجازية عمرو بن لُحيّ الخزاعيّ، إذ سافر مرة من مكة إلى الشام، فرأى أهل الشام يعبدون الأصنام. فسألهم قائلاً: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: نعبدها نستمطرها[١] فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنمًا فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنمًا يقال له: هُبل، وهو الذي نصبوه حول الكعبة وبقي حولها إلى يوم الفتح الإسلاميّ حيث حطم مع ثلثمائة وستين صنمًا. وأبعدت، فظهر البيت الحرام، وطهرت مكة والحرم منها، والحمد لله رب العالمين.

وكان عمرو بن لُحيّ محترمًا في مكة مقدّسًا عند أهلها، يشرع لهم فيقبلون شرعه، ويبتدع لهم فيحسنون بدعته، فكان أول من بدل دين إبراهيم وإسماعيل في الحجاز، ويشهد بهذا قولُ النبي ﷺ في حديثه الصحيح: «رأيت عَمْرَو بْنَ لحيّ يجر قصبه[٢] في

---

(١) نستمطرها: نطلب منها إنزال المطر.

(٢) القُصب: بوزن قفل، اسم للأمعاء كلها.

النار.. إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان، وبحّر البحيرة، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحَمَى الحامي ...».

وبمقتضى بدعة عمرو بن لُحيّ في جَلْب الأصنام إلى الحجاز من الشام انتشرت الأصنام في بلاد العرب، وهذا بيانُ أسمائها ومواقعها والقبائل التي كانت تعبدها، كما ذكر ذلك ابن إسحق، وغيره من المؤرخين:

١ - سُوَاع: بِرُهَاط بساحل ينبع، تعبده قبيلةُ هذيل المضرية.

٢ - وَدّ: بدومة الجندل شمال المدينة قريبًا من الشام، تعبده كلب القضاعية.

٣ - يَغُوث: بجُرَش يعبده أهل جرش، وهم بمخاليف اليمن جنوب مكة المكرمة.

٤ - يَعُوق: بأرض همدان من أرض اليمن، تعبده قبيلة خَيْوان، وهم بطن من همدان.

وفيه يقول قائلهم:

يريش[1] الله في الدنيـــــا ويَبـــــري
ولا يبـــــري يعـــــوقُ ولا يَريشُ

٥ - نَسْر: بأرض حِمْير من اليمن، وتعبده قبيلة ذو الكُلاَع من حمير.

٦ - عميانس[2]: بأرض خولان، تعبده قبيلة خولان اليمانية، وهم الذين قسموا له أنعامهم وحروشهم، ونزل فيهم قول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

٧ - سَعْد: بأرض مِلكان بن كنانة المضريّة وتعبده قبيلة مِلْكَان، وفيه يقول شاعرهم:

أتينا إلى سعـــد ليجـــمع شملَنا
فشـــتتنا سعـــدٌ فلا نحن من سعـــد
وهل سعـــد إلا صخـــرة بتنوفـــة[3]
من الأرض لا تدعـــو لغَيٍّ ولا رُشـــد؟!

وذلك أن هذا الشاعر أقبل بإبل مؤبَّلَة ليقفها على سعد «الصنم» رجاء بركته، فلما

---

(١) يُقال راش السهم وبراه. والمراد أن الله تعالى ينفع ويضرّ، وأن يعوق الصنم لا ينفع ولا يضرّ.
(٢) لعله محرف عن «عم أنس» إذ لم يعثر في العربية لى اسم على هذا التركيب.
(٣) التنوفة من الأرض: هي القفر التي لا تنبت عشبًا ولا كلأ.

راته الإبلُ - وكان ملطخًا بدم القربان - نفرت الإبل وشردت فذهبت كلَّ مذهب، فأخذ صاحبها حجرًا - وهو غضبان - وضرب سعدًا الصنم، وقال له: لا بارك الله فيك نفّرت عليّ إبلي، ثم طلب إبله وجمعها بعد تفرّقها، ثم أنشد يقول: أتينا إلى سعد ليجمع شملنا إلخ.

٨ - ذو الخَلَصة: بتَبَالة جنوب مكة ببلاد اليمن، وكانت تعبده دَوْس وخثعم وبَجيلة. وهذا الصنم بعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبدالله البجلي، فهدمه عندما نصر الله دينه ورسوله والمؤمنين، فلله الحمد والمنة.

٩ - إساف ونائلة: وهما صنمان كَانا بالكعبة، ثم وضعا على الصفا والمروة كانت تعبدهما قريش من جملة أصنامها. ويُرْوَى أن أصلهما كان رجلاً وامرأة من جرهم، فَجَرا في داخل الكعبة، فمسخهما الله تعالى فالرجل يدعى إسافًا والمرأة تدعى نائلة. ولما جاء الإسلام تحرَّج أناس في السعي بين الصفا والمروة لمكان إساف ونائلة منهما، فرفع الله ذلك الحرجَ بقوله عز وجل من سورة البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية. أي: لا حرج عليه في السعي بينهما.

١٠ - العزّى[1]: وكانت بنخلة عن يمين الصاعد إلى العراق من مكة، وكان سدنَتَها وحجّابَها بنو شيبان من سُليم حلفاء بني هاشم، وكانت تُعبَد وتُقدّس تقديسَ البيت الحرام.

١١ - اللات: كانت بالطائف، وكانت ثقيف تعبدها، ومنهم سَدَنَتُها وحجابها.

١٢ - مناة: وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلّل قرب قديد، وتعبدها قبيلتا الأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب «المدينة» ولمّا جاء الإسلام وانتصر التوحيدُ على الشرك، بعث رسول الله ﷺ أبا سفيان أو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فهدمها.

١٣ - الفلس: بجبَلَيْ طِيِّئ، وهما سَلْمَى وأجَا من أرض طيئ شمال الحجاز قريبًا من حائل المدينة المعروفة اليوم، كانت تعبده طيئ بأنواع من العبادت كالهدْي إليه، والاستسقاء

---

(١) هدمها خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو يقول:

كفرانك يا عزى لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

به، والائتمان بساحته. وبعث إليه النبيُّ ﷺ عليّ بن أبي طالب فهدمه، وكان شبه إنسان لاصق بجبل أجا.

١٤ - رئام: وهو بيتٌ لحِمْير بصنعاء من اليمن يعظمونه وينحرون عنده، وتكلمهم الشياطين عنده؛ لفتنتهم.

١٥ - رُضاء: وهو بيت أيضًا لبني ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم. ولما جاء الإسلام هدمها المُسْتَوْغِر[1] بن ربيعة وهو يقول:

ولقد شددْت على رُضَاء شدَّةً
فتركتُها قفرًا بقاعٍ أسْحما

١٦ - ذو الكَعَبات: وهو بيت لبكْر وتغلب ابني وائل وإياد، وكان بِسَنْداد، وهي منازل لإياد أسفل سوار الكوفة، وفيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة:

بين الخَوَرْنَق[2] والسَّدير وبارق
والبيت ذي الكعبات من سنداد

عمل العرب مع أصنامهم:

أكثر ما يعمله العرب مع أصنامهم أن أحدهم إذا أراد السفر توجّه إليه صنمه فتمسّح به، ثم سافر. وإذا عاد من سفره أول ما يبدأ به يتمسّح بصنمه ثم يدخل على أهله.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً، نوجزها فيما يلي:

١ - بيان منشأ الشرك في العرب المستعربة، وهو نقلهم الحجارة من الحرم للتبرك بها والطواف، ولذا وجب سَدُّ هذه الذريعة فلا ينتقل شيء للتبرك به، حتى إن عمر رضي الله عنه قطع شجرة بيعة الرضوان؛ مخافةَ أن تُعْبد بمرور الزمان اللهم إلا ما كان من آثار النبي

---

(١) لقد عمّر طويلاً فعاش ثلثمائة وثلاثين سنة وهو القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها — وعُمِرْتُ من عدد السنين مئينا
مائة حدتها بعدها مائتان لي — وازددت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا — يوم يَمُرُّ وليلة تحدونا

(٢) قصر بناه النعمان بالحيرة كان آية في البناء، وخاف من بانيه أن يبني لغيره مثله فرماه من أعلاه فقتله واسم المقتول سِنمار، فصار مثلاً: جزاه مجازاة سنمار.

ﷺ كشعره أو ثوبه، أو سلاحه ولم يَبْقَ من ذلك شيء لمرور الزمان الطويل.

٢ - طاعة عمرو بن لُحيّ وتعظيمه والغلوّ فيه هو الذي جرأه على نقل الأصنام لهم وأمرهم بعبادتها، ولذا وجب التحذير من الغلوّ في المشائخ، وعدم قبول قولهم وطاعة أمرهم إلا ببرهان من كتاب أو سنّة يدل على ذلك ويأمر به.

٣ - عبادة العرب لآلهة قوم نوح بعد مرور القرون الطويلة أمرٌ عجب، إلا أنه لا عجب مع خبث الشياطين، ومكرهم ببني آدم لإغوائهم وإهلاكهم، إنهم - كما زينوا لقوم نوح عبادتهم فعبدوهم - زينوا كذلك للعرب عبادتهم فعبدوهم. ولا عجب، فإننا في ديار القرآن والإسلام وزين الشيطان لإخوان لنا عبادةَ يعوق ونسراً إذ كان لأهل قرية صغيرة تلان أحدهما يسمونه يعوق والثاني نسرا، وكانوا إذا انقطع المطر عنهم وقحطوا، خرجوا إليهما، وقدموا لهما شيئًا قربانًا واستغاثوا بهما؛ فإذا أمطروا - بقدر الله - قالوا: مُطِرْنا باستغاثتنا بيعوق ونسر.

٤ - بناءُ الأضرحة والقباب على قبور الأولياء والصالحين تركةٌ موروثة عن الجاهلية قبل الإسلام، زينتها الشياطين وحملت الجهالَ على بنائها، ثم عبادتها بأنواع العبادات، كالنذر لها والاستغاثة بها وتقديم الشاة والبقرة لها، وإيقاد الشموع عليها، وتجميرها إلى غير ذلك من الحلف بها وتعظيمها وشد الرحال إليها، إذ تقدم أن العزى ورئام ورضاء وذا الكعبات، كانت بيوتًا تعبد ولها سدَنة وحُجَّاب كما هي الحال للأضرحة في أكثر بلاد المسلمين.

البدع الدينيّة في عهد الجاهلية

إنه وإن كان كلُّ ما عليه عرب الجاهلية من دين هو بدع ابتدعوها بعد غياب العلم والعلماء إلا أن هناك أموراً في الابتداع زائدة على أصل الدين الوثنيّ الذي هم عليه، ومن ذلك ما يلي:

١ - البَحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام. فالبحيرة: الناقة تشقّ أُذُنها وتترك فلا تركب، ولا يُشرب لبنها إلا أن يسقوه ضيفًا من ضيوفهم. ولا شك أن لهذه البدعة سببًا، ولا يبعد أن يكونوا فعلوه تقربًا لآلهتهم. كما أن السائبة: الناقةُ تُسيَّب، أي تترك للآلهة في نذر أو غيره كمجرد التقرُّب فلا يُركب ظهرها، ولا يُشرب لبنها ولا يؤكل لحمُها. وأما الوصيلة فالابتداع فيهاظاهر، إذ هي الشاة تُتِمُّ بأن تلد عشر إناث في خمسة

أبْطُن ليس بينهنَّ ذكر، فَيُطْلقون عليها اسمَ الوصيلة بمعنى الواصلة، إذ وصلت بين إناثها العشرة ثم هي بعد ذلك إذا ولدت، فما تلده لذكورهم دون إناثهم إلا أن يولد ميتًا، فإنهم يُشْركون فيه إناثهم فيأكلونه جميعًا. وهذا ما ذكره تعالى في قوله من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

هذه الوصيلة، وأما الحامي[1] فهو الجمل إذا بلغ حداً معيناً من النتاج، يحمون ظهره فلا يُرْكب ولا يُحمل عليه، ويتركونه للضراب[2] فقط، ولا شك أن هذا يفعلونه تعبدًا وتقربًا للآلهة.

٢ - بدعة الوقوف في الحج بمزدلفة دون عرفة، وهذه البدعة ابتدعها أشراف مكة، وهم الذي يعرفون بالحُمْسِ[3] أما سائر العرب فإنهم يقفون بعرفات ولا يُسْمح لهم أن يقفوا بمزدلفة.

٣ - بدعة عدم الطواف في ثياب عُصيَ فيها الله عز وجل، فلا يُحلّون لأحد من غير الحمس أن يطوف في ثوب قديم، فإن لم يجد من الحمس ثوبًا يطوف فيه: طاف عريانًا، حتى إن المرأة تطوف عاريةً، وتضع شيئًا تستر به فرجها، ويؤكد هذا قولُ إحداهن:

اليومَ يبدو بعضُه أو كُلُّه
ومَا بَدَا منه فلا أحِلُّه

وفي إبطال هاتين البدعتين أنزل الله تعالى قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

٤ - بدعة الاستقسام بالأزلام، وهي عبارة عن ثلاثة قداح، كُتب على أحدها «أمرني ربّي» والثاني «نهاني»، والثالث يُترك غُفْلاً لا يُكتب عليه شيء، فإذا أراد أحدهم أن يتزوج أو يُطلق أو يسافر، أو يتاجر: يذهبُ إلى صاحب الأزلام «القدّاح» فيقدم له شيئًا من المال ويُجيل القداح في خريطة فإذا خرج «أمرني» أمْضي ما عزم عليه، وإن خرج القدح الغفل أعاد العملية بإجالة القداح مرة أخرى، وقد حرم الله هذه البدعة بقوله

(١) الحام يجمع على حوم. (٢) الضراب: هو اللقاح بواسطة اتصال الفحل بالأنثى.
(٣) جمع أحمس، وهو المتحمس للدين وشعائره من قريش.

من سورة المائدة: ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ [المائدة: ٣] وسمي هذا العمل استقساماً لأنهم يطلبون به معرفة ما قُسِمَ لهم.

٥ - بدعة النسيء، وهي تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر من أجل استحلال القتال في الشهر الحرام، وأصحابُ هذه البدعة يقال لهم: النَّسأة، ويفاخرون بهذه البدعة حتى قال قائلهم:

ألسنا الناسئين على معد
شُهورَ الحلِّ نجعلها حراما

ولما جاء الإسلام حرم هذه البدعة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

إن لهذه المقطوعة في السيرة العطرة نتائجَ وعبراً نُجْملها فيما يأتي:

١ - إذا غاب نور العلم بموت العلماء نجمت البدع، واستبدل الناس الهدى بالضلال.

٢ - ضَعْفُ الإنسان الفطري هو الذي يحمله على طلب ما يجلب له النفع ويدفع عنه الضرّ، فإن اهتدى إلى الطريق الذي يحصل به على ما يرغب وينجو به مما يرهب فذاك، وإلا سلك مسالك الغواية والضلال من الظلم والشرك والابتداع.

٣ - مع طول العهد من فَقْدِ العدنانيين للعلم الصحيح بالله ودينه: فقد بقيت لهم بقايا صالحة كالحج والعمرة، وتعظيم البيت، واحترام الحرم والأشهر الحرم، والتقرّب إلى الله تعالى بالهدي وإطعام الحاج، وسقايته، ودفع الظلم عنه.

كانت هذه نتائج، وأما العبر فهي:

١ - إن المسلمين الذين فقدوا العلم الصحيح في ديارهم ابتدعوا بدعًا شبيهةً ببدع أهل الجاهلية، فقد نذروا لأصحاب الأضرحة والقباب وساقوا لهم الشاة والعجل، وحلفوا بأسمائهم، وكسوا توابيتهم[1] بأفخر أنواع الكسوة.

٢ - بدعة خط الرَّمْل للتعرف على المغيّبات عند جهال المسلمين: كبدعة الاستقسام بالأزلام عند أهل الجاهلية المشركين.

---

(١) التوابيت: جمع تابوت، وهو صندوق من خشب يوضع على القبر، ويوضع عليه الثياب الحريريّة تقربًا إلى الميت الوليّ، هكذا يزعم الجاهلون.

٣ - احتيالُ بعض المشائخ على تحليل بعض المحرمات لمنافع خاصة لهم أو لغيرهم: هو مسلك النَّسأة[1] في تأخير الشهر الحرام لاستحلاله، وهكذا فكل فُتْيا يُرَاد بها استحلال ما حرم الله بالتأويلات البعيدة فهي اتباع لأهل الجاهلية، واستنان بسنتهم الجاهلية، والعياذ بالله تعالى.

وأخيراً:

النصرانية واليهودية في بلاد العرب

بمناسبة ذكر الدين الذي كان عليه العرب العدنانيّون قبل الإسلام - وهو الوثنية - يَحْسُن ذكرُ نبذة عن الديانتين النصرانيّة واليهودية في بلاد العرب جنوبًا وشمالاً؛ ليعلم القارئ بكَامل الحال التي كان عليها الناس في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ وليعلم أن الإسلام كان حاجة الناس في تلك البلاد كما هو حاجة كل الناس وفي كل ديارهم أمْسِ واليومَ، غداً؛ إذ لا كمال لإنسان ولا سعادة إلا به وعليه.

يروي ابنُ إسحاق حديثَ وهب بن منبّه في دخول النصرانية إلى نجران جنوب مكة من بلاد اليمن - فيقول: إن رجلاً يُقال له: فُيميونَ من أهل الشام، كان على دين المسيح - عليه السلام -، وكان صالحًا ورزقه الله كرامات، فأحبه رجل من أهل البلاد يقال له: صالح، ولازمه.

ولما عُرِف فيميون بالصلاح وظهور الكرامات، خرج مع ذلك الرجل الذي أحبه فدخلا بلاد العرب، فَعَدوا عليهما وباعوهما عبدين في مدينة نجران، وأهلُ نجران يومئذ على دين العرب وهو الوثنيّة، وكانت نخلة يعبدونها، فجعلوا لها عيداً سنويًا يأتونها فيه، فيعلقون عليها أجملَ الثياب وأحسن حليّ النساء.

واشترى فيميونَ أحدُ أشراف نجران، وكان فيميون إذا قام من الليل يتهجَّد أشرق له البيت نوراً. فعجب سيده من هذه الكرامة، فسأله عن دينه؟ فأخبره بأنه على دين المسيح، وأعلمه أن ما عليه أهل نجران هو الباطل، كما أعلمه أن الله تعالى هو الإله الحق، وأن هذه النخلة لا تنفع ولا تضرّ، وأنه لو دعا الله تعالى عليها لأسقطها، وفِعْلاً دعا الله تعالى، فعصفت بها عاصفة فاقتلعتها من جذورها.

(١) النسأة: جمع ناسئ، وهو الذي ينسأ الشهر الحرام، أي يؤخره.

ومما يُذكر هنا: أن عبدالله بن الثامر - وكان على دين المسيح - كان له أثر كبيرٌ في نشر المسيحيّة في نجران بعد العبد الصالح فيميون.

وكان من أمر ابن الثامر أنه لما انتشرت المسيحية بين الناس دعاه ملك البلاد وقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأُمَثِّلَنّ بك؛ وجعل يعرضه لكل ألوان التعذيب، والقتل ولم يقدر على قتله، فقال له ابن الثامر: إنك لن تقدر على قتلي حتى توحِّد الله تعالى، ففعل الملك، وضرب ابن الثامر فقتله، ثم مات الملك على الفور إلى جنبه، وبذلك استجمع أهل نجران على الدين المسيحي، ثم أصابهم ما أصاب غيرهم من البدع والفساد، فكان هذا أصل النصرانية في نجران.

ولما ملك ذونواس الحميري، وكان قد دان باليهودية، ووجد أهل نجران على المسيحية، فدعاهم إلى دينه، فَأَبَوْا عليه، فحفر لهم الأخاديد وأحرق عددًا كبيرًا منهم بالنار ليرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج، وحدّث عنهم رسولُ الله ﷺ. ثم إن رجلاً يقال له: دَوْسٌ، قد نجا من الحريق، وذهب إلى ملك الروم فاستعداه على ذي نواس الذي قتل النصارى من أهل دينه، فكتب له كتابًا إلى ملك الحبشة - حيث هو على دين النصارى - فأعطاه جيشًا قوامُه سبعون ألفًا غزا به ذا نواس، فهزموه ودخلوا البلاد، حكموها بعد موت ذي نواس. وكان على رأس الجيش الحبشي أرياط وأبرهةُ، فتنازعا الملك، وغلب أبرهةُ أرياطَ وقتله، وأصبح أبرهة الحاكم العام في البلاد، وملكُ الحبشة يدعمه ويَشدُّ من أزره. هذه قصة النصرانية في نجران من بلاد اليمن.

أما اليهودية: فإنها لم تَدُمْ طويلاً في بلاد اليمن. وسببُ ذلك أن تُبّعًا ذا نواس، لما دخل المدينة خرج معه حَبْرانِ من أحبار اليهود، وهما اللذان دعواه إلى اليهودية فقبلها ودان بها، وعذّب نصارى نجران كما تقدم، وانتهى ملكه بموته على يد أرياط وأبرهة الحبشيين كما سبق ذكره. إلا أن اليهودية كانت بشمال الجزيرة بفدك وتيماء وخيبر والمدينة - التي كانت تسمى يثرب - وسببُ دخول اليهود إلى الحجاز من أرض الجزيرة، هو الضغط الذي أصابهم من ملوك الروم بعد بَختنصر؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى تَطَلُّعُهم إلى النبيّ المُبَشّر به في التوراة والإنجيل، وأنه يخرج من جبال فاران، وأن مُهاجره: يثربُ ذات النخيل والأرض السبخة، فنزلوا ديار الحجاز الشمالية رجاء أن يُبعث نبيٌّ آخر الزمان، فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم معه، ويستردوا مُلكهم

المسلوبَ منهم من عدة قرون.

مع العلم أن اليهود والنصارى قد فسد معتقدهم، وضاعت شريعتهم تحت تأثير التأويل للنصوص وتحريفها وتغييرها وتبديلها لتوافق الأهواء والأطماع الخاصة والشهوات العارمة، فما أصبحت اليهودية، ولا النصرانية تُزَكِّي النفوس ولا تُصلح القلوب ولا تُهذب الأخلاق بعد فسادها؛ فحاجة أهل الملتين إلى الإسلام كحاجة غيرهم من المجوس والوثنيين. وقد كان اليهود يستفتحون على مشركي العرب يقولون لهم: إن نبيًّا قد أظل زمانُه، ويوم يَظْهر نؤمن به ونقاتلكم معه. نزل بقولهم هذا القرآنُ العظيم في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر، نُجملها فيما يلي:

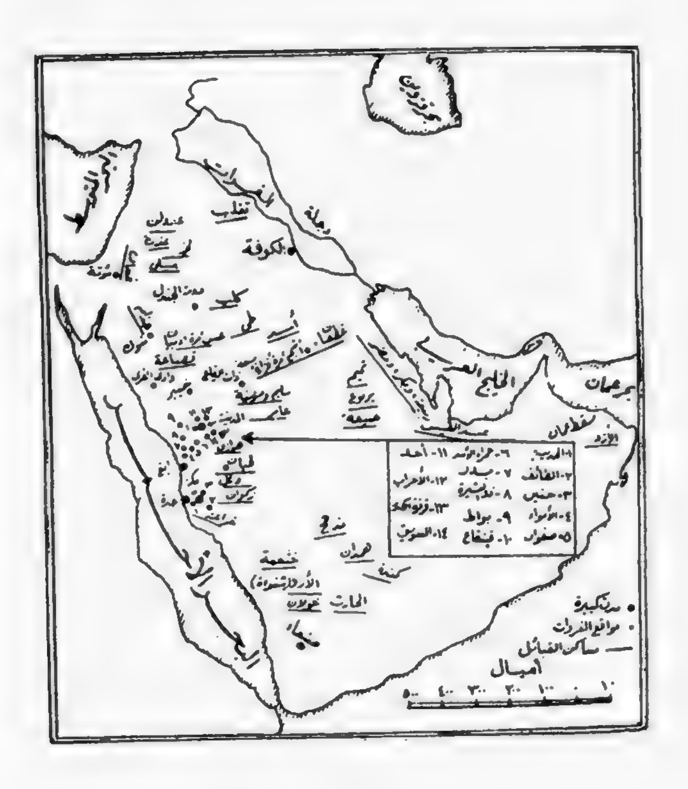
١ - لم تكن النصرانية ولا اليهودية في بلاد العرب ذات شأن يُذكر؛ إذ الوثنية هي الغالبة.

٢ - الفترة - التي كانت النصرانيّة في نجران سليمةً في معتقداتها وشرائعها - كنت قصيرة جداً، ولذا لم يُقَدر لها أن تنشر في بلاد العرب.

٣ - اليهوديةُ ما دخلت بلاد العرب إلا بعد فسادها، فلذا لم ينتفع بها أهلُها في دار هجرتهم فضلاً عن العرب الذي نزحوا إليهم وسكنوا ديارهم.

٤ - نظرًا لفساد الديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية، وفساد المجوسيّة والوثنيّة بالأصالة: فإن حال الناس تتطلب دينًا سماويًّا جديداً، تكمل عليه الأرواح وتزكو وتهذب به الأخلاق، وتتحقق به للناس السعادة والكمال في الدنيا والآخرة. وهو ما ستكشف عنه الأيام قريبًا إن شاء الله تعالى.

* * *



هذه البلاد العربيّة، وقبائل العرب مفرقة فيها:

خولان جنوبًا، وعذرة شمالاً، والأزد شرقًا، وبنوالمصطلق من خزاعة غربًا.

هل من حنفاء في بلاد العرب؟

إن الجواب عن هذا السؤال الملحّ هو - مع الأسف - أنه لم يكن في بلاد العرب في هذه الظروف حنفاء يؤمنون بالله وحده ويعبدونه بما شرع مخلصين له في ذلك. اللهم إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نُفيل الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**إنه يُبعثَ يوم القيامة أمةً وَحْدَه**». فقد كان ينكر أعمال أهل الجاهلية ويُصرِّح ببطلان دين قريش ويقول لهم: والذي نفسُ زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. وقال محمد بن إسحق: لقد حُدِّثْتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفر لزيد بن عمرو بن نفيل؟ قال: «**نعم، فإنه يبعث أمة وحده**».

وقد مات زيد قبل بعثة الرسول ﷺ. ومصداقُ هذا في حديث مسلم إذ قال ﷺ: «**إن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض فمقَتَهم، عربَهم وعَجَمَهُم إلا بقايا من أهل الكتاب**» فهذا الحديث دليل واضح أنه ما بُعث النبيّ الحبيب محمد ﷺ وفي العرب رجلٌ واحد على دين صحيح يَعْبُد به الله تعالى.

أما اليهود والنصارى، ففيهم بقايا يعبدون الله تعالى بدين صحيح من دين موسى وعيسى - عليهما السلام - لكنهم قليل جداً لا يتم على أيديهم هداية الناس ولا إصلاحهم.

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل المصرِّح بإيمانه وتوحيده قولُه:

أربّاً واحداً أم ألف ربٍّ ... أدينُ إذا تقسّمت الأمورُ

عَزَلْت اللاتَ والعُزَّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصَّبورُ

فلا العُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْها ... ولا صَنَمَيْ بني عَمْرٍو أَزُورُ

ولا هُبَلاً أدينُ وكانَ ربّاً ... لنا في الدهرِ إذ حِلْمي يسيرُ

وأما ورقة بن نوفل، فقد دان بالنصرانيّة، ومات قبل بدء الدعوة الإسلامية كما أن عبيدالله بن جحش بن رئاب - وإن أسلم في أول الأمر؛ لأنه حضر البعثة المحمدية - إلا

أنه ترك الإسلام وتنصر في الحبشة لما هاجر إليها مع من هاجر من المسلمين، خلف زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان فتزوجها رسولُ الله ﷺ رحمةً بها، وأناب عنه في عقد نكاحها أَصْحَمَ النجاشيَّ ملك الحبشة - رحمه الله تعالى -.

وأما عثمان بن الحُوَيْرث، فقد قدم الشام وتنصَّر، وكانت له منزلة عند قيصر ملك الروم النصراني. فهؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا قد أنكروا على قريش عبادة الأوثان، وكانوا يُصرحون بأنهم على دين إبراهيم - عليه السلام - إلا أنهم في آخر الأمر ماتوا على غير الحنيفية إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نُفَيل فإنه مات حَنيفًا مسلمًا على ملة التوحيد، ويؤكد ذلك إذنُ النبيِّ ﷺ لولده سعيد وعمر بن الخطاب بالاستغفار له، وأخبر أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نُوجزها فيما يلي:

١ - بيان أن الناس - عَرَبًا وعجمًا - قد ضلوا سواء السبيل، واستوجبوا مَقْتَ الله تعالى لهم، اللهم إلا أفراداً قلائل من أهل الكتابين اليهود والنصارى، فإنهم بَقَوا يعبدون الله تعالى بما شرع على ألسنة رسله حتى بُعِث النبيُّ الخاتم الحبيب محمد ﷺ وهم قليل.

٢ - بيان أن العرب لم يَبْقَ منهم رجل واحد على دين الله الذي أرسل الله به إبراهيم وإسماعيل - والأنبياء من قبل ومن بعد - يعبد الله تعالى بما شرع ويوحّده في عبادته؛ لأن زيد بن عمرو بن نفيل - وإن كان موحدًا - إلا أنه لم يكن له شرع يَعبد الله تعالى به. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه قد مات قبل البعثة المحمدية.

٣ - حال الناس هذه - في ضلالهم وعدم هدايتهم - كانت مستوجبةً للبعثة المحمدية متطلّبة لها بل كانت حاجتها الملحة التي لابد منها.

تباشير الصباح

إن من سنن الله تعالى في الكون، أن الانفراج يكون بعد الشِّدة، والضياءَ يكون بعد الظلام، واليسرَ بعد العسر.

إنه، بعد ذلك الظلام الحالك الشديد، الذي غطى سماء الحياة البشرية حيث عَمّ ظلام الشرك والكفر والظلم والشر والفساد؛ إذ نظر الله تعالى إلى الناس فمقتهم عربهم

وعجمهم؛ لما هم عليه من الكفر والشر والفساد إلا بقايا من أهل الكتاب - في هذا الظروف بالذات أخذت تباشير الصباح تلوح بقرب انبثاق النور المحمدي، يلوح هنا وهناك في الآفاق المظلمة المدلهمة.

وها هي ذي بين يديك أيها القارئ الكريم كواكب زهر تلوح في الأفق كوكبًا بعد كوكب، مؤذنة بقرب انبلاج الفجر المحمدي.

أولاً: دعوة ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

فقد أخبر تعالى عنهما أنهما سألاه أن يبعث في ذريّتهما رسولاً منهم جاء ذلك في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كما أخبر هو بنفسه ﷺ مقررًا هذه الحقيقة مؤكدًا لها فقال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى**»[1].

ثانياً: أخذ الميثاق له ﷺ:

لقد أخذ الله الميثاق على كل نبي نبأه، ورسول أرسله: أن يؤمن بمحمّد ﷺ وينصره متى بُعث، ولازم هذا أنه عرفه باسمه وصفاته. جاء هذا في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ثالثاً: بشارات الكتب الإلهية به:

ففي التوراة، يروي البخاريُّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قوله قال: وجدتُ في التوراة في صفة النبي ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى: يا أيُّها النَّبِيُّ إنَّا أَرسَلْنَاكَ شَاهداً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئةَ بالسيئة، ولكن يعفو ويَصْفَح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، ويفتح عيونًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا بأن

(١) تقدم تخريج هذا الخبر، ونصُّه أطول من هذا.

يقولوا: لا إله إلا الله.

وفيها - أي في التوراة - أيضًا: «تجلى الله من طور سيناء، وأشرف من ساعير، واستعلى من جبال فاران». فَتَجَلّيه سبحانه وتعالى من طور سيناء، المرادُ به إنزاله التوراة على موسى. وإشراقُه من ساعير: المرادُ به إنزالهُ الإنجيل على عيسى واستعلاؤه من جبال فاران: إنزالهُ القرآنَ الكريم على المبشَّر به محمد ﷺ؛ إذ جبال فاران هي جبال مكة المكرمة.

وجاء في التوراة أيضًا:

«أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أُوصيه به». فالذي يجعل الله تعالى كلامه في فمه لن يكون إلا محمدًا ﷺ إذ هو الذي يقرأ القرآن عن ظهر قلب، ولا ينطق إلا بما جاء فيه ودعا إليه من الحق والهدى الخير.

وجاء في الإنجيل:

«في تلك الأيام، جاء يوحنّا المعمدان يكرز في بَرّيّة اليهود قائلاً: توبوا؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات». فقولُه: «قد اقترب ملكوت السموات» إشارةٌ إلى النبيّ محمد ﷺ وبشارةٌ به وبقربِ بعثته؛ إذ هو الذي ملك وحكم بقانون السماء الذي هو شرع الله تعالى.

وجاء فيه أيضًا:

قدّم لهم مثلاً: قائلاً: «يشبه ملكوت السموات حبّة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البذور، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول» فهذه البشارة، هي عَيْنُها التي في القرآن؛ إذ قال تعالى في سورة الفتح: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وجاء فيه أيضًا:

«انطلق؛ لأني - إنْ لم أنطلق - لم يأتكم «البارقليط» فأما إن انطلقتُ أرسلتُه إليكم فإذا جاء، ذاك الذي يوبخ العالم على خطيئته». فهذه بشارة كاملة بالنبيّ الذي يوبّخ العالم على خطيئته؛ إذ بعث ﷺ والعالمُ كلُّه في ظلمات الشرك والكفر، وقد مقت الربّ تبارك وتعالى الناس عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقد تقدم بيان ذلك.

وجاء في الزبور:

«ومن أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد، فتقلد أيها الجبار[١] بالسيف؛ لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق، وسمة التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يَخرّون تحتك».

رابعًا: قال أشعيا النبي - عليه السلام -:

«وُلد لنا غلام يكون عجبًا وبشرًا، والشامة[٢] على كتفيه، أركون[٣] السلام إله جبار وسلطانه سلطان السلم، يجلس على كرسيّ داود».

وقال أيضًا:

«قيل لي: قُمْ ناظرًا، فانظر ماذا ترى؟ قلت: أرى راكبين مقبلين، أحدُهما على حمار، والآخرُ على جمل، ويقول أحدهما لصاحبه: سقطت أصنام بابل للبحر. إن الراكبين هما عيسى ومحمد ﷺ وسقوط أصنام بابل كان على يد أمة محمد ﷺ.

وقال حزقيل - عليه السلام -:

قال حزقيل - عليه السلام - وهو يصف للناس أمة محمد ﷺ: «إن الله يظهرهم عليكم، وباعثٌ فيهم نبيًا، ومنزلٌ عليهم كتابًا، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال من بني قيذار[٤] في جماعات الشعوب ومعهم ملائكة على خيل بيض[٥] متسلحين فيحيطون، وتكون عاقبتكم إلى النار».

وقال دانيال - عليه السلام -:

«فظهر لي الملك في صورة شاب حَسَن الوجه، فقال السلام عليكم يا دانيال إن الله

---

(١) قال أهل العلم: إن هذه الصفات لا تنطبق على أحد بعد داود إلا على محمد ﷺ، وذَكَرَ هذا شيخُ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح، لمن بدل دين المسيح.

(٢) الشامة هي خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ.

(٣) الأركون: العظيم بلغة الإنجيل.

(٤) أولاد قيذار هم: ربيعة ومضر من ولد عدنان بن إسماعيل، وفي هذا الخبر ترجيح أن العدنانيين هم من قيذار لا من نابت أخيه. إلا أن الخطب سهل، لأن نابتًا شقيق قيذار فأيًا ما كانوا فَهُم أولاد عدنان ابن إسماعيل بن إبراهيم - عليه السلام -.

(٥) هذا الوصف لا ينطبق إلا على أمة محمد ﷺ: إذ هم الذين قاتلت معهم الملائكة في بدر وغيرها وكانت خيولهم بيضًا.

يقول: إن بني إسرائيل أغضبوني، وتمرّدوا عليَّ، وعبدوا من دوني آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسلطتُ عليهم بختنصر، فقتل رجالهم وسَبَى ذرياتهم، وهدم بيت مقدسهم وحرّق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم. وأنا غير راضٍ عنهم، ولا مُقيلهم عثراتهم؛ فلا يزالون مغلوبين، عليهم الذلةُ والمسكنة حتى أبعث فيهم نبيًّا[١] من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكي فبشرّها، وأوحي إلى ذلك النبيّ وأعلِّمُه الأسماء وأزيِّنُه بالتقوى، وأجعل البرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والصدقَ قولَه، والوفاء طبيعته، القصدَ سيرتَهُ، والرشدُ سنته، أخصُّه بكتاب مصدّق لما بين يديه، وناسخ لبعض ما فيها، أُسْرِي به إليّ من سماء إلى سماء حتى يعلق فأدنيه، وأسلم عليه، وأُوحي إليه، ثم أردُّهُ إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظًا لما استودع، صادعًا بما أُمِرَ، يدعو إلى توحيدي باللين من القول، والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، رءوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خَشِنٌ على من عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه».

شهادات أهل الكتاب:

قال بعض أهل المدينة ممَّنْ أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام فأسلموا لله ظاهرًا وباطنًا: إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداه لنا - أن كنا نسمع من رجال يهود؛ إذ كنا أهلَ شرك وأصحابَ أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبيٍّ، يبعث فَنَقْتُلكم معه قَتْلَ عاد وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله محمدًا ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعّدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا، وكفروا به وكذبوه، وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال ابن الهيَّبان اليهوديّ - عند موته بالمدينة وقد جاء من الشام - يا معشر يهود، ما

---

(١) فقوله - عليه السلام -: حتى أبعث فيهم نبيًا إلى آخر كلامه وهو يخبرهم بما رآه، هو وصف كامل وإخبار صادق لمحمد ﷺ وكتابه ودعوته.

ترونه أخرجني من أرض الخمر والخبز إلى أرض البؤس والجوع؟ فقالوا له: أنت أعلم. فقال: إني قدمت هذه البلدة، أتوقع خروج نبيٍّ قد أظلّ زمانه، هذه البلدة مُهَاجَرُه، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، إنه قد أظلكم زمانه فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود!!».

وقال صاحب عمّورية[1] - وكان على دين المسيح - قال لسلمان الفارسي وقد تنقّل إليه من رجل دين إلى آخر حتى انتهى إليه بوصيّة وُصِّيَ بها، وقد حضره الموت قال له: «والله ما أعلم أنه أصبح اليوم أحد من الناس على مثل ما عليه هؤلاء - الرهبان الذين تنقل بينهم سلمان - آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبيٍّ هو مبعوث بدين إبراهيم - عليه السلام -، يخرجُ بأرض العرب، مُهَاجَرُه إلى ارض بين حَرَّتَيْنِ بينهما نَخل - إنها المدينة وربّ الكعبة - به علاماتٌ لا تخفى، يأكل الهديةَ ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتمُ النبوة، فإن استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل».

هتاف الجن بالبشري:

إن من جملة تباشير الصباح - التي سبقت طلوع الفجر المحمدي - أن كثرت الشهب في السماء، ورُجِمت الشياطين، الأمرُ الذي اندهش له الناس وفزعت له الكهان من نساء ورجال، وهذا سواد بن قارب ﷺ يَمُرُّ بين يَدَيْ عمر بن الخطاب، فيقول له رجل: يا أمير المؤمنين هل تعرف مَن المارُّ؟ فيقول عمر: لا، ومن هو؟ فيقول له: هذا سواد بن قارب الذي أتَاه رئيّه بظهور النبي ﷺ، وعندها أرسل إليه عمرُ فجاء، فقال له: أنت سواد بن قارب؟ قال: نعم. قال: أفأنت على ما كنت عليه من كهانتك؟ فغضب سواد وقال: ما استقبلني بهذا أحدٌ منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال عمر: سبحان الله!! ما كنا عليه من الشرك أعظمُ مما كنت عليه من كهانتك. فأخبرني بإتيانك رئيُّك بظهور النبيّ ﷺ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان، إذ أتاني رئيّ، فضربني برجله، وقال: قُمْ يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل: إنه قد بعث رسول من لؤي ابن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عجبت للجنّ وتَطْلابها
وشدّها العيس[2] بأقتابها

---

(١) عَمُّورِيَة: بلد في الروم غزاه المعتصم حين شراة العلوية.

(٢) العيس: الإبل البيض اللون.

تهـــوي إلى مكة تبـــغي الهـــدى
مـــا صـــادقُ الجنّ ككذّابهـــا

فـــارحلْ إلى الصَّـــفْـــوة من هـاشم
ليس المـــقـــاديم[1] كـــأذنابهـــا

ثم ذكر أنه أتاه ليلتين بعد الأولى – وهو فيها كلِّها بين النائم واليقظان – وقال له: قم يا سواد بن قـارب، واعقل إن كنتَ تعقل؛ إنـه قد بعث رسول من لؤي بن غـالب، يدعو إلى الله وإلى عبادته، وأنشده في كل ليلة أبياتًا منها قوله:

أتاني نجـــيِّي بعـــدَ هدْءٍ ورقْـــدة
ولم يَكُ فـــيـمـــا قـــد تَلَوتُ بكاذبِ

ثلاثَ ليـــالٍ قـــولُه – كل ليلة –
: أتاك رســـولٌ مِنْ لؤيّ بن غـــالبِ

ولما بعث النبيّ ﷺ أسلم سواد، وأتى النبيّ ﷺ، وقصّ عليه قصة رئيّه، وأنشد الأبيات التالية:

فـــأشـــهـــدُ أنّ الله لا ربَّ غـــيـــره
وأنك مَـــأمـــونٌ على كل غـــائب

وأنّـك أدنى المـــرسلين وســـيلةً
إلى الله يا ابن الأكـــرمـــين الأطايب

فَـــمُـــرْنا بمـــا يأتيكَ من وحْيِ ربِّنا
وإن كـان فـيـمـا قلتَ شَيّبُ الذّوائب

وكن لي شـفـيـعًا يومَ لا ذو شفـاعة
بمُـــغْنٍ فـتـيـلاً عن سـواد بن قـارب

أما كثرة الشهب ورَمْيُ الشياطين بها، ومَنْعُـهم من استراق السمع، فقد جاء ذكره في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى من سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا

(١) أي أوائلهـا، كأذنابها، أي أواخـرها، يريد الفضـل لأهل السبق الذين بادروا إلى الإسلام وسبـقوا غيرهم إليه.

لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠]

إن المراد من حادثة أصحاب الفيل، هو غزوة أبرهة الأشرم عامل ملك الحبشة على اليمن وكان سبب غزوه مكة - حماها الله من كل جبار ظالم - أنه أراد التقرب إلى ملك الحبشة لأمر حدث بينهما، فبنى بصنعاء بيتًا لم يُرَ مِثْلُه وسمّاه «القُلَّيسَ» وقال: إنه يدعو الناس لحجه بدل الكعبة في مكة المكرمة؛ لتتحول تجارة العرب إلى اليمن، فسمع بذلك رجلٌ كناني، فأتى القلّيس وأحدث[1] فيه وذهب، فبلغ ذلك أبرهة، فحلف أن يغزو مكة ويهدم الكعبة. وجهز جيشًا قويًا، وأخرج معه الفيل المسمى محمودًا، وسار في طريقه وكلما اعترضته قبيلة من القبائل العربيّة لتصدَّه قاتلها وهزمها، حتى انتهى إلى مشارف الحرم، فبعث رجاله، فساقوا ماشية أهل مكة، ومن بينها مائتا بعير لعبدالمطلب بن هاشم شيخ مكة ورئيس قريش بها، ثم جرت سفارة انتهت بمفاوضات طَالَبَ فيها عبدُالمطلب بإبله. وأما البيت فقد قال قولاً سَارَ مَثَلاً: «إن للبيت ربًا يَحْميه» ولما علم عبدالمطلب عَجْز قومه عن مقاومة هذا العدو الظالم ذي الجيش العرمرم الجرار، أمر أهل مكة أن يلتحقوا بشعاف الجبال وقممها حتى لا تلحقهم معرة الجيش الغازي، ففعل ذلك أهل مكة، ووقف عبدالمطلب بباب الكعبة آخذًا بحلقته، وهو يقول:

لاهُمَّ إن العبد يَمْـ
ـنعُ رَحْلَهُ؛ فامنعْ حِلالك[2]

لا يغلبنّ صليبهم
ومحالُهم غَدْوًا محالَك[3]

إن كنتَ تاركهم وقِبْـ
ـلَتَنا فأمرٌ ما بدا لك

وانصر على آل الصَّليـ
ـب وعابديه اليوم آلك

فلما أصبح أبرهة، وتهيّأ لدخول مكة، ووجه الفيل إلى مكة، أبى الفيلُ أن

---

(١) أي تغوّط ولطخ جدران البيت بالعذرة.

(٢) جمع حِلّ: المجموعة من البيوتات وأهل حلول بها.

(٣) المحال: القوة. وغدواً بمعنى غداً ردت الواو المحذوفة منه في الشعر.

يمشي، فإذا وجَّهه إلى غيرها مشى، وما زال يُحاوله حتى أرسل الله تعالى عليهم طيرًا أبابيل من البحر، يحمل كلُّ طير ثلاثة أحجار، واحدة بمنقاره واثنتين برجليه فما أصابت رَجُلاً إلا أخذ لحمُه يتساقط، وطلبوا من يدلهم على الطريق ليعودوا هاربين إلى اليمن. فقال دليلهم:

أين المفرّ والإلهُ الطالب

والأشرم المغلوب ليس الغالب

وانتهت الحال بهزيمة جيش أبرهة وهلاكه، وأما أبرهة فقد نُقل مُثخنًا بجراحاته إلى صنعاء فمات بها، وقد أنزل الله تعالى سورة «الفيل» متضمنّة هذه الحادثة إجمالاً، وهي آية صدق النبوّة المحمدية.

نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتي:

١ - بيان بداية أمر النبيّ ﷺ، وأنها كانت من عهد إبراهيم - عليه السلام -.

٢ - بيان استجابة الله تعالى دعوة خليله إبراهيم - عليه السلام -.

٣ - بيان علوّ شأن الحبيب محمد ﷺ وكمال شرفه الذي لا يُداني فيه؛ وذلك بأخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء، بأنه متى بُعِث النبيّ محمد ﷺ آمنوا به ونصروه وعزّروه.

٤ - بيان كمال خلُق الحبيب محمد ﷺ الذي تجلّى فيما وصفه به ربّه تعالى في التوراة، وعلى لسان المَلَك الذي نزل على النبيّ دانيال - عليه السلام -.

٥ - بيان شرف العرب، وما حباهم ربهم تعالى به من بعثة أفضل أنبيائه، وجعله حرزًا لهم، فكملوا وسعدوا به بعد أن آمنُوا به وبما جاء به، واتبعوا النور الذي أنزل عليه، وهو القرآن الكريم.

٦ - إثبات نبوّة الحبيب محمد ﷺ وتقريرها بشهادات التوراة والزبور والإنجيل وأنبياء بني إسرائيل ومؤمني الجن وصالحي أهل الكتاب من يهود ونصارى، الأمر الذي يصبح معه إنكار رسالته ﷺ ضربًا من السفه والحمق والضلال العقلي، والحكم بالخسران الأبدي لصاحبه.

٧ - في هزيمة أبرهة وجيشه بخارقة لم يُعرف مثلها: أكبرُ آية على قرب طلوع الفجر المحمدي.

٨ - إن العبرة من هذا الذي تقدم في هذه المقطوعة من السيرة، هو وجوب الإيمان اليقيني بنبوّة محمد ﷺ، ووجوب اتباعه وتعظيمه ومحبته فوق محبة النفس والمال والأهل والولد.

طلوع الفجر المحمدي أو الميلاد السعيد

من عام الفيل، وفي شهر ربيع الأول الذي أصبح يعرف بربيع الأنور، ومن ليلة الاثنين الثاني عشر منه: طلع فجر النبوة المحمدية.

هذا الذي عليه أكثر المؤرخين للميلاد النبوي السعيد.

الحمل قبل الميلاد.

والمصاهرة قبل الحمل.

والوالد قبل الولد.

ولكلٍّ زمانٌ ومكانٌ.

في بطحاء مكة، وفي بيت عريق في الشرف - بيت شيبة الحمد عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ - زوّج عبدُالمطلب ولدَه عبدالله الذبيح سليلةَ الشَّرف أشرفَ فتاة وأعفها وأكملها خَلْقًا وخُلُقًا آمنةَ بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب الزهرية القرشية.

أما عبدالله الوالد، فللقبه بالذبيح قصةٌ من أظرف القصص وأطرفها تتشنف الآذان بسماعها، وتهفو القلوب لذكرها، وهذا عَرْضُها باختصار حتى لا نبعد من ساحة الأنوار:

كانت زمزم قد طمرتها جرهم عند مغادرتها مكة لظلمها فانهزامها، كان ذلك منها نقمة على أهلها الذي حاربوها وطردوها. وظلت زمزم مطمورة إلى عهد شيبة الحمد عبدالمطلب فأُرِيَ في المنام مكانها وحاول إعادة حفرها، ومنعته قريش، ولم يكن له يومئذٍ من ولد يُعينه على تحقيق مراده إلا الحارث، فنذر لله تعالى إن رزقه عشرةٌ من الولد - يحمونه ويعينونه - ذَبَحَ أحدهم، ولما رزقه الله عشرة من الولد وأراد أن يَفي بنذره لربّه، فاقترع على أيهم يكون الذبيح، فكانت القرعة على عبدالله، وهَمَّ أن يذبحه عند الكعبة

فمنعته قريش، وطلبوا إليه أن يرجع في أمره إلى عرافة بالمدينة تُفْتِيه في أمر ذبح ولده فأرشدته إلى أن يضع عشراً من الإبلَ - وهي دية الفرد عندهم - وأن يضرب بالقداح على عبدالله وعلى الإبل، فإن خرجت على عبدالله الذبيح زاد عشراً من الإبل، وإن خرجت على الإبل فانحرها؛ فقد رضيها ربكم، ونجا صاحبكم!! فوصلوا مكة، وجيء بالإبل وصاحب القداح، وقام عبدالمطلب عند هُبل داخل الكعبة يدعو الله عز وجل، وأخذ صاحب القداح يضربها، وكلما خرجت على عبدالله زادوا عشراً من الإبل حتى بلغت مائة، كل ذلك وعبدُالمطلب قائم يدعو الله عز وجل عند هُبَل، فقال رجال قريش: قد انتهى رضا ربك يا عبدالمطلب، فأبى إلا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات ففعل، فكانت في كل مرةٍ تخرج على الإبل، وعندها رضي عبدالمطلب ونحر الإبل وتركها لا يُصَدُّ عنها إنسان ولا حيوان، ونجّى الله تعالى - والحمد لله لا لسواه - عبدالله والدَ رسول الله. فهذا سبب لقب عبدالله بالذبيح، وهو أحب أولاد عبدالمطلب العشرة إليه، وزاده حبًّا فيه هذه الحادثة العجيبة.

وأكرم الله تعالى عبدالمطلب بإعادة حفر زمزم إذ وافقته قريش على حفرها، وكانت موافقتها لآية شاهدتْهَا لعبدالمطلب، وهي أنهم لما منعوه من حفرها وأبى عليهم ذلك قالوا: نختصم إلى الكاهنة - وهي كاهنة بني سعد وكانت بأعالي الشام - فذهبوا إليها، وأثناء سيرهم في طريقهم عطشوا لنفاد مائهم فلما ظنوا الهلاك، وإذا بعين تنفجر تحت خفِّ ناقة عبدالمطلب، فقاموا فشربوا وسقوا وعندها أذعنوا لأمر عبدالمطلب ورضوا له بحفر بئر زمزم خالصة له دون غيره من أهل مكة.

نتائج وعبر:

إن من نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:

١ - فَزَعُ عبدالمطلب إلى الله تعالى يدعوه، وفي كل النوائب دليل على أن مشركي العرب ما كانوا ملاحدة، بل كانوا يؤمنون بالله ربًّا خالقًا رازقًا مدبرًا، والقرآنُ شاهدٌ بهذا.

٢ - دعاءُ عبدالمطلب الله تعالى عند هُبل استشفاعًا به وتوسُّلاً، وَرِثَهُ الشيطانُ جهالَ المسلمين، فإن أحدهم يأتي قبر الولي ويدعو الله تعالى عنده استشفاعًا بالوليِّ وتوسلاً به على سنة عبدالمطلب الجاهلي، والعياذ بالله تعالى.

٣ - كرامات عبدالمطلب التي أكرمه الله بها - كرؤيا بئر زمزم وحفرها والماء الذي نبع من

تحت خف ناقته، وخروج القـداح على الإبل لا على ولده - هي في الظاهر كراماتٌ لعبدالمطلب، إلا أنها في الحقيقة هي آيات النبوة المحمديّة وتباشيرها.

٤ - مواصلةُ ضرْبِ القداح - حتى بلغت مائة - كانت مبدأ تقرير دية الرجل وهي مائة من الإبل وأقرها الإسلام فكانت دية الرجلِ المؤمن، والمرأةُ على النصف منها.

الحمل والميلاد

لقد تزوج عـبدالله آمنة، زوَّجه بهـا والدُه عبدالمطلب على إثر نجـاته من الذبح وفاءً بالنّذر، وبنى بها عـبدالله، وحملت منه بالحبيب مـحمد ﷺ، وواكبت حَـمْلَه ووضعَهَ آياتُ نبوّته التالية:

١ - إنه ولد ﷺ من نكاح شـرعيّ لا من سفاح جـاهليّ، وهي عصمـة إلهيـة لا يقدر عليها إلا الله.

٢ - إن أمـه آمنة لم تجـد أثناء حـملهـا به ﷺ ما تجـده الحـوامل عـادة، من الوهن والضعف، فكان هذا آية.

٣ - إن آمنة لما حـملت به ﷺ ولما وضعـته، رأت نورًا خرج منهـا فاضاء لها قـصور الشام: فقد سئل ﷺ عن نفسه قال: «**أنا دعوة إبي إبراهيم وبُشْرى عيسى، ورأت أمّي حين حملت بي: أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام**».

٤ - إن آمنة لما حملت به ﷺ أتاها آت: إنك حملت بسـيّد هذه الأمة، فإذا وُضع في الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شرّ كل حاسد، وآيةُ ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بُصرى من أرض الشام؛ فإذا فسمّيه محمدًا، فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهلُ السـماء وأهل الأرض.

٥ - إنه ولد ﷺ مـسرورًا، أي مـقطوع السرة على خـلاف المـواليد في قطع القـوابل سِرارهم المتصلة بأمهاتهم.

٦ - إنه ولد ﷺ مختونًا، أي مقطوع غلفة الذكر فلم يختن كما يختن المواليد ولهذا أُعْجِب بـه جدّه عبـدالمطلب، وقـال سيكون لابني هذا شـأنٌ عظيم، وحَظِي عنده باكرم منزلة.

٧ - انكسار البرمـة التي وضعت عليه بعد ولادته على عادة النسـاء من قريش؛ إذ وجدت

منكسرة على شقين، ولم يَبِتْ تحتها ﷺ، فكانت آية نبوّته ﷺ.

٨ - ارتجاج إيوان كسرى فارس وسقوط أربع(١) عشرة شُرفةً من شرفاته.

٩ - خمود نار فارس التي لم تخمد منذ ألف سنة.

١٠ - امتلاءُ البيت - الذي ولد به - نوراً، ورؤية النجوم، وهي تدنو منه حتى لتكاد تقع عليه ﷺ، رأت هذا أمُّه والقابلةُ التي كانت معها وحَدَّثَتَا به، وهو حق لا باطل، وصدقٌ لا كذب.

فهذه عشر آيات واكبت ميلادَه ﷺ؛ إعلانًا عن نبوّته، وإعلامًا بعلوِّ شأنه، وإخباراً بما سيئول إليه أمره فصلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

ولد ﷺ بدار المولد المعروفة بدار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة. وكان ذلك عام الفيل كما تقدم، أي بعد غزو أبرهة الأشرم وهزيمته بقرابة خمسين يومًا، فكانت تلك الهزيمة آية أخرى لمحمد ﷺ دالة على صدق نبوّته وصحة رسالته وعظمِ شأنه في العالمين.

ولد بعد وفاة والده عبدالله بكذا شهراً؛ إذ تركَه حملاً في بطن أمه وسافر للتجارة في أرض غزة من فلسطين حيث توفِّي جده هاشم، إلا أن عبدالله عاد منها، فمرض في طريق عودته، فنزل عند أخواله من بني عدِيّ بن النجار فمات عندهم بالمدينة النبوية، وقبره معروفُ المكان إلى عهد قريب حين أُخفي؛ لزيارة الجهال له والاستشفاع به، وحتى دعائه - والعياذ بالله - وهذا لغلبة الجهل على المسلمين لقلة العلماء وقلة الرغبة في طلب العلم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الأرقام التالية:

١ - بيان شرف أبوي الرسول ﷺ وطهرتهما، وفي هذا ما يوجب إكباره ﷺ ومحبته وتقديره.

٢ - الآيات العشر - التي واكبت حمله وولادته - تقرّر نبوّته وسيادته على الناس أجمعين.

---

(١) أُوِّلَ هذا اللفظ بسقوط أربعة عشر ملكًا من ملوكهم وملكاتهم، فسقط عشرة منهم في أربع سنوات، وأربع تم سقوطهم على عهد الفتح الإسلامي.

٣ - في الآية الثالثة إشارة واضحة إلى عموم رسالته وانتشار دينه في الشرق والغرب.

٤ - في الآية الثامنة - وهي سقوط أربع عشرة شرفة من شرفات القصر - آيةُ نبوته ﷺ؛ إذ تداول ملْكَ الفرس في خلال أربع سنوات عشرُ ملوك وملكات، وتم الأربعة الباقون في عهد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين -.

رضاع الحبيب ومراضعه صلى الله عليه وآله

إن أول مرضع - تشرفت برضاعه ﷺ - والدتُه الشريفة العفيفة الطيبة الأردانَ آمنة بنت وهب الزهرية التي رأت من آيات النبوة ما رأت، ثم ثويبة مولاة أبي لهب التي أرضعت عمه حمزة كذلك، فكان أخًا للنبي من الرضاعة، وهو عمه صنوُ أبيه. ثم أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية من بني سعد بن بكر، رضع مع ابنتها الشيماء بنت الحارث ابن عبدالعزى. وقد رأت في إرضاعه ﷺ آياتٍ، فلنتركْها ﵂ تحدثنا بنفسها عما شاهدت من آيات نبوته ﷺ.

إنها قالت: خرجت من بلدي مع زوجي وابن صغير لنا نرضعه في نسوة من بني سعد نلتمس الرضعاء، وذلك في سنة شهباء لم تُبْقِ لنا شيئًا، خرجنا على أتان[1] لنا قَمْراء، ومعنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيِّنا الذي معنا من الجوع إذ ما في ثديي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، خرجنا نلتمس الرُّضَعَاء في مكة فما منّا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعًا - غيري، فلما أجمعنا العودة إلى بلدنا، قلت لزوجي: والله، إني لأكره أن أرجع ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فآخذه، فقال لي: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته، وما حملني على ذلك إلا أنني لم أجد غيره، فلما رجعت به إلى رحلي ووضعته في حجري: أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِيَ وشربَ معه أخوه حتى روي، ثم نام، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل[2]، فحلب منها ما شرب، وشربتُ معه حتى انتهينا ريًا وشبعًا،

(١) حمارة.

(٢) حافل: اجتمع فيه اللبن.

فبتنا بخير ليلة، فلما أصبحنا، قال لي زوجي: تعلمين - والله - يا حليمةُ، لقد أخذت نسمة مباركة، قلتُ: والله، إني لأرجو ذلك، ثم خرجنا وركبت أتاني وحملتَه عليها معي، فوالله، لقطعت بالركب: ما يقدر عليها شيء من حمرهم حتّى إن صواحبي قلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك اربعي[١] علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فقلت لهن: بلى والله إنها لهي هي، فقلن: والله إن لها لشأنًا. ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدبَ منها، فكانت غنمي تروح على - حين قدمنا به معنا - شباعًا لُبَنًا[٢] فنحلب ونشرب، وما يحلبُ إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرع راعي بنت أبي ذُؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لُبَنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه (أي سنتا رضاعه) وفَصَلْتُه، وكان يَشِبُّ شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا خفرًا «غليظًا شديدًا» فقدمنا به على أمه، ونحن أحرصُ شيء على مُكْثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بنيَّ عندي حتى يغلظ؛ فإني أخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به، وبعد مقدمنا بأشهر، وإنه لفي بهم[٣] لنا مع أخيه خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يشتدّ، فقال لي، ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان، عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائمًا منتقعًا «متغيرًا» وَجْهُهُ فالتزمتهُ والتزمَه أبوه، فقلنا له: مالك يا بنيّ؟ قال: جاء لي رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقّا بطني، فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو، فرجعنا به إلى خبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أصيب؛ فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك له، فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقْدَمَكِ به يا ظِئْرُ[٤] وقد كنت حريصةً عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت لها: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي عليّ وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا شأنك، فاصدقيني خبَرَك، فلم

---

(١) ربعت الإبل: سرحت في المرعى وأكلت وشربت كيف شاءت.
(٢) كثيرة اللبن.
(٣) البهم: واحدة بهيمةٌ: صغار الغنم.
(٤) الظئر: العاطفة على ولد غيرها المرضعة له.

تدعني حتى أخبرتها. قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبنيّ لشأنًا، أفلا أخبرك به؟ قلت: بلى. قالت: رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج منّي نورٌ أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله، ما رأيت من حمل قط كان أخفّ عليّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلقي راشدةً.

هكذا كان استرضاعه ﷺ في بادية بني سعد، شأنه شأن أبناء سادات قريش، يرضعون أولادهم في البوادي ليصحوا أجسامًا، ويفصحوا لسانًا، ويقووا جنانًا، ولقد قال مرة ﷺ معتزًا بشرف أصله واسترضاعه في البادية: «أنا أعربكم، أنا قرشي وَاسْتُرْضِعْتُ في بني سعد بن بكر».

نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نوجزها فيما يأتي:

١ - بيان عدد مرضعاته ﷺ وأنهن ثلاث: الأم السريّة آمنة، وثويبة مولاة عمه أبي لهب، وحليمة السعدية ﵂.

٢ - بيان مدة رضاعه، وأنها كانت حولين كاملين، وهي المدة التي قررها الإسلام.

٣ - بيان ما نال حليمةَ السعدية وأسرتَها من خير وبركة، وما فازت من شرف - لا يُقَادَرُ قَدْرُه - بإرضاعها رسول الله ﷺ وحبها له.

٤ - حبّ النبي ﷺ موجب للخير دافع للشرّ؛ فإن حب أبي لهب له لما بشر بولدته نفعه، فرؤي في المنام وإنه يعذب لموته على الشرك والكفر إلا أنه يمتص من أنملته ماءً كل يوم اثنين وهو يوم ولادته ﷺ وتبشيره به.

٥ - تقرير الإسلام لمشروعية الإرضاع حولين كاملين لمن أراد ذلك.

٦ - بيان إعداد الله تعالى عبدَه ورسولَه محمدًا ﷺ لتلقّي الوحي عنه بشق صدره، ونَزْعِ مغمز الشيطان منه حتى لا يبقى له محل ينزل به ليوسوس.

٧ - بيان آيات نبوّته التي رأتها آمنة والدته يوم حَمْلِها ويوم وَضْعِها.

٨ - جواز الاعتزاز بالخير الذي يعطيه الربُّ تبارك وتعالى عَبْدَه، ويكرمه به. لكن مع شكر المنعم سبحانه وتعالى على ما أولى العبد من خير وفضل.

كفلاء الحبيب محمد ﷺ وحاضنته

لقد عاد بالحبيب ﷺ مرضعته حليمة السعدية لتكفله أمُّهُ آمنة، ويرعاه جده عبدالمطلب، واللهُ تعالى كالئُ الكلِّ وحافظهم، وبهذا كانت آمنة الوالدة أول كافل للنبيِّ ﷺ في صباه، وشاء الله تعالى أن خرج آمنة بغلامها الزكيِّ النقيِّ الطاهر إلى يثرب «المدينة النبوية» لتُزيره أخوالَه من بني عدي بن النجار إذ هم أخوالَ أبيه، وخالُ الأب خالُ الابن، لأن أمَّ عبدالمطلب والد عبدالله هي سلمى بنت عمرو النجاريّة. ولما وصلت آمنة الأبواء - عائدة من المدينة إلى مكة - أدركتها المنيّة فماتت بها، وحضنت الحبيبَ محمداً الغلام اليافع مولاةُ أبيه أم أيمن بركة - باركها الله ورضي عنها - إنها أم أسامة حب رسول الله ﷺ ابن حبه زيد بن حارثة مولاه - رضي الله عنه وأرضاه -، فوصلت به حاضنته أم أيمن مكة المكرمة، فسلمته إلى جده عبدالمطلب فكفله، فكان ثاني الكفلاء لرسول الله ﷺ، ولقد لقي محمد الغلام الطاهر من الحفاوة والتكريم والإجلال والتقدير من جده الكفيل ما لا يقادر قدره، ولا يُعْرف مداه.

ومات الجد الرحيم والكافل الكريم، وسنُّ النبيِّ ﷺ ثماني سنوات ليكفله - بوصيّة خصوصيّة من عبدالمطلب - عمُّه أبو طالب وهو شقيق أبيه، فكانَ أبو طالب ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ في صباه، ومازال في كفالته حتى بلغ سن الرشد، ثم لازمه أبوطالب العم الكفيل فلم يتركه ولم يسلمه لقريب ولا لبعيد حتى قبضه الله في السنة الحادية عشرة من البعثة النبويّة العظيمة. ومات أبو طالب - مع الأسف - على غير ملة الإسلام لما سبق في قضاء الله تعالى أنه يموت غَيْرَ مسلم، ولا رَادَّ لما قَضَى الله.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالتالي:

١ - بيان يُتم النبيِّ ﷺ؛ إذ مات والده وهو حمل لم يولد بعد، وماتت والدته وهو في السادسة من عمره، وفي القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

٢ - بيان مَنْ شرفه الله تعالى بكفال نبيّه أيام طفولته ﷺ.

٣ - بيان شرف بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ إذ أكرمها الله بحضانته بعد وفاة أمه ﷺ.

ع - تقرير عقيدة القضاء والقدر، وأن السعيد من سَعَدَ في بطن أمه، والشقيُّ من شَقِي في بطن أمه كذلك،، إذ رفعت الأقلام وجفت الصحف بما هو كائن.

ه - بيان أن فعل الخيـر لا يعدم فاعله جوازيه (١) فإن أبا طالب أخبر النبيُّ ﷺ عنه أنه في النار لموته على غير الإسلام، وأخبر أنه يُخَفَّف عنه العذابُ؛ لما قدَّم لرسول الله ﷺ من عون وحماية طيلةَ حياته معه في مكة.

مظاهر الكمال المحمدي قبل النبوة

إن الفترة التي قضاها الحبيب ﷺ من أيام طفولته إلى يوم مبعثه، كانت حقًا زاخرة بمظاهر الكمالات المحمدية، وكلُّها دلائل لنبوّته، وآيات كمالاته. وها نحن أولاء نستعرض مع القارئ الكريم طرفًا منها؛ طلبًا لكمال محبته واليقين في الإيمان به ﷺ.

وإن أول تلك المظاهر الكمالية الاستسقاء به ﷺ وهو طفل لم يبلغ بعد، فقد ذكر الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في مختصره أن ابن عساكر روى عن جُلْهُمَة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيالُ، فَهَلُمَّ فاستسقْ. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلب عنه سحابة قتماء حولَه أغيلمة فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام، وما في السماء قُزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق، وانفجر الوادي وأخصب النادي والبادي. وفي هذا قال أبوطالب:

وأبيض يُسْتَسقى الغمامُ بوجهه
ثمال اليتامى (٢) عصمة للأرامل (٣)

فهذه إحدى الكرامات الإلهية للحبيب ﷺ، وهو مظهر من مظاهر الكمال؛ إذ ألهم الله تعالى أبا طالب أن يَسْتسقى به ﷺ وهو طفل، فيأخذه ويأتي به إلى الكعبة، ويلصق ظهره بها ويرفع الغلام بين يديه، ولسان حاله يقول: اسقنا ربَّنا؛ فقد توسلنا (٤) إليك بهذا الغلام المبارك، فيسقيهم الله تعالى حتى يجرى واديهم وتخصب أراضيهم. فكانت هذه من

---

(١) الجوازي: جمع جازية، أي لا يعدم جزاء عليه.

(٢) غياثهم وملجؤهم.

(٣) المساكين من الرجال والنساء، وعصمتهم: أي يمنعهم من الضياع ويسد حاجتهم.

(٤) توسلهم كان بحبهم وتعظيمهم له ﷺ فلذا سقاهم الله تعالى.

طلائع النبوة وتباشيرها.

نتيجة هذا المظهر:

إن نتيجة هذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي، هي تقرير النبوة المحمدية وتأكيدها؛ لتثمرَ بعد ذلك حبٌّ النبي ﷺ ، وتُعلُّقَ القلب به حتى يكون أحبَّ إلى المرء من نفسه التي بين جنبيه، ويصبح المحب مستعدًا - نفسًا - لترك ما يحبّ لمحبوبه ﷺ ، وبذلك تتم اطاعة لرسول الله ﷺ ومتابعته فيما جاء عقيدةً وعبادة وخُلقًا وأدبًا، وهذه سبيل النجاة من المرهوب، والظفر بالمحبوب في الدارين، وتلك غاية الطالبين الصالحين.

وثاني تلك المظاهر للكمال المحمدي: أنه ﷺ لم تكشف له عورة قط بعد أن حدث له مرةً، وهو ينقل الحجارة مع رجالات قريش لبناء الكعبة المشرفة وكانوا يرفعون أُزُرَهم علي عواتقهم يتقون بها ضرر الحجارة، وكان هو ﷺ يضع الحجارة علي عاتقه وليس عليه شيء، فرآه عمه العباس ﷺ فقال له: لو رفعت من إزارك على عاتقك حتى لا تضرك الحجارة، ففعل ﷺ فبدت عورته، فوقع على وجهه فوق الأرض، ونُودي: «استر عورتك» أي ناداه ملك، فما رُويتْ له بعد ذلك عورة أبدًا.

نتيجة هذا المظهر:

إن لهذا المظهر نتائج هي كالتالي:

١ - عناية الله تعالى لنبيه ﷺ ، وحفظه له من كل ما يسيء إلى مقامه الرفيع، ومكانته السامية.

٢ - كشف العورات مما جاء الإسلام بتحريمه ومَنعِه إلا من ضرورة تطبيب ونحوه.

٣ - بيان مشاركة النبيّ ﷺ قَوْمَه فيما هو خَيْرٌ ومعروف، وهو مظهر من مظاهر كماله ﷺ ذاتًا وروحًا وخلقًا.

وثالث مظاهر الكمال: أنه ﷺ قد بَغّضَ اللهُ تعالى إليه الأوثانَ وكلَّ أنواع الباطل التي كان يأتيها فتيانُ قريش ورجالاتُها من الغناء وشرب الخمر والقامر وسائر الملاهي، وقد أخبر ﷺ عن ذلك عن نفسه فقال: «لما نشأت بُغّضَتْ إليَّ الأوثانُ وبُغّض إليَّ الشعر، ولم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد

من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قُلْتُ ليلةً لغلام كان يرعى معي: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة؛ فأسمر كما يسمر الشباب، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس كان لبعضهم، فجلستُ لذلك، فضربَ الله على أذني؛ فَنِمْتُ فما أيقظني إلا حرُّ الشمس، ولم أقضِ شيئًا، ثم عراني مثل ذلك مرة أخرى»[1].

نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل مبعثه ﷺ نتائج، هي كما يلي:

١ - حماية الله لرسوله ﷺ من كل ما يسيءُ إلى سامي مقامِه وعظيم منزلته (فداه أبي وأمي).

٢ - بيان رَعْيِه ﷺ الغنمَ في البادية، وهي سُنة الأنبياء من قبله؛ فقد قال ﷺ: «ما من نبيّ إلا وقد رعى الغنم» فقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: «ولا أنا، فقد كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة».

٣ - إن الحكمة من رَعْي الأنبياء للغنم، هي الإعداد لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين؛ لأن الغنم - وهي الضأن والمعز، أضعفُ من الإبل والبقر، وأحوج إلى الرفق، والإنسان أضعف منها؛ ولذا يحتاج إلى سياسة الرفق واللين، وعدم الشدة والعنف.

ورابع المظاهر للكمال: هو تحكيم قريش له في أعظم خلاف لها كاد يُفضي بها إلى الحرب والقتال، وذلك أن السيل كان قد طغى على الكعبة فغمرها بالمياه وزلزل بناءها وكاد يَهُدُّ أركانها، وتشاورت قريشٌ طويلاً في إعادة بناء الكعبة بعد الذي أصابها، وكانت تتهيَّب أن تمسَّ الكعبة بشيء لاسيما هدمها وتجديد بنائها؛ مخافة أن تنالها عقوبةٌ من الله ربِّ الكعبة وحاميها من كل كيد يُراد لها وبعد أخذ وردّ أقدمت على هدمها وتجديد بنائها بعدما أعدت لذلك عُدّته ومنه المال الحلال، وفعلاً وزعت أركانها على قبائلها، وشرعت في الهد والبناء، ولما ارتفع جدارُ الكعبة، وبلغ موضع الحجر الأسود: اختلفوا فيمن يتشرف بوضع الحجر مكانَه من الركن اليماني الشرقي، وتنافسوا في ذلك، وشحّوا به على بعضهم حتى كادوا يقتتلون.

وأخيرًا ألهَمَهم الله تعالى إلى تحكيم أول من يُقْبل من باب الصفا، وما زالوا كذلك

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه وافق عليه الذهبي.

حتى أقبل محمد ﷺ فما إن رأوه مقبلاً حتى قالوا: هذا الأمين رضينا به حكَمًا. وفعلاً رضي ﷺ بتحكيمهم له، فأمرهم أن يبسطوا ثوبًا، فوضعه فيه، ثم أمر ممثلي قبائل قريش أن يأخذ ممثلُ كلّ قبيلة بطرف ورفعوه، ولما حاذوا به مكانه من الجدار رفعه بيديه الكريمتين فوضعه مكانه، وبذلك حقنت دماء قريش، وعادت الألفة والمودة بين رجالات قريش. فكان هذا الحكم والتحكيم أكبر مظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل إنبائه وإرساله نبيًا ورسولاً.

نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدي نتائج هي فيما يلي:

١ - تقرير الكمال المحمدي الذي دل عليه وصف قريش له بأنه الأمين؛ إذ لم يُعْرف بخيانة في عرض ولا مال ولا قول ولا عمل قطُّ.

٢ - حسنُ السياسة التي بها حقنت دماء قريش التي كادت تسيل من شدة الخلاف واحتدامه.

٣ - إظهار شرف محمد ﷺ على كافة رجالات قريش بتحكيمهم إياه ورضاهم بحكمه، وبهذا - وغيره - قامت الحجةُ على أكثرهم في إنكارهم نبوتَه واعتراضهم على رسالته، واتهامهم إياه بالنقائص!! وهو أكملهم على الإطلاق.

وخامس المظاهر للكمال المحمدي: اعترافُ بحيرا الراهب بكماله وبنبوتِه ووصيته عمَّه أبا طالب به، وذلك أنه لما بلغ ﷺ الثانية عشرة من عمره - أو ما يقاربها - وأراد أبوطالب - وهو عمه وكافله - السفرَ إلى الشام صحبة قافلة تجاريّة: عزّ على أبي طالب أن يخلف محمدًا وقد امتلأ قلبه بحبه ﷺ.

وعزّ على محمد ﷺ أن يفارقه عمُّه كذلك، فتعيّنت الصحبة، فصحبه أبوطالب معه إلى الشام مجتازين ديار ثمود وبلاد مدين إلى الشام، وانتهوا إلى بُصرى من ديار الشام، فنزلوا منزلاً قريبًا من صَوْمَعَة راهب هو بحيرا، وكان بحيرا ذا علم بالمسيحية والكتب الأولى، وكان رأسًا في المنطقة لعلمه وفضله.

وشاء الله تعالى أن يُطلّ من أعلى صومعته، فيرى قافلة قريش وهي مُقْدِمَةٌ نحوه، وأن بينها غلامًا تظلله غمامة من الشمس. ولما وقفت القافلة للنزول، ونزلت رأى الغمامة تقف فوق الغلام لا تتعداه؛ تحفظه من حرّ الشمس، فعلم أنّ لهذا الغلام شأنًا. وكيف يصل إليه

ويُجْرِي الحديث معه ليعرف شأنه؟ فـما كان من الراهب إلا أن دعا القافلة إلى طعام عشاء عنده بعنوان ضيافة، وقبلت القافلة ذلك بعد تردد واسـتفسار عن مثل هذه الضيافة التي لم تحصل لقوافلـهم المتعددة قط، وطمأنهم بحـيرا لأنه لا غرض له إلا إكرامـهم، والتعرف على أحوالهم.

ولما حضر الطعام وتقدم الأكَلَةُ لم يَرَ بحيـرا الغلامَ الذي رأى الغمامة تظله فتعجب، وقال للقوم: هل تخلف من قـافلتكم أحد؟ فقالوا: لا، فقـال: بلى، أين الغلام الذي كان معكم؟ فجاءوا به، وقد تخلف لصغره وحيائه أن يطعم مع رجالات قريش، فبقي في رحل عمه، فلما جاء وجلس أخذ بحيرا يلحظه ويتأمله، ولما انصرف القوم قام بحيرا إلى محمد ﷺ، وقال له: يا غلام أسـألك بحق اللات والعزى - جريًا على حلف العـرب بهما - إلا أخبرتني عما أسـألك عنه، فقال له رسول الله ﷺ: **«لا تسألني باللات والعزى؛ فوالله ما أبغض شيئًا قـط بُغْضَهُما»**. فقال له: أسألك بالله إلا أخبرتنـي عما أسألك عنه. فقال له ﷺ: **«سل عما بدا لك»** فجعل بحيرا يسأله عن أشياء عـن حاله في نومه وهيئته، فجعل النبي ﷺ يخبـره، فيوافق ذلك مـا عند بحيـرا من نعوت الرسول ﷺ وصـفاته التي عرفها من الكتب السَّابقة، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفـيه - وكان مثل أثر المحجم - ثم التفت الراهبُ بحيرا إلى أبي طالب، فسأله عن الغلام فأخبره فعلم أنه النبيّ المنتظر، وأمره أن يعـود به إلى دياره؛ مخافة أن يغتاله يهود إذا رأوه وعلموا به، فـقضى أبوطالب حاجته من تجارته بسرعة وعاد بابن أخيه مُسْرِعًا إلى مكة.

نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدي نتائج نجملها فيما يلي:

١ -بيان مدى حُبِّ أبي طالب للنبي ﷺ.

٢ -آية تظليل الغمامة للنبي ﷺ.

٣ -تقرير النبوة المحمدية بشهادة بحيرا الراهب.

٤ -عصمة النبي ﷺ قبل بعثته من الشرك لبغضه الحلفَ باللات والعزى أشدّ بغض.

٥ -حرمة الحلف بغير الله تعالى، وأن الحلف بغير الله شرك.

وسادس المظاهر للكمال المـحمدي: حضورهُ ﷺ حلف الفضول. وإنّ حلف الفضول كان بعـد حرب الفجار التي كانت حربًا فـجر فيها أهلُها بانتهـاكهم حرمة

الشهر الحرام، وقد دارت تلك الحرب بين كنانة وقريش من جهة، وقيس من جهة أخرى، وكان سببها تافهًا لم يَعْدُ قتلَ رجلٍ من قيس تداعى بَعده الأحلاف للقتال، ولما انتهت تلك الحرب الفاجرة الخاسرة؛ إذ هي من عمل الجاهلية: دعت قريش إلى حلف الفضول، وسببه أن رجلاً من زبيد جاء مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل - وكان ذا قدر وشرف في مكة - فمنعه حقَّه فاستعدى الزبيدي الأحلافَ على العاص، وهم عبدالدار ومخزوم، وجُمَح، وسهم، وعديّ فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، فما كان منه إلا أن علا جبال أبي قبيس، وصاح بشعر يصف فيه ظُلامته، وعنها مشى الزبير بن عبدالمطلب، وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرج في دار عبدالله ابن جدعان، ومعهم النبي ﷺ وكان عمره إذْ ذاك عشرين سنة، فصنع لهم عبدالله طعامًا وتحالفوا وهم في شهر ذي القعدة - أي حلف بعضهم لبعض - متعاهدين متعاقدين بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقَّه ما بل بحر صوفة، فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» وقالوا قد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، وانتزعوا منه حق الزبيدي. وفي هذا قال الزبير ابن عبدالمطلب وهو عم النبيّ ﷺ:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا
ألا يُقيم ببطن مكة ظالمُ

أمرٌ عليه توافقوا وتعاقدوا
فالجار والمُعتَرُّ فيهم سالم

وفي هذا الحلف يقول الرسول ﷺ في الإسلام: **«لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلفًا ما أُحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدْعى به في الإسلام لأجبتُ»**.

وعبدالله بن جدعان هذا، هو الذي كان يكسو ألف حلة وينحر ألف بعير في كل موسم. وقالت فيه أم المؤمنين عائشة ﵂: إن عبدالله بن جدعان - يا رسول الله - كان يُطعم الطعام ويَقْري الضيفَ، فهل ينفعه ذلك يوم الدين؟ فقال: **«لا؛ لأنه لم يقل يومًا من الدهر: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**[1].

(١) رواه مسلم. وعبدالله بن جدعان يكنى بأبي زهير، وهو تيميّ من قرابة عائشة؛ ولذا سألت عنه ﵂.

نتائج هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدي نتائج وعبراً نلخصها فيما يلي:

١ - شعور أهل الجاهلية بالخطيئة وكراهيتهم لها، ولذا سموا الحرب التي انتهكوا فيها حرمة الحرم بحرب الفجار، وهو فعال من الفجور، إذ تبادلوا فيه الفجور، فصار فعالاً من باب «فاعَلَ» كقاتل قتالاً.

٢ - بيان ظلم وطغيان العاص بن وائل، وهو الذي وقف في وجه الدعوة الإسلامية يحاربها حتى مات إلى جهنم.

٣ - بيان مروءة الزبير بن عبدالمطلب، إذ هو الذي كان السبب في تكوين حلف الفضول، وإعادة حق الزبيدي إليه بعد انتزاعه من العاص بن وائل.

٤ - بيان فضل بني هاشم على غيرهم. وحَسْبهم شرفًا: مفاخِرُهم الجمة وكونُ النبي ﷺ منهم.

٥ - تقرير الكمال المحمدي وتأكيدُه بحضوره ﷺ هذا الحلف، ومفاخرته به في قوله الثابت الصحيح: «**لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمْرَ النَّعَم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبتُ**».

٦ - عدم انتفاع العبد بما يعمله من الخيرات والصالحات إذا مات مشركًا؛ لقول الرسول ﷺ لعائشة - وقد سألته عن عبدالله بن جدعان ـ: «**إنه لم يقل يومًا من الدهر: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**». أي لا ينفعه عمله الصالح لموته على الشرك والكفر.

وسابع الكمالات المحمدية هو: رغبة خديجة فيه، وزواجها به ﷺ. إنه ﷺ لما تجاوز العشرين من عمره، وحضر حلف الفضول، وقَبْلَه تحكيم قريش له في وضع الحجر الأسود، واشتهاره بالصدق والوفاء والأمانة والعفة والنزاهة زيادة على شرف الأصل، وطيب المحتد، وكان بمكة امرأة سَرِيّة ثَرِيَّة ذات كمالات نفسيّة من خلق فاضل، وأدب رفيع، تلك هي خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ؓ وقد بلغها من مظاهر الكمال المحمدي ما جعلها تعرض عليه الاتجار بمالها، ليوفر له دخلاً ماديًا يستغني به عن كفالة عمه أبي طالب ورفادته، ورضي الحبيب محمد ﷺ بالعرض وقَبِلَ الطلب وخرج في قافلة تجارية إلى الشام، ويصحبه لخدمته غلامُ خديجة المسمّى بميسرة. وهذا المرة الثانية التي يسافر فيها ﷺ إلى الشام؛ إذ الأولى كانت مع عمه وفي صباه، وقد تقدم الحديث

عنها في رابع الكمالات المحمدية.

ومن الآيات التي شاهدها ميسرة في سفره مع الحبيب ﷺ أنه رأى ملكين يظللانه من حر الشمس إذا اشتدت الهاجرة، كما أنه ﷺ نزل يومًا تحت ظل شجرة قريبة من صومعة راهب، فرآه الراهب، فسأله ميسرة عنه، فقال له: هو رجل من أهل الحرم قرشيٌ، فقال له الراهب: إنه ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيٌ، وذلك لما شاهد من آيات النبوّة التي تلوح لكل ذي بصيرة وتأمل.

كما قال الأعرابي الذي نظر لأول مرة إلى الحبيب ﷺ فقال: والله ما هو بوجه كذاب!!.

وعاد الحبيب ﷺ بتجارة رابحة وسُرّت خديجة، وزادها سرورًا ما أنبأها به غلامُها ميسرةُ من خبر الراهب وأمر الملكين اللذين يظللانه من حر الشمس. فرغبت لذلك - ولغيره - في الزواج به ﷺ وعمرُه يومئذ خمسة وعشرون عامًا، وعمرها ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين من السنين. وقد تزوجت قبله ﷺ أبا هالة زرارة التميمي، وتزوجت قبل هذا بعتيق بن عائذ المخزومي، وولدت له ابنًا يُدعى هندًا وبهذا كان كلٌ منْ هند وهالة ربيبًا للنبيّ ﷺ.

خطبة الزواج الميمون:

وكانت الخطبة كالتالي: بعثت خديجةُ إليه ﷺ تقول: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وَسِطَتك[1] في قومك، وحسن خلقك، وصدّق حديثك، ثم عَرَضت عليه نفسها ليتزوجها. وكانت ﵂ يومئذ من أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهنّ شرفًا وأكثرهن مالاً، وكل واحد من قومها كان حريصًا على الزواج بها لو يقدر على ذلك.

فذكر ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبدالمطلب، وأبوطالب، حتى دخلا على والدها خويلد بن أسد، فخطباها إليه فزوجها، وأصدقها رسول الله ﷺ عِشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج غيرها حتى توفاها الله، وانتقلت إلى جواره، وكل أولاده[2] ﷺ منها إلا ما كان من إبراهيم، فإنه ابن

---

(١) شرفك وسيادتك.

(٢) الذكور هم: القاسم، وبه يكنى ﷺ، وعبدالله، والطيب. والإناث: فاطمة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم - على جميعهم السلام -.

مارية القبطية المصرية.

نتائج وعبر هذا المظهر:

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدي نتائج وعبراً نجملها إزاء النقاط التالية:

١ - تقرير النبوة المحمدية برؤية الملكين يظللانه من حر الشمس.

٢ - شهادة الراهب له بالنبوة، وهي شهادةُ عالم وكفى بها شهادةً.

٣ - بيان ما حبا الله تعالى به نبيّه من الكمالات النفسيّة التي رغبت خديجة في الزواج به.

٤ - مشروعيةُ إبداء المرأة رغبَتَها في الرجل تريد الزواج به.

٥ - مشروعيةُ الخطبة للزواج، وتولّي ذلك قريبٌ الزوج، كما تولى حمزة وأبوطالب خطبة خديجة من والدها خويلد بن أسد.

٦ - بيان شرف خديجة أم المؤمنين، وهي حقًا سيدة نساء أهل قريش، وقد جاء جبريل - عليه السلام - ببشارة لها من أعظم البشريات، جاء بها من الله عز وجل وهي: إن الله يقول لك - يريد رسول الله - أقرئْ خديجة منّي السلامَ، وبشِّرْها بقصرَ في الجنة من قصب[1].

دنو ساعة طلوع الشمس المحمدية

لقد بلغ الحبيب الآن الأربعين من عمره ﷺ، وأخذت ساعة طلوع الشمس المحمدية تقترب، وها هو ذا ﷺ - إن غدا لحاجة أو راح - لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت حوله يمينًا وشمالاً فلا يرى أحدًا سوى الشجر والحجر يُسَلّم عليه.

فكانت هذه مقدمة الإنباء العظيم.

طلوع الشمس المحمدية

وفي ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول، طلعت الشمس المحمدية؛ حيث صار لا يرى رؤيا - في ليله ولا نهاره - إلا جاءت كفلق الصبح، وهذا الزهري - يَروْى عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها - قولها: إن أول ما بُدِئَ به رسولُ الله

(١) ذهب.

ﷺ من النبوّة - حين أراد الله كرامته، ورحمة العباد به - الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحُبب إليه الخلوة: فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلُوَ وحده. واختار ﷺ لخلوته المحببة إليه جبل حراء - وهو أحد جبال مكة المطلة عليها - فكان يخلو به مجاوراً فيه، يتحنث - أي يزيل الحنث عنه - وهو ما يراه ويسمعه من الشرك والباطل بين أفراد قومه من قريش. وفي ليلة من ليالي رمضان المبارك - ولعلها السابعة عشرة منه - نزل عليه جبريل - عليه السلام - يحمل بشرى النبوّة تمهيداً لحمل الرسالة إلى الناس كافة.

وها هو ذا إمام المحدِّثين البخاري - رحمه الله تعالى ورضي عنه - يروي لنا عن أمنا عائشة ﵂ قصة بدء الوحي. إذ تقول: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتَحنّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع[1] إلى أهله، وتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطّني[2] حتى بلغ منّي الجُهْدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق ١ - ٥]. فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زمّلوني[3] زمّلوني» فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ[4]. فقال - لخديجة، وأخبرها الخبر -: «لقد خشيتُ على نفسي»، فقالت: كلا - والله - ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[5]، وتكسب المعدوم[6]، وتَقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

---

(١) ينزع: يرجع.

(٢) غطني: ضمني إليه وعصرني كما تضم الأم ولدها إلى صدرها رحمة به وشفقة عليه.

(٣) أدخلوني في ثياب وغطوني بها.

(٤) الروع: الفزع والخوف.

(٥) الكل: التعب الحَسِيرُ من الإعياء.

(٦) إنك بعزمك وقوة إرادتك تفوز وتظفر بما لا يحصل عليه غيرك، هذا إن قرئ بفتح التاء «تَكْسِب»، وإلا فمعناه أنك تعطي ما لا يعطيه غيرك من المال وغيره.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ - تقرير سنة غالبة، وهي أن الأنبياء يُرْسَلون على رأس الأربعين من أعمارهم.

٢ - بيان آية من آيات النبوة المحمدية، وهي سلام الأشجار والأحجار عليه ﷺ.

٣ - تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة، إذ فترة الوحي كانت ثلاثًا وعشرين سنة، منها ستةُ أشهر كانت منامًا.

٤ - مشروعية العزلة إذا فسد الناس وأصبح المؤمن لا يسلم من شرهم.

٥ - بيان أنَّ أول ما نبِّئَ به النبي ﷺ هو ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وأنَّ النبوة كانت قبل الرسالة؛ إذ نُبِّئَ ﷺ باقرأ، وأُرْسِلَ بالمدثر، وبينهما فترة من الزمن.

٦ - تعين القراءة على المسلم وطلب العلم والتعليم، إذ مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

أشعة الشمس المحمدية تضيء دار خديجة وتطلع على ورقة بن نوفل

ما إن جاء ﷺ خديجةَ وقَصَّ عليها حتي قالت له: أبشر يا ابن عم فوالذي نفْسُ خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة، ثم جمعت عليها ثيابها، وانطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان قد تنصَّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، وقالت: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبر الذي أنزل علي موسى، يا ليتني فيها جذَع، ليتني أكون حيًّا إذْ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مُخْرِجيَّ هم»؟ قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجل قط بما جئتَ به إلا عودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

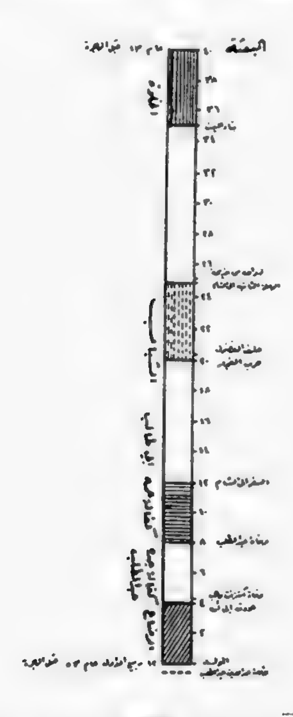
وكان الحبيب ﷺ لم يقض المدة التي يقضيها في غار حراء متحنثًا فعاد إلى حراء لإتمامها. فلما قضاها وعاد من جواره، بدأ بالبيت كعادته، فطاف سبعًا، فلقيه ورقةُ وهو يطوف - فقال: يا ابن أخي، أخبرني بما رأيتَ، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبيّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس[1] الأكبر الذي جاء موسى،

(١) المراد بالناموس جبريل - عليه السلام -، وأصل الناموس أنه صاحب سرّ الرجل في الخير والشر.

وَلَتُكَذَّبَنَّه وَلَتُؤْذَيَنَّـهْ، وَلَتُخْرَجَنَّهْ، وَلَتُـقَاتَلَنَّهْ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصـرنَّ الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبَّلَ يافُوخَه[1] ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

وحمل خديجة حرصُهـا علي تجلِّي الحقيقة ومعرفة الأمر على حقـيقته ليكون إيمانها بعلم ويقين، فأجرت الاختبار التالي:

فقـالت لرسول الله ﷺ : يا ابن عم، هل تستطـيع أن تخبرني بصـاحبك هذا الذي



(١) اليافـوخ: وسط الرأس. روى الترمـذي عنه ﷺ : «أنه رأى ورقة في المنام وعليـه ثياب بيض»، وورد أيضًا قولُه ﷺ : «رأيت القسَّ في الجنة وعليه ثياب الحرير؛ لأنه أول من آمن بي».

يأتيك إذ جاءك؟ قال: «نعم». قالت: فإذا جاءك فأخبرني، فجاءه جبريل - عليه السلام - كما كان يجيئه، فقال رسول الله ﷺ لخديجة: «يا خديجة! هذا جبريل قد جاءني»، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله ﷺ، فجلس على فخذها اليسرى، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم» قالت: فتحوَّل فاجلسْ على فخذي اليمنى، فتحول وجلس وقالت: هل تراه؟ قال: «نعم» قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم». فتحسرت وألقت خمارها - ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في حجرها - ثم قالت: هل تراه؟ قال: «لا»، قالت: يا ابن عم اثْبُتْ وأبشر؛ فوالله إنه ملك، وما هذا بشيطان.

وبهذا كانت خديجة أول من استضاء بنور النبوّة المحمدية وأول من آمن برسول الله ﷺ والوحي الذي جاءه، كما أن ورقة كان من الفائزين بالأسبقية لولا أن المنيّة اخترمته فلم يشهد ضحى الشمس المحمدية.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نُلَخِّصُها كالآتي:

١ - بيان كمال عقل خديجة وصحة علم ورقة، وفضل كل منهما وكماله الروحي.

٢ - بيان ذكاء خديجة وسلامة فطرتها بإجرائها ذلك الاختبار العجب الذي كانت نتيجته تقرير النبوّة المحمدية فآمنت على علم وبيقين فرضي الله عنها وأرضاها.

٣ - الملائكة تكون مع الحياء والستر، والشياطين تكون مع التفحش والوقاحة والعُرْي.

٤ - استحبابُ ستر المرأة رأسها ولو في خلوتها؛ حتى لا تقربها الشياطين.

فتور الوحي وعودته

إنه بعد تلك المفاجأة السارة له ﷺ ولخديجة ﵂ وورقةَ بن نوفل - غفر الله له - فتر الوحيُ وانقطع قرابةَ الأربعين يومًا. ومات ورقة، واشتد الألم النفسي بالحبيب ﷺ حتى صرح لخديجة بأنه خائف على نفسه، بل كان كالهائم على وجهه في جبال مكة وشعابها، وكان كلما اشتد به الحزن تبدّى له جبريل يقول له: يا محمد، إنك رسول الله حقًا، فيخفُّ عنه حزنه، ويقلّ ألمُهُ. وتمضي الأيام وفجأةً - وهو يمشي - يسمع صوتًا

من السماء فيرفع بصره، فإذا الملك الذي جاءه بغار حراء قاعد على رفرف[1] بين السماء والأرض، فرعب منه أشدَّ الرعب، ورجع إلى أهله يقول: زملوني زملوني[2] فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر ١ - ٧].

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نلخصها فيما يلي:

١ - تشويقُ الرسول ﷺ إلى الوحي بانقطاعه عنه مدة من الزمن، الأمرُ الذي تألم له رسول الله ﷺ أشد الألم.

٢ - لطف الله تعالى ورحمته بنبيِّه ﷺ إذ كان يرسل إليه جبريل يناديه ويطمئنه ويبشره بأنه رسول الله حقًّا.

٣ - بيان أول ما أرسل به ﷺ وهو النذارة، والبشارة لازمة لمن قبل النذارة فآمن ووحّد الله في عبادته، وتابعَ الرسولَ فيما جاء به.

صور الوحي المحمدي

إن الوحي هو الإعلام السريع الخفيّ، وله مع رسول الله ﷺ صور، جاء ذِكْرُ بعضها في قول الله تعالى من سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وبيان تلك الصور كالتالي:

١ - الرؤيا الصالحة الصادقة في النوم، وقد بدئ بها الوحي إلى رسول الله ﷺ واستمرت لمدة ستة أشهر؛ إذ قالت عائشة ﵂: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح.

٢ - الإلقاء في الرُّوع والنفث فيه، لقوله ﷺ: «إن روح القُدُس نفث في رُوعي: أنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقَها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم

(١) الرفرف: البساط من إستبرق، والإستبرق الحرير الغليظ.

(٢) التزمل والتدثر بمعنى واحد وهو التلفف في الثياب للتدفئة وذهاب الفزع.

استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته»[1].

٣ - أن يأتي في مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك عن نفسه في حديث البخاري إذ قال ﷺ - وقد سأله الحارث بن هشام عن كيفية إتيان الوحي له - فقال: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده عليَّ - فينفصم عني وقد وعيت عنه ما قاله».

٤ أن يأتيه الملك في صورة رجل، فيوحِي إليه ما شاء الله، وهو أهون عليه لوجود التجانس المطلوب عادة للتفاهم بين المتخاطبين، وقد جاء هذا أيضًا في حديث البخاري، إذ جاء فيه قوله: «وأحيانًا يتمثل لي رجلاً فيكلمني فأعِي ما يقول». وكثيراً ما كان يأتيه ﷺ جبريل - عليه السلام - في صورة دحية بني خليفة الكلبي الأنصاري.

٥ - أن يخاطبه الربّ عز وجل كفاحًا من وراء حجاب، كما تَمَّ ذلك له ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث فرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، وتردد عليه في ذلك عدة مرات؛ يسأله التخفيف، وكان ذلك بإرشاد موسى - عليه السلام -، وكما تم لموسى - عليه السلام - بجبل الطور عدة مرات، فكان يسمع كلامه ولا يرى وجهه.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١ - تقرير الوحي المحمدي وإتيانه.

٢ - بيان صور الوحي التي كان ينزل عليها.

٣ - تقرير أن الرؤيا الصالحة من الوحي.

٤ - ذم الحرص من عبد يؤمن بالقضاء والقدر.

٥ - بيان حقيقةٍ، وهي أن ما عند الله ينبغي أن يُطْلب بطاعته تعالى لا بمعصيته.

٦ - تقريرُ سنّةٍ، وهي أن التجانس ضروري لحصول التفاهم بين المتخاطبين.

٧ - بيان شرف دحية بن خليفة الأنصاري إذ كان جبريل يأتي في صورته.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا وأخرجه الحاكم وصححه.

٨ - أكمل صور الوحي ما كان كفاحًا[1] مع الله عز وجل بلا واسطة.

بدءُ الحبيب ﷺ دعوته وأول من أسلم

إن عودة الوحي كانت حامية حارّة إذ أمر فيها رسول الله ﷺ بإنذار قومه عاقبة ما هم فيه من الشرك، وما هم عليه من الكفر والفساد والشر، كما أمر هو ﷺ بتعظيم الله عز وجل وتوحيده، ثم بتطهير ثيابه من النجاسات؛ لأنه أصبح يتلقّي الوحي في كل حين، فتعيّن أن يكون ﷺ على أتم الأحوال وأحسنها، كما أُمِرَ بالاستمرار على هجر الأوثان، والبعد عنها، وعدم الالتفات إليها بحال من الأحوال. كلُّ هذا تضمّنه قولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

ومن هنا بدأ ﷺ دعوته بعرضها على من يرى فيه الاستعداد لقبولها، فكان أول من أسلم من النساء خديجة بنت خويلد أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -. وأول من أسلم من الصبيان عليّ بن أبي طالب ﷺ إذ أسلم وعمره عشر سنين، وصلى مع رسول الله ﷺ مختفييْن بصلاتهما عن أعين قريش.

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق ﷺ، واسم أبي بكر قبل الإسلام: عتيق، واسم أبيه عثمان بن عمرو التيمي القرشي، وكنية عثمان أبو قحافة.

وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة بن شُرَحْبيل الكلبي، وكان عبداً لحكيم ابن حزام، فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد - وهي زوجة لرسول الله ﷺ يومئذ - فاستوهبه منها رسول الله ﷺ فوهبته إياه فأعتقه ﷺ وتبنّاه، وذلك قبل البعثة النبويّة، وكان زيد قد خرجت به أمه - وهو ابن ثمانية أعوام لتُزيره بعض أقربائه - فأصابته خيل من بني القين، فباعوه في سوق حَبَاشَة من أسواق العرب، فاشتراه حكيم ابن حزام في جملة أعبُد، ووهبه خديجة كما تقدم، وقد حزن لفراقه والدُه، وقال فيه قصيدةً منها الأبيات التالية:

بكيتُ على زيد ولم أدر ما فعل
أحيٌّ فيُرجَى أم أتى دونه الأجلُ

---

(١) يُقال: لقيتُ فلانًا كفاحًا. أي مواجهة ليس بينهما شيء.

نـوالله مـا أدري وإني لسـائل
أغالَكَ(١) بعدي السهلُ أم غالك الجبَلْ؟
ويا ليت شعري! هل لك - الدَّهر - أوبةٌ
فحسبي(٢) من الدنيا رُجوعُك لي بَجَل
تذكّرنيه الشمس عند طلوعها
وتَعْرِض ذكراه إذا غربُها أفَلْ
وإن هبت الأرياح هيّجن ذكره
فيا طول ما حزني عليه وما وَجَل(٣)
سأعمل نصَّ(٤) العيس في الأرض جاهداً
ولا أسأمُ التطوافَ أو تسأم الإبل
حياتي، أو تأتي عليَّ مَنيّتي
فكلُّ امرئ فانٍ وإن غرَّه الأمل

وبعد زمنٍ، قدم والده مكةَ وعرَف ولده زيداً وخيَّره الرسول ﷺ بين الذهاب مع والده وبين البقاء معه، فاختار رسول الله ﷺ ولذا أعتقه وتبناه وكان يُعْرف بزيد بن محمد حتى جاء الإسلام وحرم التبنّي؛ فأصبح يعرف بزيد بن حارثة بدل محمد ﷺ.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السير العطرة نتائج وعبراً، نجملها تحت الأرقام الآتية:

١ - بيان ما أمر به رسول الله ﷺ بعد فترة الوحي من النذارة والتوحيد، والطهارة والاستمرار على هجران الأوثان.

٢ - بيان أن أول من أسلم من النساء خديجة، ومن الصبيان علي، ومن الرجال أبوبكر، ومن الموالي زيد بن حارثة - رضي الله عنهم أجمعين -.

٣ - بيان سبب عتق زيد وتبني الرسول ﷺ له، وهو اختياره للرسول ﷺ دون والده وعمه.

(١) أي أهلكك.
(٢) يكفيني.
(٣) الوجل: الخوف.
(٤) نص العيس: سير الإبل.

إسلام الصديق وأثره في الدعوة

لقد أسلم الصديق مبكرًا - إذ هو أول من أسلم من الرجال الأحرار، كما تقدم - وقد تَوَّجَهُ الرسول ﷺ بكلمة لم يظفر بها أحدٌ غير أبي بكر الصديق، وهي قوله ﷺ : «ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة[١] ونظرٌ وتردُّدٌ إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم[٢] عنه حين ذكرتُه له، وما تردد فيه».

وكان الصديق رضي الله عنه في سنٍّ قريبة من سنّ الرسول ﷺ ، وكان ذا حَسب ونسب في ديار مكة وبين سكَّانها وهو - وإن لم يكن هاشميًا - فهو تَيْمِيٌّ قُرشِيٌّ، يمتاز بحسن الخلق، وكرم النفس، والمعرفة بأنساب العرب حتى إنه ليُضربَ به المثل في ذلك.

وما إن أسلم رضي الله عنه عن قناعة وعلم بما دخل فيه من دين الله تعالى، حتى أخذ يتّصل بخيار رجالات قريش في مكةَ يعرض عليهم الإسلام سرًّا، فأجابه وأسلم على يديه نخبةٌ ممتازة كان لها الأثر الكبير في نشر الدعوة داخل مكة وخارجها. وأفراد هذه الطليعة هم:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبدشمس الخليفة الراشد - رضي الله عنه وأرضاه -، يكنى بأبي عبدالله، وبأبي عمرو ويلقب بذي النورين؛ لتزُّوجِه بابنتي رسول الله ﷺ : رقيّة، ثم أم كلثوم رضي الله عنهما.

الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى القرشي، يكنى بأبي عبدالله، وهو حواريّ رسول الله ﷺ ، وابن عمته صفيّة بنت عبدالمطلب.

عبدالرحمن بن عوف بن عبدالحارث بن زهرة القرشيّ، ذو الهجرتين - رضي الله عنه وأرضاه -.

سعد بن أبي وقاص واسمُ أبي وقاص - والد سعد - مالك بن أُهَيب بن عبدمناف القرشي، خال الحبيب ﷺ إذ جد سعد أُهيب عم آمنة بنت وهب أم النبيّ ﷺ . وكان رضي الله عنه مجابَ الدعوة حتى قيل فيه: احذَروا دعوة سعد[٣]. فرضي الله عن سعد وأرضاه.

طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي يكنى بأبي محمد الفياض أحد

---

(١) الكبوة: التأخير وقلة الاستجابة.

(٢) ما تَلَبَّثَ ولا تريَّث بل أجاب بسرعة.

(٣) روى أن سعدًا رضي الله عنه قال مرة للنبي ﷺ : ادع الله تعالى أن يجعلني مجاب الدعوة يا رسول الله. فقال له الرسول ﷺ : «أطِب مكسَبك تُجَبْ دعوتُك».

العشرة المبشرين بالجنة، قُتِلَ في وقعه الجمل - رضي الله عنه وأرضاه -.

فهـؤلاء النفر الذين أسلمـوا على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يُضـاف إليهم عليٌّ وزيد وأبوبكر الصديـق فيصبـحون ثمانيـة أنفار هم أهل السـبق في الإسلام؛ إذ آمنوا وصلّوا مع رسول الله ﷺ قبل كل أحـد من الناس باستثناء السيـدة خديجة رضي الله عنها إذ كانت أوّل المؤمنين.

نتائج وعبر:

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:

١ - بيان فضل أبي بكر الصديق.

٢ - بيان فضل الدعوة إلى الله، وفضل من يهدي اللهُ على يديه فردًا أو أفرادًا.

٣ - بيان شرف هؤلاء الأنفار الثمانية لسـبقهم في الإسلام؛ إذْ أثنى تعالى عليهم في قوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أفواج السابقين بعد الأولين

ومـا إن أسلم أولئك النفـر الكرام، حتى تـتـابع أشـراف قريش يدخلون في الإسـلام فيؤمنون بالله ربًا وإلهًا، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وبمحمد نبيًا ورسولاً، وبالقرآن هدى ونوراً، فأسلم:

أبو عبيدة عامر بن الجراح القـرشي الملقّب بأمين هذه الأمة، أحد العشـرة المبشرين بالجنة، وهو الذي انتزع من رسول الله ﷺ حلقتي الدرع يوم أحد، فـسقطت بذلك ثناياه - رضي الله عنه وأرضاه -.

أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد بن هلال القرشي، وأمه برّة بنت عبدالمطلب فهو ابن عـمة رسـول الله ﷺ. هاجـر الهجـرتين وشـهـد بدرًا، وتوفى سنة ثلاث من الهجرة، وتزوج رسول الله ﷺ امرأته - إكرامًا له واعـترافًا بفضله في إسلامه - أم سلمة فأصبحت أم المـؤمنين، وهذا من إكرام الله تعالى لها ولأبي سلمة - رضي الله عنهما وأرضاهما - .

والأرقم بن أبي الأرقم وهو عبـدمناف بن أسد القرشي أسلم عـاشر عشـرة وكان النبي

ﷺ قد استخفى في داره بالصفا يدعو الناس إلى الإسلام سرًا حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلاً. وكان آخرهم إسلامًا عـمر بن الخطاب رضي الله عنه ويومئذ خرجوا من الدار وصلّوا جهرة حول الكعبة.

وعثمـان بن مظعون القرشي، ويكنى بأبي السـائب وهو أخ للنبي ﷺ من الرضاع، وهو أول مهاجر توفى بالمدينة النبويّة، ومن فضائله وكمالاته الروحية: أنه امتنع من شرب الخمر في الجاهلية قبل الإسلام، وقال لا أشرب شرابًا يُذهب عقلي، ويُضْحِك بي مَنْ هو أدنى منّي ويحملني على أن أنكح كريمتي.

وعبيـدة بن الحارث بن المطَّلب بن عبدمناف بن قـصيّ القرشيّ، وكان أسنَّ من النبيّ ﷺ بعـشر سنين، هاجـر إلى المدينة مـع أخويه الطفـيل وحصـين. أسلم قبل دخـول الرسـول ﷺ دار الأرقم، وكـانت له منزلة عـند رسـول الله ﷺ وقـدرًا، يكنى بأبي الحارث - رضي الله عنه وأرضاه -.

وسعـيد بن زيد بن عمـرو بن نفيل العـدوي القرشيّ ابن عم عمـر بن الخطاب رضي الله عنه وصهـره؛ إذ كانت تحتـه فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها التي كـانت سبب إسلام أخـيها عـمر رضي الله عنه.

وأسمـاء وعائشة بنتـا الصديق أسلمت عائشـة وهي طفلة صغيرة. وأما أسـماء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام حين أسلمت - فرضي الله عنهما وأرضاهما -.

وخبّاب بن الأرت حليف بني زهرة التميمي.

وعبدالله بن مسعود بن أم عبدالهذلي.

وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص.

ومسعود بن القاريّ بن ربيعة من القارة، وهم قوم رماة لُقِّبُوا بالقارة.

وهكذا توالى إسلامُ من أكرمهم الله بالإسلام، فأسلم جعفر بن أبي طالب وامرأته[1]، وأسلم عيّـاش وامرأته، وخُنيس، وعامر بن ربـيعة بن عنز ابن وائل، وعبـدالله بن جحش وأخوه أبو أحمد وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمـة بنت المُجَلَّل، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، وخالد بن سعد بن العاص، وعـمار ابن ياسر العنسي المذحجي حليف

(١) هي أسماء بنت عميس تزوجها أبوبكر الصديق بعد استشهاد جعفر في مؤتة فرضي الله عنهم أجمعين.

بني يقظة، وصهيب بن سنان الرومي - نسبة إلى الروم - إذ كان قد أُسِرَ في أرض الروم - وهي الشام - فاشترى منهم، وورد فيه قولُ النبي ﷺ: «صهيب سابق الروم» فرضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأوانا ومأواه، آمين.

لقد بلغ المسلمون هذا العدد الكبير وما زالت الدعوة سرًّا لم يُجْهر بها بين صفوف قريش؛ لأن هذا العدد غير كاف في دفع ما يتوقَّعُ من أذى تُصيب به قريشٌ المسلمين، وقبل كل شيء أن الله تعالى لم يأذن بَعْدُ لرسوله والمؤمنين بالجهر بالدعوة، ولو أذن لهم لجهروا بها وكلفهم ذلك ما كلفهم، وسيأتي اليوم الذي يؤذن لهم، وسوف يتعرضون لألوان من التعذيب والاضطهاد يتلقون ذلك بطيب نفس ورحابة صدر؛ لأنه في ذات الله، وما كان في ذات الله فهو محبوب للحبيب الصادق.

نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يلي:

١ - بيان فضل السبق في الخير وأهله.

٢ - تقرير مبدأ وَضَعَه رسولُ الله ﷺ وهو قوله: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**».

٣ - بيان فوز الأرقم بن أبي الأرقم بمنقبة عظيمة، وهي اتخاذ داره مركزًا للدعوة أيام ضعفها واستخفائها وهي أحرج أوقات مرت بها الدعوة.

٤ - بيان فضيلة فاطمة بنت الخطاب بسبقها للإسلام وهداية أخيها عمر بسببها.

٥ - إن من النساء من فُزْنَ بالسبق في الإسلام، وهن: عائشة، وأسماء بنتا الصديق، وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر، وأم سلمة امرأة أبي سلمة أم المؤمنين وغيرهن - رضي الله عنهن وأرضاهن -.

الجهر بالدعوة بعد الإسرار بها

إنه بعد أن اكتمل عدد المسلمين نيفًا وأربعين رجلاً وكذا امرأة.. وأسلم حمزة عمُّ النبيِّ ﷺ، وعمرُ بن الخطاب؛ استجابَ الله لدعوة رسوله ﷺ حيث قال: «اللهم أيّد

الإسلام بأحد العمرين»[1]. يعني عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام «أبوجهل».

وبإسلام حمزة وعمر ﷺ قويت شوكة المسلمين، وأنزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله لرسول الله ﷺ : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فصعد ﷺ على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته قائلاً: واصباحاه!! واصباحاه!! فهزّ صوته حشيات وادي مكة، وأقبل الناس نحو النداء زَرافات ووُحْدانًا حتى امتلأت ساحة الصفا، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ كالبدر ليلة هالته فقال: «يا معشر قريش: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم صدقتموني»؟ قالوا: نعم. فقال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، أنقذوا أنفسكم من النار» فقام أبولهب فقال: تبًّا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا. فأنزل الله تعالى سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥].

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١ - بيان المدة التي كانت فيها الدعوة سرًّا وهي ثلاث سنوات.

٢ - بيان مقتضى سريّة الدعوة، وهو قلة المؤمنين وكثرة المشركين.

٣ - الجهر بالدعوة كان بأمر الله تعالى لآية الحِجْرِ.

٤ - بيان سبب نزول سورة المسد، وهو قول أبي لهب لرسول الله ﷺ : تبًّا لك سائر اليوم.

٥ - بيان أنه لا دليل لمن يرى سريّة الدعوة في بلاد المسلمين اليوم - في سريّة الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات؛ لأن الرسول وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا يؤذّنوا أو يصلوا، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة، فجهروا ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين.

٦ - ذكْر إسلام حمزة، ولم نذكر قصة إسلامه، فلنذكرها، لما فيها من العبرة، وكذا

---

(١) رواه الترمذي وصححه بلفظ: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» وقد تكلم بعضهم في هذا الخبر، ولا حاجة إلى ذلك ما دام الله تعالى قد أيد دينه بعمر بن الخطاب ﷺ.

الحال بالنسبة لإسلام عمر فإنا لم نذكر قصته في سبب إسلامه ﷺ وسنذكرها إن شاء الله إزاء رقم سبعة بعد قصة إسلام حمزة ﷺ.

قصة إسلام حمزة ﷺ:

لقد مر يومًا أبوجهل - عليه لعائن الله - برسول الله ﷺ وهو عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره: من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يردَّ عليه رسول الله ﷺ ولم يكلّمه، وكانت مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ما قاله أبوجهل، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعًا من قنص له متوشحًا قوسَه، فقالت له المرأة: يا أباعمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم عمرو بن هشام؛ وجده ههنا جالسًا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف ولم يكلمه محمد ﷺ، فاحتمل حمزة الغضبُ، فخرج يسعى ولم يلتفت إلى أحد حتى أتى أباجهل - وهو جالس في نادي القوم حول المسجد - فضربَه بالقوس فشجَّ رأسه شجةً منكرةً، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت. فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أباجهل، فقال أبوجهل: دعوا أباعمارة؛ فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا. وثبت حمزة من ساعتئذ على ما قاله، فأسلم وحسن إسلامُه، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع بإسلام عمه حمزة - المعروف بينهم بأنه أعزّ فتى في قريش.

قصة إسلام عمر ﷺ:

وأما قصة إسلام عمر ﷺ فهي كالتالي:

مرَّ عمر برجل مخزومي قد أسلم، فعابه عمر، فرد عليه الرجل، بأنه إن أسلم هو فقد أسلم من هو أحقّ باللوم والعتاب منيّ يا عمر. فقال عمر: من هو؟ قال الرجل: أختك وختنك - أي صهرك - فذهب عمر إلى دار أخته فاطمة - وهي تحت سعيد بن زيد - وسأل ما هذا الذي بلغني عنكما؟ فرداً عليه، وما كان منه إلا أن ضرب رأس أخته فادماه، فقامت إليه وقالت: وقد كان ذلك على رغم انفك، فاستحيا عمرُ حين رأى الدم يسيل من رأس أخته، وجلس، وقد رأى بينهما كتابًا، فقال: أروني هذا الكتاب، فقالت له فاطمة: إنه لا يمسه إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل، فأخرجنا له صحيفة فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: أسماء طيّبة طاهرة ﴿طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١، ٢] إلى

قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] فتعظم ذلك في صدر عمر وأسلم، وقال لهما: أين رسول الله ﷺ؟ فقالت له في دار الأرقم، فذهب إلى دار الأرقم، فقرع الباب، ففزع مَنْ في الدار، فقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر، قال: افتحوا له الباب، فإنه إن أقبل قبلناه، وإن أدبر قتلناه. وكان رسول الله ﷺ في حجرة الدار، فلما سمع الحديث خرج فتشهَّد عمر، فكبّر أهل الدار تكبيرة سمعها مَنْ في المسجد، وقال عمر: ألسنا على الحق يا رسول الله؟ قال: «بلى» قال: ففيم الاختفاء؟! فخرجنا صفين عمرُ في أحدهما، وحمزةُ في الآخر - وقد كان أسلم قبل عمر بثلاثة أيام - ولما دخلوا المسجد ورآتهم قريش - وبينهما حمزة وعمر - أصابتها كآبة وحزن شديد. وسمى النبيّ ﷺ ساعتها عُمَرَ: الفاروقَ.

ارتفاع ضوء الشمس المحمدية

وعشا أبصار المشركين

إنه بعد أن أعلن النبيّ ﷺ دعوته، وجهر بها في أوساط المشركين - وهي دعوة واضحة سليمة لا عيب فيها، واضحة لا غموض ولا لبس فيها - عَشَتْ عنها أبصار المشركين، فلم يروا ما تحمله من الخير والهدى، فناصبوها العداء، وأصبحوا لها خصومًا ألدّاء، يحاربونها بكل ما لديهم من قوة وشدة. وفي العرض التالي تتجلى هذه الحقيقة.

لقد مرّ بنا في قصة إسلام حمزة - قبل قليل - أن أباجهل وجد النبي ﷺ جالسًا عند الصفا، فنال منه سبًّا وشتمًا، وعيبًا لأمره، ولم يرد عليه النبيّ ﷺ إلا أن الله تعالى قيض له أسدًا من آساده؛ حمزة بن عبدالمطلب عم الحبيب ﷺ، فضربه على رأسه فشجه شجة منكرة، وأغاظه بأتم غيظ إذ أسلم أمامه وحسن إسلامه، وبإسلام حمزة وعمر ﷺ دخلت الدعوة في طور جديد، فجاهر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربّه، فأقضّ هذا الموقفُ الجديد مضاجع المشركين، وأفزعهم، وزادهم هولاً وفزعًا تزايدُ عدد المسلمين وإعلانُهم عن إسلامهم، وعدمُ مبالاتهم بعداء المشركين له، الأمرُ الذي جعل رجالات قريش يساومون رسول الله ﷺ، وها هو ذا أبوالوليد عتبة بن ربيعة يُبْعَثُ من قِبَلِ المشركين ليعرض على رسول الله ﷺ ما رآوه حلاً للمشكلة في

نظرهم، فيقول له: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمتَ من السِّطة(١) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنكَ قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقتَ به جماعتهم، وسفّهت به أحلامَهم وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له الرسول ﷺ: «قل يا أباالوليد أسمع». قال: يا ابن أخي، إن كنتَ إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سَوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تَرَاهُ لا تستطيع ردَّهُ عن نفسك، طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه؛ فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه.

وفرغ عُتبة من كلامه، ورسول الله ﷺ يستمع منه فقال: «أقَدْ فرغتَ يا أباالوليد»؟. قال: نعم. قال: «فاسمع منّي» قال: أفعل. فقال الحبيب ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿حم ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢] ومضى رسول الله ﷺ يقرأ وقد ألقَى عُتبةُ يديْه وراء ظهره معتمدًا عليهما يسمع مُنصتًا - حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة(٢) فسجد ثم قال: «قد سمعتَ يا أباالوليد ما سمعتَ فأنت وذاك»!!.

وعاد عتبة إلى أصحابه، فقال بعضُهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أباالوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، أطيعوني، واجعلوهَا لي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموهُ بغيركم، وإن يظهرعلى العرب فملكه ملككم وعِزُّهُ عِزّكم، وكنتم أسعدَ الناس به. فما كان جوابهم إلا أن قالوا: سحرك يا أباالوليد بلسانه، فقال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدًا لكم!!. كان هذا عرضًا.

وعرض ثان:

إن ما عرضه أبوالوليد على النبيّ ﷺ كان عرضًا معقولاً، لولا أنه أراد به الصدَّ

---

(١) السطة: الشرف.

(٢) ورد في هذه أن النبيّ ﷺ لما بلغ في قراءته: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ جعل عتبة يضع يده في فم رسول الله ويناشده الله والرحم خشية أن تنزل عليه صاعقة لما يعلمه من صدق رسول الله ﷺ.

عن سبيل الله، بصرف الرسول ﷺ عن دعوته، ولذا نزل القرآن الكريم يأمر رسول الله ﷺ برفضه وعدم قبوله بالجملة، فقال تعالى من سورة الإنسان: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]. كما أن رد عتبة علي المشركين لـما اتهموه بأنه سُحر، كان ردًا معقولاً ومقبـولاً لولا العَمَهُ والحيرة اللتان أصيب بهما المشركـون، يدل على ذلك أن قولة عُتْبة أبي الوليد لهم تَزنُ الذهب لو كان لهم عـقل، أو كانوا يبصرون، أو كـانت لهم حنكة سياسـية[١]، ويدل على عَمَههم وحيـرتهم أيضًا أنهم بعد مـا سمعـوا الذي سمعـوه من أبي الوليد كـوّنوا وفدًا من أعظم رجالاتهم، وبـعثوا به إلى رسـول الله ﷺ، ليسـاومه بنفس المـساومة ويقـول له نفس الكلام الذي قال له أبوالوليد، وفعلاً أتى الوفد الجديد وكرر قولة أبي الوليد، فردّ الرسول ﷺ قائلاً: «إنه مَا بي ما تقـولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أمـوالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعـثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتـابًا، وأمرني أن أكون لكم بشـيراً ونذيراً،، فـأُبلِّغكم رسالات ربي، ونصـحتُ لكم فإن تـقبلوا منِّي مـا جئتكم به: فهـو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تَرُدُّوهُ عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم»!! ولما سمعوا هذا الرد الكريم الحكيم من سـيد المرسلين مـحمد ﷺ فـقدوا صوابهم وجُـنَّ جنونُهم وأخذوا يهذرون ويهرفون بما لا يعرفـون، ومن جملة ما قالوه: أنهم طالبوا النبيَّ ﷺ أن يدعو ربّه ليُحـييَ لهم من مات من آبائهم، وأن يزيل عنهم الجبـال المحيطة بمكة، وأن يفـجر خلالها الأنهار لتـصبح حدائق من نخيل وأعناب، وذكروا كلامًـا وطالبوا بأمور ذكرها الله تعالى في سورة الإسراء في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[٢] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً[٣] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[٤] أَوْ تَرْقَىٰ فِي

---

(١) هكذا كانت السيـاسة العالمية: إذا ظهر في الأمـة رجل طموح يطالب بأمر يفاوضونه مـفاوضة أبي الوليد للـرسول ﷺ فيـرضونه حتى يرضى ويسـكت لهم إلى أن ظهر المذهب الشُيوعي أخيـراً فعدلوا عن المفاوضات والعرض والمساومات إلى التعذيب والتنكيل حتي يقطعوا أنفاسه فيسكت أو يهلك، وذلك لأنهم لا يؤمنون بالله ولقائه، فلذا هم يعذبون الإنسـان وكـأنه غير إنسان من شجر أو حجر، فباسم الله نلعنهم، ونبرأ إلى الله من صنيعهم!.

(٢) قطعًا: جمع كسفة كقطعة.

(٣) أي مقابلة لنراهم عيانًا.

(٤) أي من ذهب، إذ الزخرفُ هو الذهب.

السَّماءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ وهنا أمره ربّه أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]

ولما فرغوا من عرضهم وردهم السخيف وقام رسول الله ﷺ: تبعه عبدالله بن أبي أميّة الخزومي وهو ابن عمة رسول الله ﷺ؛ لأن أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له: عرضتْ عليك قريش كذا وكذا، ورفضتَ كلَّ ذلك، فوالله لا أُومن بك أبدًا. وعاد رسول الله ﷺ حزينًا آسفًا لما فاته مما كان أمَّله من استجابة قومه لـمَّا دَعوه ليكلموه في أمر دعوته. كان هذا عرضًا.

وعرض ثالث:

إنه لما فشل رجالات قريش في المساومات التي تقدَّموا بها إلى رسول الله ﷺ وسمعوا ما أيأسهم به رسول الله ﷺ من عدم التنازل عن شيء من دعوته وإن قلّ، ومن عدم التزحزح عما يدعو إليه قيد شعرة: قام أبوجهل ليشفي صدره الذي احتدم غيظًا، فأخذ حجرًا كبيرًا وقال: لأفْلِقَنّ به رأس محمد ﷺ وهو يصلي، وتحيّن عدوُّ الله الفرصة، فلما قام رسول الله ﷺ يصلي حول الكعبة بين الركنين مستقبل البيت، جاء أبوجهل - لعنه الله - وتقدم نحو رسول الله ﷺ ليضربه بالحجر، ورجالات قريش في أنديتهم ينتظرون ما يفعله طاغيتهم - عليه لعائن الله - فلما دنا من رسول الله ﷺ ولَّى هاربًا منتقع [(١)] اللون مرعوبًا [(٢)] قد يبست يداه على الحجر، وقام إليه رجالات قريش يقولون: مالك يا أباالحكم؟ ما أصابك؟ قال: قمتُ إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فَحلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته [(٣)] ولا مثل قَصَرِه [(٤)] ولا أنيابه لفحل قط، فَهَمَّ بي ليَأكلَني. وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا [(٥)] بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ [(٦)] ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٥ - ١٩]

---

(١) أي متغير الوجه.

(٢) أي خائفًا.

(٣) ضخامة رأسه.

(٤) أصل العنق؛ إذ القصر أصل العنق.

(٥) لنأخذنَّ بناصيته.

(٦) أي رجال مجلسه ومُنتداه.

ولما سمع وشاهد هذه الحادثة النضرُ بن الحارث، قام في قريش وقال: يا معشر قريش إنه - والله - قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، فقد كان فيكم محمد غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه[1] الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم. وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورَجَزه. وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم. لقد كاد النضرُ هذا يُسلم لما تبَّين له من الحق ولكن منعه الحسد؛ إذ هو الذي قال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] جاء هذا في سورة الأنفال، ونزل فيه قولُه تعالى أيضًا: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١ - ٣].

إذ كان النضر بن الحارث هذا شيطان قريش، كان أخبثهم نفسًا وأشدهم عدواة لرسول الله ﷺ والمؤمنين؛ إذْ هو القائل: أنا أحسن حديثًا من محمد ﷺ وكان يقص أخبار ملوك فارس ويقول: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. لما أصابه من الحسد والغرور وعمى البصر والبصيرة. كان هذا عرضًا.

وعرض رابع:

إنه لما أعيت الحيلُ قريشًا، ولم تجد ما تدفع به دعوة الحق التي عشت أبصارها عن أنوارها الساطعة، بعثتْ وفدًا إلى يثرب «المدينة» يُجلي لها حقيقة الموقف بواسطة أحبار اليهود؛ لأنهم أهل كتاب، وذَوُو علم بالأديان.

ويتكون الوفد من النضر بن الحارث - شيطان قريش - أميرًا، وعقبة بن أبي معيط مساعدًا له، وقالوا لهما: اسألا أحبار اليهود عن محمد ﷺ وصفًا لهم صفته وأخبراهم بقوله الذي يقول، ودعوته التي يدعو إليها؛ فإنهم أهل كتاب، وعندهم علم بالأنبياء ليس عندنا. فخرجا حتى أتَيا المدينة؛ فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره

(١) الصدغ المكان بين الأذن والحاجب حيث الشعر مسترسل من الرأس، ولكل إنسان صدغان، وأول ما يبدأ الشيب يظهر فيهما غالبًا.

وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيٌّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوّل، فَرَوْا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيٌّ، وإن لم يفعل فهو متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

وعاد الوفد إلى قريش، وقال لهم: جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أخبرنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم بها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل فالرجلُ متقوّل فَرَوْا رأيكم فيه.

وسألت قريشٌ النبيَّ ﷺ وقال: «غداً أخبركم» ولم يستثن، وانصرفوا عنه. وحبس الوحي عنه لعدم استثنائه قرابة نصف الشهر حتى حزن ﷺ وفرحت قريش وقالوا الكثير من القول حتى قالوا: قلاه شيطانه الذي كان يأتيه، ثم أنزل الله تعالى سورة «والضحى» ينفي فيها ما قالته قريشٌ وادَّعاه بعضهم من غلاة المبغضين له ﷺ من أنَّ الله تعالى قد قلاه، أي تركه وأضاعه مبغضًا له، وأنزل سورة «الكهف» وفيها بيان حديث أصحاب الكهف تفصيلاً، وفيها خبر الرجل الطوّافة وهو الإسكندر ذو القرنين، ونزل في شأن الروح قولُه تعالى في السورة التي قبل سورة الكهف «الإسراء»: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ردًّا على اليهود. كان هذا عرضًا.

وعرض خامس:

ولما فشلت قريش في محاولتها الأخيرة بإرسالها وفداً إلى أحبار اليهود: لجّت في الخصومة وأعلنت حربًا كلاميّة على رسول الله ﷺ محاولةً بذلك إطفاء نور الله بأفواهها، وها هو ذا أبوجهل يقول هازئًا ساخراً برسول الله ﷺ وبما جاء به من الهدى ودين الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد ﷺ أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة المدثر: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر: ٣١].

ويكشف أبوجهل عن وجه حسده وكبريائه، فيأتيه الأخنس بن شريق فيقول له:

يا أباالحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ - يريد من قراءته القرآن - فقال: ماذا سمعتُ؟ تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرفَ؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا[(١)] على الركب، وكنا كفرَسَيْ رهان، قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحيُ من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدقه.

ويحملهم البغض والخوف على أن يمنعوا سماع القرآن، فيتخذوا في ناديهم قرارًا بمنع سماع قراءة القرآن، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا؛ وهو قوله في سورة فصلت: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

وعزّ عليهم ألا يسمعوه - وقد أصدروا قرارًا بمنع سماعه - فخرج أبوسفيان وأبوجهل والأخنس بن شريق خرجوا ثلاثتهم ليلاً ليستمعوا قراءة الرسول ﷺ وهو يقرأ في صلاته في بيته، واتخذوا مجالس لهم يستمعون فيها في الظلام - ولا يدري أحدهم عن الآخر - حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريقُ فتلاوموا وتعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ولكنهم لم يصبروا؛ فخرجوا في ليلة أخرى - ولا يدري أحدُهم عن الآخر، واستمعوا إلى قراءة النبيّ ﷺ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريقُ فتلاوموا، وتكرر هذا منهم ثلاث مرات، وفي الرابعة تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها أبدًا.

وهكذا تجلّت الحقيقة واضحةً لا غموض فيها ولا لَبْس ولا خفاء، وهي أن المشركين عشت[(٢)] أبصارهم عن النور المحمدي فلم يروا فيما جاء به هدًى ولا خيرًا؛ فناصبوه العداء وأصبحوا خصومًا ألدّاء يحاربونه ﷺ ويحاربون دعوته وأتباعَه بكل ما لديهم من قوة، كما هي حال الكافرين إلى اليوم، فهم حرب على الإسلام والمسلمين دائمًا وأبدًا، ولولا أن الله تعالى ناصرُ دينِه وأوليائه لغلبوا على الإسلام والمسلمين، ولم يَبْقَ إسلام ولا مسلمون.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ - إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم.

٢ - بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها.

---

(١) يُروى تحاذينا، وكلاهما صحيح.

(٢) عشت أبصارهم: ضعفت عن النظر لما أصابها من مرض العشا.

٣ - ثبات النبيّ ﷺ ووقوفُه كأنه جبل أشمّ أمام المساومات والتحديّات.

٤ - شهادةُ عتبة بن ربيعة بصحة الدعوة المحمدية وسلامتها وأحقيّتها - وهو من خصومها - لها قيمتها المعنويّة. كما قيل: «والحقّ ما شهدت به الأعداء».

٥ - بيان تعنّت المشركين وصلَفهم وكبريائهم برفضهم دعوة الحق بعد ثبوتها، ومطالبتهم بأمور ليس تحقيقها من لازم النبوة ولا شرطًا في قبول دعوة الحق.

٦ - بيان خبث أبي جهل وشدة عدائه للنبيّ ﷺ، ومحاربته لدعوته.

٧ - استحباب قول العبد: «إن شاء الله» فيما يستقبل من قول أو عمل.

٨ - بيان تأثير القرآن في نفس مَنْ يسمعه متدبراً له متفكراً فيه.

خيبة المشركين تتحول إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين

إنه بعد أن بذلت قريش كل ما في وسعها من قوة وحيلة في إطفاء أنوار الدعوة المحمديّة، وباءت بخيبة مريرة: حولت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال وعمار ووالده ياسر وأمه سميّة، وصهيب الرومي، وخباب بن الأرت وأبي فهيرة، وأبي فكيهة ومن النساء زِنّيرة، والنّهدية، وأم عُبيس.

أما بلال فكان مملوكًا لأميّة بن خلف الجُمحي، وكان يعذبه بإلقائه في الرمضاء على وجهه وظهره، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، وذلك إذا حميت الشمس وقت الظهيرة، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، وبلال صابر يردد كلمة: أحدٌ أحدٌ، وأخيراً استبدله أبوبكر الصديق بعبد مشرك وأعتقه رضي الله عنه.

وأما عمار وأمه ووالده ياسر، فقد كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّ الرمضاء، فمرّ بهم النبيّ ﷺ وهو يعذبون فقال: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»** فمات ياسر تحت العذاب - رحمه الله رحمة واسعة -.

وأما سميّة فقد أغلظت القول لأبي جهل - عليه لعائن الله - فطعنها بحربة في قبلها فماتت شهيدة، وكانت أول شهيد في الإسلام.

وشدد أعداء الله العذاب على عمار ونوّعوا العذاب عليه، فمرّة بالجرّ، ومرة بوضع الصخرة على صدره، وأخرى بالغمس في الماء إلى حد الاختناق ويقولون له: لا نتركك حتى تَسُبّ محمدًا، وتقول في اللات والعزى خيرًا. وفعل ما طلبوه منه فتركوه، فأتى النبيَّ ﷺ يبكي، فقال: «ما وراءك؟» فقال: شرٌ يا رسول الله، كان الأمر كذا وكذا، فقال: «كيف تجد قلبك؟» قال: أجده مطمئنًا بالإيمان. فقال: «إن عادوا يا عمار فعد». وأنزل الله تعالى في قوله من سورة النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].

وأما خباب، فقد أسلم سادس ستة، فقد عذبه المشركون عذابًا شديدًا إذ كانوا يلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالحجارة المحماة بالنار ويلوون رأسه.

وأما عامر بن فهيرة، فقد أسلم قديمًا قبل دخول الرسول ﷺ إلى دار الأرقم، وكان من المستضعفين، فَعُذّب عذابًا شديدًا، ولم يردّه ذلك عن دينه، وكان يرعى غنمًا لأبي بكر، وكان يروح بها على النبيّ ﷺ وأبي بكر - وهما في الغار طوال المدة التي كانا فيها في الغار - وأما أبو فكيهة - واسمه أفلح أو يسار فقد كان عبدًا لصفوان بن أميّة ابن خلف الجُمحي أسلم مع بلال، فأخذه أمية بن خلف - عليه لعائن الله - وربط في رجليه حبلاً وأمر به فَجُرّ ثم ألقاه في الرمضاء، ومر به جَعَلٌ «حشرة معروفة» فقال له أميّة: أليس هذا ربك؟ فقال: الله ربي وربُّك وربُّ هذا. فخنقه خنقًا شديدًا. وكان معه أخوه أبيّ بن خلف فيقول: زده عذابًا حتى يأتي محمدٌ فيخلصه بسحره. ولم يزالوا يعذبونه كذلك حتي أُغْمِيَ عليه فظنوه مات، ثم أفاق، فاشتراه أبوبكر الصديق وأعتقه.

وأما النساء - زِنّيرة وأم عُبيس ولبيبة والنهدية - فقد عُذّبْنَ كذلك أشد العذاب من قبل مواليهنّ ولم يرجعن عن دينهنّ، فرضي الله عنهن وأرضاهنّ.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها إزاء الأرقام التالية:

١ - تقرير وتأكيد معنى قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]

٢ - بيان ما لاقاه المستضعفون المؤمنون من ألوان العذاب، ولم يردهم ذلك عن دينهم.

٣ - بيان أن أول شهيد في الإسلام كان سميّة أم عمار ﵂.

٤ - بيان ما كان عليه طغاة المشركين من شدة وغلظة وحنق على المسلمين، وما أنزلوه من عذاب بالمستضعفين من الموالي والعبيد نساءً ورجالاً.

المستهزئون بالحبيب ﷺ وما أنزل الله تعالى بهم من أليم العذاب

إن تلك النقمة - التي أنزلها المشركون بالمستضعفين من المؤمنين - لم تكن في الحقيقة خاصة بالمستضعفين، بل هي عامة في كل المؤمنين، وعلى رأسهم سيد العالمين الحبيب محمد ﷺ، إلا أن الأحرار من المؤمنين كان لهم من المنعة ما جعل المشركين لا يقدرون على أن يعذبوهم مثل تعذيب المستضعفين من العبيد والإماء والموالي الأغراب، وإلا فإنه لم يَسْلم مؤمنٌ واحد من التعذيب والاضطهاد والاستهزاء به والسخرية منه. وهذا رسول الله ﷺ قد سُخر منه واستهزئ به، وسُبَّ وشتم، ونال منه المشركون ما لم ينالوه من كثير من المؤمنين، وكان شرّ من استهزأ برسول الله ﷺ من عناهم الله تعالى بقوله - من سورة الحِجْر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦].

وها هي ذي أسماؤهم - عليهم لعائن الله - مع بيان حالهم نهاية حياتهم:

١ - أبولهب[١]: وهو عبدالعزى بن عبدالمطلب، وهو عم النبي ﷺ، وكان من أشد الناس تكذيبًا لرسول الله ﷺ وأكثرهم أذى له حتى إنه كان يطرح العذرة والنتن على باب النبيّ ﷺ إذ كان مجاوراً له، وكان النبيّ ﷺ إذا وجد ذلك يقول: «أي جِوَارٍ هذا يا بني عبدالمطلب»؟ ومرّ حمزة مرة بأبي لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ فأخذها وطرحها على رأس أبي لهب.

وكانت امرأته - أم جميل العوراء - مثله في عدواة الرسول ﷺ وشدة بغضه، وقد لقبها الرحمن في كتابه: بحمالة الحطب، وهي القائلة:

مُذَمَّمًا[٢] عَصينا وأمرَه أبينا ودينه قَلَيْنا[٣]

---

(١) نقلاً عن الكامل لابن الأثير بتصرف.
(٢) تعني محمداً وكان هذا صرفًا لها من الله تعالى عن اسم نبيّه.
(٣) تركنا مبغضين له.

قالت هذا لـما نزلت سورة المسد تحمل البشرى لها ولزوجـها بالهلاك فـي الدنيا والخلود في النار في الآخـرة، فقـد أتتْ تطلب الرسـول ﷺ - وفي يدها فهـر - أي: حجـر كبيـر على قد الكف، وتقف عليـه ولم تره حيث ذهب الله ببـصرها، ورأت أبابكر فقالت له: أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، ووالله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُذَمَّمًا عَصينا وأَمرَه أبينا ودينه قَلَيْنَا

وأخذ الله جل جلاله أبالهب بمكة إذا أصابه بمرض خبيث يقال له: مرض العَدَسَة، وكان ذلك يوم هزيمة المشركين ببدر، فما إن بلغه خبر هزيمة قومه حتى أصيب بمرض العدسة، فمات شرّ ميتة حتى إنهم لم يقدروا على تغسيله، فصبـوا عليه الماء من بعيد من شدة الرائحة الـكريهة التي تفوح من جسمـه الذي نضج وتهرّى[(١)] بصورة لم يُعرف لها نظير.

٢ - الوليد بن المغيرة الخزومي، وهو القائل لقريش: إن الناس يأتونكم في الحج فيسألونكم عن محمـد، فلا تختلف أقوالكم فـيه بأن يقول بعضٌ: هو شاعـر، وآخر يقول: هو كاهن، و. . . . و. . . . . ولكن قولوا كلمة واحدة: هو ساحر؛ لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجـته. وكان سبب هلاكه: أن وطئ سهـمًا فخدشه فـتورمت رجله، ومات بذلك شرّ ميتة، وكفى الله رسوله شرّه وشر كل مستهزئ بحبيبه ﷺ.

٣ - أبوجهل عمرو بن هشام المخزومي: وكان من أشد الناس عدواة للرسول ﷺ واسمُه عمـرو، وكنيته أبوالحكم، وكناه المـسلمون بأبي جهـل لخبثه وسـوء أفعاله وقـبيح صنائعه، هلك ببـدر قتله ابنا عفـراء، واحتزّ رأسه عـبدالله بن مسعـود رضي الله عنه، إذْ كان يُعيّـره بابن راعية الغنم، وهو القـائل: لئن سبَّ محمدٌ آلهـتنا سببنا إلهـه، فأنزل الله تعالى من سورة الأنعام قوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعُون من دُون الله فيسُبُّوا الله عدوًا بغير علم﴾ [الأنعام: ١٠٨].

٤ - النضر بن الحارث: وكان من أشدّ الناس تكذيبا للنبي ﷺ وأذًى له ولأصحابه، وكان يقرأ كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، ولما سمع ذكرَ النبيّ المنتظر وقُرْبَ مبعثه قـ[illegible] لأكوننّ أهدى من إحدى الأمم، مـصداقُ قولَه هذا في قوله تعالى من

(١) [illegible]

سورة فاطر، إذ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣]، وهو القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١ - ٣] وهو المعنيُّ بقول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦].

هلك هذا الطاغية ببدر، إذ أسره المقداد بن الأسود، وأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه لكثرة شرّه، فقتله عليّ رضي الله عنه.

٥ - عقبة بن أبي مُعَيْط: الأموي، وكان من أشد الناس أذًى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين، وهو الذي وضع سَلَى الجزور بين كتفَيْ رسول الله ﷺ وهو يصلي عند البيت ورجالاتُ قريش يضحكون، حتى جاءت فاطمة - وكانت جويرية صغيرة - فنحَّتْه عن رسول الله ﷺ ونالت منه سبًّا وانصرفت - رضي الله عنها وأرضاها -.

هلك هذا الطاغية الخبيث ببدر حيث أُسِرَ بها وصلب، وهو أول مصلوب في الإسلام وكان أُحَيْمِرًا أزرق العينين شبَّهه رسول الله ﷺ بعاقر ناقة صالح قُدارَ بن سالف - عليهما معًا لعائن الله -.

٦ - الأسود بن عبديغوث الزهري: كان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى، وكان يقول للنبي ﷺ مستهزئًا به: أما كُلِّمت اليوم من السماء يا محمد؟! خرج عدو الله من أهله يومًا فأصابه السموم فاسودّ وجهه، وأصابته الأكلة «مرض» فامتلأ جسمه قيحًا فمات شرّ ميتة، فلا رحمه الله، ولا خفف عنه - يومًا - عذابه.

٧ - الحارث بن قيس السهمي: وكان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ الذي لا يبرحون يؤذونه طوال حياتهم، وكان لجهله وشدة شغفه بالأوثان يأخذ الحجر يعبده، فإذا رأى غيره أحسن منه تركه وعبد غيره مما رآه أحسن في نظره وكان يقول: قد غرَّ محمدٌ أصحابَه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر. وفيه نزل قوله تعالى من سورة

الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٣، ٢٤].

وهلك هذا الطاغية الملحد الدَّهريّ بالذبحة، إذ أكل حوتًا مملوحًا فلم يزل يشرب حتى مات، وقد امتلأ رأسه قيحًا؛ فكانت ميتته شرّ ميتة وأنكرها.

٨ - ٩ - أُبيٌّ وأُميّة ابنا خلف: وكانا من أشد الناس أذيّة لرسول الله ﷺ وعداوة له ولأصحابه، واستهزاءً بدين الله؛ إذ جاء أُبيّ - عليه لعائن الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم، ففتته بيده وقال: زعمتَ أن ربك يحيي هذا العظم! وفيه نزلت آية يس: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وضع عقبة بن أبي مُعيط طعامًا، ودعا إليه رسول الله ﷺ فقال: «لا أحضره حتى تشهد أن لا إله إلا الله» ففعل، فأتاه رسول الله ﷺ فقال أُميّة بن خلف لعقبة: أقلتَ كذا وكذا. فقال: إنما قلتُ ذلك لطعامنا، فنزلت آية الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وهلك أميّة يوم بدر مرذولاً مخزيًّا شر ميتة، وهلك أخوه أبيٌّ بطريق مكة، إذ ضربه الرسولُ ﷺ بحربة في ترقوته في أحد، فهلك بها في طريقه إلى جهنم وبئس المصير.

١٠ - أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة: وكان ممن يؤذي النبيّ ﷺ، ويعين أباجهل على ذلك، هلك ببدر على يد حمزة عم الحبيب ﷺ، ورضي الله عن حمزة ومن ترضى عن حمزة موقنًا موحدًا لا يشرك بالله شيئًا.

١١ - العاص بن وائل السهمي: والد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان من المستهزئين، وهو القائل لما مات القاسمُ بن النبيّ ﷺ: إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله تعالى في سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ[1] هُوَ الْأَبْتَرُ[2]﴾ [الكوثر: ١ - ٣] هلك بمكة بسبب لدغة في رجله، انتفخت لها

---

(١) أي مبغضك.

(٢) أي الناقص المقطوع النسل قد انقطع نسله وخلد نسل محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

رجله حتى صارت كعنق البعير، فمات بعد هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة بشهر وكذا يومًا. . هلك إلى جهنم وبئس المصير.

١٢ - ١٣ - نُبيه ومُنبِّه ابنا الحجاج السهميان:وكانا من المستهزئين المؤذين لرسول الله ﷺ والمؤمنين، وكانا إذا لقيا رسول الله ﷺ يقولان له: أمـا وَجَد الله من يبعثهُ غيرك؟ إن ههنا من هو أسنّ[١] منك وأيسر[٢]. هلك كل منهما ببدر، فـقتل عليّ ﷺ مُنبِّهًا والآخـر لا يُدري مَنْ قـتـله، فـإلى سـخط الله وعـذابه دائـمًـا وأبدًا، وذلك جـزاء المستهزئين.

١٤ - الأسود بن المطلب بن أسد:ويكنى أبا زمعة، كان من المستهزئين، إذ كان مع أصحابه يتغامزون بالنبيّ ﷺ وأصحابه ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض، ومَنْ يغلب على كنوز كسـرى وقيصر!! ويصفـرون به ويصفقون؛ لهـوًا وضحكًا وسخرية، دعـا عليه رسول الله ﷺ أن يعْمى ويثْكل[٣] ولده، فعـمي وثكل ولده ومات بمكة، والناس يتجهزون لأحد وهو يحرض الكفار على الخروج مع ما هو عليه من المرض من شدة بغضه لرسول الله وأصحابه ودينِ الله، فهلك أعمى أثكل إلى جهنم وبئس المصير.

١٥ - طعيمة بن عديّ بن نوفل:كان ممن يؤذي رسول الله ﷺ ويشتمونه ويكذبونه، أسر ببدر وقُتِلَ صبراً بها، فإلى جهنم وبئس المصير.

١٦ - مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان:كان من المستهزئين، وكان سفيهًا، فدعا عليه النبيُّ ﷺ فمات بمكة بعدما امتلأ رأسه قيحًا، فإلى جهنم وبئس المصير.

١٧- ركانة بن عبديزيد:وكان شديد العداوة للنبيّ ﷺ والاستهزاء به، فقال يومًا للرسول ﷺ : يا ابن أخي، بلغـني عنك أمـرٌ ولستَ بكذاب، فـإن صـرعتـني علمتُ أنك صـادق - ولم يكن يقدر على صـرعـه أحد، فـصارعـه النبيّ ﷺ وصرعـه ثلاث مرات، ودعاه إلى الإسلام، فأبى أن يُسلمَ وقـال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة، فقال لها رسول الله ﷺ : «أقبلي» فأقبلت تخدّ[٤] الأرض، فقال ركانة: ما رأيتُ سحراً أعظم من هذا، مُرْها فلترجع، فأمـرها ﷺ فعادت إلى مكانها، فقال رُكَانة:

(١)أي اكبر منك سنًا.
(٢)أي اكثر منك مالاً وغنى.
(٣)أي يفقد ولده بموته.
(٤)تَخُدُّ الأرض أي تشقها.

هذا سحر عظيم.

قال ابن الأثير: هؤلاء أشد عدواةً لرسول الله ﷺ ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقل عداوة من هؤلاء كعتبة وشيبة ابنَيْ ربيعة وغيرهما.

وهناك جماعة كانوا شديدي الأذى والعدواة لرسول الله ﷺ وأصحابه ولكنهم آمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم كأبي سفيان بن حرب والحكم بن أبي العاص، وعبدالله بن أبي أميّة المخزومي أخي أم سلمة لأبيها رضي الله عنهما.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة من النتائج والعبر ما نوجزه فيما يلي:

١ - تقرير أن الاستهزاء بالله أو آياته أو رسوله: كُفرٌ موجب للخلود في العذاب كما أن الاستهزاء بالمؤمنين موجب لغضب الله وسخطه على فاعله.

٢ - بيان ما نال رسولَ الله ﷺ من أذى المشركين، وكيف قابله رسول الله ﷺ بالصبر حتى نصره الله فأعزه وأعز دينه وأذل المشركين وأبطل دينهم.

٣ - تقرير سنة الله في أن أشد الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل.

٤ - بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] فقد كفاه إياهم بأنْ أهلكهم كلَّهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم، وفي فترةٍ وجيزةٍ، وزمنٍ قليل.

٥ - إن الآيات والمعجزات لا تستلزم الإيمان فقد رأى ركانةُ أعظمَ آية وما آمن.

أول هجرة في الإسلام

إنه بعد أن جهر رسول الله ﷺ بدعوته وكثر عددُ المسلمين: ازداد حَنَقُ المشركين على المسلمين، وبسطوا إليهم أيديهم وألسنتهم بالسُّوء. ورأى النبيّ ﷺ أنه غير قادر على حمايتهم؛ فأذن لهم في الهجرة إلى الحبشة، فقال لهم - فداه أبي وأمي -: «لو خرجتم إلى أرض الحَبَشَة؛ فإن فيها مَلكًا لا يُظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه» وقبِل المسلمون العرضَ الكريم، فخرجوا من مكة فراراً بدينهم يريدون بلاد النجاشي، وذلك في شهر رجب سنة خمس من البعثة وهي السنة الثانية من إظهار الدعوة والجهر بها، فوصلوها وكانوا قرابة عشرة رجال: منهم عثمان

ابن عفان وزوجته رقيّة بنت الرسول ﷺ، وأبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام. فأقاموا بالحبشة شهرين: شعبان ورمضان من سنة خمس من البعثة، وعادوا إلى مكة في شوال، وسببُ عودتهم ما بلغهم من أن النبيّ ﷺ قد اصطلَح مع قريش، وأنه لم يَبْقَ اضطهاد للمسلمين من قِبَلِ المشركين لما تَمَّ من الصلح بينهم وبين الرسول ﷺ.

وسبب هذه الشائعة الكاذبة أن النبيّ ﷺ كان يقرأ حول الكعبة سورة «والنجم» فلما بلغ قولَه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان في مسامع المشركين قولَه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لتُرتجى، فخيّل للمشركين أن النبيّ ﷺ هو الذي قالها، وأنه بذلك قد امتدحها، فلما سجد ﷺ في آخر السورة - وهي سجدة من عزائم السجدات - سجد المشركون معه حتى إن الوليد بن المغيرة - وكان كبير السنّ - أخذ كفًّا من البطحاء وسجد عليه، ثم تفرق الناس، وبلغ الرسولَ ﷺ أن سجود المشركين كان من أجل ما ألقى الشيطان في مسامعهم من مدح للاّت والعزى مُوهمًا إياهم أنّ النبي ﷺ هو الذي امتدحها، فحزن لذلك رسول الله ﷺ وآلمه الخبر، فأنزل الله تعالى - تسلية له وتخفيفًا عنه - قولَه من سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ[1] أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

فَسُرَّ بذلك رسول الله ﷺ وذهب عنه ما وجد في نفسه من الخوف والحزن بما أعلمه به ربّه من أنّ هذا الأمر جرى على سنة من سننه تعالى في أنبيائه ورسله لحكم عالية يعلمها تعالى.

ولما قارب المهاجرون دخول مكة تبيّن لهم أن إسلام أهل مكة باطل، وأن المشركين مازالوا على الشرك والكفر، وأنهم قد ازدادوا قسوة وشدة على المسلمين فلم يدخلوا إلا بجوار، أو في استخفاء، وأقاموا بمكة بعد عودتهم إليها يتلقون الأذى ويُعَذبون ويُضطهدون - كما كانوا قبل هجرتهم وعودتهم - فرأوا لذلك أن يعودوا إلى الحبشة مرة ثانية، فعادوا وهاجر معهم خلقٌ كثير بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وهي الهجرة الثانية.

وبقي الحبيب ﷺ في مكة يدعو إلى ربّه سرًّا وجهرًا، صابرًا موقنًا بنصر الله له

---

(١) تمنى: هنا بمعنى قرأ وتلا، وقد تكون بمعنى أحب وتشهّى.

ولدعوته، وهو يتعرض لأذى قريش كل يوم، ومن أبرز ما سُجل في هذه الفترة من أذى نالَ رسولَ الله ﷺ ما حدّث به عمرو بن العاص رضي الله عنه ورواه عنه ابن الأثير وغيره من أصحاب السير، وهو قوله: حضرتْ قريش يومًا بالحجرِ، فذكروا النبيّ ﷺ وما نال منهم وصَبْرَهم عليه، فبينما هم كذلك، إذ طلع النبي ﷺ ومشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفًا فغمزوه ببعض القول، فعرفتُ ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، ثم الثالثة فقال لهم: **«أتسمعون يا معشر قريش، والذي نفسُ محمد بيده لقد جئتكم بالذبح»** فلم يتكلما حتى لكأن على رءوسهم الطير، وإن أشدهم وصاة فيه لَيَرْفَؤه[1] بأحسن ما يجد. وانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه!!.

فَبينْما هم كذلك، إذ طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا.. فيقول: **«أنا الذي أقول كذلك»** فأخذ عقبة بن أبي معيط بردائه، وقام أبوبكر الصديق دونه يقول - وهو يبكي - ويلكم!! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله - كالتي قالها مؤمنُ آل فرعون - ثم انصرفوا بعد ما نالوا من الصديق ما نالوا رفْسًا بأرجلهم وضربًا بأيديهم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ مشروعية الهجرة - وهي الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن يعبد الله - إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب.

٢ - بيان أول هجرة وقعت في الإسلام، وهي الهجرة الأولى إلى الحبشة.

٣ - بيان فضل أصحابِ الهجرة إلى الحبشة، ومن بينهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

٤ - بيان خطر الشائعات؛ إذ بها رجع المهاجرون ولاقَوا ما لاقَوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية.

٥ تقرير قصة الغرانيق، وأن من العجب أن يكذب بها أناسٌ لمجرد الخوف من أن

---

(١) أي يقولون له من القول ما يَجْمُل ويَحْسُن كقول بعضهم: انصرفْ أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً.

يقال: إذا صحت قصة الغرانيق، فمن الجائز أن يكون قد أدخل في القرآن ما ليس منه، وهو وَهْمٌ بحت شبيه بوهم الروافض القائلين بأن جبريل بَدَلَ أن يأتي عليًّا بالوحي والرسالة أتى بهما محمداً ﷺ، إذ لازم هذا أن الله تعالى عاجز، ونسبةُ العجز إلى الله كفر وكذب وباطل؛ إذ لا يُمكن أن يقع في الكون غير ما يريد الله سبحانه وتعالى.

ولو فرضنا أن الشيطان ألقى بكلمة أو كلمات في قراءة الرسول ﷺ أليس الله قادراً على تبيينها وإبطالها؟ بلى؛ وكيف وقد قال: ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤] وكيف وقد قال في سياق الآية: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

والذي ينبغي أن يُعلم هنا، هو أن الرسول ﷺ لم ينطق بكلمة تلك الغرانيق وما بعدها، وإنما الذي نطق بها الشيطان، فأسْمَعَ صوتَه أولياءَه من المشركين ليبقوا على اعتقادهم الفاسد في آلهتهم من اللات والعزى، ولذا لما سجد النبيّ ﷺ سجدوا معه كما هو في صحيح البخاري - رحمه الله تعالى -. وأحسنُ ما قيل في قصة الغرانيق، هو قول الحافظ ابن حجر في الفتح، وما ذكرناه هنا لا يختلف معه. والله أعلم، وأعزّ وأحكم، وصلى الله على نبيّه محمد وآله وصحبه وسلم.

إرسالُ قريش وفدها إلى النجاشي

لما علمت قريش باستقرار المهاجرين بالحبشة، وإيواء ملكها لهم، وإكرامه لهم: خافت عواقب ذلك، فكونت وفداً من عمرو بن العاص - السياسي المشهور - وعبدالله ابن أبي أميّة، وحملتهما هديةً فاخرة إلى الملك النجاشي وإلى أعيان رجاله لتستميلهم نفسيًّا فيردُّوا المهاجرين قسْراً إلى مكة؛ لتعذيبهم وتعويقهم عن أيّة حركة إيجابية تنتصر بها دعوة الإسلام.

ووصل الوفد يحمل الهدايا، وقدّمها فعلاً إلى النجاشي وأعيان رجال الحكم، إلا أن الوفد بدأ في تقديم الهدايا بأعيان رجال النجاشي وأخرهُ هو، سياسةً منه ليحصل على دعم الأعيان عند مطالبة الملك برد المهاجرين إلى مكة.

ولما فرغ الوفد من تقديم الهدايا، تكلم عمرو، وقال للملك ورجاله: «إن ناساً من سفهائنا فارقوا دينهم وجاءوا بدين جديد مبتَدع لا نعرفه نحن ولا أنتم».

وما إن فرغ عمرو من كلامه حتى أشار أصحاب النجاشي بتسليم المهاجرين إلى وفد قريش متأثرين بالهدايا، وما واعدوا به الوفد من المساعدة.

وهنا قال النجاشي: لا، والله لا أُسْلِم قومًا جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا على غير ما ذَكَر هذانِ، منعتُهم، وأحْسَنتُ جوارَهم.

ثم أرسل النجاشي إلى المهاجرين أصحاب النبي ﷺ فحضروا وهم مُجْمِعون على أن يقولوا الحق سواء سَرَّهُ أو أساءه؛ وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب ﷺ، فقال لهم النجاشي: ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟ فقال جعفر: أيها الملك، كنا أهلَ جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحشَ، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفته، فدعانا لتوحيد الله، وألا نشرك به شيئًا، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمَرنا بالصلاة والصيام - وعدّد عليه أمور الإسلام - فآمنا به وصدقناه، وحرمنا ما حرّم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فتعدَّى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك عن سواك ورجونا ألا نُظْلَم عندك أيها الملك؛ وهنا نطق الملك وقال: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه قرآنًا، فبكي النجاشي وبكى أساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، وقال لرَجُلِي الوفد: انطلقا، والله لا أسلّمهم إليكما أبدًا.

فلما خرجنا، قال عمرو: والله لآتينّه غدًا بما يُبيد خَضْراءهم، فقال له عبدالله: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وكان عبدالله أتقى من عمرو.

فلما كان الغد أتيا النجاشي، وقال له عمرو: إن هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل النجاشي إليهم، فجاءوا فسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: نقول الذي جاءنا به نبيّنا: «هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم

العذراء البتول» فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العودَ، فنخرت[1] بطارقته فقال لهم: وإن نخرتم، وقال لجعفر وأصحابه: اذهبوا فأنتم آمنون، ما أحب أن لي جبلاً من ذهبٍ وأنني أذيت رجلاً منكم!!.

ورد هدية قريش، وقال: ما أخذَ اللهُ الرشوة[2] منّي حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناسَ فيّ حتى أطيعهم فيه. وأقام المسلمون بخير دار، وأحسن جوار.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

بيان أن ظلم قريش للمسلمين بلغ حدًّا لم يتجاوزه ظلم عَرَفه العربُ في بلادهم.

٢ - بيان خيبة وفد قريش وفشله في مهمته؛ لأنه يحارب الله في أوليائه ومن يحارب الله يهزم، ويخسر في الدنيا والآخرة.

٣ - بيان كمال جعفر بن أبي طالب العلمي والديني - فرضي الله عنه وأرضاه -.

٤ - بيان كمال أصحم النجاشي إيمانًا وعلمًا وكرمًا وحسن جوار - فرحمه الله رحمة واسعة -.

٥ - حرمة الرشوة وسوء أحوال أهلها مُعْطِين وآخذين.

هجرة أبي بكر الصديق الأولى

إن أبابكر، لما هاجر ذلك العددُ الكبير من المسلمين إلى بلاد الحبشة ورأى اشتداد ضغط المشركين على المسلمين مع قلة الناصر، وأنه لم يقدر على أن يدفع عن أحد من المسلمين: قرر الهجرة إلى الحبشة، وفعلاً استأذن الرسول ﷺ فأذن له، فخرج حتى إذا سار مسافة قرابة اليومين من مكة لقيه ابن الدُّغُنَّة، وهو يومَها سيد الأحابيش[3] فقال له: إلى أين يا أبابكر؟ قال: أخرجني قومي، وآذوني وضيقوا عليّ. فقال ابن الدُّغُنَّة: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم؛

[1] يُقال: نخر إذا رفع صوته بخيشومه.

[2] بريد حين رد الله عليه ملكه.

[3] الأحابيش: هم بنو الحارث من كنانة، والهُون بن خزيمة بن مدركة وبنو المصطلق بن خزاعة تحالفوا جميعًا بوادٍ يُقال له: الأحبش ببطن مكة، فقيل لهم: الأحابيش.

ارجع فأنت في جـواري، فرجع معه حتى إذا دخل مـكة، قام ابن الدغنة فقال: يا مـعشر قريش، إني قد أجـرت ابن أبي قحافة، فلا يعـرضنَّ له أحد إلا بخير، وحينـئـذ كفوا فلم يعرضوا له بسوء.

وكان لأبي بكر مـسجدٌ عـند باب داره يصلي فيه ويقـرأ القرآن، فيـبكي فيـقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته وبكائه وقراءته، وبلغ قريشًا ذلك، فأتوا إلى ابن الدُّغُنَّة، وقالوا له: إنك لم تُجِرْ هذا الرجل ليؤذينا؛ إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمـدٌ يرقّ ويبكي، وكانت له هيئة، فنحن نتخـوف على صبياننا ونسائنا وضـعفتنا أن يفتنهم، فأته فَمُرْه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء، فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال له: يا أبابكر، إني لم أُجِرك لتؤذيَ قومك؛ إنهم قـد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذَّوْا بذلك منك، فـادخل بيتكَ فـاصنع فيـه ما أحـببت. فـقال أبوبكر: أو أرد عليـك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال فاردد عليّ جواري، قال: فرددته، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قـحافة قد ردّ عليّ جواري فـشأنكم بصاحبكم. فـمرّ بأبي بكر - وهو عامد إلى الكعـبة - سفيه من سـفهاء قريش فحثـا على رأس أبي بكر ترابًا، ومر بأبي بكر رجل من قريش - ولعله الوليد بن المغـيرة أو العاص بن وائل - فقال له أبوبكر: ألا ترى ما يصنع هذه السـفيه؟ فقـال: أنت فعلت ذلك بنفسك. ومضى أبوبكر وهـو يقول ربّ ما أحلمك، أي ربّ ما أحلمك، أي ربّ ما أحلمك!!.

نتائج وعبر:

لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتي:

١ ـ هجرة أبي بكر مَثَلٌ لكل مؤمن يضطهد في بلده، فيـخرج منه طالبًا لعزة نفسه وحرية عمله الإسلامي.

٢ ـ بيان فضل أبي بكر، وما كان عليه من الإيمان والتقوى.

٣ ـ في ردّ أبي بكر جـوار ابن الدغنة ورضـاه بجـوار ربّه مَثَلٌ عـالٍ في التـوكل على الله تعالى.

٤ وقولُ أبي بكر: ربّ ما أحلمك، ثلاثًا بعد ما وضع السفيهُ على رأسه الترابَ وشكاته إلى الرجل القـرشي ورده عليه بقـوله: أنت فـعلت ذلك بنفسك: عـبرة لكل مـؤمن يضطهد في ذات الله، فيصبر على أذى قومه، ينتظر عقوبة الله تحل بالظالمين.

في شِعَب أبي طالب

إنه لما رأت قريشٌ انتشار وكثرةَ من يدخل فيه، وبلغها ما لقيَ المهاجرون في بلاد الحبشة من إكرام وتأمين - مع عودة وفدها - خائبًا لم يحصل على طائل - اشتد حنقها على الإسلام والمسلمين، فقامت باتخاذ إجراء انتقام ظالم جائر، ما كان لها أن تتخذه لولا ما أصابها من خيبة أمل جعلها تفكر هذا التفكير وتعمل هذا العمل الشرير.

اجتمع رجالها واتخذوا قراراً بكتابة كتاب يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبدالمطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم، وفعلاً كتبوا صحيفة بذلك، وتعاهدوا عليها وتواثقوا، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيدًا لأمرهم بذلك. وكتب الصحيفة منصورُ بن عكرمة بن عامر فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلّت يده.

ولما فعلت قريشٌ هذا الفعل القبيح الجائر انحاز بنو هاشم وبنوالمطلب إلى شعب أبي طالب، ودخلوا فيه برجالهم ونسائهم وأطفالهم، إلا ما كان من الطاغية أبي لهب، فإنه لم يدخل معهم؛ لأنه ظاهر قريشًا على عملهم الإجراميّ هذا. وكان سنة سبع من البعثة، واستمر الحصار في الشعب لبني هاشم وبني المطلب ثلاث سنوات، عانوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال، إنهم من شدة الجوع أكلوا ورق الشجر، وكان يُسْمع - مِنْ بعيد - بكاءُ أطفالهم من الجوع.

ولما أراد الله تعالى تفريج كربهم - بعد أن ضربوا الرقم القياسي في الصبر والاحتساب - قيض الله جل جلاله رجالاً من ذوي المروءة والحسب وعلى رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة إذ هو الذي مشي إلى رجال من قريش عرف فيهم عدم رضاهم على قرار قريش الجائر، فاستثار شعورهم وحملهم على أن يتعاونوا على نقض الصحيفة، وكانوا خمسة رجال، ولما اجتمعت قريش في أنديتها، قام أحدهم - وهو زهير بن أبي أميّة - وأقبل على الناس، وقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنوهاشم هَلْكَى لا يُبَاع لهم ولا يبتاع منهم، والله لا اقعدَنّ حتى تُشَقّ هذه الصحيفة الظالمة، وقام أحد الرجال الخمسة فقالَ مثلما قال الأول، وقام ثالث مؤيداً، وقام رابع بنفس الروح، وتقدم المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة «باسمك اللهم» وكان أبوجهل يسمع ويرى ما يَجْري في القضية، فلم

يتمالك اللعينُ حتى قال: هذا أمر دُبّر بليل.. ومزقت الصحيفة وبطل مفعولها، ويومئذ خرج بنوهاشم وبنوالمطلب من الشِّعْب.

ومن آيات النبوة أن النبي ﷺ أخبر عمّه أباطالب بأن الأرضة قد أكلت كلمات الباطل والجور فيها وأبقت كلمة الحق فيها، وهي «باسمك اللهم» وكان الأمر كذلك، فإنهم لما انتزعوا الصحيفة من جدار الكعبة لم يجدوا فيها إلا جملة «باسمك اللهم» وبذلك وبخهم أبوطالب على صنيعهم، فطأطئوا رءوسهم ولم يجيبوا بشيء، وقال في هذا أبوطالب، شعراً وهو قوله:

وقد كان في أمر الصحيفة عِبْرَةٌ
متى ما يُخَبَّر غائب القوم يُعجب

محا الله منها كفرهم وعقوقهم
وما نقموا من ناطق الحق مُعرِبِ

فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً
ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالتالي:

١ - بيان ما وصلت إليه قريش في الظلم والتعسف والجور، وذلك باتخاذها قرار المقاطعة الجائر الهادم لكل خلق وقيمة إنسانية.

٢ - بيان ما لقي رسولُ الله ﷺ والمؤمنون من أذى واضطهادٍ من كفار قريش.

٣ - بيان صبر المؤمنين وَجَلَدِهم وذلك في ذات الله عز وجل.

٤ - بيان أنَّ أهل المروءة لا يخلو منهم زمان ولا مكان، والحمد لله.

٥ - تجلّي آية النبوة المحمدية في أكل الأَرَضَة الصحيفة الجائرة إلا اسم الله تعالى، وإخبار الرسول ﷺ بذلك، فكان الأمر كما أخبر، إذ نزعت الصحيفة فلم يجدوا فيها إلا جملة «باسمك اللهم» وما عدا ذلك أكلته الأرضة.

❊ ❊ ❊

اشتداد حلوكة الليالي والأيام على الحبيب

عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

إنه - ما إن انفرجت تلك الأزمة الخانقة بالحصار في شعب أبي طالب التي دامت ثلاث سنوات تقريبًا - حتى رزئ ﷺ بأعظم رزء، إنه وفاة أبي طالب العم الكافل والطود الأشم المانع، والأسد الحامي والحصن الواقي، ووفاةُ خديجة، ومن هي خديجة؟ إنها الملاذ بعد الله، والأنيس بعد ذكره، إنها كانت تؤمنه إذا خاف، وتؤنسه إذا استوحش، تُريحه بعذوبة حديثها إذا تعب، وتسدده بصائب رأيها إذا قلق أو اضطراب.

مرض أبوطالب مرَضه الذي توفى فيه، وعلم به كفار قريش، فجاءوا يطلبون منه أن يفاوض لهم ابنَ أخيه علّهم يظفرون بصلح معه قبل وفاة عمه، فبعث أبوطالب إلى النبي ﷺ فحضر، فقال له: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطُوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: **«نعم كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم»**، فقال أبوجهل: وأبيك وعشر كلمات. قال ﷺ تقولون: **«لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»** فصفقوا بأيديهم وقالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا، إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل الذي يعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا، وفيهم نزلت الآيات الأولى من سورة «ص» ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، إلى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧].

واشتد المرض بأبي طالب، فعاده الرسول ﷺ، فوجد عنده بعض المشركين فعرض عليه الشهادة فقال: **«يا عم قل لا إلا الله كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله يوم القيامة»** فنظر أبوطالب إلى أشياخ الشرك حوله، فقالوا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال: هو على ملة عبدالمطلب[1]، ومات، فحزن الرسول ﷺ فقال: **«لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عن ذلك»** فأنزل الله تعالى من سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأخبر هو ﷺ بعد: أنّ عمه أباطالب في ضحضاح من نار يصل إلى كعبيه يغلي

(١) وفي هذا نزل قوله تعالى من سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

منه دماغه.

وبعد خمسين يومًا من موت أبي طالب تقريبًا، ماتت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وتتابعت المصائب على رسول الله ﷺ، واشتد الكرب وعظم الحزن. مات العم الذي كان عضدًا قويًا لرسول الله ﷺ، وكان حرزًا منيعًا، وماتت بعده خديجة المؤنسة ساعة الوحشة، والمؤمِّنة المطَمْئنة ساعة القلق والخوف، وخلت الساحة للمشركين، فأخذوا ينالون من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا ينالونه من قبل، فقد رموا بالأقذار عليه، وعلى باب داره، بل وداخل الدار حتى رموا بالقذر في القدر الذي يطبخ فيه.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها في التالي:

١ - بيان سنة وفاة كل من أبي طالب وخديجة رضي الله عنها وهي سنة عشر من البعثة.

٢ - ذكر آخر عرْض عَرَضَه المشركون على رسول الله ﷺ للصلح؛ ولم يفلحوا، لأنهم مصرون على الشرك.

٣ - بيان سبب نزول آيات: «ص» و «التوبة» و «القصص» فالأولى في المصالحة الفاشلة، والثانية والثالثة في أبي طالب، الثانية في عدم الاستغفار له، والثالثة في تسلية الرسول ﷺ وحزنه على موته على الشرك.

٤ - تتابع المصائب على الحبيب ﷺ كان مؤذنًا بالفرج القريب.

٥ - فيما أصاب رسول الله ﷺ من مصائب عزاءٌ لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب مهما عظمت، إذ رسول الله ﷺ أسوة المؤمنين والمؤمنات.

خروج الحبيب ﷺ إلى الطائف

يطلب النصرة لدينه

وبعد أن فقد رسول الله ﷺ عمه أباطالب - الذي كان عضده القوي، وحماه المنيع - خرج إلى الطائف يطلب ناصرًا من ثقيف ينصره على قومه، ويعينه على إبلاغ دعوته، خرج وهو راجٍ أن يَقْبل أهل الطائف منه ما جاءهم به من الله عز وجل. ولما وصل الطائف، قصد ثلاثة أنفار من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرافها، وهم الإخوة الثلاثة: عبد يا لَيْل بن عمرو بن عمير ومسعود، وحبيب، وكان عند أحدهم امرأة من قريش، فجلس

إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم من نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط[١] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!! وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسلهُ غيرك!!.

وقال الثالث: والله لا أكلمك كلمة أبدًا، لئن كنت رسول الله ﷺ كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردَّ عليك، ولئن كنت تكذِبُ على الله ما ينبغي أن أكلّمك!!.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من خير ثقيف، وقد طلب إلى الإخوة الثلاثة ألا يذكروا ما دار بينهم إلى قريش، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عَقِبَيْهِ، وألجئوه إلى حائط «بستان» لابْنَيْ ربيعة عتبة وشيبة، وعمد ﷺ إلى ظل شجرة عنب، فجلس تحتها مستظلاً بها، فلما اطمأن وسكنتْ نفسه قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربّي إلى مَنْ تكلني، إلى بعيد يتجهَّمني[٢] أمْ إلى عدو ملكتَه أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنّ عافيتكَ أوسعُ لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك، أو يَحِلَّ عليَّ سخطُك، لك العُتْبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

ولما فرغ ﷺ من مناجاته ربَّه عز وجل، ورآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة: دَعَوَا غلامًا لهما يقال له: عدّاس، وأمراه أن يأخذ قطفًا من عنب فيضعه في طبق، ثم يذهب به إلى رسول الله ﷺ، فيضعه بين يديه، ويقول له: كلْ من هذا، ففعل عداس، فلما وضع الرسول ﷺ فيه يدَه قال: «باسم الله» ثم أكل فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد، فقال رسول الله ﷺ: «ومنْ أيِّ البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نِيْنَوَي، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى». فقال له عداس: وما يدريك ما يونسُ بن متَّى؟. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبيًا وأنا نبيٌّ». فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسَه، ويديه وقدميه.

---

(١) يمرط ثياب الكعبة: أي ينزعها ويلقيها بعيدًا عنها، وهو إثم عظيم في نظره، وهو إثم ولكن تكذيب لرسوله وسخرية به وإغراء السفهاء به أعظم.

(٢) يتجهمني: يعبس في وجهي ويُريني ما أكره.

وهنا، نظر ابنا ربيعة أحدُهما للآخر، وقال له: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس، قالا له: ويحك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خيراً من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبيٌّ، فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وانصرف رسول الله ﷺ عائداً من الطائف بعد أن أيس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرّ به نفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تعالى في سورة «الأحقاف» في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآيات.. وهم من جنّ نصيبين[2] وكانوا سبعة نفر وحملوا رسالة الله تعالى إلى قومهم منذرين، كما نزلت سورة «الجن» في شأنهم أيضًا، وفيها من أخبارهم الكثير.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام الآتية:

١ ـ بيان ثبات الرسول ﷺ وعدم يأسه مهما عظم البلاء، يدل على ذلك خروجُه إلى الطائف يطلب النصرة.

٢ ـ بيان أن النبي ﷺ كان حكيمًا بل أستاذًا في الحكمة، فانظر كيف اختار النفر الثلاثة إذ كانوا سادة ثقيف، فلو أجابوا دعوتَه لأجابت كل أهل الطائف، فلما رفضوها علم أن غيرهم سيرفضها، فلذا لم يتصل بأحد غير النفر الثلاثة.

٣ ـ بيان سوء معاملة أهل الطائف، ومع هذا لم يَدعُ عليهم ﷺ بل دعا لهم، فقال: «اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم» واستجاب الله تعالى له فيهم فأتوا بعد حصارهم وآمنوا وأسلموا.

٤ ـ بيان فضل عداس، وشهادته بنبوّة رسول الله ﷺ.

٥ ـ بيان مكان لقاء الجنّ النبيَّ ﷺ، وحملهم رسالة الإسلام إلى أقوامهم.

* * *

(١) مكان بين مكة والطائف.

(٢) مدينة بالشام.

الإسراء بالحبيب ﷺ والعروج به إلى الملكوت الأعلى

نبدأ الحديث باسم الله، ثم بالسؤال التالي:

متى كان الإسراء والمعراج؟

إنه في السنة العاشرة من سني البعثة النّبويّة، إنه - الإسراء والمعراج - كان مكافأة ربّانيّة على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان؛ إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شِعْب أبي طالب، وما لاقى أثناءه من جوع وحرمان، إنه كان بعد فَقْدِ الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها.

بعد هذه الآلام، كافأ الحبيبُ حبيبَهُ، فرفعه إليه وقرّبه وأدناه، وخلع عليه من حُلَلِ الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه، من حزن وألم ونصب وتعب، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون.

وكيف كان الإسراء؟

لقد كان الإسراء من بيت أم هانئ حيث أُخرج الحبيب منه إلى المسجد الحرام إلى ما بين الحجر والحطيم، حيث أجريت له عملية شقّ الصدر فأُخرج القلبُ وغُسل بماء زمزم المبارك، ثم أُتِيَ بطست من ذهب مملوء إيمانًا وحكمةً فَحُشِيَ القلبُ بذلك الإيمان وتلك الحكمة، ثم أعيد القلب كما كان. ثم أتي بدابة وهي البراق، فركبه إلى بيت المقدس، فربطه في حلقة باب المسجد، ودخل المسجد فصلى فيه، ثم وُضع له معراج ممتد ما بين السماء الدنيا فاستفتح جبريل، فسئل عمن معه؟، فأخبر أنه محمد ﷺ وقد أُذِنَ له، فَفُتح لهما.

وهكذا سماء بعد سماء حتى انتهيا إلى السماء السابعة، وقد لاقاهما في كل سماء مُقَرَّبوها من الملائكة والأنبياء، فلقيا في الأولى آدم - عليه السلام -، وفي الثانية يحيى وعيسى - عليهما السلام - وهما ابنا الخالة، وفي الثالثة يوسف - عليه السلام -، وفي الرابعة إدريس - عليه السلام -، وفي الخامسة هارون - عليه السلام -، وفي السادسة موسى - عليه السلام -، وفي السابعة إبراهيم - عليه السلام -.

وكان ﷺ يلقى في كل سماء من التَّرحيب ما تقرُّ به عينُه وينشرح له صدره، وتطيب به نفسُهُ - وهو لذلك أهلٌ - ثم رفعت له سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، ونبقها كقلال هجر، وغشيها عند ذلك أمورٌ عظيمة، وألوان متعددة باهرة، وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجرة كثرةً، وفراش من ذهب، وغشيها من نور الربّ جل جلاله ما غشيها، ورأى ﷺ في هذا المكان جبريل - عليه السلام - وله ستمائة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض. وهذا ما دل عليه قوله تعالى من سورة «النجم» ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ[1] الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٧]. إذ ثبت ينظر إلى المكان الذي حُدِّد له النظر إليه فلم يتجاوزه، وهذا غاية الأدب منه ﷺ. كما رفع له البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم أتي بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذ اللبن، فقيل له: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.. ثم رفع وأُدنِيَ حتى انتهى إلى مستوى سمع فيها صرير الأقلام، وهنا قربه ربّه وناجاه - وإن لم يره - لأنه نور كيف يراه؟

وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، ولما رجع عائدًا مَرَّ بموسى - عليه السلام - فسأله؛ فأخبره، فطلب إليه أن يعود إلى ربّه يسأله التخفيف؛ لأن موسى جرّب بني إسرائيل ولم يجدَ لهم عزمًا، فخشي أن يحصل لأمّة محمد ما حصل لأمته، فعاد الحبيب ﷺ إلى حبيبه - جل جلاله وعظم سلطانه - يسأله التخفيف؛ إذ فرضها أولاً خمسين صلاة، فما زال يراجعه سائلاً التخفيف حتى كانت خمسًا بدل الخمسين[2].

ونزل الحبيب ﷺ صحبةَ جبريل - عليه السلام - إلى بيت المقدس، فنزلت الأنبياء يشيعون الحبيب ﷺ، فصلى بهم صلاة الصبح بالمسجد الأقصى. وركب البراق - حيث تركه مربوطًا بحلقة الباب - وعاد إلى مكة في صبيحة تلك الليلة، وقد ذهب عنه ﷺ كلُّ كرب وغمّ وحزن وهمّ، وعاد أوفر ما يكون ثقةً وطمأنينة، وتلك ثمرة هذه الرحلة المباركة إلى الملكوت الأعلى، إذ رأى فيها بأم عينيه ما كان أُخْبِرَه وتلقاه وحيًا من

---

(١) ما مال يمينًا ولا شمالاً.

(٢) أمّا بيان هذه الصلوات الخمس من حيث الوقت والكيفيّة فقد نزل جبريل بعد ذلك وصلى بالرسول والمؤمنين عند الكعبة يومًا وليلة فعلّمهم الكيفيّة والوقت المطلوب لأداء الصلوات الخمس، كما في الموطأ والصحيحين.

ربّه، فصَدَّق الخبرُ الخبر، وما رآه كمن سمع، والحمدُ لله ذي الإنعام والجلال والإكرام. وكيف قابلت قريش هذا النبأ العظيم؟.

إنه ﷺ قد عاد إلى المسجد الحرام وجلس فيه - وهو لا يدري - بم تقابل قريشٌ هذا النبأ العظيم، والحدث الجلل، فما زال جالسًا حتى مرّ به أبوجهل - عليه لعائن الله - فسأله قائلاً مستهزئًا: هل استفدت الليلة شيئًا؟ فأجاب المصطفى: «نعم، أُسْري بي الليلة إلى بيت المقدس». قال أبوجهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال النبيّ ﷺ: «نعم». فقال أبوجهل: أُخْبِرُ قومَك بذلك؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم». فقال أبوجهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلموا، فأقبلوا، فحدثهم النبيُّ ﷺ فمنْ مُصَدِّق، ومنْ مكذب مصفق واضع يده على رأسه؛ استعظامًا للخبر وإنكاراً له، وتعجبًا منه.

ولشدة ما أثار الخبرُ من سخرية وتعجب ارتد بعض من آمن ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم ولم تخالط بشاشتُه قلوبَهم.

ومشي رجال من المشركين المستهزئين إلى أبي بكر الصديق، وقالوا له: إن صاحبك يزعم أنه أُسري به إلى البيت المقدس، فقال الصديق: إن كان قال هذا فقد صدق! إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو روحة، فلقب أبوبكر بالصديق من يومئذ.

واجتمع رجال من قريش، وأرادوا امتحان النبيّ ﷺ فقالوا له: انعت لنا المسجد الأقصى، فأخذ ينعته لهم، فالتبس عليه، فجيء له بالمسجد ينظر إليه وينعته لهم، وعندئذ قالوا له: أخبرنا عن عيرنا القادمة من الشام، فقال: «قدْ مَرَرْتُ على عير بني فلان بالروحاء وقد أضلُّوا بعيراً لهم، وهم في طلبه فسلوهم عن ذلك، ومررتُ بعير بني فلان وفلان وفلان، ورأيت راكبًا قعوداً بذي مرّ فنفر بكرُه منه فسقط فلان فانكَسَرَتْ يَده فسلوه. ومررت بعيركم بالتنعيم، يَقْدُمُها جمل أروق عليه غرارتان تطلع عليكما طلوع الشمس»، فخرجوا إلى الثنيّة فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس، ليكذبوه، وفجأة قال قائل: هذه الشمس قد طلعت، فقال آخر: والله هذه العير قد طلعت يقدمها بعير أورق كما قال. ومع هذا فلم يؤمنوا، وقالوا: إن هذا إلا سحر مبينٌ. وأنزل الله تعالى مصداق ذلك فاتحة سورة «الإسراء».

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ - المعجزات ليست ضروريّة لحصول الإيمان؛ فقد رأى كفار قريش آيات عِظامًا ولم يؤمنوا.

٢ - تقرير حادثة الإسراء والمعراج، وثبوتُها بالكتاب والسنة والإجماع، وأن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معًا.

٣ - سَبْقُ أبي بكر وفضلُه وسبب تلقيبه بالصديق، فرضي الله عنه وأرضاه.

ثلاث آيات من آيات النبوة المحمدية

إن آيات النبوة المحمدية أكثر من أن تعد أو تحصى، وقد تقدم العديد منها في مطلع هذا الكتاب، وسيأتي في آخره ذكر عشرات المعجزات. وإنما أردنا ذكر ثلاث آيات هنا حيث أفردها المؤرخون بالذكر لعظم دلالتها وقوة برهانها على صدق الحبيب ﷺ فيما جاء به من الهدى ودين الحق، كما أن الناحية التاريخيّة تقتضي ذكرها هنا بعد حادثة الإسراء والمعراج.

وأولى هذه الآيات: آيةُ انشقاق القمر، فقد روى أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أنّ أهل مكة سألوا النبيّ ﷺ آية، فانشق القمر فرقتين، وروى البخاري عن قتادة عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية، فأراهم القمر شقّتَين حتى رأوا حِراءَ بينهما. ومصداق هذا في كتاب الله تعالى إذ قال عزَّ من قائل في فاتحة سورة «القمر»: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٣].

وخطب حذيفة بن اليمان بالمدائن يومًا فقال - بعد أن حمد الله وأثنى عليه ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار، وغدًا السباق. وروى أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قولـه: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» وقال المشركون: هذا سحر ابن أبي كبشة. وقالوا: نسأل السفّار خارج مكة، فسألوا السفّار، فأخبروا أنهم رأوا ليلة كذا قد انشق القمر فرقتين.

وثاني الآيات: هي دعاء النبيّ ﷺ على أهل مكة بالقحط لما استعصوا، وأبوا قبول دعوة الحق، ولجوا في الخصومة والعناد والمكابرة، فقد قال ﷺ: «اللهم أعنّي عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسفَ» فأصابتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاء أبوسفيان ومعه

رجال من مكة وقالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بُعِثْتَ رحمةً وإن قومك قد هلكوا فادْعُ الله لهم، فدعا ﷺ فَسُقُوا الغيث، وقد كان بلغ بهم الجوع حتى إنّ أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع.

وفي هذا، نزل قرآنٌ، وهو قوله تعالى من سورة الدخان: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [illegible] ١١) الآيتان.

إلا أنهم لما دعا لهم الرسول ﷺ وسُقُوا الغيث، عادوا إلى الإصرار والعناد، فعلم تعالى ذلك منهم وقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [illegible] وقد انتقم الله منهم يوم بدر، إذ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [illegible] وفعلاً قد أخذ الله رؤساءهم يوم بدر فأهلكهم ولم يَنْجُ إلا القليل منهم ممن كتب الله لهم النجاة ليؤمنوا وينجوا من عذاب الآخرة كأبي سفيان وغيره.

وثالث الآيات هي أنه يوم اشتد الصراع بين المشركين من جهة وبين المؤمنين من جهة أخرى - وذلك بمكة - كانت قد دارت حرب ضروس بين فارس والروم الدولتين العظميين المتجاورتين، ونظرًا إلى أن دولة الروم مسيحية من أهل الكتاب، ودولة الفرس مجوسيّة وثنيّة، كان أهل مكة يتلقون الأخبار ويتتبّعونها، ويسرهم أن تنتصر دولة الفرس الوثنيّة، ونزل قرآن كريم في هذا الشأن، وهو قوله تعالى من سورة «الروم» ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [illegible]

فأخبر تعالى بأن فارسًا قد غلبت الروم، وأن الروم ستغلب فارسًا في خلال بضع سنين، والبضع من الثلاث إلى التسع، فقال المشركون لأبي بكر الصديق: اجعل بيننا وبينك أجلاً، إن ظهر الروم على فارس كان لك كذا وكذا، وإن ظهرت فارس على الروم كان لنا كذا وكذا، والذي قال هذا وراهن أبابكر الصديق أُبَيُّ بن خلف، وإن الرهن كان على خمس قلائص[1] من الإبل، ولم يمضِ البضع من السنينَ حتى غلبت الروم فارسًا، وكان ذلك يوم بدر حيث فرح المؤمنون بنصر الله لهم على المشركين، ونصر الروم على فارس الوثنيّة، فكان هذا آية من أظهر الآيات دلالة على صدقَ ما جاء به الرسول محمد ﷺ من الهدى والدين الحق. فهذه ثلاث آيات ناطقة بالنبوة المحمدية شاهدة بصدق ما جاء به

---

(١) جمع قلوص وهي الفتية من الإبل.

الحبيب ﷺ من الهدى والدين الحق.

نتائج وعبر:

لقد اشتملت هذه القطعة من السيرة العطرة على نتائج وعبر، هي كالتالي:

١ - آية انشقاق القمر من أكبر الآيات، وهي ثابتة بالكتاب والسنة وبالأخبار المستفيضة المتواترة، وهي تقرر النبوة المحمدية وتؤكدها.

٢ - بيان أن دعوة النبيّ ﷺ لا ترد، وأن استجابة الله تعالى له آية نبوّته وتقرير رسالته وصحة دعوته.

٣ - بيان أن هذه الآيات لا تستلزم الإيمان ممن رآها؛ إذ رآها المشركون وما آمنوا ولا أسلموا إلا من شاء الله تعالى منهم ذلك.

٤ - تقرير صحة الدين الإسلامي، وأنه الدين الحق لصدق ما يُخْبِر به كتابُه من الغيوب المتعددة، وتقع كما أخبر ولا تتخلف أبداً.

٥ - بيان أن أهل الكتب من يهود ونصارى أقرب إلى المسلمين من المشركين والملاحدة الشيوعيين.

الخروج بالدعوة خارج مكة

إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يعرض دعوته على رجال ثقيف، وعاد آيسًا من خيرهم: دخل مكة في جوار المطعم بن عدي؛ إذ طلب إليه ذلك، فوافق عليه، فرآه أبوجهل فقال مستهزئًا: هذا نبيكم يا بني عبدمناف!! فرد عليه عتبة بن ربيعة قائلاً: وما ينكر أن يكون منا نبيّ ومَلِك؟ وسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال لعتبة: «**أما أنت فما حميتَ لله، وإنما حميتَ لنفسك، وأما أنت يا أباجهل فهوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً، وتبكي كثيراً، وأما أنتم - يا معشر قريش - فوالله، لا يأتي عليكم غَيْرُ كثيرٍ حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون**».

وكان الأمر كذلك فكانت آية نبوّته ﷺ.

وبقي ﷺ بمكة وقد قلّ ناصره واشتدت عداوة القوم له، ولم يكن بمكة من المؤمنين غير المستضعفين، ففكر ﷺ في الخروج بدعوته خارج مكة، فأخذ يعرض نفسه طالبًا نصرته حتى يبلغ دعوة ربّه، وذلك في المواسم والأسواق والمناسبات السنوية

وغيرها، فـأتى قبيلة كندة، فدعـاهم وطلب نصرته، فأبوا عليـه. وأتى بطنًا من كلب يُقال لهم: بنوعبدالله فـدعاهم إلى الله وعرض عليهم نصرته، فلم يقبلوا منه مـا عرض عليهم. ثم أتى بني حنيفة - وهم قوم مسـيلمة الكذاب - فلم يكن أحد أسوأ منهم ردًا وأقبحهم، وأتى بني عامر فعرض عليهم نصرته والإيمان بدعوته فرفضوا، وقال له أحدهم: أرأيت إن نحن تابعناك، فأظهـرك الله على مَنْ خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فـرد عليه الرسول ﷺ بقوله: «الأمر إلى الله، يَضَعه حيث شاء». فقـال العامريّ: أفَنُهْدفُ نُحـورَنا للعرب دونك، فإذا ظهرتَ كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك.

ولما رجع بنوعامر إلى ديارهم، أخبروا شيخًـا كبيرًا من رجالاتهم بالخبر، فوضع يده على رأسه، وقال: يا بني عامر هل من تلاف؟ والذي نفسي بيده ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق، وأين كان رأيكم عنه؟.

ولم يزل ﷺ يعـرض نفسـه ودعوتَه على كل قـادم له اسمٌ وشرف؛ عَلَّهُ يجـد من ينصره علي دعوته. وكـان كلما أتى قبيلة يدعوها تبـعه عمه أبولهب، فإذا فـرغ من كلامه يقول لهم: يا بني فلان إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من الضلالة والبدعة؛ فلا تُطيعوهُ، ولا تسمعوا له.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:

١ - ما كان العرب يلتزمونه من الجوار سنة حسنة، وهي تعرف اليوم باللجوء السياسي.

٢ - آية صدق النبوة المحمدية تتجلى في صدق ما أخبر به الرسول ﷺ أباجهل وقريشًا إذ كان ما أخبر به كلا منهما: كما أخبر.

٣ - قوة فراسة العامري؛ إذ عرف صدق النبي ﷺ وصحة دعوته وأنها الحق.

٤ - بيان ما كان عليه أبولهب من الصد عن الدعوة ومحاربتها حتى خارج مكة.

٥ - استعـمال أبي لهب لفظ البدعة والضـلالة فيما هو شـرع وهدى كاستعمـال أصحاب الأهواء اليوم لفظ البدعة والضلالة على هدْيِ الكتاب والسنة؛ تنفيرًا للناس عنهما.

* * *

تدابير إلهية لظهور الإسلام

ما زال الحبيب ﷺ يعرض دعوته ونصرته على كل ذي اسم، وشرف. وقدمَ مكةَ سويدُ بن الصامت الملقب بالكامل؛ لقوته وجلده - وهو أوسيٌّ من أهل المدينة - قدم حاجًا ومعتمرًا، فتصدى له الرسول ﷺ، فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن، فقال: إن هذا لحَسَنٌ، ثم انصرف وقدم المدينة، فلم يلبث أن قتله الخزرجُ في حرب بُعاث الدائرة بين قبيلتي الأوس والخزرج، فكان قومه يقولون: قُتل الكامل وهو مسلم.. وهذا تدبيرٌ.

وثانٍ هو قدوم أبي الحَيْسرِ أنس بن رافع مكة مع فتية من بني عبدالأشهل من بينهم إياس بن معاذ قدموا يلتمسون حلفًا من قريش على قومهم من الخزوج فأتاهم النبيّ ﷺ وقال لهم: «هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له»؟ ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن، فقال إياس - وكان غلامًا حدثًا - هذا والله خير مما جئنا له، فضرب وجهه أبوالحَيْسَر بحفنة من البطحاء[1] وقال: دعنا منك. فلقد جئنا لغير هذا، وقام رسول الله ﷺ ولم يلبث أن هلك إياس فسمعه قومه يهلل ويكبر حتى مات، فما يشكّون أنه مات مسلمًا.. هذا تدبير.

وثالث بينما رسول الله ﷺ يعرض نفسه طالبًا النصرةَ على القبائل الوافدة إلى الحج والعمرة، وإذا برهط من الخزرج عند العقبة، فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم الإسلام، وذكرهم هذا بما تقوله اليهودُ لهم بالمدينة من أن نبيًا يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود. فقال بعضهم لبعض: هذا والله النبيّ الذي توعدكم به اليهود، فأجابوا دعوة النبيّ ﷺ وصدقوا به، وقالوا له: إن بين قومنا شرًّا وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعزّ منك، ثم انصرفوا عنه، وكانوا سبعة نفر.

فلما قدموا المدينة ذكروا لأهلها النبيّ ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم وانتشر خَبَرُهُ. حتى إذا كان العام المقبل وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا النبيّ ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء[2].

وكانت هذه بيعة العقبة الأولى، وكان أهل هذه البيعة أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ

---

(١) البطحاء: رمل وحصًى.

(٢) المراد من بيعة النساء أنهم بايعوا على ألا يشركن بالله شيئًا إلى آخر ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ إلى ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] ولم يذكر فيها القتال لأن النساء ليس عليهن جهاد.

ابنا الحارث هما ابنا عفراء، ورافع بن مالك بن عجلان، وعبادة بن الصامت وغيرهم من الخزرج، ومن الأوس: أبوالهيثم بن التَّيِّهَانِ، وعُوَيم بن ساعدة، فانصرفوا بعد البيعة، وبعث معهم النبيّ ﷺ مصعبَ بن عمير بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار، وأمره أن يُقرِئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، فنزل مصعب بالمدينة على أسعد بن زرارة، وأنزله أسعد في دار بني ظَفَر، واجتمع عليه رجال ممن أسلموا، فسمع به سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضَيْر وهما سيدا بني الأشْهَل - وكانا مشركين - فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين اللّذين أتيا دارنا فانههما - يعني بالرجلين مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة - فإنه لولا أسعد بن زرارة وهو ابن خالتي لكفيتك ذلك، فأخذ أسيدٌ حربتَه، ثم أقبل عليهما فقال: ما جاء بكما تسفّهان ضعافنا؟ اعتزلا عنّا، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كَفَّ عنك ما تكره؟ فقال: أنصفت. ثم جلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، فقال: ما أحسن هذا وأجلَّه؟ كيف تصنعون إذا دخلتم هذا الدين؟ قال: تغتسل وتطهر ثيابك، ثم تشهد شهادة الحق - لا إله إلا الله محمد رسول الله - ثم تصلي ركعتين، ففعل ذلك وأسلم، ثم قال لهما: إن ورائي رَجُلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكم وهو سعد بن معاذ.

وانصرف أُسيد إلى سعد وقومه. فلما نظر إليه سعد قال: أحْلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، ثم قال لأسيد: ما فعلتَ؟ قالَ: كلمتُ الرجلين، ووالله ما رأيت بهما بأسًا، وذهب سعد بن معاذ إلى أسعد ومصعب، فدعاه إلى الإسلام فأسلم على نحو ما أسلم أُسيد ثم ذهب إلى دار بني عبدالأشهل فسألهم قائلاً: كيف تعلمون أمْري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، وما زال يدعو إلى الإسلام حتى لم يَبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من بني أمية بن زيد ووائل وواقف فإنهم أطاعوا أباقيْس بن الأسلت، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ ونزل بالمدينة، وحتى مضت بدر وأحد والخندق ثم دخلوا في الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم.

ورابع هو: أنه لما فشا الإسلام في المدينة بين الأنصار، اجتمع جماعة من أهل المدينة وقرّروا أن يأتوا النبيّ ﷺ في الحج ويجتمعوا معه سرًّا ويدرسوا معه - على كَثَب - موضوعَ هجرته إليهم، وانتهوا إلى مكة، واتصلوا بالحبيب ﷺ سرًّا، وواعدوه وسط ليالي التشريق، فوافوه بالعقبة ليلاً وكانوا سبعين رجلاً ومعهم امرأتان هما نُسَيْبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء أم عمرو بن عديّ من بني سَلَمة - وكان مع الرسول ﷺ عمه العباس رضي الله عنه، وهو يومئذ كافر لم يؤمن، وإنما حضر ليستوثق لابن أخيه من كل ما يَعِدُه به الأنصار ويعطونه له من أنفسهم، فكان أول من تكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج، إن محمدًا منّا حيث علمتم في عزّ ومَنَعة، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه فأنتم وذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِمُوه، فمن الآن فدعوه؛ فإنه في عزٍّ ومنعة.

فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلتَ، فتكلم يا رسول الله وخُذْ لنفسك ولربك ما أحببتَ. فتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ورغب في الإسلام، ثم قال: «تمنعونني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيًّا، لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرنا[1] فبايعْنا يا رسول الله فنحن والله أبناءُ الحرب وأهل الحدقة[2] ورثناها كابرًا عن كابر. وهنا، اعترض الكلام أبوالهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها، فهل عسيتَ - إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله - أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسَّمَ رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم[3] الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّي، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم». وهنا التفت إليهم العباس بن عبادة الأنصاري وقال يا معشر الخزرج، هل تدرون عَلامَ تبايعون هذا الرجل، تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فهو - والله - خزيُ الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه فهو - والله - خير الدنيا والآخرة، فأجابوه قائلين: إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، والتفتُوا إلى الحبيب ﷺ وقالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله؟ قال - فداه أبي وأمي والناس أجمعون -: «الجنة»!! فقالوا: ابسُط يدك

---

(١) أي نساءنا: فالأزر كناية عن النساء، لأن الأزر ستائر، والنساء كذلك يسترن الرجال.

(٢) السلاح.

(٣) أي نطالب بدمكم، وهو معنى الدم الدم وما تتركونه من الدماء أتركه أنا أيضًا وهو معنى الهدم الهدم.

تبايعك، فبسط يده فبايعوه على خلاف بيعة النساء الأولى، إذ بايعوه على حرب الأحمر والأسود. وعيَّنَ منهم ﷺ اثنى عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.
فالخزرجيّون هم: أسعد بن زرارة - وسعد بن الربيع - وعبدالله بن رواحة - رافع بن مالك - وعبادة بن الصامت - وسعد بن عبادة - والمنذر بن عمرو بن خُنيس.

والأوْسِيُّون هم: أسيد بن حُضير - وسعد بن خيثمة - ورفاعة بن عبدالمنذر.

وبهذا كانت بيعة العقبة الثانية. وصرخ الشيطان من أعلى العقبة قائلاً: يا أهل الجبّاجب[1] هل لكم في مُذَمّم[2] والصباة[3] معه قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب[4] العقبة، أتسمع أيْ عدوَّ الله، أما والله لأتفرَّغنَّ لك» ثم قال ﷺ: «ارجعوا إلى رحالكم» فقال العباس بن عبادة: والذي بعثك بالحق نبيًّا لئن شئت لَنَمِيلَنَّ غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال ﷺ: «لم نؤمر بذلك».

وسمعت قريش بهذه البيعة المباركة، فلاحقت أهلَها فلم تظفر إلا بسعد بن عبادة فعذبته، ثم نجاه الله تعالى فلحق بالمدينة، واشتد لذلك غضب قريش وعظم أذاها للمؤمنين، فأمر النبي ﷺ المؤمنين بالهجرة إلى المدينة.

فكان أول من قدم المدينة أبو سلمة بن عبدالأسد، ثم هاجر عامر بن ربيعة مع امرأته ليلى، ثم عبدالله بن جحش، وتتابع الأصحاب، فهاجَرَ عمرُ بن الخطاب وعياش بن ربيعة، وغيرهم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ - بيان شرف سويد بن الصامت - الملقب بالكامل - إذ كان أول من لقيه رسول الله ﷺ وعرض عليه الإسلام، فاستحسنه ونقل خبره إلى المدينة.

٢ - بيان شرف إياس الشاب الذي ما إنْ سمع قول الرسول ﷺ حتى قال: هذا والله خير مما جئتم له، فأجابوه وآمنوا وعادوا إلى المدينة، فنشروا الإسلام.

---

(١) المنازل.

(٢) يعني - لعنه الله - محمداً ﷺ.

(٣) الصباة: جمع صاب، أي مائل عن دينه يعني أهل البيعة.

(٤) أزب العقبة: شيطانها، والأزب: القصير الماكر والبخيل الخبيث.

٣ - بيان فضل الرهط الذين لقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة، وعرض عليهم الإسلام.

٤ - بيان شرف أهل بيعة العقبة الأولى، وعلى رأسهم أسعد بن زرارة.

٥ - بيان فضل مصعب بن عمير شهيد أحد ﷺ إذ ضرب المثل في حسن الدعوة والصبر على البلاء فرضي الله عمن ترضى عن مصعب من كل مؤمن موحّد.

٦ - شرف أهل بيعة العقبة الثانية وفضل النقباء منهم، وهم اثنا عشر رجلاً.

٧ - بيان عداوة الشيطان، إذ صرخ متألمًا لما شاهد من نصرة الإسلام، وأغرى المشركين بالمؤمنين وأذاع خبر بيعة العقبة - فلعنة الله عليه -.

لطائف أمور قبل هجرة الحبيب ﷺ

أول هذه الأمور: نصُّ حديث البيعة إذ جاء فيه ما يلي: قال عبادة بن الصامت - وكان أحد النقباء: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومةَ لائم.

وثاني هذه الأمور: أن العباس بن عبادة العوفي، هو الوحيد الذي ظفر بلقب مهاجر أنصاري، فالأصحاب كلهم إما مهاجر أو أنصاري إلا العباس ابن عبادة العوفي، فإنه خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة وأقام بها، فكان يقال له: مهاجري أنصاري. استشهد بأحد - رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه -.

وثالث هذه الأمور: لما تمّت بيعة العقبة الثانية، وقد تضمَّنت نُصْرَةَ رسول الله ﷺ، قال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها» فخرجوا أرسالاً - أي جماعة إثر جماعة - وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر إذنَ ربّه له في الهجرة إلى المدينة.

ورابع هذه الأمور: أن أول مهاجر من قريش من بني مخزوم إلى المدينة كان أباسلمة ابن عبدالأسد بن هلال، واسمه عبدالله - رضي الله عنه وأرضاه -.

وحديث هجرة أبي سلمة اللطيف الشريف كان كالتالي، فلنستمع إليه:

لما عاد أبوسلمة من الحبشة إذ هاجر إليها أولاً، ولما وصل مكة، آذته قريش، وبلغه إسلامُ من أسلم من الأنصار، فقرر الهجرة إلى المدينة، فحمل زوجته أم سلمة وطفلَه وقاد بهما راحلته، وخرج فلحقه رجال من بني مخزوم، فقالوا له: هذه نفسُك قد غلبْتَنا عليها،

أرأيتكَ صاحبـتَك هذه، عَلامَ نَترُكُكَ تسيـر بها في البلاد؟! ونزعوا خطام البـعير من يده، وأخذوا الراحلة وعليها امرأته وولده، وغـضب عند ذلك رجال من رهط أبي سلمة فقالوا: والله، لا نترك ولدنا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحـبنا، فتجاذبوا الطفل حتى خلعَت يدهُ، وانطلق به بنوعبدالأسد، وحبَس بنوالمغيرة أمَّ سلمة عندهم.

ولنستمع إليها، وهي تحدث عن قصة هجرتها، قالت ﵂: ففرقوا بيني وبين زوجي - إذ واصل هو سيره إلى المـدينة - وبيني وبين ولدي إذ أخذه رهط زوجي، فكنتَ أخرج كل غداة إلى الأبطح فأجلس أبكي، فلا أزال أبكي حتى أُمسي، وذلك سنة أو قريبًا منها، حتـى مرّ بي رجل من بني عَـمِّي أحد بني المـغيـرة، فرأى مـا بي فَرَحِـمَني، فقـال لبني المغـيرة: ألا تخرجون هـذه المسكينة؟!! فرقتـم بينها وبين زوجهـا، وبينها وبين ولدها. قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: وردّ بنوعبدالأسد إليّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعـته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما مـعي أحد من خلق الله، فـقلت: أتبلّغُ بمن لقـيت حتي أقدم علـى زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبدالدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميّة؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة. قـال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وبُنَيَّ هذا، قال: والله مالك من مَتْرك ، فأخذ بخطام البعير، فانطلَقَ معي يهوي بي، فوالله ما صـحبتُ رجـلاً من العرب قط أرى أنه كـان أكرم منه، كـان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عنّي، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط، ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عني إلى شجرة أخـرى فاضطجع تحتهـا، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فـقدمه فرحله ثم اسـتأخر عني، وقال: اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى وأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلمـا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجُك في هذه القرية - وكان أبوسلمة نازلاً بها - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة وهو يومئذ على الشرك، وما أسلم إلا في هدنة الحديبية.

والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة.

مراجعة:

هيا بنا يا إخوة الإسـلام نراجع قصة أم سلمة هذه لعلنا نبكي فنمـسح بدموعنا بعض

آثامنا، ونُذْهب بها بعض قساوة قلوبنا.

هذه أم سلمة وذاك زوجها - قبل رسول الله ﷺ - أبوسلمة ذو الهجرتين، يخرج بها من مكة مهاجراً بها إلى دار الهجرة، فتفتك منه زوجته وولده، ويفتك الولد من أمه، ويترك أبوسلمة زوجته وولده ويهاجر إلى ربّه تاركًا نصفه وراءه، وتنظر أم سلمة فلم تجد مواسيًا ولا مؤانسًا، فتخرج كل يوم إلى الأبطح تبكي طوال يومها، وتعود إلى كسر بيتها إلى انسلاخ سنة بأشهرها الإثنى عشر، ثم يؤذن لها بالهجرة، فتهاجر وحدها على بعير وما معها سوى طفلها تسافر مسافة عشرة أيام.

حقًا ما قالته: ما أعلم أهلَ بيت أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة. هذه، وأخرى في كمال عثمان بن طلحة الذي يَضْرب الرقم القياسي في الكرم النفسي: إنه يجد امرأة على بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام في صحراء، لا خضراء بها ولا ماء، فيقول - وقد سألها عن حالها: والله مالك من مُتْرَك، ويقود بعيرها ويحسن إليها في ركوبها ونزولها، ويريها من العفة والكرم ما لم تره امرأة مثلها قط.

آه أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة؟!!. لقد أقفرت منهم الحياة، وأجدبت منهم ساحة الوجود، ولا خير في دنيا يُفقد فيها أمثال هؤلاء.

وخامس هذه الأمور: أن المهاجرين جميعهم، ما منهم أحد إلا نزل بيت أحد الأنصار، فأيّ كرم أعظم من هذا؟ وأي إخاء أصدق من هذا الإخاء؟ وأي إسلام أحسن من هذا؟ وأي صبر أقوى من هذا؟ وأي إيمان أثمر من هذا؟ وأين نحن اليوم من ذا وذاك يا عباد الله؟.

وسادس هذه الأمور: هو هجرة صهيب، إنه حين أراد الهجرة إلى المدينة قال كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا، فكثر مالك عندنا، وبلغتَ الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك! والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال فإني جعلت لكم مالي، ودلّهم على مكانه وهاجر، فلما رآه رسول الله ﷺ بادره قائلاً: «ربح البيعُ، صهيبُ.. ربح البيع، صهيب» ونزل فيه قرآن يُتلى إلى اليوم، وهو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وسابع هذه الأمور: هو أن النبي ﷺ، كان قد أرسل مع أهل بيعة العقبة الأولى

مصعبَ بن عمير بن هاشم بن عبدمناف، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام ويُفَقِّهَهُم في الدين، فكان أول من لُقِّب بالمقرئ، واستشهد بأحد، فهو ضجيع سيد الشهداء حمزة في ساحة أُحد يزاران مع بعضهما بعضًا، فرضي الله عنهما وأرضاهما وجعل الجنة مأواهما.

وثامن هذه الأمور: هو أن عبدالرحمن بن كعب بن مالك قال: كنتُ قائد أبي لما ذهب بصرهُ فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة، فسمع الأذان: صلى على أسعد بن زرارة فسألته عن ذلك قائلاً: يا أبت!! ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليتَ على أبي أمامة؟ قال يا بنيّ إنه كان أول من جمع بنا بالمدينة في هَزْم[1] النَّبيت من حرّة بني بياضة، يقال له: نقيع[2] الخَضِمَات[3] قلت له: وكم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

وتاسع هذه الأمور هو: إنه لمَّا عاد أهل بيعة العقبة إلى المدينة وأظهروا الإسلام فيها كان من بينهم معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل، وكان لعمرو بن الجموح - والد معاذ - صنم قد اتخذه في داره، شأنه شأن سادات وأشراف المدينة، وكان الصنم من خشب، فكان يعبده بدعائه وتعظيمه فيجيء معاذ ولدُه مع معاذ بن جبل - في فتيان ممن أسلموا - بالليل المظلم فيأخذون الصَّنَمَ ويلقونه في حفرة لبني سلمة يلقون فيها العذرة والأوساخ منكّسًا رأسه، فيصبح عمرو فيطلبه فلا يجده، فيبحث عنه فيجده في تلك الحفرة منكّسًا ملطخًا، فيأخذه فيطهّره ويطيبه وينصبه في داره، فيأتي الفتيان المسلمون ليلاً فيأخذونه ويفعلون به ما فعلوا به الليلة البارحة، وهكذا فيأتي به عمرو ويقول: لو أعلم من فعل هذا بك لأضربنّه. ولما أكثروا به ذلك جاء به يومًا فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك! فلما أمسى عمرو جاء الفتيان فعدا عليه، وأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به في حبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس، ثم غدا عمرو يطلبه فلم يجده في مكانه الذي تركه فيه، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكّسًا مقرونًا بكلب ميت فلما رآه وأبصر شأنه تبيّن له عدم صلاحيته

---

(١) هزم النبيت: جبل على بريد من المدينة.

(٢) يروى النقيع بالنون والبقيع بالباء.

(٣) من الخَضْم الذي هو الأكل بالفم كله، والقَضْم الأكل بأطراف الأسنان.

(٤) جمع عذرة، وهي الغائط، أي الخرء.

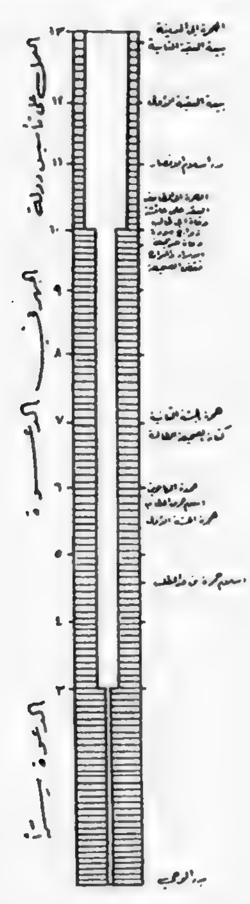
للألوهية، وكلَّمه بعض رجال قومه في الإسلام فأسلم، وقال في صنمه شعراً، هذا نصُّه:

والله لو كنت إلهاً لم تكن
أنت وكلبٌ وسْط بئر في قَرَن

إلى أن قال:

الحمد لله العلي ذي المنن
الواهب الرزّاق ديان الدِّين
هو الذي أنقذني من قبل أن
أكون في ظلمة قبر مُرْتَهَنْ

* * *



بيان مراحل هامة مرت بها الدعوة من البعثة الصادقة

إلى الهجرة المباركة إلى طيبة الطيبة الطاهرة.

هجرة الحبيب الطيب محمد ﷺ إلى طيبة الطيبة

إنه - بعد أن خرج المؤمنون من مكة أرسالاً إلى المدينة مهاجرين، ولم يَبْقَ منهم إلا محبوسٌ أو مفتون - كان الحبيب ﷺ في انتظار الإذن له من ربّه عز وجل بالهجرة، وأبقى معه عليًا لحاجته إليه. وأما أبوبكر الصديق فإنه كثيرًا ما كان يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول: لا تعجل؛ لعل الله يجعل لك صاحبًا!! فيطمع أبوبكر أن يكون رسول الله ﷺ هو الصاحب. وفي هذه الأيام بالذات، كان رجال قريش يتخوفون منه ﷺ أن يلتحق بدور الأنصار وهم ذوو شوكة ومنعة وقد لحق بهم المؤمنون، فقرروا عقد اجتماع لهم بدار الندوة يحضره أولو الرأي والمشورة منهم للتفكير في أمر محمد ﷺ، وجاءوا دار الندوة وإذا بشيخ جليل عند بابها، فسألوه «من أنت؟» قال: شيخ من نجد سمعتُ بما اتعدتم عليه، فحضرت لأسمع ما تقولون، وعسى ألا تعدموا منّي رأيًا ونُصحًا، فدخل معهم وقد ضم الاجتماعُ أباسفيان وأباجهل والنضر بن الحارث وكبار رجال قريش، ودارت المناقشة للبحث عن المخرج، فقال بعضهم: إن هذا الرجل، قد كان مر أمره ما قد رأيتم - يعنون النبي ﷺ - فإنا والله ما نأمنه من الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجْمِعُوا فيه رأيًا. فقال بعضهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذي كانوا قبله - يريدون حتى يموت في الحبس - وفي هذا يقول تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] أي الموت وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] أي في الحديد محبوسًا في دار حتى الموت.

وهنا قال الشيخ النجدي - وهو أبليس عليه لعنة الله - أتاهم في صورة شيخ جليل ليثقوا فيما يقترحه عليهم، وهو الذي صرخ بأعلى العقبة منذ أشهر قائلاً: يا أهل الجباجب، هل لكم في مذمم والصباة، وردّ عليه الرسول ﷺ قائلاً: «**هذا أزب العقبة، والله لأفرغن لك؟ أي عدوَّ الله**». جاء اليوم لينتقم، فقال: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموهُ دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي؛ فانظروا غيره، فتشاوَرُوا، ثم قال بعضهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب. قال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم بالرأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته علي عقول الرجال بما يأتي به،

دَبِّروا فيه أمرًا غير هذا. فقال أبوجهل: والله إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه أبدًا. قالوا: وما هو يا أباالحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شابًا نسيبًا[1] وسيطًا[2] فينا، ثم نعطي كل فتًى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، ويتفرّق دمه في القبائل؛ فلا يقدر بنوعبدمناف على حرب قومهم جميعًا، فيرضون منّا بالعقل[3] فنَعْقِلُه لهم، أي ندفع ديّته لهم، وهنا قال الشيخ النجدي «إبليس»: هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فأجمعوا عليه ونفذوا خطتهم، وقد أوحى تعالى بذلك إلى رسوله محمد ﷺ، فأمر ابن عمه عليًّا بأن ينام على فراشه ويتغطّى ببرده ﷺ، وأعلمه أنه لا يناله ما يكره إن شاء الله تعالى ﷺ ثم أخذ حفنة من تراب وخرج وهو يقرأ: ﴿يسٓ ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فأعمى الله ابصارهم، فخرج من بين أيديهم، ووضع التراب على رءوسهم وهم لا يشعرون، وانصرف ﷺ حيث أراد وبعد ساعة أتاهم آتٍ فقال لهم:

ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمدًا، فقال: خيّبكم الله!! قد والله خرج عليكم، ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع التراب على رأسه، وانطلق لحاجته، فوضع كل واحد منهم يده على رأسه فإذا الترابُ عليه، فجعلوا يتطلعون من خلال شقوق الباب فيرون عليًّا على الفراش متغطيًا ببرد النبيّ ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليّ رضي الله عنه عن الفراش، فلما رأوه قالوا: والله لقد صدَقَنا الذي كان حدَّثَنا وانصرفوا.

أما الحبيب ﷺ، فلنترك لعائشة أم المؤمنين تقص علينا تحرُّكَه نحو هجرته، فقد قالت: كان النبي ﷺ لا يخطئ أنْ يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار - إما بكرة وإما عشية - حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة فإنه أتانا بالهاجرة، وساعةً كان لا يأتينا فيها.

فلما رآه أبوبكر قال: ما جاء برسول الله ﷺ في هذا الوقت إلا أمر حدث، فلما دخل رسول الله ﷺ تأخر له أبوبكر عن سريره فجلس ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرِجْ مَنْ عندك» فقال: يا رسول إنما هما بنتايّ،

---

(١) ذو نسب شريف.
(٢) شريفًا.
(٣) أي بالدية.

وما ذاك - فداك أبي وأمي؟ فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة» فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «الصحبة». قالت عائشة: والله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتي رأيت أبابكر يبكي يومئذ، ثم قال أبوبكر: يا نبيَّ الله إن هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبدالله بن أريقط من بني الديل - وكان مشركًا - لِيَدُلَّهما على الطريق، فدفعا إليه الراحلتين يرعاهما لميعاد خروجهما من مكة إلى المدينة، ولما أجمع رسول الله ﷺ علي الخروج عهد إلى علي بن أبي طالب أن يتخلف بعده بمكة ليؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، إذ كان الناس يضعون عنده ودائعهم مما يخافون عليه، وذلك لما رأوا من أمانته وصدقه، وأتى أبابكر فخرج معه من خوخة له في ظهر بيته، فعمدا إلى غار ثور[١]، وأمر أبوبكر ابنه عبدالله أن يتسَمَّع لهما ما يقول الناس فيهما نهارَه ثم يأتيهما مساءً بما كان في ذلك اليوم من الخبر، كما أمر أبوبكر عامرَ بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ثم يُريحها عليهما مساءً، ليسقيهما من لبنها، وإذا جاءهما عبدالله أو أخته أسماء بطعام أتبع عامرٌ أثرهما بالغنم، فعفى أثرهما.

وأقام رسول الله ﷺ مع أبي بكر ثلاثة أيام، وطلبهما المشركون طيلة الثلاثة الأيام، ومن آيات النبوّة أن العنكبوت نسجت على الغار، والحمامة عشّشت وباضت، تعميةً على الطالبين من المشركين.

ولما مضت ثلاثة أيام، وسكن الناس عنهما، وأَيِسُوا من العثور عليهما، أتاهما من استأجراه بالراحلتين، وكانت أسماء قد جاءت بطعام في سفرة، ونسيتْ أن تجعل له عصامًا، وأرادت أن تعلق السفرة بالبعير، فلم تستطع ذلك، فشقت نطاقها نصفين فعلقت السفرة بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر، فمِنْ ثم لقُبت بذات النطاقين.

ولما كان المشركون يطلبون رسول الله وأبابكر - وهما في الغار - سمع أبوبكر قَرْعَ نعال الطالبين، فخاف حزنًا وقال: يا رسول الله لو يرفع أحدهم قدمه لرآنا، فقال له الرسول ﷺ: «ما بالك يا أبابكر باثنين، اللهُ ثالثهما»؟!.

وفي ذلك نزلت آية سورة التوبة: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ..

(١) جبل من جبال مكة.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي:

١ - بيان مدى حبّ الصديق للرسول ﷺ، إذ كان يرغب في صحبته، حتى إنه - لما أذن للرسول ﷺ بالهجرة وقَبِلَ صحبته - بكى ممن شدة الفرح ﷺ، وهذا شأن المحب الصادق.

٢ - بيان قرار قريش الجائر الذي شارك فيه أبو مُرَّة - إبليس عليه لعائن الله - ورضيه لما فيه من الإجماع على قتل النبي ﷺ، وتوزيع دمه على القبائل حتي لا يُطالب بدمه، ويُرضى بالدية.

٣ آية خروج الرسول ﷺ ومروره بين أيدي المشركين ووضع التراب على رءوسهم وهم لا يشعرون.

٤ -بيان أن أول فداء كان في الإسلام، فداءُ عليّ النبيَّ ﷺ إذ تركه نائمًا على فراشه وخرج، والمشركون يظنون أنه النبي ﷺ وهو عليّ ﷺ.

٥ -بيان أن النبيّ ﷺ كان يأخذ بالأسباب وبالحزم فيها، إذ أوهم المشركين بترك عليٍّ نائمًا على فراشه، هذا أولاً، وثانيًا: أعدّ الراحلةَ للسفر والخِرِّيت العالم بالطريق ومسالكها. وثالثًا: دخوله غار ثور مع صاحبه استخفاءً عن أعين المشركين الطالبين له.

٦ -آية نسج العنكبوت وتعشيش الحمامة وتبييضها؛ سترًا على رسول الله ﷺ وتعميةً على المشركين، ولا عجب في هذا، فإن الوزغة لما ألقي إبراهيم في النار كانت تنفخ فيها لتشتعل على إبراهيم، فكانت الوزغة أخبث حيوان وكان في قلتها أجر إلى اليوم؛ لورود السنة بذلك.

٧ -بيان طيبوبة أسرة الصديق نساءً ورجالاً، وبيان سبب لقب أسماء بذات النطاقين.

الطريق إلى المدينة

وخرج الحبيب ﷺ وصاحبه بعد هدوء الأحوال، تلقاهما من استأجراه بالراحلتين فقدَّم أبوبكر لرسول الله ﷺ أفضلهما، وقال: اركب - فداك أبي وأمي - فقال رسول الله ﷺ: «لا أركب بعيرًا ليس لي» فقال الصديق: هو لك - فداك أبي وأمي - فقال

الحبيب: «لا إلا بالثمن الذي ابتعتها[1] به». فقال أبوبكر: هو كذا وكذا، فقال النبيّ ﷺ: «قد أخذتها به» وركبا وانطلقا وقد أردف أبوبكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما في رحلتهما إلى طيبة الطيبة وساروا على بركة الله، وعينُ الله ترعاهم. هذا، ونعود إلى مكة لتسجيل حادثين أو ثلاثة من مهمات الأحداث.

الأول: أن قريشًا لما كانوا يبحثون عن النبيّ ﷺ وصاحبه، أتوا دار أبي بكر، فخرجت لهم أسماء فسألوها: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي، فرفع أبوجهل يدَه - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خد أسماء لطمَة أسقط قرطها من أذنها.

والثاني: أن قريشًا ما إن فقدت النبيّ ﷺ وطلبته ولم تجده حتى أعلنت عن جائزة مقدارُها مائة بعير لمن يأتيها برسول الله ﷺ حيًا أو ميتًا.

والثالث: أنه لما غادر رسول الله ﷺ مكة مع صاحبه، قالت أسماء: مكثنا ثلاثًا لا ندري أين اتجه رسولُ الله ﷺ، وإذا برجل من الجنّ يُقْبِل من أسفل حتى خرج من أعلى مكة، وبهذا عرفنا وَجْهَ رسول الله ﷺ وصاحبه وأنهما اتجها إلى المدينة النبويّة.

وها هي ذي الأبيات التي كان يَتَغَنّى بها رجل الجن:

جزى اللهُ ربُّ الناس خيرَ جزائه
رفيقين حلاَّ خيمتَي أمّ معْبد
هما نزلا بالبِرِّ ثم تروَّحا
فأفلح من أمسى رفيقَ محمد
ليَهْنِ بني كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد

والرابع: أن أسماء قالت: لما خرج أبوبكر مهاجرًا أخذ كل ماله معه، وكان ستة آلاف درهم. قالت: فدخل علينا جدّي أبوقحافة، وكان قد ذهب بصره، فقال: إني أراه قد فَجَعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت له: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا، وأخذت أحجارًا فوضعتها في كوّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده فوضعتها عليها وقلت: يا أبت هذا المال الذي ترك لنا أبوبكر. فقال: إن

(١) اشتريتها.

كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ[1] لكم. قالت أسماء بعد ذلك: والله ما ترك لنا شيئًا، وإنما أردت أن أسكن الشيخ بذلك لا غير.

عودة إلى مسايرة الركب الميمون:

وفي طريق الركب الميمون مروا بخيمة أم معبد، فسألوها طعامًا أو شرابًا فلم يصيبوا عندها شيئًا، وكانت بكسر خيمتها شاة هزيلة خلفتها الغنم لهزالها. فقال الحبيب الطيب: «هل بها من لبن»؟ فقالت: هي أجهد من ذلك فقال: «هل تأذنين لي أن أحلبها»؟ فقالت: بأبي أنت وأمّي إن رأيت بها حليبًا فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فجاءت فمسحَ بيده ضرعَها، وسمَّى الله تعالى ودعا لها في شأنها فتفاجت[2] ودرت واجترت، ودعا بإناء يروي الرهط فحلب فيه ثُجًّا حتى علاه لبنها، ثم سقاها «أم معبد» حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب آخِرهم، وكيف لا، وهو القائل: «ساقي القوم آخرُهم شربًا»[3] ثم بايع أم معبد على الإسلام وارتحل، وارتحل معه رفقته.

وها هو ذا أبوبكر الصديق يروي الحادثة التالية، وهي آية النبوّة كآية درّ الشاة هي أعظم. قال رضي الله عنه: قال سراقة بن مالك بن جعشم: لما خرج رسول الله ﷺ مهاجرًا من مكة إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، وبينما أنا جالس في نادي قومي، إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكْبًا ثلاثة مروا عليّ آنفًا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه. فأومأت إليه أن اسكت، ثم أمرتُ بفرسي وسلاحي فأحضرا لي، وركبت وأنا أرجو أن أرده علي قريش وآخذ المائة ناقة، وركبت سائرًا في أثره حتى بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض، وسقطتُ عنه، ثم انتزع يده من الأرض وتبعهما دخان كأنه إعصار[4]، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنِعَ مني وأنه ظاهر، فناديت القوم قائلاً: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم[5] فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قل له: وما تبغي منا»؟ قال: خذ يا رسول الله سهمًا من كنانتي، وإن إبلى بمكان كذا فَخُذْ منها ما أحببتَ، فقال له ﷺ: «لا حاجة لي

---

(١) البلاغ: ما يُتبلغ به في الحياة من مال أو طعام ونحوه.
(٢) فرجت بين رجليها.
(٣) رواه أبوداود.
(٤) ريح معها غبار.
(٥) اي لا ترون مني مكروهًا.

بإبلكَ» فلما أراد سراقة أن يرجع، قال له ﷺ: «كيف بك يا سراقة إذا سُوِّرْتَ بسواريَ[1] كسرى»؟ قال سراقة: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم». وعاد سراقة إلى مكة لا يلقى أحداً يريد رسول الله ﷺ إلا رده بقوله: كفيتم ما ههنا.

وواصل الركب الميمون سيره، يتقدمه الخرّيت بن الديل حتى وصلوا إلى قباء ديار بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ من ربيع الأول، فنزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم أخي ابن عمرو بن عوف، وكان عزبًا، فينزل عليه الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين، حتى قيل لبيته: بيت العزاب، ونزل أبوبكر على خبيب بن إساف بالسُّنح، ولحق عليٌّ الركبَ بعد أن أدى ودائع الناس، ووصل قباء بعدَ ثلاثة أيام من وصول الحبيب ﷺ إليها وقد تفطرت قدماه حتى إنه لما دعا به رسول الله ﷺ قيل: إنه لا يقدر على المشي، فأتاه رسول الله ﷺ واعتنقه وبكى رحمةً به، وتفل في كفيه الطاهرتين ومسح بهما رِجْلَيْ عليّ، فَشُفِيَ في الحال، ولم يَشْكُ قدميه حتى قتل ﷺ وقد نزل عليّ على امرأة لا زوج لها فرأى رجلاً يأتيها بالليل فارتاب في أمرها فسألها فقالت الذي يأتيني هو سهل بن حنيف؛ إنه رآني امرأة لا زوج لي فهو يكسر أصنام قومه ويحملها إليّ ويقول احتطبي بها، فكان عليٌّ يذكر هذا لسهل بن حنيف بعد موته - رضي الله عنهم أجمعين -.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبراً نجملها فيما يلي:

١ - بيان خبث أبي جهل وشدته على المؤمنين - فلعنه الله حيًّا وميتًا -.

٢ - بيان مدى ما بذلت قريش في سبيل قتل النبي ﷺ، والقضاء على الإسلام.

٣ - من الجن مؤمنون، وإن كلامهم لَيُسْمع، وإن لم تُرَ ذواتهم.

٤ - فضل أم معبد، وهي عاتكة بنت خالد.

٥ - تجلّي آية النبوة المحمدية في درّ الشاة، وسقى الرسولِ ﷺ أهلَ بيت أم معبد وسائر أفراد رفقته.

٦ - تجلي آية النبوة في سقوط فرس سراقة وعجزه عن الوصول إلى النبيّ ﷺ، وفي

(١) وقد تم ذلك يوم فتح فارس على يد عمر ﷺ.

إخبار الرسول ﷺ له بأنه سيسور سِوارَيْ كسرى، وكان الأمر كما أخبر ﷺ.

٧ - تجلى آية النبوة في شفاء عليٍّ فورَ مسحِ الرسول ﷺ رجليه.

في طيبة دار الحبيب ﷺ

إن الثلاث عشرة سنة التي قضاها رسول الله ﷺ بمكة من مبعثه إلى يوم هجرته، كانت كلها آلامًا ودموعًا وأحزانًا، لم ينعم فيها رسول الله ﷺ بساعة سرور، أو يوم راحة قط. إلا أن العشر سنين التي قضاها بالمدينة كانت كلها جهادًا متواصلاً لم يفتر شهراً واحدًا ولم ينعم فيها رسول الله بالراحة يومًا واحدًا، وكان شظف العيش فيها بالغًا أشدّه، فلم يَشبع فيها رسول الله ﷺ، من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط.

نعم... لقد كانت للحبيب ﷺ بدار الهجرة أيام مشرقة، إلا أن أكثر أيامها كانت محرقة، وهلمَّ - إخوةَ الإيمان - نعيش بأرواحنا مع رسولنا وحبيبنا تلك السنين العشر التي عاشها ﷺ بالمدينة دار هجرته وحاضرة دولته، دولة الإسلام الخالدة؛ وسوف نشعر بأن السنين العشر ما كانت السنة الواحدة منها إلا عشر سنوات، فعشر السنين كانت وكأنها مائة سنة أو تزيد، وذلك لما تم فيها من جلائل الأعمال، وما تخللها من عظائم الأمور. والله نسأل أن يرزقنا البكاء عند ذكر ما يبكي منها، وأن يرزقنا الفرح عند ذكر ما يُفرح، فيكون ذلك شاهد حبّنا للحبيب ﷺ وآيةَ إيماننا به وعنوانَ إسلامنا لربنا وإحساننا في ديننا.

فهيا بنا نُعايش الحبيب وصَحبَه بأرواحنا وإن لم نعايشهم بأبداننا، لطول العهد، وفصل ما بيننا وبينهم، إذ هم كواكب مشرقة في السماء تنير الأرض لأهلها، وأما نحن فإنا ضعيفو الصلة بالسماء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الحبيب ﷺ بقباء

إنه قبل وصوله ﷺ إلى قباء - وهي ضاحية من ضواحي المدينة على ثلاثة أميال منها - كان رجال من الأنصار لما بلغهم خروج النبيّ ﷺ من مكة إذا صلوا الصبح خرجوا إلى ظاهر المدينة إلى الحرة الجنوبيّة ينتظرون طلوع رسول الله ﷺ عليهم فلا يبرحون ينتظرون حتى لم يبقَ ظل يستظلون به من حر الشمس، ثم يعودون إلى بيوتهم. ولما كان اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ كانوا قد خرجوا كعادتهم، وما إن عادوا

إلى بيوتهم لارتفاع النهار وانعدام الظلال إلا وصائحٌ يصيح بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء. وكان الصائح رجلاً من اليهود كان قد علم بخروجهم كذا يومًا انتظاراً لقدوم الرسول ﷺ، ونَسَبهم إلى «قيلة»[1]. وما إن سمعوا الصراخ حتى خرجوا كلهم وإذا برسول الله ﷺ مع صاحبه مستظل بظل نخلة، وأكثرهم لم يكن قد رأى النبيَّ ﷺ، وكان أبوبكر في سن رسول الله ﷺ، وركبهما الناس يُسلمون عليهما، وما يعرفون رسول الله ﷺ من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبوبكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك. ونزل الحبيب على كلثوم ابن الهِدْم، ونزل الصديق على خبيب بن إساف كما تقدم.

أول عمل بقباء لرسول الله ﷺ

إن أول عمل إصلاحيّ خيريّ بنّاءٍ قام به النبيّ ﷺ بقباء، هو بناؤه مسجد قباء في الفترة التي أقامها بين سكانها وهم بنوعمرو بن عوف بن مالك، والتي لم تتجاوز أسبوعًا واحداً.

وكان مسجد قباء أول مسجد بني في الإسلام، وقد ذكره تعالى في كتابه وأثنى على أهله خيراً فقال تعالى من سورة التوبة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وهنا بقباء أتى سلمان الفارسي الذي طالما انتظر مجيئه. جاءه من المدينة بكيس من التمر، وقال: هذا صدقة تصدقتُ بها عليكم - وهو يريد بذلك اختباره - فقال الحبيب ﷺ: «إنَّا لا نأكل الصدقة» وأمره أن يتصدق بها على غيره، وانصرف سلمان وعاد في اليوم الثاني - ومعه تمر آخر - وقدّمه للرسول ﷺ، وقال: هذه هدية قدمتها لك، فقبلها ﷺ ودعا له بخير.

وهنا أعلن سلمانُ إسلامَه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وسبب عمل سلمان هذا أنه علم من الكتب السابقة أن النبيّ محمدًا ﷺ من نعوته وصفاته أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة.

ولما قضى رسول الله ﷺ ما كتب الله له من أيام في قباء بديار بني عمرو بن عوف

(١) القيل: الملك، والجمع: أقيال، والقيلة: الملكة، وقد تجمع على قيلات.

سار إلى المدينة، وفي طريقه أدركته صلاة الظهر بديار بني سالم بن عوف، وكان اليوم يوم جمعة فصلى بهم الجمعة وخطبهم في مسجدهم ببطن الوادي «رانونا» فكانت أول جمعة صليت في الإسلام.

وركب الحبيب ﷺ راحلته فأتاه عُتبان بن مالك وعباس بن عبادة في رجال من بني سالم وقالوا له: يا رسول الله، أقم عندنا حيث العددُ والعدة والمنعة، وهم ممسكون بخطام ناقته ليُنيخوها، فقال لهم: «دعوها فإنها مأمورة»، وواصل سيره إلى طيبة طابت مغانيها، وسلام على ساكنيها.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في الآتي:

١ - بيان أن مسجد قباء كان أول مسجد بني في الإسلام.

٢ - بيان كيفية معرفة سلمان للنبي ﷺ وذلك بما أجرى من اختبار عليه بالصدقة والهدية لعلمه السابق أن من صفات نبي آخر الزمان أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة.

٣ - بيان أن أول جمعة صليت في الإسلام هي تلك التي صلاها رسول الله ﷺ في مسجد بني سالم بن عوف ببطن وادي «رانونا».

٤ - عَرْضُ بني سالم على النبي ﷺ الإقامة بينهم وترغيبه في ذلك وذكرهم لكثرة رجالهم وسلاحهم ومنعتهم الحربية يُعتبر موقفًا مشرفًا خالدًا لهم - رضي الله عنهم وأرضاهم -.

استقبال الأنصار للحبيب ﷺ وعظيم فرحهم وحفاوتهم به

إنه ما إن ركب ﷺ راحلته، وسارت به من ديار بني سالم متجهة نحو المدينة، وأهلَ كل دار من دور الأنصار يمر بها إلا ويستقبله رجالها قائلين: هلُمَّ إلينا يا رسول الله، إلى العدد والعدة والمنعة - وهم ممسكون بخطام ناقته - وهو يقول: «دعوها فإنها مأمورة».

وخرج أهل المدينة لاستقبال الحبيب ﷺ عَنْ بكرة أبيهم، فامتلأت بهم الطرق،

وظهروا على سطوح المنازل نساءً وأطفالاً ورجالاً وهم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله، والنساء والصبيان يضربون بالدفوف وينشدون:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحبًا يا خير داع

وواصل الحبيب سيره في تلك الحشود الحاشدة، والجموع المتجمعة في هذا اليوم التاريخي العظيم الذي قال فيه أنس بن مالك: لقد رأيتُ اليومَ الذي دخل فيه رسول الله ﷺ علينا، واليومَ الذي قُبض فيه فلم أرَ يومين مثلَهما قط. حتى انتهى إلى قرب دار أبي أيوب الأنصاري، فبركت - والرسولُ ﷺ مُرْخٍ الزمام لها - ثم وثبت فسارت غير بعيد، ثم بركت وتلحلحت[1] وضربت بجرانها[2] في الأرض، فنزل عنها الحبيب ﷺ فاحتمل أبوأيوب الرحل فوضعه في بيته، ونزل النبي ﷺ بداره؛ لأنه أحد أخوال أبيه من بني النجار.

ونزل رسول الله ﷺ بالسفل من الدار، وأبوأيوب وأم أيوب بالعلوي، فآلم ذلك أباأيوب، فقال: يا رسول الله إني أكره أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظْهَرْ أنت فكن في العلوي وننزلَ نحن فنكون في السفلي، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أباأيوب، إنَّ أرفق بنا ويمن يغشانا أن أكون في أسفل البيت»** وبذلك طابتْ نفس أبي أيوب رضي الله عنه.

وكان أبوأيوب يصنع للرسول ﷺ الطعام، فإذا أكل منه ﷺ وتركه أخذ وقُدم لأبي أيوب ليأكل منه، فكان رضي الله عنه يسأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ ليتتبع موضع

---

(١) تزحزحت.

(٢) الجران: باطن العنق من البعير أي ثبتت واستقرت.

أصابعه فيأكل منه؛ رجاء البركة. فصنع له يومًا طعامًا فيه ثوم، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له: لم يأكل، ففزع، وأتى رسول الله ﷺ فقال: أحرام؟ فقال: «لا ولكني أكره ذلك».

وهذا لأنه ﷺ يناجي المَلَك، وغَيْرُه لا يناجي.

ومبرك الناقة كان مربداً ليتيمين، وكان فيه نخل وبعض قبور، فسأل عنه فقال له معاذ ابن عفراء، يا رسول الله هو ليتيمين لي وسأرضيهما منه، فاتخذه رسول الله ﷺ مسجداً.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج نجملها في الآتي:

١ - بيان عظم فرحة الأنصار بمقدم الرسول ﷺ، وما أبدوه من حفاوة وترحيب لم يَسْبق لهما نظير في التاريخ البشريّ قط.

٢ - بيان آية الناقة في سيرها وبروكها لقوله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة».

٣ - بيان فوز أبي أيوب خالد بن زيد بنزول الرسول ﷺ بداره، وإقامته بها حتى بنى مسجده، وحجرات نسائه بإزائه.

٤ - بيان أدب أبي أيوب وكمال حبه لرسول الله ﷺ إذ لم تطب نفسه أن يسكن في أعلى المنزل والرسول ﷺ في أسفله.

٥ - مشروعية التماس البركة من آثار النبيّ ﷺ - إن وجدت - كَسُؤْرِه وشعره وريقه وثيابه، وما إلى ذلك.

بناء المسجد النبوي وفضله وشرف المدينة وأهلها

إنه ما إن بركت الناقة وضربت بجرانها من مساء يوم الجمعة من شهر ربيع الأول، حتى سأل رسول الله ﷺ عن المربد[1] الذي بركت فيه الناقة لمن هو؟ وقال: «يا معشر الأنصار ثامنوني بحائطكم هذا؛ لأتخذه مسجداً». وقال معاذ ابن عفراء: هو ليتيمين لي، هما سهل وسهيل ابني عمرو وسأرضيهما، فاتخذه مسجداً.

(١) المربد: ما يجفف فيه التمر، ومحبس الحيوان.

وأمر ﷺ أصحابه بالشروع في العمل، وتقدَّمهم لذلك؛ تشجيعًا لهم واندفعوا - مهاجرين وأنصارًا - يعملون حتى قال قائلهم:

لئن قعدنا والنبيُّ يعمل

لذاك منّا العملُ المضلّلُ

وكان بالمربد قبور مشركين ونخلٌ وخرب، فأمر بالنحل فقُطع، وبالخرب فسُوّي وبالقبور، فنبشت، وأخذوا ينقلون الحجارة، وهم يرتجزون:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة

فارحم الأنصار والمهاجرة

والرسول ﷺ ينقل الحجارة ويقول: «**لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار**». وارتجز عليٌّ قائلاً:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يدأب فيه قائما وقاعدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا

فأخذ عمار بن ياسر يرتجزها، فظن أحدُ الأصحاب أنه يعنيه بها تعريضًا به، فقال لعمار: يا ابن سمية والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال: «**ما لهم ولعمار!! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» وتم بناء المسجد بالحجارة، وكان سقفه جريد النخل، وبني بإزائه حجرات نسائه ﷺ.

وكان هذا المسجد المبارك أحد المساجد الثلاثة التي لا تشدّ الرحال إلا إليها، وذلك لفضلها واستواء سائر المساجد في الفضل دونها، فقد قال الحبيب ﷺ: «**لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» وقال ﷺ في بيان فضله: «**صلاة في مسجدي هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» وقال: «**من أتى مسجدي هذا، لا يأتيه إلا لخير يعلمه أو يتعلمه، كان كالمجاهد في سبيل الله**». وقال: - فداه أبي وأمي - ﷺ: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**».

أما عن شرف المدينة وأهلها، فحسبنا أن نورد بعض ما ورد وصحّ في بيان فضلها وفضل أهلها. ومن ذلك:

قولُه ﷺ : «إن الإيمان ليأرز[1] إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جحرها».

وقوله ﷺ : «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد».

ولو صح حديث: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليّ فأسكني في أحب البلاد إليك» ولم يعارض بحديث:

«والله إنك خير أرض الله، وأحبُّ أرض الله إليَّ، ولولا أني أُخرِجت[2] منك ما خَرَجْتُ»، لكانت المدينة أفضل من مكة - كرمها الله.

ومما يزيد المدينةَ حبًّا في قلوب المؤمنين ورغبةً في المقام بها حتى الموت: قولُه ﷺ : «من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ بها؛ فإني أكون له شاهدًا أو شفيعًا يوم القيامة» عرف هذا عمرُ رضي الله عنه فكان يدعو ويقول: اللهم إني أسألك شهادةً في سبيلك وموتًا في بلد رسولك.

وحسب المدينة شرفًا وفضلاً أن أصبحت دارًا للرسول ﷺ بها مسجده وفيها قبره، ومنها مبعثه.

وأما أهل المدينة - وهم الأنصار - فشرفهم كان بمسارعتهم للإيمان، وإيواء الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، ومقاسمتهم العيش معهم. أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقرر الرسول ﷺ شرفهم وفضلهم في أحاديث كثيرة منها قولُه ﷺ : «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار». وقوله: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله». وقوله ﷺ : «لولا الهجرة لكنتُ امرءًا من الأنصار، ولو سلك الأنصار واديًا وشِعبًا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعبهم، الأنصار شعار[3]، والناس دثار».

ولنستمع إلى شاعر[4] الأنصار يقول ويذكّر بما أكرمهم الله تعالى به من الإسلام، وما

(١) في الصحيح.
(٢) صحيح الإسناد.
(٣) الشعار: الثوب يلي الجسد، والدثار فوقه.
(٤) هو أبو قيس صرمة ابن أبي أنس الأنصاري.

خصهم به من هجرة رسوله إليهم ونصرهم له، وبذل الرخيص والغالي له ﷺ ليأمن ويعزّ وينتصر:

ثوى في قريشٍ بضع عشرة حجة
يُذكِّر لو يلقَى صديقًا مواتيا

ويعرض في أهل المواسم نفسه
فلم يرَ مَن يُؤوي ولم ير داعيا

فلما أتانا أظهر الله دينه
وأصبح مسرورًا بطيبة راضيًا

وألفى صديقًا واطمأنت به النَّوى
وكان له عونًا من الله باديًا

يقص لنا ما قال نوح لقومه
وما قال موسى إذ أجاب المناديا

فأصبح لا يخشى من الناس واحدًا
قريبًا ولا يخشى من الناس نائيا

بذلنا له الأموال من أجل مالنا[1]
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم
جميعًا ولو كان الحبيب المواسيا

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يأتي:

١ - بيان تاريخ بناء المسجد النبوي الشريف، وبناؤه أول عمل قام به النبيّ ﷺ في المدينة.

٢ - بيان فضل المسجد النبوي الشريف.

---

١ يشير إلى أحد بنود البيعة حيث قالوا: إن نحن بايعناك على النصرة فما لنا نحن؟ قال: «الجنة». هذا الذي لهم وما أعظمه إنه الجنة دارالسلام.

٣ -بيان فضل المدينة النبويّة (على صاحبها أفضل وأزكى السلام).

٤ -بيان فضل الأنصار، وهم سكان المدينة الذين آووا ونصروا.

٥ -بيان فضل العيش في المدينة والوفاة فيها.

جهود الحبيب ﷺ في الإصلاح والتأسيس والبناء بالمدينة النبوية

إنه من ساعة حلوله بالمدينة أخذ ﷺ على عاتقه مهمةَ الإصلاح والتأسيس والبناء للمجتمع المسلم والدولة الإسلامية الوارثة لأكبر دولتين عالميتين - وهما دولة الفرس ودولة الروم - وبتتبع الخطوات التالية تتجلّى هذه الحقيقة وتتأكّد بإذن الله تعالى:

الخطوة الأولى:

إن أول خطوة كانت في الإصلاح والبناء والتأسيس بناءُ المسجد النبوي الشريف والحجرات الطاهرات.

الخطوة الثانية:

إنها استقدام الأسرتين الشريفتين أسرة الحبيب ﷺ وأسرة الصديق رضي الله عنه. إنه لما كان عبدالله بن أريقط الخبير بالطرق استأجره الرسول ﷺ مع صاحبه في هجرتهما عائداً إلى مكة المكرمة بعث معه الرسول ﷺ زيد بن حارثة ومولاه أبارافع بمال ورواحل، وأمره أن يأتي ببقيّة أسرته الشريفة، فجاء فعلاً ببناته الطاهرات فاطمة وغيرها ما عدا زينب فإنها تحت أبي العاص ابن الربيع كما جاء بسودة بنت زمعة إحدى أمهات المؤمنين، وكذلك فعل الصديق إذ بعث في طلب أسرته. فجاء بها ولده عبدالله بن أبي بكر، ومن بينهم عائشة أم المؤمنين كما جاء بأم أيمن زوج زيد مولى رسول الله ﷺ، وبهذا استقر النبيّ ﷺ بالمدينة دار هجرته، والتي أصبحت تُعرفُ به فيقال: المدينة النبويّة.

الخطوة الثالثة:

الاتصال باليهود بواسطة عبدالله بن سلام رضي الله عنه، ودعوتهم إلى الإسلام. إنه ما إن نزل ﷺ بطيبة حتى جاءه عبدالله بن سلام أحد أحبار اليهود بالمدينة ليمتحنه في صدق نبوّته وصحة رسالته، فيسأله الأسئلة التالية: فيقول له: إني سائلك عن ثلاثة لا

يعلمهنّ إلا نبيٌّ وهي:

ما أول أشراط الساعة؟

ما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

فأجابه الحبيب ﷺ قائلاً: «أخبَرَني بهن جبريلُ آنفًا». فقال عبدالله: جبريل؟ فقال النبي ﷺ: «نعم» قال عبدالله: هو عدو اليهود من الملائكة، وأخذ الرسول ﷺ يشرح مضمون الأسئلة فقال: «أمّا أول أشراط الساعة فنارٌ تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزع الولد إلى أمه».

وهنا قال عبدالله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

ولما أسلم عبدالله بن سلام وحَسُنَ إسلامه كانت الفرصة مواتية للاتصال باليهود ودعوتهم إلى الإسلام، فقال عبدالله: يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهْتٌ، وهم يعلمون أنى سيدهم وابن سيّدِهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فَسَلْهم عنّي قبل أن يعلموا أني قد أسلمتُ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيّ ما ليس فيّ. فأرسل النبيّ ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه فقال لهم: «يا معشر يهود، ويْلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم تعلمون أني رسول الله حقًا وأني جئتكم بحق فأسلموا» فأجابوا قائلين: ما نعلمه، فأعاد ﷺ دعوتهم إلى الإسلام ثلاث مرات، ثم قال لهم: «فأيّ رجل فيكم عبدالله بن سلام»؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشا لله، ما كان لِيُسْلم وهنا قال الحبيب ﷺ: «يا ابن سلام اخرجْ عليهم» فخرج فقال: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم تعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق. فلما سمعوا هذا القولَ قالوا: شرّنا وابن شرّنا وتنقّصوه فأخرجهم الرسول ﷺ.
وقال عبدالله لرسول الله ﷺ: هذا الذي كنتُ أخاف، وكان عبدالله بن سلام يقول: لما دخل الرسول ﷺ المدينة نظرت إلى وجهه فعرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء سمعته منه قوله ﷺ: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناسُ نيامٌ: تدخلوا الجنة بسلام».

الخطوة الرابعة:

وضعه ﷺ ميثاقًا للمهاجرين والأنصار متضمنًا موادعة اليهود بالمدينة. إن من أبرز الجهود التي بذلها الحبيب ﷺ في الإصلاح والتأسيس والبناء: كِتَابَه الذي كتبه فضمَّنه ميثاقًا في غاية الدقة، وحسن السياسة، فألّف بين سكان المدينة من الأنصار والمهاجرين وجيرانهم من طوائف اليهود، وربط بينهم فأصبحوا به كتلة واحدة يستطيعون أن يقفوا في وجه كل من يريد أهل المدينة بسوء. وهذه ديباجة الكتاب المذكور وبعض ما حواه من موادّ الميثاق الذي اشتمل عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبيّ الأميّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب - ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم - أنهم أمة واحدة من دون الناس .....» إلى آخر كتابه ﷺ المتضمّن لأعظم ميثاق عرفه الناس. وهذا بعض ما جاء فيه من مواد في غاية الأهمّية:

• إن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل.

• لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

• إن المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغى دَسِيعَة ظُلْم أو إِثْم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.

• لا يَقْتُلُ مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يُجِيرُ عليهم أدناهم.

• إن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه مَنْ تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم.

• إن سِلْمَ المؤمنين واحدٌ، لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

• من اغتبط مؤمنًا قتلاً عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى وليُّ المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

• إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا مَنْ ظَلَم أو أثِم فإنه لا

---

(١) المفرَح: المثقل بالدَّين الكثير.

يُوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته.

• إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفة، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم.

• إنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثًا، ولا يُؤويه، وإنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

• وإنكم - مهما اختلفتم فيه من شيء - فإنّ مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

الخطوة الخامسة: هي مؤاخاته ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

إن من الرشد والكمال النبوي، والنضج السياسي، والحكمة المحمدية خطوة الحبيب ﷺ في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في ظرف كان المهاجرون فيه أحوج ما يكونون إلى ما يخفف عنهم آلام الغربة والفاقة والفرقة إذ تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم، وحلوا ببلد لم يكن لِيتسعَ حتى لأهله فضلاً عن النازحين إليه.

وبهذه المؤاخاة التي آخى فيها الرسول الحكيم بين المهاجرين والأنصار، والتي كان الأنصاريّ فيها يقول لأخيه المهاجر: انظر إلى أعجب نسائي إليك أُطلقها فإذا انتهتْ عدتُها تزوّجْتَها، بهذه المؤاخاة كان المجتمع المدني قد التَحَم بعضه ببعض، واصبح جسمًا واحدًا ينهض بكل عبء يلقى عليه. وبذلك أعده الرسول الحكيم لتحمل عبء إعلان الحرب على الأبيض والأصفر، وقتال القريب والبعيد من كافة أهل الشرك والكفر.

وهذا أنموذج مصغّر من تلك المؤاخاة:

أخوان	المهاجر	أبوبكر الصديق
	الأنصاري	خارجة بن زهير
أخوان	المهاجر	أبوعبيدة عامر بن الجراح
	الأنصاري	سعد بن معاذ

---

(1) لا يوتغ: أي لا يوبق ولا يهلك إلا نفسه وأهل بيته.

أخوان	المهاجر	عبدالرحمن بن عوف
	الأنصاري	سعد بن الربيع
أخوان	المهاجر	عمر بن الخطاب
	الأنصاري	عتبان بن مالك
أخوان	المهاجر	عثمان بن عفان
	الأنصاري	أوس بن ثابت
أخوان	المهاجر	طلحة بن عبيدالله
	الأنصاري	كعب بن مالك
أخوان	المهاجر	سلمان الفارسي
	الأنصاري	أبو الدرداء
أخوان	المهاجر	بلال بن رباح
	الأنصاري	أبو رويحة

وها هي ذي الكلمة الطيبة التي قالها الحبيب ﷺ فتمت بها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إنها هي قوله - فداه أبي وأمّي والناس أجمعون -:

«إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم».

وما إن قالها حتى قال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: **«أو غير ذلك»**؟ فقالوا: وما ذاك يا رسول الله قال: **«هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم العمل، وتقاسمونهم الثمر»**. قالوا: نعم. وبعدها قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قَدِمنا عليهم آحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المئونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال الحبيب ﷺ: **«لا، ما أثنيتُم عليهم ودعوتم الله لهم»**.

هكذا كانت المؤاخاة في ظروف الحاجة، ولما وسع الله على المسلمين نسخ التوارث بها، وأقر المودة والحب بينهم. فقال تعالى: **﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾**.

نتائج وعبر:

إن لهذه الخطوات الخمس في السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي:

١ - المسجد في الإسلام هو المنطلق لكل خير وكمال تطلبه الأمة المسلمة، إذ فيه تعالج أمراض الجهل وسوء الخلق، والملكات السيئة في بعض الأفراد.

٢ - ظهور الحكمة المحمدية في كل خطوة من هذه الخطوات الخمس.

٣ - المواد التي اشتمل عليها الميثاق الذي تضمنه كتاب رسول الله ﷺ للمهاجرين والأنصار دالة على ما كان يتمتع به الحبيب ﷺ من العلم والحكمة وحسن السياسة والرشد العام فيها.

٤ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتاب الميثاق وما اشتمل عليه من مواد إصلاحية وسياسية الكل: دالٌ بوضوح على أن هناك توقعًا لحرب قد يطول مداها، وكذلك فقد دامت زهاء عشر سنوات أي إلى أن التحق الحبيب ﷺ بالرفيق الأعلى. وخاضها بعده خلفاؤه وتابعوهم، وستبقى الحرب وتستمر بين الشرك والتوحيد، والإيمان والكفر ما بقيت فتنة، ووُجدَ من يعبد غير الله تعالى. مصداق هذا قولُه تعالى من سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

أحداث

بعضها مفرح، وبعضها محزن

ما زالت سنة هجرة الحبيب ﷺ الأولى لم تكتمل، وما زالت الأحداث والوقائع فيها تتجدد. وهذه بعض تلك الأحداث نذكرها تحت عناوينها.

الصلاة والأذان:

من المعلوم أن النبي ﷺ كان قبل الإسراء والمعراج يصلي هو والمؤمنون معه ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، لقوله تعالى في خطابه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥] ولما أُسْرِي به ﷺ إلى بيت المقدس، وعرج به إلى الملكوت الأعلى فرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصوات الخمس، نزل جبريل - عليه السلام - فصلى بالرسول ﷺ عند الكعبة، فعلمه كيفية الصلوات الخمس، وبين له أوقاتها الاختيارية، والضرورية. ولما هاجر إلى المدينة

بعد ثلاث سنوات من فرض الصلوات الخمس نزلت الرخصة بقصر الرباعية إلى ركعتين في السفر كما كانت ركعتين قبل الإسراء والمعراج، وهذا معنى قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حديث البخاري: إن الصلاة نزلت ركعتين ركعتين، فزيدت في الحضر وأُقرّت في السفر؛ إذ نزلت الرخصة بقصر الرباعية على ركعتين في قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١].

هذه هي الصلاة[1] أما الأذان: فإنه بعد أن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة وبنى مسجده فيها «وأصبح المسلمون» يجتمعون فيه للصلاة، وكانوا يأتون وقت الصلاة بدون إعلام فيصلون وينصرفون، ويأتون في الوقت التالي للأول وهكذا، ثم رأى الرسول ﷺ أنه ينبغي أن يكون هناك ما يُعْلم به المسلمون دخولَ وقت الصلاة وقربَ إقامتها، فاستشار أصحابه، فأشاروا عليه بالبوق، فكرهه؛ لاستعمال اليهود له، وأشاروا بالناقوس، فكرهه أيضًا؛ لاستعمال النصارى له، وانصرفوا ولم يتفقوا على شيء. فنام عبدالله بن زيد الانصاري الخزرجي فرأى أنّ رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا في يده، فقلتُ له: يا عبدالله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلتُ: ندعو به إلى الصلاة. قال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال تقول: الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله. فأخبرها الرسول ﷺ فقال: «إنها رؤيا حق إن شاء الله، فَقُمْ مع بلال فالقها عليه؛ فإنه أندى صوتًا منك».

فلما أذنّ بلالٌ سمعه عمر بن الخطاب - وهو في بيته - فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: يا نبيَّ الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال الحبيب ﷺ : «فلله الحمد»، وزاد بلال في أذان الفجر «الصلاة خير من النوم» فأُقِرَّ عليها. وعلَّم رسول الله ﷺ بلالاً الإقامة فقال له: «وإذا أقمت للصلاة تقول: الله أكبر، الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح. قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة. الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله».

(١) هذه المسألة مما كثر فيها الخلاف والكلام، وما ذكرته فيها أقرب إلى الحقيقة فيما ظهر لي، والله أعلم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوردها إزاء الأرقام التالية:

١ - تقرير أن الصلاة كانت قبل الإسراء والمعراج عبارةٌ عن ركعتين في أول النهار وركعتين في آخره، ثم فرضت كما هي الآن: الظهر أربع ركعات والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، والصبح ركعتان، ثم قصرت «رخصةً» الرباعية إلى ركعتين في السفر سواء أكان مع السفر خوف أم لم يكن.

٢ - رؤيا المؤمن صالحة، وتحمل البشرى له ولمن رؤيت له.

٣ - بيان صيغة الأذان والإقامة، وفضل عبدالله بن زيد، وعمر بن الخطاب لرؤياهما الأذان في المنام.

٤ - مشروعية مخالفة اليهود والنصارى.

٥ - بيان فضل بلال، وأنه أول مؤذن في الإسلام.

وفاة كلثوم بن الهدم، وأسعد بن زرارة رضي الله عنهما:

ومن أحداث هذه السنة المؤلمة المحزنة وفاة كُلثوم بن الهدْم الرجل الذي أسلم قبل مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة. ولما نزل ﷺ مُهاجراً من مكة إلى قباء، نزل في منزله فشرفه الله تعالى بنزول صَفِيِّه وخيرته من خلقه في منزله ولم يلبث كلثوم بن الهدم إلا قليلاً - وكان رجلاً مسنًّا - حتى مات، فإلى رحمة الله ورضوانه ابنَ الهدم.

ومات بعد كلثوم أبوأمامة أسعد بن زرارة أحد النقباء وهو أول من بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة الثانية، وكانت وفاته بسبب ذبحة صدريّة. ولما مات قال اليهود والمنافقون: لو كان محمد نبيًّا لما مات صاحبه، فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «إني لا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئًا».

وطلب بنوالنجار من النبيّ ﷺ - بعد أن مات أبوأمامة نقيبهم - أن يقيم لهم نقيبًا آخر، فقال لهم: «أنتم أخوالي وأنا بما فيكم، وأنا نقيبكم».

فكانت هذه منقبة لبني النجار يعتدُّون بها على قومهم، وترك النبيّ ﷺ تعيين أحد منهم كراهية أن يفضل بعضهم على بعض فخصهم بفضيلة عامة لهم جميعًا وهي كونه ﷺ نقيبًا لهم، وهذا من الحكمة المحمدية والرشد والنضج السياسيّ. اللهم صلِّ على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

نتائج وعبر:

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي:

١ - موت فضلاء الرجال يعد رزيّة تؤلم المؤمنين وتحزنهم.

٢ - بيان أن النبيّ ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله تعالى.

٣ - تجلي مظاهر الرشد والحكمة والسياسة المحمدية التي لا يجاري فيها أبداً.

أول مولود للمهاجرين بالمدينة:

ومن أحداث هذه السنة الأولى من هجرة الحبيب ﷺ المفرحة ولادة عبدالله بن الزبير رضي الله عنه.

فقد جاءت أسماء إلى المدينة مهاجرة ضمن أسرة الصديق - وهي مُتِمٌّ[1] - فما إن نزلت بقباء حتى وضعت عبدالله بن الزبير رضي الله عنه فجاءت به إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحنّكه بأن أخذ تمرة فمضغها، ثم أدخلها في فم الطفل فكان أول شيء دخل جوفه ريقة رسول الله ﷺ، ودعا له بالبركة وكَبَّرَ أصحاب رسول الله ﷺ فرحًا بهذا المولود الذي كان أول مولود يولد للمهاجرين في الإسلام كما كان النعمان بن بشير أول مولود وُلد في الإسلام للأنصار.

وبذا أخرسَ اللهُ ألسنةَ اليهود؛ إذ ادعوا أن المسلمين قد سحروا، فلذا لم يولد لهم، فأكذبهم الله في دعواهم بولادة عبدالله بن الزبير، وولادة النعمان بن بشير الأنصاري - رضي الله عنهم أجمعين -.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يأتي:

١ - بيان أن اليهود من دأبهم ترويجُ الشائعات الباطلة والمغْرضة.

٢ - تقرير أن اليهود يتعاطون السِّحر وهم أعلم به من غيرهم.

٣ - فضيلة أسماء بنت الصديق وولدها عبدالله بتحنيك رسول الله ﷺ له.

٤ - جواز الفرح بفضل الله والتكبير عند حصول النعمة ورؤية الخير.

٥ - معرفة أول مولود ولد في الإسلام للمهاجرين والأنصار. وهما عبدالله والنعمان.

---

(١) أي مقاربة للولادة.

بناء النبي ﷺ بأحب نسائه إليه:

ومن أحداث هذه السنة الأولى المفرحة بناء النبي ﷺ بزوجه عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵄؛ إذ كان قد عقد عليها ﷺ بمكة قبل الهجرة، وذلك بعد وفاة خديجة ﵂ وكان عمرها إذا ذاك ست سنوات، وفي شوال من هذه السنة المباركة بنى رسول الله ﷺ بعائشة بدار أبيها بالسُّنُح نهاراً وهي بنت تسع سنوات، وكان بعض الناس يتشاءمون بالبناء بين العيدين، فردت عليهم عائشة بقولها: تزوجني رسولُ الله في شوال، وبني بي في شوال. فأيّ نساءِ رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟.

وهو كما قالت؛ فقد روى البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص قوله: سألت رسول الله ﷺ عن أحب نسائه إليه فقال: «عائشة» وعن أحب أصحابه إليه فقال: «أبوها» أي أبوبكر.

وفي دخول الحبيب ﷺ على عائشة بالنهار ردٌّ على ما اعتاده الناس من الدخول بالليل دون النهار.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبراً نجملها كالآتي:

١ - جواز العقد على البنت قبل بلوغها دون الدخول بها.

٢ - فضل عائشة على سائر النساء بحب الرسول ﷺ لها أكثر من غيرها.

٣ - جواز الدخول على العروس نهاراً، ولا معنى لتخصيص ذلك بالليل.

٤ إبطال وَهْمِ من توهَّم شؤمَ الزواج والبناء بين العيدين الفطر والأضحى.

٥ - فضل أبي بكر الصديق لحب الرسول ﷺ له أكثر من أصحابه.

آخر أحداث هذه السنة سرايا يبعث بها النبي ﷺ

إنه بعد أن أصبحت المدينة - وكأنها دار إسلام محضة على الرغم ممَّن فيها من المشركين، والمنافقين واليهود حيث أصبح للمؤمنين فيها شوكة وقوة لا يستهان بها - أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال، وذلك في قوله تعالى من سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وعملاً بهذا الإذن الإلهيّ أخذ الرسول ﷺ يبعث بالسرايا لتعقّب قوافل المشركين التجارية؛ لعله يظفر بأموالهم التي أصبح المسلمون أحقّ بها وأولى منهم بمثلها، فبعث أول سريّة، هي سريّة حمزة بن عبدالمطلب عمّ رسول الله ﷺ، وعقد له لواءً أبيضَ - وهو أول لواء أو راية عقدت في الإسلام - وبعث معه ثلاثين رجلاً من المسلمين المهاجرين، وذلك ليعترض عير قريش التجارية المارّة بسيف البحر التي كان عليها أبوجهل في ثلثمائة رجل من قريش. ولم يقع بينهم قتال؛ لحجز مَجْدِيّ بن عمر الجهني بينهم، إذا كان مجديّ موادعًا للفريقين معًا، وكان الذي يحمل لواء حمزة أبومرثد الغنوي، وكانت هذه السريّة في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالتالي:

١ - بيان تقيّد الرسول ﷺ بالإذن من ربّه فلا يأتي، ولا يذر غالبًا إلا بإذن من ربّه عز وجل.

٢ - بيان أول سريّة في الإسلام، وأنها سريّة حمزة عم رسول الله ﷺ.

٣ - بيان الكمال المحمدي في إرساله عمّه والمهاجرين دون الأنصار لتلقي عير قريش.

٤ - بيان أن أول لواء عقد في الإسلام كان لواء سريّة حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم:

في شهر شوال - وهو الشهر الثامن من مهاجر الحبيب ﷺ - عقد ﷺ لعبيدة ابن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم لواءً أبيض، وأمره بالسير إلى بطن رابغ من الحجاز، وكان اللواء مع مسطح بن أثاثة، فسار في ستين رجلاً ليس بينهم أنصاري قط، ساروا طالبين قافلة للمشركين، أفرادُها مائتا رجل، فالتقوا معهم على ماء يقال له: «أحيَاء» وكان على المشركين عكرمة بن أبي جهل أو مكرز بن حفص، ولم يقع بينهم قتال، إنّما تراموا بالسهام، فأصيب سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام. ثم انصرف القوم عن القوم، وفر إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهاراني، وعتبة بن غزوان ابن جابر المازني وقد كانا مسلمين، وإنما خرجا مع الكفار من أجل أن يهربا إلى المسلمين لمنع المشركين لهما من الهجرة، وحبسهما دونها.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالتالي:

١ - من مظاهر الكمال المحمدي أن يرسل عَمَّيْه حمزة وعبيدة للغزو دون غيرهما من أصحابه الأنصار والمهاجرين، ليضرب المثل في الكمال الخلقي والروحي.

٢ - فضل مسطح بن أثاثة حيث قلد اللواء وهو ابن خال أبي بكر الصديق.

٣ - بيان أن أول سهم رُمِيَ به في سبيل الله السهم الذي أصاب سعداً ﷺ.

سرية سعد بن أبي وقاص:

وفي ذي القعدة من سنة الهجرة الأولى المباركة، وبعد سريَّتي حمزة وعبيدة: عقد ﷺ لسعد بن أبي وقاص لواءً أبيض، وأرسله في عشرين رجلاً يمشون على أقدامهم يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار، وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود ﷺ، وكان أفراد السريّة كلهم مهاجرين، ليس بينهم أنصاري، أرسلهم إلى «الخرّار» وعهد إليهم ألا يتجاوزوه فساروا ففاتتهم عيرُ المشركين، إذ وصلوا الخرار صبح خامسة، وسبقتهم عير قريش بيوم، فلم يظفروا بها، ولم يقع قتال، وعادوا سالمين غانمين الأجر والمثوبة، دون ما خرجوا له من الظفر بعير المشركين.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

١ - بيان فضل سعد بن أبي وقاص حيث عقد له النبي ﷺ لواءً وأرسله على سريّة يقودها إلى جهاد الكفار.

٢ - شرف المقداد بن الأسود حيث حمل راية الجهاد في سبيل الله.

٣ - بيان كمال طاعة أصحاب رسول الله ﷺ، في الالتزام بما يعهد به إليهم.

ظهور العداء الشديد وبدء الصراع الداخلي

إنه ما إن انقضت السنة الأولى من سنى الهجرة المباركة للحبيب ﷺ ولاح في الأفق ظهور الإسلام، وعزةُ أهله: حتى نجم النفاق من اليهود والمشركين معًا، وأخذ التحزّبُ والتكتُّل ضدَّ الإسلام والمسلمين يلوح في الأفق، وأصبحت المدينة ميدانًا للصراع الداخلي.

وها هي ذي قائمة بأسماء منافقي اليهود مقرونةٌ بسوء أفعالهم، وأخرى بأسماء منافقي المشركين مشفوعةٌ كذلك بقبح أعمالهم وسوء سلوكهم.

منافقو اليهود:

إن من بين من عرفوا بالنِّفاق من اليهود بالمدينة - حيث أظهروا الإسلام كيدًا للرسول ﷺ والمسلمين ومكرًا بهم، وهم مصرون على كفرهم ويهوديتهم - عليهم لعائن الله -.

١ - زيد بن اللّصيت، وهو القائل لما ضلت ناقة النبيّ ﷺ: يزعم محمد أنه نبيٌّ يأتيه خبر السماء[1] وهو لا يدري أين ناقته، ولما بلغ هذا القولُ النبيَّ ﷺ قال: **«والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها»** فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك.

٢ - رافع بن حريملة، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ لما مات - عليه لعائن الله -: **«مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين»**.

٣ - ٤ - رفاعة بن زيد بن التابوت،، وسويد بن الحارث: أظهرا الإسلام نفاقًا ومكرًا وخديعةً، فَوَادَّهُما بعضُ المسلمين اغترارًا بهم، فأنزل الله تعالى قوله ينهى المسلمين عن موادتهم: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٥٧] وكان رفاعة هذا إذا كلَّمَ رسول الله ﷺ لَوَى لسانه، ويقول: أَرْعِنَا سمعك يا محمد حتى نُفهمَك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله تعالى فيه: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** [النساء: ٤٤، ٤٦].

٥ - ٦ - ٧ - سعد بن حنيف ونعمان بن أوفَى بن عمرو وأخوه عثمان بن أوفى.

٨ - ٩ - سلسلة بن برهام، وكنانة بن صُوريا كلّ هؤلاء كانوا من أحبار يهود فأسلموا نفاقًا للدس والفتنة والوقيعة بين المسلمين، فلعنة الله عليهم أجمعين.

---

(١) حدث هذا في غزوة تبوك.

فهؤلاء تسعة من أحبار اليهود أسلموا ظاهرًا وهم كفار باطنًا، وكان غرضهم من إسلامهم الدسّ والوقيعة بين المسلمين، والفتنة لضعفاء الإيمان، والتعرف على أحوال المسلمين الخفية ليقفوا في طريق دعوة الإسلام حتى لا تظهر ولا تنتشر حفاظًا على كيانهم المزعزع وتشبثًا بحلمهم الباطل، وهو إعادة مجد ومملكة بني إسرائيل التي تحكم من النيل إلى الفرات.

منافقو المشركين:

لقد كان لمنافقي اليهود أثرٌ كبير على المشركين؛ إذ جلُّ المنافقين من المشركين كان نفاقهم بسبب منافقي اليهود؛ إذ حسّنوا لهم ذلك تحت عنوان النصيحة لهم، وإرشادهم إلى السلوك اللائق بهم حفاظًا على وجودهم ومكانتهم بين الناس، ومن بين مَنْ عُرِف مَنْ منافقي المشركين هم:

١ - زُويٌّ بن الحارث من بني عمرو بن عوف.

٢ - جُلاس بن سويد من بني حبيب، وكان ممن تخلف عن الرسول ﷺ في غزوة تبوك وهو القائل: لئن كان هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - صادقًا لنحن شرّ من الحمر. وسمع هذه المقالة الخبيثة ربيبُهُ عمير بن سعد، فقال له: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ، ولقد قلتَ مقالةً لئن رفعتُها عليكم لأفضحنّك، ولئن صمتُّ عليها ليهلكنّ ديني، ولإحداهما أيسرُ عليّ من الأخرى، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس. فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ لقد كذب عليّ عمير، وما قلت ما قال عمير بن سعد، فأنزل الله فيه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقد رُوي أن جلاسًا قد تاب، وحسنتْ توبته حتى عرف منه الخير والإسلام.

٣ - الحارث بن سويد أخو جلاس بن سويد، كان منافقًا فخرج مع المسلمين يوم أحد فقتل المجذّر البلوي، وقيسَ بن زيد أحدَ بني ضُبَيعة؛ أخذًا بثأر له منهما إذ قتلا أباه في الجاهلية، ثم التحق بقريش بمكة، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه بالمدينة فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

٤ - نبتل بن الحارث من بني لَوْذَان بن عمرو بن عوف، هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان رجلاً جسيماً أذلَم[1] ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع[2] الخدين، وكان يأتي النبي ﷺ يتحدث إليه فَيسْمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو القائل: إنَّما محمدٌ أُذُنٌ مَنْ حدثه شيئًا صَدَّقَ، فأنزل الله تعالى فيه من سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة: ٦١].

٥ - مربع بن قيظي، هو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه «بستانه» ورسول الله ﷺ عامدٌ إلى أُحدٍ: لا أحل لك يا محمد - إن كنت نبيًا - أن تمرَّ في حائطي، وأخذَ حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، ولمَّا ابتدره الصحابةُ أن يقتلوه قال رسول الله ﷺ: «دعوهُ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة» وضربه سعد بن زيد بالقوس فشجَّه، أي في رأسه.

٦ - أوس بن قيظي أخو مربع، وهو الذي قال يوم الخندق: يا رسول الله إن بيوتنا عورة[3] فأْذَنْ فَلْنرجع إليها، فأنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

٧ - حاطب بن أمية بن رافع الخزرجي، وكان شيخًا كبيرًا في الجاهلية له ابن من خيرة المسلمين يقال له: يزيد بن حاطب، أصيب يوم أحد، فَنُقِل مُثْخَنًا بجراحاته إلى دار بني ظفر، فاجتمع إليه من رجال المسلمين ونسائهم وهويموت فقالوا له: أبشر يا ابن حاطب بالجنة، فنطق أبوه حاطب المنافق فقال: أجل جنّة والله من حرمل غررتم والله هذا المسكين من نفسه.

٨ - بشير بن أُبَيْرق أبوطعمة سارق الدرعين الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

---

(١) أسود طويل مسترخي الشفتين.

(٢) السفعة: حمرة تضرب إلى السواد.

(٣) أي مكشوفة ضائعة ما لها من يحميها.

٩ - قزمان حليف لبني أبيرق، والذي قال فيه رسول الله ﷺ : «إنه من أهل النار» وذلك أنه قاتل يوم أحد قتالاً شديداً، وقتل بضعة نفر من المشركين، فأثبتته[١] الجراحات فحمل إلى دار بني ظفر، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يا قزمان فقد أبليتَ اليوم، وقد أصابك ما ترى، قال: بمَ أبشر؟ فوالله ما قاتلت إلا حميّة عن قومي، فلما اشتدت به جراحاته أخذ سَهمًا من كنانته فقتل به نفسه. فصدق عليه قولُ الحبيب ﷺ : «إنه من أهل النار».

١٠ - عبدالله بن أبيٍّ ابن سلول الخزرجي، وهو رأس المنافقين وإليه يجتمعون. وهو القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ، وذلك في غزوة بني المصطلق، وفيه - وفي رهطه - نزلت سورة المنافقون بأسرها، وهم الذين كانوا يدسون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ ويقولون لهم: اثبتوا فوالله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

هؤلاء عشرة من منافقي المشركين، الذين كانوا يمالئون اليهود وغيرَهم على الإسلام. وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم، بحيث لم يُقْبض رسول الله ﷺ حتى لم يَبْقَ منهم منافق، لا من اليهود ولا من المشركين، إذ اليهود قد أُنهِيَ وجودهم على يد رسول الله ﷺ . إنهم كانوا ثلاث طوائف: بنوقينقاع وبنوالنضير وبنوقريظة، أما بنوقينقاع وبنوالنضير، فقد أُخرجوا من المدينة وأما بنوقريظة فقد أعدموا فيها لخيانتهم وغدرهم، ولم يُسْلِم منهم إلا القليل، ومن أشهر من أسلم من أحبار اليهود وعقلائهم عبدالله بن سلام رضي الله عنه، ومخيريق وقد أسلم يوم أحد، قال فيه رسول الله ﷺ : «مخيريق خير يهود»، وذلك أنه خرج يوم أحد بسلاحه وقال لرهطه: إن مت فمالي لمحمد ﷺ بعد أن وعظ أهله ودعاهم إلى الإسلام، ثم قاتل مع رسول الله ﷺ حتى قتل - فرضي الله عنه وأرضاه -.

الأعداء المعلنون عداءهم من اليهود:

إن من ذكرنا من منافقي اليهود قد ادَّعوا الإسلام كذبًا لأجل الدسّ والوقيعة بين المسلمين. وهناك عدد كبير من أحبار اليهود لم ينافقوا بل أعلنوا عن عدائهم للرسول

---

(١) أي أقعدته عن الحركة لشدتها.

ﷺ والمسلمين، حملهم على ذلك البغيُ والحسد للعرب على ما فضلهم الله تعالى من اصطفاء محمد رسولاً منهم إلى الناس كافة.

ولنذكر هنا رؤساءهم من أهل البغي والحسد والضغينة منهم وما كانوا يقولون للرسول ﷺ وأصحابه من سوء القول وقبيحه جدالاً مرةً وعناداً مرة أخرى، وتطاولاً واعتزازاً مرةً ثالثة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منهم:

حُيَيّ بن أخطب النضري وكان أخبثهم وأكثرهم عداء للرسول ﷺ والمؤمنين وهو أبوصفية زوج رسول الله ﷺ، وأخواه أبوياسر بن أخطب وجُديّ بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ورافع الأعور الذي قُتل بخيبر، والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق. وعمرو بن جحّاش. وكعب بن الأشرف - وهو طائي وأمه نضرية -، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف. وكَرْدَم بن قيس حليف كعب بن الأشرف وكل هؤلاء نضريّون.

وعبدالله بن صوريا الأعور، وكان أعلم أحبار اليهود بالحجاز، وهو من بني ثعلبة.

ورفاعة بن قيس، وسويد بن الحارث، وفنحاص، وشاس بن عدي، ومالك بن صيف، ورافع بن أبي رافع، ورافع بن حريملة، ومالك بن عوف، وكعب بن راشد، وَعَازرٌ وكل هؤلاء من بني قينقاع، ومنهم عبدالله بن سلام، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكان مبشراً بالجنّة. والزبير بن باطا وعزال بن شميل، وكعب بن راشد، ووهب بن يهوذا، أسامة بن حبيب، ورافع بن رميلة، ونافع بن أبي نافع، وعدي بن زيد، وهؤلاء كلهم قرظيون.

ولبيد بن الأعصم وهو الذي سحر النبيّ ﷺ بواسطة بناته وهو من بني زريق، وكنانة ابن صوريا وهو من بني حارثة.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ - صعوبة موقف الدعوة وتحرج القائمين عليها في هذ الفترة من الهجرة.

٢ - خطر المنافقين أشد من خطر الكافرين الظاهرين.

٣ - معرفة ما ذكر من منافقي كلٍّ من اليهود والمشركين.

٤ - مظاهر النبوة المحمدية في عدة مواقف من هذا العرض.

٥ - فضيلة كل من عبدالله بن سلام ومُخَيْرِيق من يهود المدينة الذين أسلموا وحسن إسلامهم.

٦ - كفر اليهود وحربهم للإسلام وأهله كان نتيجة بغيهم وحسدهم للعرب على انتقال النبوة إليهم، كما كان خوفًا من أن يحول الإسلام دون عودة مجدهم المتمثل في مملكتهم التي يحلمون بها وأنها من النيل إلى الفرات.

جَدَليات اليهود ومظاهر عنادهم

وإلى جانب ذلك الدسِّ والوقيعة - التي يقوم بها منافقو يهود ممن أسلم من أحبارهم في الظاهر وهو مبطنٌ للكفر والعداء الشديد في الباطن، هناك جماعات أخرى تُصرح بكفرها وحقدها وعدائها للرسول ﷺ ودينه وأتباعه، وتجادل وتعاند، ولنذكر للعبرة طرفًا من جدالها وعنادها.

فهذا رافع بن حُرَيْملة - عليه لعائن الله - يقول في جدله الساقط: يا محمد إن كنت رسولاً من الله - كما تقول - فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

وهذا سلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى ومحمود بن دحيةَ وشاس بن قيس ومالك بن الصيف يقولون للرسول ﷺ: كيف نتّبعكَ وقد تركتَ قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟! فانزل الله ردًّا عليهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذا جَبَل بن أبي قشير، وشمويل يجدان رسول الله ﷺ فيقولان له: يا محمد، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيًا كما تقول؟ فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وهذا نعمان أضًا، وبحريّ بن عمرو، وشاس بن عديّ أتوا النبي ﷺ يتحدّثونه، فكلموه وكلمهم ﷺ، ودعاهم إلى الله تعالى، وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوّفنا يا محمد، نحن - والله - أبناء الله وأحباؤه؛ فأنزل الله تعالى ردًّا عليهم من سورة المائدة قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وهذا رافع بن حارثة وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف ورافع بن حريملة أتوا النبي ﷺ يجادلونه فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ قال: «بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها وكتمتم منها وأمرتم أن تبيّنوه للناس، فبرئتُ من إحداثكم». فقالوا معاندين: إنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك ولا نتبعك فأنزل الله تعالى فيهم قوله من سورة المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

وهذا النحام بن زيد وكردم بن كعب وبحري بن عمرو أتوا النبي ﷺ يجادلونه، فقالوا: يا محمد أما تعلم مع الله إلهًا غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله لا إله إلا هو، بذلك بُعثتُ، وإلى ذلك أدعو» فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠].

وأتى رهط منهم، فقالوا معاندين مجادلين: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع[1] لونه، ثم ساورهم[2]؛ غضبًا لربّه، فنزل عليه جبريل فسكنه، وقال: خفّف عليك يا محمد، وآتاه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١ - ٤].

---

(١) تغير لونه.

(٢) واثبهم وأراد أن يبطش بهم.

نتائج وعبر:

١ - تقرير أنه كان من اليهود منافقون، ولا عجب؛ فأنهم أهل لكل شر إلا من رحم الله.

٢ - بيان ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من جدل اليهود وعنادهم في المدينة قبل خروجهم منها.

٣ - نزول القرآن بالردّ على ما كان اليهود يلقونه من الشبه والحجج الباطلة والمزاعم الكاذبة.

وكاليهود نصارى نجران يجادلون، ويعاندون

وبمناسبة ذكرنا جدالَ اليهود وعنادهم نذكر جدال النصارى وعنادهم المتمثل في وفد نجران - وإن كان هذا الوفد لم يفد في هذه السنة الأولى من الهجرة - إذ وفد في سنة الوفد وهي سنة تسع من الهجرة

وكان أفراد هذا الوفد ستين راكبًا من بينهم أربعة عشر راكبًا من أشرافهم، والذين يئول أمرهم إليهم من رجال الوفد وهم: العاقب واسمه عبدالمسيح، والسيد واسمه الأيهم، وأبوحارثة أسقفُهم وهو أحد بني بكر بن وائل، وكانت له منزلة رفيعة عند ملوك الروم؛ لما أبداه من اجتهاد في دينهم، ولما كان عليه من العلم؛ فلذا أمدوه بالمال، فبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات.

ولما وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة، جلس إمامهم أبوحارثة على بغلته التي يركبها متوجهًا إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة، فعثرت بغلتَه، فقال أخوه كرز: تعِس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ - فقال له أخوه أبوحارثة: بل أنت تعستَ. فقال: ولم يا أخي؟ قال: والله لَلنبيُّ الذي كنا ننتظر. فقال له كرز: ما يمنعك منه - أي من الإيمان به واتباعه - وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القومُ شرّفونا وموّلونا وأكرمونا، وقد أبوْا إلا خِلافَه، فلو فعلتُ نزعوا منا كلَّ ما ترى؛ فأضمرها كرز وأسلم بعد.

وحضرت صلاة العصر - وقد دخلوا مسجد رسول الله ﷺ - فصلوا العصر إلى المشرق، وكان بعض الصحابة أنكر عليهم ذلك، فقال لهم النبيّ ﷺ: **«ادعوهم يصلوا إلى المشرق إذ تلك قبلتهم في كنائسهم»**.

فكلم رسـول الله ﷺ منهم ثلاثة وهم أبوحـارثة، والعـاقب، والسيّـد - وهم مع اختلافهم في أمرهم - يقولون في المسيح: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وهذا قول أهـل الملة النصرانيّة ويحـتجون في قـولهم: إنه ولد الله؛ لأنه لم يكن له أب يُعْلَم، وقد تكلّم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله. ويحتجون في قولهم: إنه ثالث ثلاثة بقول الله تعـالي: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فـيقولون لو كان واحدًا ما قال إلا: فـعلتُ وقضيتُ وأمرتُ وخلقتُ، ولكنه هو وعيسى ومـريم. ويحتجون في قولهم: هو الله بأنه كَـانَ يُحيي الموتى ويبرئ الأسـقام، ويخبر بالغـيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا.

ولما كلموا رسولَ الله ﷺ قال لهم: «أسلموا» فقالوا: قد أسلمنا، فقال لهم النبيّ ﷺ : «إنكم لم تُسلموا، فأسلموا»، قالوا: بلي قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولدًا، وعـبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير». قالوا: فمن أبوه يا مـحمد؟ فصـمتَ عنهم رسولُ الله ﷺ فلم يجـبهم، وأنزل الله تعـالى نيفًا وثمـانين آية من أول سورة آل عمران في شأن عيسى، فحـدثهم عنه بالتفصيل، وبدأ الحديث بولادة جدته حنّة لأمه مريم في حديث عـجيب يدل دلالة قطعية على عبودية عـيسى - عليه السلام - وبنوّة محمد ﷺ . وجـاء فيه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وخـرج ﷺ ومعه عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين - رضي الله عنهم أجمعين -، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمتْ على الله أن يزيل الجبـال لأزالها، فخـافوا ولم يباهلوا. ونزل في ذلك قـول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ[1] فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فقالوا للرسـول ﷺ : يا أباالقاسم دَعْنا ننظرْ في أمرنا، ثم نأتيك بمـا تريد أن تفعل فيما دعـوتنا إليه؛ فانصرفوا، ثم خَلَوْا بالعاقب الذي هو صاحب الرأي فـيهم فقالوا له: يا عبدالمسـيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشـر النصارى لقد عرفتم أن محـمدًا لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم «يريد عيسى» - عليه السـلام -، ولقد علمتم أنه ما

(١) أي ندع ونتضرع لله تعالى ليهلك المبطل منا.

لاعن قوم نبيًا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتُم إلا إِلْفَ دينكم، والإقامةَ على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا[1] الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا الرسول ﷺ فقالوا: يا أباالقاسم قد رأينا ألا نُلاعِنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضًا.

وصالحوا النبيّ ﷺ على ألفيْ حُلّة، وعلى أن يضيّفوا رُسُل رسول الله ﷺ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ألا يفتنو عن دينهم، ولا يُعشروا، وشرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به. وبعث معهم أباعبيدة عامر بن الجراح أمين هذ الأمة المحمدية - رضي الله عنه وأرضاه -.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ - بيان أن موقف أهل الكتاب من يهود ونصارى من الإسلام واحد، وهو موقف عدائي خالص وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٢ - بيان أن المنافع المادية كثيرًا ما تحمل صاحبها على الإصرار على الباطل، وهو يعرف الحق؛ حفاظًا على تلك المنافع المادية حتى لا تنزع منه - كما قال أبوحارثة..

٣ - بيان مِرْية النصارى في معرفة الله عز وجل، إذ مرةً يقولون: هو المسيح، ومرة يقولون: هو ولد الله، ومرة يقولون: هو ثالث ثلاثة.

٤ - بيان أن من لم يوحد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله وعبادته، فليس بمسلم.

٥ - حبُّ المرء للشيء وإلفُه له يحمله على الإصرار على الباطل وإنكار الحق.

٦ - مشروعية المباهلة في الإسلام كما كانت في أديان الأنبياء قبله.

(٢) أي سالموا الرسول ﷺ ولا تحاربوا فإنكم لا تغلبونه.

الحالة الصحية بدار الهجرة

ولما قدم الحبيب ﷺ وأصحابه المدينة، وجدوها أسوأ البلاد مناخًا وصحةً، كما قالت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -. قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمّى، فعانى الأصحاب المهاجرون من حمّاها ما عانوا، إلا أن الله تعالى وقَى رسول الله ﷺ فلم يمرض بها.

ولنستمع إليها ﷺ، وهي تصف الحالة الصحيّة المترديّة بالمدينة فتقول: قدم الرسول ﷺ المدينة، وهي أوبأ أرض الله من الحمّى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، فصرف الله تعالى ذلك عن نبيّه ﷺ، فكان أبوبكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلتُ عليهم أعودهم - وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك[1]، فدنوت من أبي بكر فقلت له: كيف أجدك يا أبت؟ فقال:

كُلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهله
والموتُ أدنى من شِراكِ نَعْلِه

فقلت: والله ما يَدْري أبي ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة، فقلت له: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه
إن الجبان حتفُه من فوقه
كل امرئٍ مجاهد بطوقه[2]
كالثور يحمي جلده بروقه[3]

فقلت: والله ما يدْري عامرٌ ما يقول. وكان بلال إذا تركته الحمّى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته[4] يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً
بفخٍّ وحولي إذخرٌ وجليلُ

(١) الوعك: شديد الألم والوجع.
(٢) أي بطاقته وقدرته.
(٣) أي بقرنه.
(٤) أي أعلى صوته.

وهل أردنْ يومًا مياهَ مجنّة
وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ[1] وطفيلُ

والمقصود من إيراد الحالة الصحيّة بالمدينة - أيام الهجرة إليها - أن نعلم أن الحبيب ﷺ وأصحابه لم يجدوها مفروشة بالرياحين، ولا سليمة من المنغصات، والكدورات، بل فيها المخاوف والشدائد. إنها كيد اليهود ومكرهم، وخبث المنافقين وكفرهم، وعداء المشركين وحربهم، وحتى المناخ مفعم بحمى الملاريا والبلديزم. في هذا الجو القاتم يضطلع الحبيب ﷺ بأعباء دعوته ومهام رسالته، فلا يترك فرصةً تضيع بدون إبلاغ دعوته ونشر رسالته. وها هو ذا الآن وقد قضى سنةً في دار هجرته، وقد مرت بنا أحداثُها، وجلُّها مؤلمة يستقبل السنة الثانية من سنى هجرته بالإعداد للجهاد والتحرك لقتال من يليه من المشركين عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وذلك بعد أمره تعالى بالجهاد في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

وبعد الإذن العام بقتال المشركين الظالمين في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] بعد أن كان محظوراً عليهم قتالُ الناس مطلقًا وذلك قبل الهجرة؛ ففي السنة الأولى بعث ﷺ ثلاث سرايا تقدم الحديث عنها في أحداث السنة الأولى، وقد ولّت.

وفي هذه السنة الثانية، بلغت غزواتُه فيها ثمانيَ عشرة غزوة وسريّة.

وأولاها:

غزوة الأبواء

كانت هذه الغزاة المسماة بالأبواء، أو «ودّان»[2] لقربِ ما بين الأبواء وودّان؛ إذ ما بينهما من مسافة قد لا تزيد علي ستة أميال. وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت في صفر، وسببها أنه ﷺ بلغه مرور عير لقريش بالأبواء، ووجود بني ضمرة بن

---

(١) شامة وطفيل جبلان من جبال مكة.

(٢) ودّان: موضع شرق شمال رابغ، يبعد عنه بنحو ثلاثين كيلو متراً، والأبواء قريبة منه وفيها قبر آمنة.

بكر بن عبدمناة بن كنانة في المنطقة، فخرج لذلك، بعد أن استخلف على المدينة سعد ابن عبادة رضي الله عنه. ولما وصل إلى ديار بني ضَمْرَةَ، وادعتْه هذه القبيلة بواسطة سيّدهم وصاحب الأمرفيهم مَخْشِيّ بن عمرو الضَّمْري. وفاتت عير قريش. فعاد ﷺ ولم يلق كيدًا. غير أنه أقام بالأبواء بقية صفر وعاد في ربيع الأول. وكان لواؤه ﷺ في هذه الغزوة أبيض يحمله عمه حمزة رضي الله عنه.

وثانيتها:

غزوة بواط

وبعد عودته ﷺ من غزوة «ودّان» أو «الأبواء» في ربيع الأول من هذه السنة الثانية من هجرته المباركة، استخلف على المدينة النبويّة السائبَ بن عثمان بن مظعون أو سعد ابن معاذ رضي الله عنهما، وخرج في نفس شهر ربيع الأول في مائتي راكب يريد عيرًا لقريش عليها مائة رجل من بينهم أميّة بن خلف، وتَعْدادُ أبعرتها يبلغ ألفين وخمسمائة بعير.

فسار ﷺ ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص حتى بلغ بواط من ناحية جبل رَضْوى جهة ينبع النخل، فلبث ببواط بقيّة شهر ربيع الثاني، وعاد في أوائل جمادى الأولى إلى المدينة دار هجرته المباركة، ولم يلق كيدًا؛ وذلك لعدم اصطدامه بعير قريش حيث فاتت ونجت بتدبير الله عز وجل وإرادته، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وحسبُ رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم اجتهدوا باذلين الأسباب، وليس عليهم إلا ذلك، أما بلوغ الأرب والحصول على المطلوب فهو لله عز وجل، وهو يعطي ويمنع؛ لحكم عالية يجب التسليم له في ذلك والرضا بما قضى.

وثالثتها:

غزوة العشيرة[1]

في آخر جمادى الأولى، وبعد عودته في أول الشهر من غزوة بواط، بلغ النبي ﷺ أن أكثر من عير لقريش - أي قوافل تجارية - ذاهبة إلى الشام، فعزم على السير إليها، لعله يظفر ببعضها.

(١) في لفظ العشيرة خلاف فتصح بالشين والسين، وبالتاء وبدونها وبالمد أيضًا: العشيراء.

فخرج ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أباسلمة بن عبدالأسد، وأعطى اللواء عمَّه حمزة ﷺ. وسار حتى نزل العشيرة من بطن ينبع، ولم يَلْقَ من عيرات قريش ولا عيراً لفواتها، ولكنه ﷺ وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، فكان في ذلك خير للإسلام والمسلمين، فأقام بالمنطقة بقية جمادى الأولى، وليالي من جمادى الآخرة، وعاد إلى المدينة، ولم يلق كيداً من أحد، والحمد لله ربّ العالمين.

ورابعتها:

غزوة[1] بدر الأولى

إن سبب هذه الغزوة هو أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة - أي ماشيتها من إبل وغنم وبقر - وذلك بعد عودة النبي ﷺ من غزوة العشيرة ببضعة أيام - من ثلاثة إلى تسعة -.

فلما أغار كرز على سرح المدينة، خرج الحبيب ﷺ مع أصحابه في طلبه لافتكاك الماشية منه، فاستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة مولاه، وأعطى اللواء عليّ بن أبي طالب، وسار في طلب كرز حتى بلغ واديًا يقال له: سَفْوَان في ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه، فسمّيت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى، إذ انتهى فيها مسير رسول الله ﷺ إلى قرب بدر، ووصفت بالأولى؛ لأن بعدها بدراً الكبرى التي نصر الله فيها الرسول والمؤمنين على أبي سفيان والمشركين، وهناك بدر الآخرة، فلذا قيل في هذه بدر الأولى.

وخامستها:

سرية عبدالله بن جحش إلى نخلة بين مكة والطائف

هذه السرية شاء الله تعالى أن تكون سببًا قويًا في غزوة بدر الكبرى، ومقدمة عجيبة لها؛ إذ كانت هذه السرية في رجب من هذه السنة الثانية وكانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة نفسها، فما بين سرية ابن جحش وبدر الكبري إلا شهر شعبان لا غير. فقد أمر النبيُّ ﷺ أباعبيدة عامر بن الجراح أن يتجهز للغزو، فأطاع وتجهز - أي أعد عدة سفر وغزوة - فلما أراد المسير بكى؛ صبابة إلى رسول الله ﷺ، أي تألَّمَ

---

(١) الفرق بين الغزوة والسريّة أن الغزوة ما حضرها رسول الله ﷺ، والسرية ما لم يحضرها؛ على هذا اصطلح جل المؤرخين، وليس بلازم.

لفراقه ولم يطقه فبكى حنينًا وشوقًا، فلما رأى منه ذلك رسول الله ﷺ - وهو الحبيب المحب - تركه وبعث غيره هو عبدالله بن جحش، وبعث معه ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب له كتابًا عهد له فيه بأمور، وأمره الا يقرأه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، ويمضي لما أمره به، . ولا يكره أحدًا من أصحابه، ففعل، ولما سار اليومين، فتح الكتاب ونظر فيه، فإذا فيه الأمر بالنزول بنخلة وهي مكان بين مكة والطائف، يرصد فيه قريشًا ويعلم أخبارها وتحركاتها وتدابيرها العسكرية الحربيّة. فأعلم عبدُالله أصحابَه فساروا معه، وكان سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان قد أضلا بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا يطلبانه، فسار عبدالله مع بقية أصحابه حتى نزلوا بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيبًا وغيره، وفيها عمرو بن الحضرميّ، عثمان بن عبدالله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم ابن كيسان، فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وقد حلق رأسه[1]، فلما رأوه حالقًا رأسه أمنوا بعد أن خافوهم؛ إذ قالوا: لا بأس هؤلاء عمّار.

وتشاور أفراد السرية الإسلامية، وكان اليوم هو آخر يوم من رجب، لئن تركناهم هذه الليلة دخلوا الحرم، وامتنعوا منا، ولئن قاتلناهم الليلة قاتلناهم في الشهر الحرام فتردد القوم، ثم تشجّعا على قتل من يقدرون منهم؛ لأن جرائم المشركين أعظم من القتل في الشهر الحرام، فرمى واقد بن عبدالله التميميّ عمرو بن الحضرميّ بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وهرب نوفل فطلبوه فأعجزهم هربًا.

وأقبلوا بالقافلة والأسيرين عائدين إلى المدينة حتى قدموا على رسول الله ﷺ، وذكر بعض آل عبدالله بن جحش أن عبدالله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ الخمس، فعزل له خمس العير، وذلك قبل أن ينزل فرض الخمس، وإنما كان بإلهام من الله تعالى لعبدالله بن جحش صهر رسول الله ﷺ إلا ان النبيّ ﷺ انكر عليهم قتالَهم في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبي أن يأخذ شيئًا من ذلك. فلما فعل هذا رسول الله ﷺ سُقِطَ في أيدي السرية، وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم المسلمون على صنيعهم هذا، وأذاعت قريش الخبر مُشنّعة أكبر تشنيع: أن محمدًا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، واعتذر من اعتذر لهم بمكة من المؤمنين، وقالوا: إنما أصابوا من أصابوا في أول ليلة من شعبان وليس في رجب الحرام

(١) يدخل هذا تحت قاعدة حربية مشهورة وهي «الحرب خدعة».

كما أُشيع. إذ آخر يوم من رجب جائز أن يكون أول يوم من شعبان.

وكثرت التساؤلات، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ عُذْرَ أصحاب السريّة، مُنَدِّدًا بصنع المشركين، فقال تعالى من سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فقررت الآية الكريمة، أن القتال في الشهر الحرام أمر عظيم، ولكن أعظم منه صَدٌّ الناس عن الإسلام حتى لا يؤمنوا ويوحدوا فيكملوا ويسعدوا.

وأعظم من القتال في الشهر الحرام أيضًا الكفرُ بالله تعالى وبرسوله ولقائه.

كما أن الصد عن المسجد الحرام - بمنع المؤمنين من دخوله والتعبد فيه، كإخراج أهله المقيمين فيه بتعذيبهم والتنكيل بهم حتى يضطروا إلى الهجرة منه - أكبر من القتال في الشهر الحرام. وأخيرًا، فإن فتنة المؤمنين عن دينهم باضطهادهم وتعذيبهم أشد ظلمًا وأقبح جُرمًا من القتال في الشهر الحرام.

وعندما نزل عذر أصحاب السريّة في هذه الآية الكريمة سألوا رسول الله ﷺ قائلين: هل لنا من أجر في قتالنا هذا؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وانتهت تلك الضجة، وبعثت قريشٌ تطلب فداء أسيريها، وأرجأهم رسول الله ﷺ حتى يرجع سعد بن أبي وقاص وزميله عتبة بن غزوان؛ إذ تأخرا عن السريّة في طلب بعيرهما كما تقدم.

ولما وصل سعد وعتبة أفدَى[1] رسول الله ﷺ عثمان بن عبدالله، فلحق بمكة. أما الحكم بن كيسان فقد أسلم وحسن إسلامه، فلم يرده رسول الله ﷺ على المشركين. واستشهد الحكم يوم بئر معونة - فرضي الله عنه وأرضاه -.

وقد سجل هذه السريّة الصديقُ رضي الله عنه في ستة أبيات من الشعر فقال:

تدعون قتلاً في الحرام عظيمة

وأعظم منه لو يرى الرشدَ راشدُ

(١) أي قَبِلَ الفدية فيه.

صُدُودُكم عما يقولُ محمد
وكفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد الله أهلَه
لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ
فإنّا وإن عيّرتمونا بقتله
وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سقينا من ابن الحضرميّ رماحَنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دَمًا وابن عبدالله عثمان بيننا
يُنازِعه غُلٌّ من القد[1] عاند

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

١ - بيان ما اضطلع به الحبيب ﷺ من أعباء الجهاد والدعوة؛ إذ ما فرغ من غزوة حتى تهيأ لأخرى وأعدّ لها، فجزاه الله عن الإسلام وأمته خير ما جزى به نبيًّا عن أمته.

٢ - بيان الكمال المحمدي في حسن التدبير، وكمال التصرف وعظيم الرشد في كل أعماله.

٣ - بيان أول غنيمة كانت في الإسلام، وخُمّست بإلهام من الله تعالى حتى فرض الله تعالى بعد ذلك تخميس الغنائم.

٤ - بيان أول فداء في الإسلام.

٥ - بيان مدى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من حبهم لنبيّهم حتى إن أباعبيدة لم يستطع أن يفارق الحبيب ﷺ، فرحمه لذلك وأبقاه معه.

٦ - بيان أن سريّة عبدالله بن جحش كانت مقدمة لغزوة بدر الكبرى.

(١) القد بكسر القاف: السير يقد من الجلد، والعاند المتبلل بالدم فلا ينقطع.

غزوة بدر الكبرى[1]

لهذه الغـزوة الفاصلة في تاريخ الدعـوة الإسلاميـة، والمُعَنْوَنُ لها في القـرآن - بيوم الفـرقان - لهـا خطوات قبل الالتـقاء فـيـه، وله أحداث جـسام عنده وبعـده، وهذه هي الخطوات التي تمت من الجانبين: الإيماني، والكفري أو التوحيدي، والشركي.

١ - قافلة تجارية كبرى لقريش خرجت من الشـام يقودها أبوسفيان ورجاله في طريقها إلى مكة المكرمة.

٢ - يصل خـبر القافـلة إلى النبي ﷺ، فينتـدب بعض أصحـابه لاعتـراضهـا إذا مرت بالحجاز؛ لعل الله تعالى يُنفلهم إياها - أي يرزقهم مـا تحمله من بضائع وسلع نافعة وعظيمة - وهم أحوج ما يكونون إلى ذلك؛ لأن أموالهم تركوها بمكة وفروا بأنفسهم مهاجرين فـصادرتها قريش منهم، ولنستـمع إلى الرسول ﷺ يقول لهم: «**هذه عير قريش فيها أموالهم؛ فـاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكُموها**» فخفّ بعض، وثقل بعض، لأن الأمر ما كان ملزمًا وإنما هو مجرد عـرض لا غير. كما أنهم ما كانوا يظنون أن النبيّ ﷺ سيواجه حربًا ويلقى قتالاً.

٣ - أبوسفيان يدنو من الـحجاز بقافلته، وها هو ذا يتحسس الأخـبار ويسأل كل من يلقى من الركبان؛ خوفًا من محمد ﷺ وأصحابه أن يعترضوا طريقه، وفعلاً أصاب خبرًا من بعض الركبان مفادُه أن محمدًا ﷺ قد اسـتنفر أصحابه له ولعيره، فقوي بذلك خوفُ أبي سفيان؛ فاستأجر ضمضم بن عـمرو الغفاري وبعثه إلى مكة ليستنفر قريشًا فيخرجوا لحماية عيرهم التي بها أموالهم.

٤ - في مكة ترى عاتكة بنت عبدالمطلب رؤيا أفزعتها، وذلك قبل قدوم ضمضم الغفاري مكة بثلاث ليال، فتبعث إلى أخيهـا العباس ﷺ فتقول له: يا أخي، لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني[2] وتخوفتُ أن يدخل على قومك شرٌّ ومصيـبة. فقال لها: وما رأيتِ؟ قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يالَغُدر لمصارعكم في ثلاث. فرأى الناس قد اجـتمعوا إليه، ثم دخل المسجد

---

(١) بدر: اسم مدينة تبـعد عن المدينة النبـوية بمائة وخمـسين كيلو متـراً. وقد كانت قَـبْلُ واديًا به بئر يملكها رجل يُقال له: بدر، ووقعت غزوة بدر به فـسميت غزوة بدر.

(٢) اشتدت عليّ.

والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل به بعيره على ظَهْرِ الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا لغُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس جبل أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت[١]، فما بقي بيتٌ من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فلقة[٢].

فقال لها العباس: والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد. واستكتمته[٣] إياها إلا أنه قصها على الوليد بن عتبة صديقه واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه؛ ففشت حتى بلغت أباجهل فغضب لذلك، فلما رأى العباس يطوف بالبيت ناداه: يا أبا الفضل إذا فرغتَ فأقبل إلينا، فلما جاءه قال له: يا بني عبدالمطلب متى حدثت فيكم هذه النبيّة؟ قال العباس قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة!! قال العباس: فقلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبدالمطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربّص هذه الثلاثة: فإن يك حقًا ما تقول فسيكون، وإن تَمْضِ الثلاثُ ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب. وبعد ثلاث وصل ضمضم بن عمرو الغفاري، ووقف على بعيره ببطن الوادي، وقد حوّل رحله وشقّ قميصه، وجدع بعيرِه، وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً: اللطيمة[٤] اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث؛ وتجهزت قريش وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. ولما أجمعت قريش المسير ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر من حرب فخافت أن تُضْرب من خلف، إلا أن أبليس جاءهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجيّ، وكان من أشراف بني كنانة فقال لهم: أنا جارٌ لكم فلا تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فطمأنهم بهذا فمشوا سراعًا.

٥ - وخرج النبي ﷺ في ليالٍ مضت من شهر رمضان في أصحابه، وذلك يوم الاثنين لثمان ليالٍ خلون من شهر رمضان، واستعمل على المدينة عبدالله بن أم مكتوم إلا أنه رد أبالبابة من الروحاء، واستعمله على المدينة، وأعطى اللواءَ مصعبَ بن

---

(١) تفتّت.

(٢) قطعة.

(٣) أي طلبت منه أن يكتمها هو عليها فلا يخبر بها.

(٤) الإبل التي تحمل البزّ والطيب ونحو ذلك من النفائس.

عمير، وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوان: العقاب وكانت مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع بعض الأنصار، وكان معهم سبعون بعيراً يعتقبونها[١] وهم ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً، وليس معهم إلا فرسان: فرس الزبير بن العوام، وفرس المقداد[٢] بن عمرو، ثم سلكوا طريق العقيق على فجّ الروحاء، ونزل ﷺ ببئر الروحاء، ثم ارتحل منها، فترك طريقًا على يساره، وسلك ذات اليمين، وقطع الوادي إلى مضيق الصفراء، ثم بعث بسبس الجهني وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره، ثم سار سالكًا ذات اليمين على وادي ظفران، ولما قطعه نزل. وقد أتاه ﷺ الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن مسير قريش، فقام أبوبكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امضِ لما أمرك الله به؛ فنحن معك؛ والله لا نقول لك كما قال بنوإسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إن ههنا قاعدون» ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرْتَ بنا إلى برك[٣] الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» فوقف سعد بن معاذ وقال: والله لكأنك تعنينا يا رسول الله ﷺ قال: «أجل»! فقال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا؛ فامضِ يا رسول الله لما أردتَ ونحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك ما تخلف منا أحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا إنا لَصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله، فسُرّ الرسول ﷺ لقول سعد ونشّطه، فقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

وطلب النبي ﷺ من أصحابه أن يشيروا عليه كان يعني به الأنصار، لأن شروط بيعة العقبة التي كانت بينه وبينهم لم تتضمّن نصرتهم له خارج المدينة وإنما داخلها فقط،

(١) يتناوبون الركوب عليها.

(٢) هو المقداد بن الأسود ﷺ.

(٣) برك الغماد موضع في أقصى اليمن.

فخاف ألا يقاتلوا معه من خرج لقتاله، فلذا طمأنه سعد بما قال وسُرَّ به، وتابع ﷺ سيره تجاه بدر حتى نزل قريبًا منها.

تدبير حربي:

وركب رسول الله ﷺ وأبوبكر، والأصحاب نزول، ركبا ليمسحا المنطقة التي نزلوا بها تعرفًا إلى ما في المنطقة، وتطلعًا إلى أخبار العدو «العير وقريش» معًا فعثرا على شيخ يقال له: سُفْيَان الضّمري، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد ﷺ وأصحابه، وماذا يعرف عنهم، فقال الرجل: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إن أخبرتنا أخبرناك» - في هذا القول من الحيطة والاحتراس ما فيه - فقال الشيخ: أذاك بذاك؟ فقال النبيّ ﷺ: «نعم». فقال الشيخ مخبرًا: قد بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان كذا وكذا، للمكان الذي نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدقني الذي أخبرني فهم الآن بمكان كذا وكذا إشارة إلى المكان الذي هم الآن به وهو العدوة القصوى، ثم قال: وأنتما؟ فقال النبيّ ﷺ: «نحن من ماء ...» أي من جنس الماء الذي خلقنا منه لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فكانت منه ﷺ تورية حسنة يتطلبها الموقف.

فأخذ الشيخ يردّد كلمة من ماء محتارًا في هذه النّسبة، أمن ماء العراق هما أم من ماء كذا. وعاد النبيُّ ﷺ إلى المعسكر الإسلامي.

تدبير آخر:

وفي المساء أرسل النبيُّ ﷺ عليًا والزبير وسعد بن أبي وقاص في رجال يتحسسون العدوَّ ويتعرّفون أخباره، فعثروا على رجلين يسقيان الماء لقريش، فأتوا بهما إلى المعسكر الإسلامي فسألوهما فقالا: نحن سقاة لقريش، فأنكروا عليهما ذلك، واتهموهما بأنهما سقاة للعير لا لقريش رغبة من الأصحاب في العثور على العير لا على النفير، لأن العير لا شوكة فيها بخلاف النفير وهم يَوَدُّون غير ذات الشوكة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] وسألوهما، فلما أصرّا على ما قالا، ضربوهما فأوجعوهما فقالا: إنهما لأبي سفيان وكان النبيّ ﷺ

يصلي - فلما سلَّم من صلاته قال لهم: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا والله إنهما لقريش. أخبرانا عن قريش» فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال رسول الله ﷺ: «كم القوم» فقالا: كثير، قال: «فما عدتهم»؟ قالا: لا ندري. فقال: «كم ينحرون كل يوم من الإبل»؟ قالا: ما بين التسعة إلى العشرة، فقال ﷺ: «إذًا القوم ما بين التسعمائة والألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوالبَخْتري بن هشام، وحكيم بن حزام، و.... و.... فذكرا كمًّا من أشراف قريش. وهنا أقبل رسول الله ﷺ على الناس، وقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ[1] كبدها».

ثم سار رسول الله ﷺ مع أصحابه فنزلوا مكانًا قريبًا من العدوة الدنيا لا ماء فيه، فعطش المعسكر، وأصاب بعضَه جنابةٌ بالاحتلام، فلم يجدوا ماءً يغتسلون به، ووسوس الشيطان لبعضهم: كيف تقاتلون غدًا وأنتم جُنُب، وكيف تقاتلون ولا ماء عندكم، قد تموتون عطشًا.. إلى آخر ما يلقي الشيطان في نفوس الناس، فأكرمهم الله تعالى فأنزل عليهم مطرًا، فسقوا واغتسلوا ولبد الرمل ليسهل الكرُّ والفرّ عليه.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

تدبير سابق:

وكان المعسكر الإسلاميّ قد بعث بسبس بن عمرو وعدي بن الزغباء يتحسّان أخبار العدو ويرقبان تحركاته، فنزلا على تلٍّ قريب من ماء، ثم نزلا يسقيان الماء في شيٍّ لهما، وعلى الماء رجل يقال له: مجدي بن عمرو الجهني فسمع بسبس وعديّ صوتَ جاريتين، تقول إحداهما لصاحبتها، إنما تأتي العير غدًا أو بعده، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك، فسمع عديٌّ وصاحبُه حديثهما وما دل عليه، فجلسا على بعيرهما، وأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا من خبر وُرُود العير غدًا أو بعد غد. إلا أن أباسفيان لحذره وشدة توقعه تقدم العير إلى ماء بدر فوصله ووجد مجديًا فسأله قائلاً: هل أحسست أحدًا؟ قال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أني رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شنّ لهما ثم انطلقا، فأتى أبوسفيان مناخهما وأخذ من بعير ناقتهما، ففتّته فإذا فيه النوى، فقال: هذه

(١) الأفلاذ: جمع فلذة أي قطعة.

والله علائف يثرب[1]، فرجع إلى العير سريعًا فحولها عن طريقها فأخذ الساحل وترك بدرًا يسارًا، وانطلق مسرعًا وبذلك نجت العير بكل ما فيها.

وأرسل أبوسفيان إلى قريش يخبرهم أن العيـر قد نجاها الله فارجعوا، فقال أبوجهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكانوا بالجـحفة - فنقيم عليهـا ثلاثًا فننحر الجُزُرَ، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وترى مسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا. وكانت بدر سوقًا سنوية يجتمع فيها الناس، ورفض الأخنس بن شريق الثقفي - وهو حليف بني زهرة - فقال: يا بني زهرة، ارجعـوا فإنه لا حاجة لكم بالمسير إلى بدر، إذ نجَّى الله أموالكم وخلّص صاحبكم - وهو مخرمة بن نوفل، فرجعوا إلى مكة فلم يشهدوا بدرًا، وسارت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى.

عودة إلى المعسكر الإسلامي:

ونظر الحباب بن المنذر إلى المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ بأصحابه فرآه غير لائق عسكريًـا، فتقـدم إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسـول الله! أرأيتَ هذا المنزل؟ أمنزل أنزلَكَه الله، ليس لنا أن نتـقدم ولا نتـأخر عنه، أم هو الرأي والحـرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب المكيدة» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتي نأتي أدنى ماء من القوم فننزلـه، ثم نُعَوِّرُ ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القـوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» فنهض رسول الله ﷺ بالمسلميـن، وسار إلى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فَـعُوِّرت وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه فـملئوه ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

تدبير صالح:

وتقدم سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فـإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحبـبنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركـائبك، فلحقت بمن وراءانا، فـقد تخلف عنا أقوامٌ - يا نبيّ الله - مـا نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حـربًا من تخلفوا

---

(١) يثرب: هي المدينة النبوية، سُميت في الجاهلية بيثرب باسم رجل يُقال له: يثرب.

عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وبُنِيَ العريش وجلس فيه رسول الله ﷺ، وكان هذا من سعد تدبيرًا حسنًا.

تقارب المعسكرين:

وتحركت قريش نحو الوادي (وادي المعركة) فلما رآها رسول الله ﷺ تنحدر من الكثيب إلى الوادي قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُحادُّك، وتكذب رسولك، اللهم فنصرَك الذي وعدتني. اللهم أحِنْهم الغداة**» ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: «**إن يكن في أحد من القوم خيرٌ فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا**».

في معسكر الكفر:

ولمّا استقرت قريش في معسكرها، بعثت عمير بن وهب الجمحي يحزر لها أصحاب محمد ﷺ، فأجال فرسه حول المعسكر الإسلامي ثم رجع، فقال ثلثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر ما إذا كان للقوم كمين أو مدد، وضرب في الوادي حتى أبعد فلم يَرَ شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما وجدتُ شيئًا، ولكن قد رأيت - يا معشر قريش - البلايا[1] تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع[2] قومٌ ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتل رجلٌ منهم حتى يَقْتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟! فَرُوا[3] رأيكم. وكان هذا من عمير - وإن كان نصيحة - مثل الطابور الخامس[4] فلما سمع حكيم بن حزام ما قال عميرٌ أتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أباالوليد، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزال تُذْكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرميّ قال: فعلتُ فعليّ عَقْلُه[5] وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية - أبا جهل - فإني لا أخشى أن يشجر[6] أمرَ الناس غيرهُ. إلا أن عتبة قام خطيبًا

(١) جمع بَلِيّة وهي الدابة والناقة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت.
(٢) الناقع: الثابت البالغ في الإفناء.
(٣) أي انظروا ما يصلح بكم.
(٤) هو في اصطلاح المعاصرين: بث أفراد في الجيش المعادي يخوفونهم ويخذّلونهم.
(٥) العقل: الدية فمعنى عليّ عقله: عليٌ ديته.
(٦) معنى يشجر: يفرق.

فقال: يا معشر قريش، إنكم - والله - ما تصنعون شيئًا بلقائكم محمدًا وأصحابه، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه الرجل يكره النظر إليه، قَتَلَ ابن عمه أو ابن خاله من عشيرته؛ فارجعوا وخلُّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكُم ولم تعرضوا[1] منه ما تريدون.

وأتى حكيم أباجهل وأخبره أن عتبة أرسله إليه بكذا وكذا (أي بالعدول عن الحرب والعودة إلى مكة) فقال: انتفخَ - والله سَحْرُه[2]، كلاَّ والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوّفكم عليه. فلما بلغ عُتبةَ قول أبي جهل (انتفخ والله سحره) قال: سيعلم مُصَفِّرُ[3] استِه مَنِ انتفخ سَحْرُه: أنا أم هو؟

في معسكر الإسلام:

وشرع القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ في تعديل صفوف أصحابه، وكان بيده قِدْح[4] يعدل به القوم، فمرَّ بسَوَّاد بن غَزِيَّة وهومُستَنْتِلٌ[5] من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال: «استوِ يا سواد» فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني - وقد بعثك الله بالحق والعدل - فأقِدْني من نفسك، فكشف له ﷺ عن بطنه، وقال له: «استقد» فاعتنقه يقبل بطنه، فقال له: «ما حملك على هذا يا سواد»؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدَك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

وبعد أن عدّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، رجع إلى العريش فدخله ومعه أبوبكر الصديق ليس معه فيه غيره، وقام الحبيب ﷺ يناشد ربّه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «اللهم إن تَهْلَكْ هذه العصابةُ اليوم لا تُعْبد بعدها في الأرض»، وجعله يهتف بربِّه ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعَدْتَني، اللهم نصرَك»، ويرفع يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه. وجعل أبوبكر رضي الله عنه يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه ويقول

---

(١) يريد وجدكم وما نلتموه بمكروه فيصفح عنكم ولا ينقم منكم. هذا الذي ظهر لي في هذه الجملة ولم أعثر على من شرحها.

(٢) أي رئته وهو كناية عن الجبن والخوف.

(٣) يريد به الجبان الذي لا يحضر الحرب ويبقى بين نسائه يتطيب ويتعطر.

(٤) سهم.

(٥) أي متقدم.

مشفقًا عليه من كثرة الابتهال: يا رسول الله بعضَ مُناشدتك ربك، فإنه سيُنجز لك ما وعدك. وخفق النبيّ ﷺ خفقة أي إغفاءة قليلة، ثم انتبه منها فقال: «**أبشر يا أبابكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع**». أي الغبار.

التقاء الفريقين:

في صبيحة يوم الجمعة من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة تلاقى فريق التوحيد مع فريق الشرك، وقد قَلَّلَ الله كلاً من الفريقين في عين الآخر، جاء هذا في قول الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً**﴾ [الأنفال: ٤٤].

وبدأت المعركة، فرمى المشركون مَهْجَعًا مولى عمر بن الخطاب ﷺ بسهم فكان أول قتيل من المسلمين في المعركة، ثم رُمِيَ حارثة بن سراقة - أحد بني عدي ابن النجار، وهو يشرب من ماء الحوض بسهم - فأصاب نحره فقتل، وهو الذي جاءت أمُّه رسولَ الله ﷺ لما عاد إلى المدينة، وقالت: يا رسول الله، أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرتُ، وإلا فليرين الله ما أصنع - تريد من البكاء والنياحة عليه - فقال لها رسول الله ﷺ: «**ويحك أهبلت، إنها جنان ثمانٍ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**».

وخرج من معسكر المشركين الأسودُ بن عبدالأسد المخزومي - وكان رجلاً شَرِسًا سيئ الخلق - فقال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنَّ دونه. فخرج إليه حمزة ﷺ فلما التقيا ضربه حمزةُ فأطن[1] قدمه بنصف ساقه - وهو دون الحوض - فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبرّ يمينه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض، فكان أول قتيل من المشركين في بدر.

المبارزة قبل الالتحام:

من سنة الحرب عند الأولين أنهم يبدءون المعركة بالمبارزة بأن يطلب أحد المعسكرين المبارزة من الآخر من باب إثارة الحميّة وتهييج المقاتلين. وهنا في غزوة بدر، خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة بن ربيعة فدعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار، وهم عوف ومعوّذ ابنا عفراء، وعبدالله بن رواحة

(١) أطنّ قدمه: أي قطعها من نصف ساقها.

فسالوهم: من أنتم؟ فـقالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لـنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرِج لنا أكـفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: **«قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي»**. فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال عليّ: عليّ. قالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عبيدةُ عتبةَ ابن ربيعة وبارز حمزة شيبةَ بن ربيعة، وبارز علـيّ الوليدَ بن عتبة، فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وكـذلك عليّ لم يمهل الوليـد أن قتله، واختلف عـبيدة وعـتبة بينهـما ضربتين، فأثبت[1] كلاهما صاحبه، وكرَّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فذفّفا[2] عليه واحتملا صاحبهما وحازاه إلى معسكرهم.

ثم ظهر النبيّ ﷺ للناس، فحرّضـهم على القتال، فقال: **«والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليـوم رجل فيقتل صابراً محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»** فقال عمير بن الحُمام أخو بني سَلَمَةَ - وفي يده تمرات يأكلهنّ: بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقـتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمـرات من يده، وأخذ سـيفه، فـقاتل القـوم حتـى قُتل - رضي الله عنـه وأرضاه -. ثم تقـدم إلى رسـول الله ﷺ ابنُ عفراء - وهو عوف بن الحارث - فقـال: يا رسول الله، ما يُضحك الربّ من عباده؟ قال: **«غَمْسُه يدَه فـي العدوّ حاسراً»**، فنزع درعًا كانت عليـه فقذفها، ثم أخذ سـيفه، فقاتـل القوم حتى قُتل - رضي الله عنه وأرضـاه - وهنا تقدم الحبيـب ﷺ، فأخذ حفنة من الحصـباء فاستقبل قريـشًا بها، وقال: **«شاهت الوجوه»** ثم نفحهم[3] بها، وأمر أصحـابه وقال: **«شدُّوا»** وعاد إلى العـريش، واقتتل الفـريقان وكانت الهـزيمة للمشركـين، فقتل الله مَنْ قتل من صنـاديد قريش وأسر من أسر من أشرافـهم، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون كان الحبيب محمد ﷺ ساعتـئـذ في العريش وسعد بن معاذ قائم على بـاب العريش متوشّح السيف في نفر من الأنصـار يحرسون رسول الله ﷺ خوفًا عليه من كرة العدوّ عليه.

---

(١) يُقال ضربه فأثبته إذا جرحه جرحًا أقعده عن القيام والحركة.

(٢) أي أسرعا قتله وأنهيا حياته ضربًا بالسـيف.

(٣) أي رماهم بـها وفي هذه يقـول تعالى من سـورة الأنفال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] لأن هذه النفحة بالحصباء نفذت إلى وجوه أكثر المقاتلين فأصابتهم بالهزيمة؛ إذ لولا الله تعالى ما كانت تصل حفنة بالحصباء إلى أكثر من واحد أو اثنين من المشركين.

نهاية سعيدة:

ودرات المعركة وشاركت فيها الملائكةُ وعلى رأسهم جبريل - عليه وعليهم السلام - وكان عددهم ألف ملك في صورة رجال عليهم عمائم بيض أرسلوها على ظهورهم إذ شوهد بعضهم وأخبر بهم الرسول ﷺ. ومن سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] أي تطلبون الغوث منه؛ لأنهم ﷺ ضجوا بالدعاء عند ملاقاة المشركين سائلين الله تعالى أن يمدهم بنصر منه ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. وفيها أيضًا ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

فبعض الملائكة قاتل بالفعل وبعضهم كان يثبّت قلوب المؤمنين حتى تصبر على القتال.

ولقد انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين إذ قتل من صناديد قريش سبعون وأسر منهم سبعون. وكان من بين القتلى الطاغية فرعون هذه الأمة أبوجهل، وعتبة بن ربيعة، وولده الوليد بن عتبة وأخوه شيبة بن ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط، وأبوالبَخْتري، وعبيدة بن سعيد بن العاص، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث بن كَلَدة، والعاص بن هشام وأمية بن خلف وغيرهم إذ كانوا سبعين قتيلاً.

ومن بين الأسرى: العباس عم النبيّ ﷺ، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وعمرو بن أبي سفيان وأبوالعاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ، وأبوعزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وسهيل بن عمرو أحد ساسة قريش البارزين.

آية محمدية:

كانت المعركة دائرةً والقتالُ مستمرًا وسيفُ عكاشة بن محصن ينقطع من الضرب في يده فكيف يقاتل؟ فأتى الرسولَ ﷺ وهو في العريش - مركز القيادة - وشكا إليه انقطاع سيفه، فأعطاه النبيّ ﷺ جذلاً[١] من حطب، وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» فلما أخذه من يد رسول الله ﷺ هزه في يده، فعاد سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض

(١) أي عودًا من حطب.

الحديدة فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى «العون» وما زال مع عكاشة يقاتل بـه حتى قتل رضي الله عنه في حرب الردة على عهـد أبي بكر الصديق. فكان هذا السيف آية النبوة المحمدية القوية.

جيف المشركين:

لما خمدت نار المعركة - ودفن المسلمون شهداءهم، وكانوا أربعة [1] عشر شهيداً سُحبت جيفُ المشركين إلى قليب [2] كان في ساحة المعركة، فألقوا فيه إلا ما كان من الطاغية أمية بن خلف، فإنه قد انتفخ في درعه فملأها فذهبوا ليحركوه فتزايل [3] لحمه فتركوه مكانه، وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة.

توبيخ الحبيب محمد ﷺ لأعدائه:

وفي جوف الليل سُمع النبيّ ﷺ وهو واقف على القليب - الذي ألقيت فيه جيف المشركين - يناديهم موبخًا لهم مقرّرًا: **«يا أهل القليب بئس عشيرة النبيّ كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًّا»**. فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أتنادي قومًا قد جُيِّفوا [4]؟! فقال لهم: **«ما أنتم بأسمع منهم لما أقول لهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا»**. وفي هذا يقول حسان في قصيدة سجل فيها غزوة بدر منها قوله:

فدعْ عنك التذكُّرَ كل يوم
وردَّ حرارة الصدر الكئيب

وخَبِّرْ بالذي لا عيب فيه
بصدق غير إخبار الكذوب

---

(١) هم: عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب توفي وخدُّه على قدم النبي ﷺ ولما فاضت روحه قال: أشهد أنك شهيد. وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، وذو الشمالين بن عبدعمرو، وعاقل بن البكير، ومهجع مولى عمر بن الخطاب. وصفوان بن بيضاء. هؤلاء من المهاجرين ستة أنفار. ومن الأنصار: سعد بن خيثمة، ومبشر بن عبدالمنذر، ويزيد بن الحارث وعمير بن الحمام، ورافع بن المعلى، وحارثة بن سراقة، وابنا عفراء عوف ومعوذ ابنا الحارث - رضي الله عنهم أجمعين -.

(٢) البئر لا ماء فيها.

(٣) أي انفصل عنه وتساقط.

(٤) أي صاروا جيفًا.

بما صنع المليكُ غداة بدر
لنا في المشركين من النصيب
غداة كأن جَمْعَهم حراءٌ
بدتْ أركانُه جُنحَ الغروب
فلاقيناهم منَّا بجمْعٍ
كَأُسْدِ الغابِ مُرْدانٍ وشيبِ
أمام مُحمد قد وازروه
على الأعداء في لَفْح الحروب
بأيديهم صوارمُ مرهفات
وكلُّ مجرَّبٍ(١) خاطي الكُعوب
بنو الأوس الغطارف وازرتْها
بنو النجار في الدِّين الصليب(٢)
فغادرنا أبا جهل صريعًا
وعتبة قد تركنا بالجبوب(٣)
وشيبة قد تركنا في رجال
ذوي حسب إذا نُسبوا حَسيب
يناديهم رسولُ الله لما
قذفناهم كباكبَ في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقًّا
وأمر الله يأخذُ بالقُلوب
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا:
صدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مُصيب

---

(١) المكتز الممتلئ.
(٢) الشديد من صلابته.
(٣) الجبوب: وجه الأرض لأنها تجب أي تحفر وتقطع.

خلاف الأحبة وحسمه:

وأمر القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ - بعد انجلاء الموقف بقتل المشركين وأسرهم - أمر بجمع الغنائم فجمعت، واختلف الأصحاب المجاهدون - رضوان الله عليهم - فيمن هو الأحق بها؟ فقال الجامعون لها: هي لنا، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين وطلبهم: والله لولا نحن ما أصبتموها، إذ نحن الذين شغلنا العدو عنكم حتى أصبتم الذي أصبتم، وقال الذين كانوا يحرسون النبيَّ ﷺ في العريش؛ خشية أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم أحق بها منا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسمًا للخلاف، ثم أنزل قسمتها في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]. وبهذا حسم الخلاف وانتهى نهائيًا، والحمد لله رب العالمين.

بشائر النصر:

وعجل الحبيب محمد ﷺ بتبشير المسلمين في المدينة بالنصر الذي تَمَّ، فبعث عبدالله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

قال أسامة بن زيد رضي الله عنه: أتانا الخبر - حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان رضي الله عنه أنَّ زيدَ بن حارثة قد قدم، فجئتُ وهو واقف بالمصلَّى قد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوجهل، وزمعة بن الأسود، وأبوالبختري، وأميّة بن خلف، ونبيه ومنّبه ابنا الحجاج، فقلت: يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم، والله يا بُنيَّ.

طلوع البدر:

وطلعَ الحبيب محمد ﷺ من بدر عائدًا إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه ﷺ الغنائم، وجعل عليها عبدالله بن كعب النجاري وسار ﷺ، حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل علي كثيب بين المضيق وبين النازية إلي سرحة به، فقسم هناك الغنائم بالسويّة على المسلمين، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء

لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى من معه بالنصر المبين، وأثناء مسيره - وبالصفراء بالضبط - قتل عليٌّ بن أبي طالب النضْرَ بنَ الحارث - أحد الأسرى - كما قُتل عقبة بن أبي معيط قَتَلَه عاصم بن ثابت الأنصاري بِعِرق الطبية، وثمَّ لقى رسول الله ﷺ أبوهند حجّام الرسول ﷺ، لقيه بحميتٍ[1] حَيْسًا، فقال فيه رسول الله ﷺ: «**إنما هو أبوهند امرؤ من الأنصار فأنكحوه، وأنكحوا إليه**»، ففعلوا، وكان أبوهند مولى لفَرْوة بن عمرو البياضي، ثم مضى رسول الله ﷺ في مسيره إلى المدينة فوصلها قبل الأسارى بيوم.

أيهما خير؟ القتل أو الفداء:

إنه بعد أن أتَمّ الله نصره لرسوله والمؤمنين - حيث انهزم المشركون وفروا من المعركة لائذين تاركين وراءهم سبعين جثة ألقيت في القليب وسبعين أسيراً وُضِعوا في القيود، وقفل رسول الله ﷺ راجعًا، ونزل منزلاً[2]، واستشار أصحابه في الأسرى أيقتلون أم يفادون بمال يُستعان به على مواصلة الجهاد؟ فقال ﷺ: «**إن الله قد أمكنكم منهم، فما تقولون في هؤلاء الأسرى**»؟ فقام عمر ﷺ فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبيّ ﷺ. ثم عاد ﷺ إلى قوله طالبًا المشورة في الأسرى، فقام أبوبكر ﷺ فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. فذهب عن وجه النبيّ ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل الفداء، فأنزل الله تعالى من سورة الأنفال: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٧] فوافقت الآيةُ عمرَ ﷺ فيما رآه من قتل الأسرى في هذه المعركة. وأنزل الله تعالى عذر نبيّه ﷺ وعذر صاحبه أبي بكر الصديق فقال: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا**﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩] وأنزل في الأسرى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٠] فشجعهم بهذا على دفع الفدية وواعده بالمغفرة والرحمة إن هم أسلموا وحسن إسلامهم.

---

(١) الحميت: الزق من جلد، والحيس السمن يخلط بالتمر والأقط.

(٢) هو الكثيب الذي بين المضيق وبين النازية المتقدم في السياق السابق.

من بين هؤلاء الأسرى العباس بن عبدالمطلب عم النبيّ ﷺ، وعقيل بن أبي طالب وغيرهما.

وبهذا كان القتل للأسرى في هذه المعركة البدريّة خيراً من المفاداة، لأنها أول معركة انتصر فيها الإسلام. وإن كان المفاداة في غيرها خيراً، وفي كلّ خيرٌ والحمد لله إذ أنزل تعالى بعد هذه الآيات من سورة الأنفال، أنزل سورة القتال، وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]. فخيّر تعالى في هذه الآية الإمام بين المنّ مجاناً وبين الفداء بماقبل، وبين القتل، فَلْيَدُرِ الإمامُ مع المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، فإن كانت في الفداء فَدَى وإن كانت في القتل قتل، وإن كانت في المَنّ مَنّ.

كرم محمدي:

إنه لعظم كرمه ﷺ ووافر رحمته، لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة النبويّة مفرقين بينهم، قال لهم: «استوصوا بالأسارى خيراً». وها هو ذا أبوعزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وقد أسر يحدث فيقول: مرَّ بي أخي مصعب ورجلٌ من الأنصار يأسيرين، فقال له شدّ يديك به - أي حافظ عليه - فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك؟ قال أبوعزيز: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر؛ لوصيّة رسول الله ﷺ بنا، فما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحيي فأردها على أحد، فيردّوها عَلَيَّ ما يَمسُّها. فسبحان الله ما أطوع أصحاب رسول الله!! فصلى الله عليه وسلم، ما أرحمه!! لقد نالت رحمته أعداءه، ورضي الله عن صحابته الطّيّبين البررة الخيِّرين.

صدى هزيمة المشركين في مكة:

ودخل مكة أول داخل من المعركة الحُيْسُمَانُ بن عبدالله الخزاعي، فسألوه في لهف: ما وراءك؟ قال: عتبة وشيبة وأبوالحكم وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومُنَبّه وأبوالبُخْتري، فلما أخذ يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر: والله ما يعقل هذا، فاسألوه عنّي. فقالوا: ما فعل صفوان بن أميّة؟ قال: هو ذاكَ جالساً في الحجر، وقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

ولنستمع إلى أبي رافع مولى رسول الله ﷺ يحدث بنبأ هزيمة المشركين فيقول:

كنت غلامًا للعباس، وكان أبولهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاص بن هشام، فلما جاءه الخبر أقبل يَجُرُّ رجيه بشرّ، حتي جلس على طُنب حجرة زمزم - أي طرفها - فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبوسفيان بن الحارث قد قدم، فما إن رآه حتي قال له: هَلُمّ إليّ، لعمري عندك الخبر، فجلس إليه والناسُ قيامٌ عليه، فقال له: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القومَ فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وَايْمُ الله مع ذلك ما لُمتُ الناس، لقد لقينا رجالاً بيضًا على خيل بُلْقٍ بين السماء والأرض، والله ما تُليق[1] شيئًا ولا يقوم لها شيء، قال أبورافع: قلت: تلك - والله الملائكةُ، فرفع أبولهب يده فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً، وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني، فقامت أم الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة، فأخذته فضربته به ضربةً شقّت رأسه، وقالت: أستضعفتَه أنْ غاب عنه سيّدُه؟ فقام موليًا ذليلاً، فواللهِ ما عاش بعدها إلا سبع ليال فرماه الله بالعَدَسَة[2] فقتلته.

هذه واحدة من صدى الهزيمة...

وأخرى: وهي أن قريشًا لما فوجئت بالكارثة الشديدة، ناحت نساؤها نوحًا شديدًا، ثم رأوا أن النبي ﷺ وأصحابه إذا علموا ذلك شَمَتُوا بهم، فصدر أمرٌ بمنع النياحة، وعدم المطالبة بمفاداة الأسرى خشية أن يُغالي محمد وأصحابه في ثمن الفداء.

ومن غريب ما حصل، أن الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده وهم: زمعة، وعقيل، والحارث فأحب أن يبكي، وحال دون ذلك قرارُ المنع الذي صدر عن قريش. فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل تنوح، فقال لغلام له اذهب فانظر هل أُحلَّ النَّحْبُ؟ أي هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - ولده زَمْعَة - فإنّ جوفي قد احترق، فذهب الغلام وعاد فقال له: إن الباكية امرأةٌ تبكي على بعير لها أضلّته، فأنشد هو يقول:

أتبكي أن يضلّ لها بعير
ويمنعها من النوم السُّهودُ[3]

---

(١) أي ما تبقى شيئًا.

(٢) قرحة قاتلة كالطاعون، والعياذ بالله تعالى.

(٣) الأرق وعدم النوم فهو بمعنى السُّهاد.

فـــــــلا تبكـي عـلـى بكـرٍ ولكـن
علـى بـدر تقـــــاصـــرت الجـــــدود
علـى بـدر ســــــراة بنـي هصـــــيص
ومـــــخــــزوم ورهـط أبـي الـولـيـــــد

من أصداء المعركة وآثارها:

إن لمعـركة بدر أصداءً وآثاراً إنا - وإن كنا قد عـايشنا المعركة ورأينا أحـداثها داخل الساحة وخارجها - إلاَّ أن لهذه المعركة التاريخية الفاصلة أصداءً وآثاراً ذات مدًى قريب أو بعيد، فَحَسُنَ رؤيةُ ذلك ومشاهدته. وإزاء النقاط السود نذكر ما يمكن ذِكره من ذلك:

فداء أبي وداعة:

لقد أسرَ أبووداعة السـهميّ فيمن أسر في المعركـة، فلما رآه النبيّ ﷺ أو سمع به أنه ضمن الأسرى قـال - فداه أبي وأمي -: إن له بمكة ابنًا كيّسًا تاجـراً ذا مال وكأنكم به وقد جاءكم في طلب فـداء أبيه. ولما قالت قريش: لا تعـجلوا بفداء أسرائكم لا يَأْرَب[1] عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب بن أبي وداعة: صدقتم لا تعجلوا، وانسلّ هو ليلاً، فقدم المدينة ففدى والده بأربعـة آلاف درهم، وهكذا يفعل الأكياس البررة بآبائهم، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وكانت آية نبوّة.

سهيل بن عمرو:

قدم مكرز بن حـفص المدينة في فداء سـهيل بن عمـرو، وكان قد أسـره مالك بن الدُّخْشَم أخو بني سالم بن عوف الأنصاري، فلما خاطبهم مكرز في فداء سهيل بن عمرو قالوا: هات الذي لنا - يريدون من المال - مقابل فـداء سهيل. فقال لهم مكرز: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلّوا سبيله حـتى يَبْعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهـيل وحبسوا مكرزاً مكانه، وكان سهيل رجـلاً أعلمَ - أي مشقوق الشفة العليا، وكان خطـيبًا - فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أنزع ثَنِيّتَيْ سهيل بن عمرو فلا يقدم عليك خطيبًا أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «**لا أمثّلُ به؛ فيمثل الله بي وإن كنتُ نبيًّا، وإنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه عليه**».

---

(١) أي لا يقوم عليكم مـتعينًا بأموال الفداء.

أبوالعاص بن الربيع:

أبوالعـاص بن الربيع هو خـتن النبيّ ﷺ إذ هو زوج زينت بنت رسـول الله ﷺ زوجه إياها قبل البعثة النبويّة برغبة من والدتها خديجة - رضي الله عنهم أجمعين وألحقني بهم آمين -.

ولما بُعث النبيّ آمنت خديجة وكذا بناتها ومنهنّ زينب، وبقي أبوالعاص على شركه، وخرج مع المشركين إلى بدر، فوقع في الأسر، فبـعثت زينت في فدائه بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خـديجة أدخلتها بها على أبي العاص حيـن بنى بها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لهـا رقّة شديـدة، وقال: «**إن رأيتم أن تُطلقـوا لهـا أسيـرها، وتردوا عليـهـا مالهـا فافعلوا**»، فقالوا نعم، يا رسول الله وأطلقـوه وردوا عليها الذي لها، وتجلت في هذه آيات الحب الصادق والطاعة الإيمانيّة، والبشرية المحمدية الطاهرة الرفيعة.

هجرة زينب ﵂:

لما منّ ﷺ على أبي العـاص بدون مقابل كـانه التزم للنبيّ ﷺ أنْ يخلّي سـبيل زينب لتلتحق بأبيها ﷺ بالمدينة النبويّة. من هنا لما وصل أبوالعاص بن الربيع إلى مكة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار إلى مكة ليأتيا بزينب وقال لهما: كونا ببطن يأجج[١] حتى تمـر بكما زينب فتصـحباها حتى تأتيـاني بها، فخرجا مكـانهما وذلك بعد بدر بشهر تقريبًا فلما قدم أبوالعاص أمرها باللحوق بأبيها. وبـينما زينب تتجهّز للسفر، لقيتها هند بنت عتبـة، فقالت لها: يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللّحوق بأبيك؟ فخافتها زينب فقالت لهـا: ما أردتُ ذلك، فقالت لها: أي ابنة عمّي لا تفعلي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفـق بك في سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تستحيي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال. قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلا تفعل، ولكن خِفتُّها فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك.

ولما فرغت زينب من جهازها، قدم لها حموها[٢] كنانةُ بن الربيع بعيرًا، فركبته وأخذ هو قوسـه وكنانته، ثم خرج بهـا نهارًا يقود بها وهي في هـودج لها على البعيـر، وسمع بذلك رجال من قريش لـحقوا بها فأدركـوها بذي طوي، فكان أول من سبق إليها فـروّعها

---

(١) موضع على ثمانية أميال من مكة والمبل حوالي كيلو وستمائة متر. (مصححه).

(٢) أخو زوجها.

هبّار بن الأسود بن المطلب بن أسد إذ أشار إليها بالرمح فخافت فطرحت ما في بطنها، وبرك على الأرض حموها ونثر كنانته، ثم قال لهم: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمي فتراجعوا عنه وانصرفوا، ثم تقدم نحوه أبوسفيان مفاوضًا له فقال له: إنك لم تُصبْ؛ خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منّا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة. وما لنا في ذلك من ثؤرة[1] ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فَسُلَّها سرًا وألحقها بأبيها، قال: ففعل، فأقامتْ ليالي حتى هدأت الأصواتُ خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدما بها على رسول الله، وكان في قصة هجرة زينب عبرة لأولي الألباب.

إسلام أبي العاص وكيف كان:

قبيل فتح مكة خرج أبوالعاص بن الربيع بعل زينب بنت رسول الله ﷺ المهاجرة إلى أبيها بالمدينة - خرج تاجرًا إلى الشام، وكان رجلاً مأمونًا يأخذ أموال أرباب الأموال ويتجر فيها، وعند رجوعه من الشام اعترضته سريّة من سرايا رسول الله ﷺ فأخذوا ما معه من أموال، وهرب فأعجزهم، ووصل المدينة ليلاً مختفيًا فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته، وقد جاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح، وكبر فيها وكبر الناس معه صرختْ زينب من صفّة النساء: أيها الناس، إني قد أجرتُ أباالعاص ابن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: **«أيها الناس هل سمعتم ما سمعتُ»**؟ قالوا: نعم، قال: **«أما والذي نفسُ محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتي سمعتُ ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم»**. ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال: **«أي بُنيَّة أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك؛ فإنك لا تحلين له»**[2].

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى أفراد السريّة فقال لهم: **«إن هذا الرجل منّا حَيْث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنّا نحبُّ ذلك، وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكم، وأنتم أحق به»** فما كان منهم إلا أن ردوا عليه كل ماله حتى إن الرجل

---

(١) أي طلب ثار.

(٢) أي بوطء وجماع.

يأتي بالشَّنَةِ والآخر يأتي بالشظاظ[1]، حتى ردوا عليه ماله بأسْره، فاحتمله إلى مكة وردّه إلى أهله ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مالٌ لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا؛ فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله،، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أني إنما أردت أكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغتُ منها أسلمتُ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ فرد عليه زينب بعد فترة فرّق الإسلام بينهما لتقدم إسلامها وتأخر إسلامه.

مثل رائع يضربه أبوالعاص:

إنه لما قدم أبوالعاص من الشام ومعه أموال التجارة واعترضته السرية قال له رجالها: هل لك أن تُسْلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنها أموال المشركين؟ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي، فرفض المقترح، وكان الذي كان. . . . ووصل مكة وأدى أموال الناس وهي أمانات في ذمته، ثم أعلن إسلامه، فكان هذا مثلاً رائعًا في الوفاء يضربه ختن[2] الحبيب محمد ﷺ أبوالعاص بن الربيع فرضي الله عنه، وأرضاه، وجعل الجنة مأوانا ومأواه آمين.

إسلام شيطان:

كان بمكة رجل يدعى عمير بن وهب يمثل الشيطان في كيده وخبثه؛ آذى المؤمنين في مكة أذى كبيرًا وكثيرًا. وُصف بأنه شيطان من شياطين قريش، جلس يومًا يتحدّث مع صفوان بن أميّة بعد مصاب أهل بدر، فذكر أصحاب القليب فقال صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير، فقال عمير: صدقتَ والله، ثم قال: أما والله لولا دَيْنٌ عليّ ليس له عندي قضاء، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبتُ إلى محمد حتى أقتله؛ فإن لي قِبَلَهم عِلَّةً: ابني وُهيب أسير في أيدهم، فاغتنمها صفوان، وقال: عليّ دينُكَ، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بَقَوْا لا يسعني شيء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال صفوان: أفعل.

فأمر عمير بسيفه، فَشُحِذ له وسُمّ[3] ثم انطلق حتى أتى المدينة. فبينما عمر بن

---

(١)خشبة صغيرة عقفاء تدخل في عروتي الجوالق.

(٢)الختن: الصهر.

(٣)يُقال: سمّ السلاح سقاه السّم بطريقة معروفة عندهم.

الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرّ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال يا نبيّ الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. فقال رسول الله ﷺ: **«أدْخلْه عليّ»** فأخذ عمر بحمالة سيفه في عنقه ولبَّبه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من الخبيث؛ فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمرُ آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه - قال: **«أرْسلْه يا عُمر، ادْنُ يا عمير»** فدنا وقال: انعموا صباحًا - وكانت هذه تحيّة الجاهلية - فقال رسول الله ﷺ: **«قد أكرمنا بتحيّة خير من تحيّتك يا عمير: بالسلام، تحية أهل الجنة»** فقال عمير أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد. قال: **«فما جاء بك يا عمير»**؟ قال: جئتُ لهذا الأسير الذي بين أيديكم - يعني ولده وهيبًا - فأحسنوا به، قال الحبيب محمد ﷺ: **«فما بال السيف في عنقك»**؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنتْ عنَّا شيئًا؟ قال: **«اصْدُقني الذي جئتَ له»**؟ قال: ما جئتُ إلا لذلك، قال النبي ﷺ: **«بل قعدتَ مع صفوان بن أميّة في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قُريش ثم قلت: لولا دَيْنٌ عليَّ، وعيال عندي لخرجتُ حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوانُ دَيْنك، وعيالك على أن تقتلني له، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك»**. قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله. فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: **«فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيرَه»** ففعلوا، وعاد عمير إلى مكة وقام بالدعوة إلى الإسلام بنفس القوة التي كان يدعو بها ضد الإسلام وأوذي كثيرًا في ذلك، وقد دخل بدعوته في الإسلام خلقٌ كثيرٌ.

وهكذا بعد ما كان عمير بن وهب شيطانًا، أسلم فأصبح داعية إسلامية، وهدى الله على يديه خلقًا كثيرًا. وهنا تتجلى آية النبوة المحمدية الإيمانية وهي أن من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

شرف أهل بدر:

أهل بدر هم المؤمنون الذين خرجوا من المدينة مع النبيّ ﷺ لاعتراض عير قريش القادمة من الشام. ثم لما نجت العير تصدّوا لقتال كفار قريش في وادي بدر، وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً على عدة قوم طالوت، هؤلاء هم أهل بدر الفائزون بأكبر فضل، وأعظم شرف؛ تدل لذلك الأخبارُ النبويّة الآتية:

١ - قوله ﷺ لأم حارثة الشهيد الأنصاري، وقد سألته قائلة: يا رسول الله! قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى، فَلَيَرَيَنَّ الله ما أصنع - تعني من البكاء والنوح - فقال رسول الله ﷺ: «ويحك أوَهبلت؟ أوَ جنة واحدة؟! إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس».

فهذا الخبر - وإن كان في شهداء بدر - فإنه دال على فضل أهل بدر من استشهد منهم ومن لم يستشهد.

٢ - قوله ﷺ: «لن يدخل النارَ رجلٌ شهدَ بدراً أو الحديبية» رواه أحمد على شرط مسلم، فهذا الحديث صريح في بيان فضل أهل بدر والحديبية.

٣ - روى البخاري أن جبريل أتى النبيّ ﷺ فقال له: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» - أو كلمة نحوها - قال (أي جبريل): وكذلك مَنْ شهد بدراً من الملائكة.

٤ - رواية الشيخين في حاطب بن أبي بلتعة، وقد كتب كتابًا إلى أهل مكة قبيل تحرك الجيش الإسلامي لفتح مكة، فقال عمر: ائذن لي يا رسول الله أضرب عنقه، فقال له النبيّ ﷺ: «قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو قد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسوله أعلم.

هذا بيان شرف أهل بدر وفضلهم ولا يسعنا نحن إلا أن نترضّى عنهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا معهم بفضل منه ورحمة؛ إنّه برّ رحيم، وجواد كريم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي:

١ - العمل بمشروعية: جزاء السيئة سيئة مثلها؛ إذ قريش طردت المؤمنين وصادرت أموالهم، فاعتراضُ عيرها لأخذ ما معها من أموال كان عدلاً لا ظلم فيه.

٢ - الأخذ بمبدأ الدّفاع عن النفس؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

٣ - لا إثم ولا عقاب على ترك المندوب من الأقوال والأعمال؛ إذ لم يعتب على الذين لم يخرجوا إلى غزوة بدر لكون الطلب كان ندبًا لا وجوبًا.

٤ - مشروعية الشورى وإنها من الواجبات الضرورية في كل ما يهم أمر المسلمين؛ لاستشارة رسول الله ﷺ أصحابه في أمر قتال المشركين في بدر.

٥ - وجوب مراعاة العهود والمواثيق والالتزام بها، تجلّى هذا في طلب النبيّ ﷺ بيان موقف الأنصار من القتال معه فيما لو حدث قتال بعد نجاة العير.

٦ - بيان فضل أبي بكر وعمر والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ، تجلى ذلك في كلماتهم التي قالوها للرسول ﷺ عند طلبه المشورة من أفراد أصحابه حيث قَرّت بذلك عينا النبي ﷺ.

٧ - بيان أن من ضروريات الحرب بَثّ العيون للتعرف على تحركات العدو وعلى أماكن وجوده وتقدير قواته وحَزْرها، ومعرفة مدى ما تقدر عليه.

٨ - مشروعية استعمال الرموز والمعاريض والتورية في الكلام في حالة الحرب والتعمية على العدو، وقطع الطرق عليه، والحيلولة بينه وبين المرافق التي قد ينتفع بها في شنّ غاراته والزحف بقواته.

٩ - مشروعية الضرب الخفيف الذي لا يكسر عضوًا ولا يشين جارحة؛ من أجل استنطاق أفراد العدو للحاجة إلى ذلك، وحرمة التنكيل وشدة التعذيب.

١٠ - ضرورة استعمال الرأي والمكيدة في الحرب.

١١ - آيةُ انقلاب العصا سيفًا صارمًا - في يد عكاشة بن محصن قاتل به طوال حياته: من أعظم آيات النبوة المحمدية.

١٢ - آية حفنة الحصا التي رمى بها النبيّ ﷺ فأصابت جيشًا بكامله فخبّلته، وأصابته بالتمزق والهزيمة من آيات النبوة المحمدية.

١٣ - تقرير مبدأ: لا موالاة بين الكافر والمؤمن؛ إذ قاتل الرجلُ ولدَه، وقاتل أباه، وقاتل ابن عمه في معركة بدر.

١٤ - قتال الملائكة في معركة بدر، ورؤيةُ بعضهم وظهور آثارهم: آيةُ النبوة المحمدية.

١٥ - خذلان الشيطان إخوانَه من المشركين؛ إذ فر هاربًا لما رأى الملائكة في ساحة المعركة بعد أن أجارهم ودخل المعركة معهم.

١٦ - بيان هلاك المستهزئين مصداقًا لقول الله تعالى لرسوله وهو في مكة: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] إذ هلك بالمعركة جُلُّهم كأبي جهل وعتبة وأميّة والوليد وعقبة بن أبي معيط.

١٧ - وجوب رد الخلاف إلى الله والرسول في كل ما يَشْجُر بين المسلم والمسلم؛ إذ الخلاف الذي تَم في شأن الغنائم رُدّ إلى الله والرسول، وقضى الله تعالى فيه بما هو العدل والخير.

١٨ - مشروعية فداء الأسرى، أو قتلهم، أو المن عليهم إذ رد هذا إلى الإمام يحكم بما فيه خير للإسلام والمسلمين.

١٩ - موافقة عمر ﷺ ربَّه في أسرى بدر، إذ كان قتلهم أولى من فدائهم.

٢٠ - تجلّي الرحمة المحمدية في وصيته ﷺ بالأسرى خيرًا وبيان مدى طاعة أصحابه له ﷺ.

٢١ - تقرير مبدأ الجوار في الإسلام وأن المسلمين يُجير عليهم أدناهم والمرأةُ في الجوار كالرجل سواء.

٢٢ - بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية من بعض الكمالات كالأمانة والنجدة والعفة.

٢٣ - آية النبوة المحمدية في إخباره ﷺ عمير بما قاله في الحِجْر مع صفوان وليس معهما أحد إلا الله.

٢٤ - بيان تاريخ غزوة بدر، وأنها في رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

* * *

أهم ما وقع من أحداث في السنة الثانية من هجرة الحبيب محمد ﷺ

لقد تمت أحداث في السنة الثانية كالسنة الأولى من الهجرة، تسجيلُها مهم في الناحية التاريخيّة لاسيما في قضايا النسخ التي يتوقف الحكم بها على معرفة تاريخ وقوعها.

وهذه أهم الأحداث التي وقعت في هذه السنة الهجرية المباركة:

• وفاة عثمان بن مظعون أخي النبي ﷺ من الرضاع، وقد دفن بالبقيع ووضع النبيّ ﷺ حجرًا على قبره وقال: «أعلم به قبر أخي»، وكانت وفاته في ذي الحجة.

• تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة.

• فرض صيام رمضان ونسخ صيام عاشوراء، فنسخ وجوب صيام عاشوراء وبقي استحبابه ثابتًا بالسنة النبويّة الصحيحة، وأن صيامه يكفر ذنوب سنة ماضية.

• مشروعية صلاة العيد، وزكاة الفطر وأنها من سنن الإسلام الواجبة.

• فريضة الزكاة وبيان أنصبتها وشروطها.

• بيان المعاقل وجعلها في كتاب معلقًا بقراب سيف النبي ﷺ.

• وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ.

• زواج عثمان بن عفان الخليفة الراشد بأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية - رضي الله عنهما وأرضاهما-.

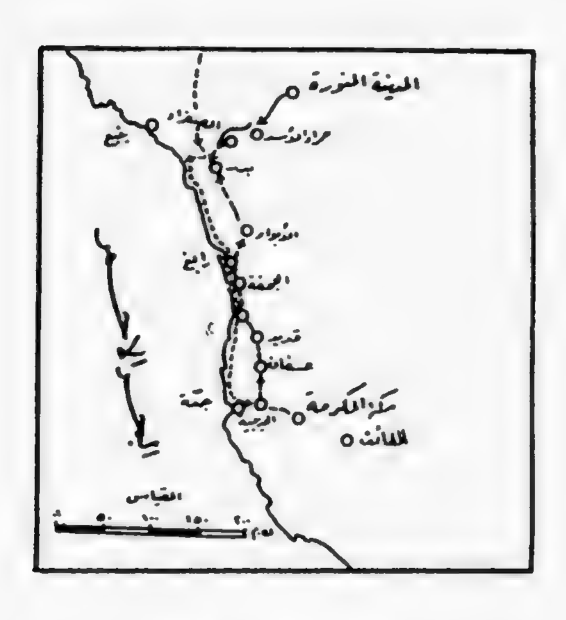
• وصول زينب بنت رسول الله ﷺ مهاجرة من مكة إلى المدينة النبوية.

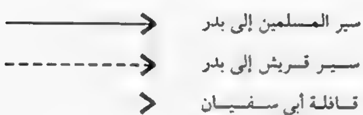
• إسلام أبي العاص بن الربيع رضي الله عنه، وردُّ الرسول ﷺ عليه زوجتَه زينب رضي الله عنها.

• تزوج علي رضي الله عنه بفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

• أول صلاة عيد وأضحيته كانت في هذه السنة؛ إذ صلى بهم الرسول ﷺ وضحى، وضحى أصحابُه من أهل اليسار معه.

• آية نبوّة الحبيب محمد ﷺ؛ إذ قال: «ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين»؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «أحيمر ثمود عاقر الناقر، والذي يضربك يا عليُّ على هذه - ووضع يده على رأسه - حتى تبتلّ هذه» ووضع يده على لحيته. وكان الأمر كما أخبر إذ ضرب عليًا أحدُ الخوارج على رأسه فقتله.





بيان موقع بدر، بين مكة والمدينة، وبيان مسير قافلة أبي سفيان التي أسهل بها آخذًا في الساحل بين ينبع ورابغ حتى نجا بها من استيلاء المسلمين عليها بتدبير من الله عز وجل.

وسابعتها:

غزوة بني قينقاع

بنو قينقاع هم إحدى طوائف اليهود الثلاث الذي كانوا نزلوا المدينة النبويّة قبل الإسلام بزمن طويل؛ فراراً من اضطهاد الروم لهم، وانتظاراً للنبوة المحمدية المبشر بها في التوراة والإنجيل. ولما حل النبي ﷺ المدينة مهاجرًا السنة الماضية - أي الأولى من الهجرة - عاهدهم معاهدة سِلم وحسن جوار، وقد تقدمت وثيقتها تحمل نصوص موادها.

وقد نافق كثير من أحبارهم ووالَوا المشركين في الخفاء، وكانوا يتربصون بالنبي ﷺ وأصحابه الدوائر. ولما خرج ﷺ إلى بدر فرحوا؛ ظنًّا منهم أن المسلمين سيهزمون، وتخضد شوكتهم، ويأفل نجم قوتهم. ولما كان النصر للمسلمين والهزيمة للمشركين شرقوا بريقهم، وكشّروا عن أنيابهم، وقالوا قالة السوء.

فما كان من الحبيب محمد ﷺ إلا أن جمعهم في سوق بني قينقاع، وقال لهم في جملة ما قال: «احذروا ما نزل بقريش وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أنّي نبيٌّ مرسلٌ» فقالوا - في وقاحة -: يا محمد! لا يغرنك أنك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصة، إنا - والله - لئن حاربتنا لتعلمَنَّ أنّا نحن الناس، ونزل ردًّا على مقالتهم وتهديدهم من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣] فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم بهزيمتهم الآتية لا محالة - وقد كانت - وأن مردهم إلى جهنم، وذكرهم بهزيمة المشركين أوليائهم على كثرتهم وشدة قوتهم.

ومضت أيام قلائل، وجاءت امرأة مسلمة بِجَلَبٍ لها فباعته بالسوق، ومالت إلى صائغ يهودي لتشتري منه مصاغًا، فَجلست - وحوله يهود فعابوا عليها لستر وجهها - وطالبوها بكشف وجهها، فأبت ذلك حفاظًا على عفتها، وصيانة لشرفها، من أن تبذل وجهَها ينظر إليها غيرُ محارمها، فما كان من أحد أولئك اليهود - عليهم لعائن الله - إلا أن غافلها، وربط طرف درعها من أسفله بطرف خمارها، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت واكشفتاها، فسمعها رجل مسلم، فَهَبَّ إليها فرأى ما بها؛ فضرب اليهودي ضربة قتله بها. وقام يهود فاشتدوا على المسلم فقتلوه فمات شهيدًا - رضي الله عنه وأرضاه - وهَبَّ

رجال من المسلمين للحادث فاقتتلوا مع اليهود، وبهذا نقض يهودُ بني قينقاع عهدهم، وطرحوا معاهدتهم. فنزلوا حصونهم فتحصنوا بها فغزاهم رسول الله ﷺ، وحاصرهم نصف شهر حتى نزلوا من حصونهم على حكمه ﷺ، فكتفوا - أي رُبِطُوا بحبال في أيديهم وأرجلهم - لقتلهم بموجب بنود المعاهدة المعقودة بينهم وبين رسول الله ﷺ. وقبل تنفيذ الحكم فيهم توسط في خلاصهم والعفوِ عنهم حليفُهم عبدالله بن أُبيّ كبير المنافقين، فأتى الرسول ﷺ وكلمه فيهم، وقال: إنهم مواليَّ؛ فغضب الرسول ﷺ وانتهر ابن أبي، وقال له: «ويحك أرْسِلني» إذ قد أخذ المنافقُ بردائه ﷺ والرسولُ معرض عنه غضبان، فقال المنافق: لا أُرسلك حتى تُحْسن إلى مواليَّ، وهم أربعمائة حاسر - أي بدون دروع -، وثلثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، وإني والله لأخشى الدوائر، فقال النبي ﷺ: «هم لك خلوهم» لعنهم الله ولعنه معهم. وأنزل الله تعالى فيه - لعنه الله - قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⁽٥١⁾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢] وجاء عبادة ابن الصامت - وكان مرتبطًا بحلف مع يهود بني قَيْنُقاع - فقال: يا رسول الله أتولى الله ورسولَه والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، فكان معنيًّا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ولما أطلقهم رسول الله ﷺ بشفاعة ابن أبيّ، خرج بهم عبادة بن الصامت إلى أن وصل بهم ذِبَابًا[1] ثم، ساروا وحدهم إلى أذرعات من الشام، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا.

ولما خرج رسول الله ﷺ لغزوهم في حصونهم ولّى عَلَى المدينة أبالبابة الأنصاري، وأعطى لواءه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

ولما أجلى بنوقينقاع، قسّم رسول الله ﷺ أموالهم بين أصحابه، وأخذ خمس الغنيمة لينفقه فيما أمر الله تعالى أن ينفقه فيه حيثُ نزلت سورة الأنفال، وفيها قول الله

---

(١) اسم موضع معروف، به جبل يُقال له: ذباب، وهو قرب المدينة النبوية، ويُضَم الذال منه ويكسر.

تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وأخيراً هل كانت هذه الغزوة في صفر أو في شوال؟ الراجح، أنها كانت في شوال عقيب غزوة بدر مباشرة، فهي من أحداث السنة الثانية لا من الثالثة.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١ - تسجيل خيانة اليهود وغدرهم وانعدام وفائهم بأيّ التزام يدعونه.

٢ - تقرير: أن الحجاب هو ستر وَجْهِ المرأة عن الرجال الأجانب.

٣ - بيان فضل المؤمن الذي غضب لله، فقتل اليهودي الساخر من المؤمنة فقتل شهيداً ﷺ.

٤ - تسجيل الكرم المحمدي في أعظم صورة وأعلى مثال، وذلك بيّن ظاهر في قبوله شفاعة ابن أُبيّ وعفوه عن الخائنين الغُدر - عليهم لعائن الله -.

٥ - فضيلة عبادة بن الصامت الذي تبرأ من اليهود وأعلن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين.

٦ - نزول آية آل عمران في الرد على تبجّح اليهود وتهديدهم للرسول ﷺ والمؤمنين.

٧ - نزول آية المائدة في الرد والتنديد بابن أُبيّ - عليه لعائن الله - لنفاقه وكفره.

وثامنتها:

غزوة الكدر

بعد عودة الحبيب محمد ﷺ من غزوة بدر وإجلاء بني قينقاع من اليهود - لغدرهم وخيانتهم - بلغه أنّ بني سُلَيم قد تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ على ماء لهم يقال له: «الكُدْر» فسار إليهم ﷺ بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ﷺ فواصل سيره طالبًا جموع بني سُلَيْم التي تجمّعت لحربه ﷺ حتى بلغ ماءهم «الكُدْر» فلم يجد عنده أحدًا، وإنما وجد نَعَمًا ورعاء، فساق ذلك وعاد به إلى المدينة النبويّة، ولم يَلْقَ بالكُدْر كيداً. والحمد لله، وبعد أيام أرسل غالبَ بن عبدالله اللّيثي في سريّة إلى بني سُليم وغطفان فقتلوا فيهم وغنموا النعم، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر - رحمهم الله تعالى ورضي عنهم -.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي:

١ - تقرير مبدأ محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم.

٢ - مشروعية الاستخلاف عند غيبة الحاكم العام.

٣ - حِلّية الغنائم، وهي من خصائص هذه الأمة.

وتاسعتها:

غزوة السويق

إنه بعد هزيمة قريش في معركة بدر وما أصاب رجالها من قتل وأسر: آلى(١) أبوسفيان بن حرب الا يمسّ رأسَه ماءٌ من جنابة - أي لا يطأ نساءه - حتى يغزو محمداً ﷺ ويشفي صدره بقتل أصحابه أو أسرهم، ولما لم يجد طريقًا إلى ذلك، وطالت به مدة حلفه، أراد أن يتحلل من يمينه فانتدب مائتي راكب من قريش وخرج يقودهم إلى المدينة لغزوها، فوصلها ليلاً، فترك رجاله خارجها، وأتى حُيَيّ بن أخطب النضري اليهودي فقرع عليه الباب فلم يَفْتح له، تَخوّفًا منه، فأتى سلام بن مشكم - وهو سيد بني النضير وصاحب خزانة أموالهم - فاستأذنه فأذن له ودخل وأطعمه وسقاه وبطن له من خبر الناس - أي أطلعه على ما يجري في المدينة من أمور هامة ثم خرج من عنده ليلاً، فأتى رجاله فأمر عددًا أن يدخلوا المدينة وأن يحرقوا بعض نخيلها، فأتوا ناحية العريض شرق المدينة وحرقوا أصواراً من النخل - أي مجموعات من النخل - ووجدوا فلاحًا وحليفًا له فقلتوهما، وانصرفوا راجعين إلى مكة، وما إن وصل الخبرُ إلى النبي ﷺ حتى خرج في أصحابه طلبًا لأبي سفيان ورجاله ففاتوه هاربين، وكان معهم سويق - هو زادهم في غزورتهم - فألقوه في الأرض؛ ليتخفّفوا منه وهم هاربون، فوجده النبي ﷺ وأصحابه فأخذوه، وبذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، ورجع رسول الله ﷺ، والمؤمنون معه ولم يلقوا كيدًا. فسأل بعضُهم رسولَ الله ﷺ: أتطمع أن تكون لنا هذه الغزوة؟ قال ﷺ: «نعم». ولأبي سفيان أبيات شعرية قالها وهو يتزود لغزو المدينة، يحسن ذكرها لأنها سجلت مجمل أحداث هذه الغارة على المدينة النبويّة، إذ قال فيها:

---

(١) حلف.

كَـروا على يثـربَ(١) وجـمـعـهـم
فـإن مـا جـمَّـعـوا لكم نَفَلُ
إن يك يوم القليب كـان لهم
فـإن مـا بعـده كـان لكم دُوَلُ
لَيْتُ(٢) لا أقـرب النسـاء ولا
يمسُّ راسي وجلدي الغُسْـلُ
حتى تُبيـروا(٣) قبائل الأوس والـ
ـخزرج إن الفـؤاد يشـتـعِلُ

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يلي:

١ - بيان أن المشركين من العرب كانوا يغتسلون من الجنابة، وهي مكرمة فيهم من بقايا دين إسماعيل وإبراهيم، ومن ذلك الختان فقد كانوا يختتنون.

٢ - بيان أن مشركي العرب كانوا يؤمنون بالله ويحلفون ويبرّون أيمانهم.

٣ - بيان أن الخروج للجهاد بنيّته يحصل به الأجر، ولو لم يقاتل.

أحداث السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

أولى غزوات السنة الثالثة:

غزوة ذي أمَر

ودخلت السنة الثالثة - بعد انقضاء الثانية بما فيها من أحداث جسام وأمور عظام - وها هي ذي السنة الثالثة تفتتح بغزوة ذي أمَر.

وذلك أن النبيّ ﷺ بلغه أن جمعًا من غطفان من بني ثعلبة بن محارب، قد تجمعوا عند ماء يقال له: «ذو أمَر» من أرض نجد؛ ليحاربوه ﷺ فسار إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً،

(١) المدينة النبوية.
(٢) حلفت.
(٣) تُهلِكوا وتبيدوا.

وكان ذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلَت من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث من الهجرة. واستخلف ﷺ على المدينة عثمان بن عفان ﷺ وسار حتى بلغ ماء «أمر» فعسكر حوله، وقد هرب الأعراب الذين تجمعوا لحربه ﷺ، والتحقوا برءوس الجبال وكان قد نزل عليهم مطر غزيرٌ بَلَّ الثياب، حتى إن النبيّ ﷺ لما ابتلت ثيابه الطاهرة جلس تحت شجرة، ونشر ثيابه لتيبس من البلل، فرآه المشركون المعتصمون برءوس الجبال خاليًا وحده، فنزل رجل منهم يقا له: غوْرث، أو دُعثور بن الحارث نزل بإيعاز من إخوانه المشركين، وكان أشجَعَهم وأقدرهم على القتال، ومشى حتى وقف على رسول الله ﷺ، وقد سلّ سيفه وقال: يا محمد، مَنْ يمنعك اليوم منّي؟ وهَمَّ بضرب رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ: «الله». فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال لدعثور: «من يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد، وأنا أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والله لا أُكثر عليك جمعًا أبدًا، فأعطاه رسولَ الله ﷺ سيفه فرجع إلى قومه، فقالوا له: ويلَك مالكَ؟ فقال لهم: نظرت إلى رجل طويل، فدفع في صدري فوقعت لظهري، فعرفتُ أنه ملك، وشهدت أن محمدًا رسول الله، ووالله لا أكثر عليه جمعًا وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، ونزل في هذه الحادثة وفي نظائرها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1] [المائدة: ١١].

وعاد ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا - والحمد لله - كيدًا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يأتي:

١ - مشروعية محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم.

٢ - مشروعية الخروج إلى العدو وتتبعه؛ إرهابًا له.

٣ - ظهور آية من آيات النبوة المحمدية، وذلك بسقوط السيف من يد دعثور، وإعلان إسلامه، وتعهده بألا يكثر جمعًا ضد رسول الله ﷺ لما شاهد من آية نبوته ﷺ.

٤ - تجلّي الرحمة المحمدية في العفو عمَّن أراد قتله بعد التمكّن منه.

٥ - بيان حسن عاقبة العفو بعد القدرة على المؤاخذة.

(١) إن هذه الآية. وإن نزلت في حادثة مشابهة في الحديبية - فإنه لا مانع من القول بنزولها في هذه الحادثة إذ يُقال استشهادًا للتوافق بين الحادثتين.

وثاني الغزوات:

غزوة الفرع من بَحران

بِبَحْـران «معدن[1] بالحجاز» ناحـية الفُرع تجمع بنوسُلَيم لقـتال النبي ﷺ . وعلم ﷺ بتجمعهم لحربه، فانتدب أصحـابه، وخرج إليهم في ثلثمائة رجل بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ﷺ، وسار إليهم، فلما علموا بمسيره إليهم تفرقوا، وكان هذا مصداق قوله ﷺ : «نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر»، فرجع ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا - والحمد لله - كيداً، وكانت مدة الغياب عن المدينة عشرة أيام.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١ - مظاهر العزم والحزم لدى الحبيب محمد ﷺ .

٢ - آية النبوة المحمدية في انهزام المشركين بمجرد تحركه ﷺ نحوهم.

٣ - فضيلة ابن أم مكتوم لاستخلاف رسول الله ﷺ له غير مرة إمامًا وحاكمًا.

٤ - جواز تولية الأعمى - إذا كان ذا أهلية للولاية من الإيمان والعلم والتقوى - .

أولى السرايا:

سرية زيد بن حارثة إلى القردة

لما هُزمت قريش في بدر، وعـَرفت أنها غير قادرة على حـماية قوافلها التجـارية عبر طريق قوافلهـا القديم، والذي كان يمر قريبًـا من المدينة إلى مكة: غَيَّـرَت طريقها الأول، وصارت تسلك طريق العراق إلى الشام، وبلَغ[2] ذلك رسول الله ﷺ كما بلغه أن عيراً لقريش تحـمـل كميات هائلة من الفضـة، وأنها سلكت طرق العراق، انتـدب لها سريّة من أصحابه بقيادة زيد بن حارثة حِبّ الحبـيب ﷺ ومولاه، فسار زيد مع أفراد سريّته حتى انتهوا إلى ماء يقال له: «القردة»[3] وعليه عير قريش، فهـرب أهل القافلة، وهم أبوسفيان

(١) هو المهد الذي به معدن الذهب اليوم.

(٢) سبب علم الرسول ﷺ بهذه العير: أن نعيم بن مسعود أتي المدينة، وجالس كنانةَ بن الحقيق وعدداً من اليهود، وشربوا وسكروا، فأخبر نعيم بالقافلة - وهو سكران فوصل الخبر إلى النبي ﷺ .

(٣) القردة: اختلف في ضبط هذه الكلمة، هل هي بالفاء أو القـاف؟ هل هي ساكنة الوسط أو متحركة؟ والراجح التسكين.

ابن حرب وصفوان بن أميّة وآخرون، وغنم زيد مع رجاله القافلة بما فيها، وأسروا معها الدليل وهو فرات بن حيَّان من بني بكر بن وائل استأجره أبوسفيان ليدلهم على مسالك الطريق الجديد لقوافلهم.

ولما وصل زيدٌ سلم الغنائم إلى النبي ﷺ، ومنها الأسير فرات بن حبان الوائلي. وأسلم فرات وحسن إسلامه، وقسم الرسول ﷺ الغنائم بعد أن خَمَّسها، فكان الخمس عشرين ألف درهم..

وقال في هذه الغزوة المظفرة حسانُ شعراً هذه أبياتٌ منه:

دَعُوا فلجات[1] الشام قد حال دونها
جلادٌ[2] كأفواه المخاض[3] الأوارك

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
وأنصاره حقًا وأيدي الملائك

إذ سلكتْ للغور من بطن عالج
فقولوا لها: ليس الطريق هنالك

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يأتي:

١ - بيان مدى أثر هزيمة قريش في بدر حتى أصبحت في رعب وخوف لا نظير لهما.

٢ فضيلة زيد بن حارثة لاختياره لهذه السرية المظفرة قائداً ناجحًا.

٣ - مشروعية تخميس الغنائم وتنفيذ ذلك.

٤ - بيان أن النبيّ ﷺ كثيراً ما كان يكلف المهاجرين دون الأنصار في شأن الغزو والحرب خارج المدينة نظراً إلى بنود بيعة العقبة.

* * *

(١) جمع فلجة: وهي العين الجارية.

(٢) الجلاد الإبل الغزيرة اللبن والغلاظ الأجسام.

(٣) المخاض: الإبل الحوامل؛ والأوارك الإبل ترعى شجر الأراك.

وثاني السرايا:

سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهوديّ

لما انهزمت قريش في بدر، وجاء البشيران من قبل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة فبشرا بنصر المسلمين وهزيمة المشركين في بدر، وبلغ ذلك كعب بن الأشرف الطائي الأصل، اليهودي العقيدة ابن النضرية اليهودية، لما بلغه ذلك قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم - يعني أمية بن خلف، وأباجهل، وعتبة بن ربيعة - لبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها، وكشّر عن نابه كالكلب العقور، وأخذ يسبّ النبيّ ﷺ، ويشبب[1] بنساء المسلمين، ثم ذهب إلى قريش يستعدي رجالها على حرب النبيّ ﷺ فاستضافوه واجتمعوا عليه، وهو يسبّ النبيّ ﷺ والمسلمين، وسألوه عن دينهم فقال: إنّ دينكم خيرٌ من دين محمد ﷺ وكذب اللعينُ وغش. فنزل فيه قرآن من سورة النساء، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

ولما عاد إلى المدينة، وأوحى الله تعالى إلى رسوله بما قاله كعب وما فعله وما عزم عليه، الأمر الذي استوجب قتلَه؛ بنقضه العهدَ وتأليبه الأعداءَ على المسلمن، قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه: «**مَنْ لي بابن الأشرف**»؟ فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبدالأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: «**فافعلْ إن قدرتَ على ذلك**». فقال: يا رسول الله، إنه لابد لنا من أن نقول، قال: «**قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حلٍّ من ذلك**»، فاجتمع على قتله محمدُ بن مسلمة وسِلْكان بن سلامة وهو أخوكعب من الرضاعة، وعبّاد بن بِشْر، والحارث بن أوس، وأبوعبس بن جَبْر أحد بني حارثة، وساروا نحوه، ولما كانوا بمقرب من قصره قدموا سِلكان بن سلامة أبانائلة أمامهم، فذهب فأتى كعبًا في قصره، فجلس إليه ساعة، وتحدث معه، وتناشدا الشعر، وكان كل منها يقول الشعر. ثم قال سِلكان: ويحك يا ابن الأشرف، إني قد جئتك لحاجة أُريد ذكرَها لك، فاكتم عنّي، قال: أفعل؛ قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً، عادتْنا العربُ ورمتْنا عن قوس واحدة، وقطعتْ عنا السبلَ حتى ضاع العيالُ، وجهدت الأنفسُ، قال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنتُ أُخبرك - يا ابن سلامة - أن

(١) تشبب بالمرأة إذا ذكر محاسنها، وما أراده من اللهو بها.

الأمر يصير إلى ما تقول، قال سِلكان: إني أردت أن تبيعنا طعامًا، ونرهنك ونوثق لك، قال كعب: أترهنوني أبناءكم؟ قال سلكان: لقد أردت أن تفضحنا، إن لي أصحابًا على مثل رأيي، وقد أردتُ أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن في ذلك، نرهنك من الحلقة ما فيه وفاء، وأراد سلكانُ أن يعمي عليه فلا ينكر السلاح إذا جاءوا به، فقا لكعب: إن في الحلقة - السلاح - لوفاءً، ورجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، أمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا، فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا إليه، عند رسول الله ﷺ فخرج معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم قائلاً: «اللهم أعنْهُم» ثم رجع ﷺ، ومضوا هم حتى انتهوا إلى حصن كعب، فهتف به أبونائلة سلكانُ فنزل في ملحفته، - وهو حديث عهد بعرس - فأمسكت به امرأته وهو خارج، فقالت له: إنك امرؤ محارب، فكيف تنزل في هذه الساعة؟ فقال لها: إنه أبونائلة، لو وجدني نائمًا لما أيقظني. فقالت له: والله إني لأعرف في صوته الشرّ، فلم يلتفت كعب إلى قولها. ونزل وتحدث مع أبي نائلة ساعة، ثم قال له أبونائلة: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب[١] العجوز فنتحدث بقيةَ ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة ثم إن أبانائلة أدخل يده في فود[٢] رأس كعب ثم شد يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها وأخذ بفود رأسه، وقال: اضربوا عدوّ الله، فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تُغْن شيئًا، قال أبونائلة: وذكرتُ مغولاً[٣] في سيفي حين رأيتُ أسيافنا لا تغني شيئًا، فأخذته فوضعته في ثُنّته[٤]، وقد صاح عَدُوُّ الله صيحة ما بقي حصن إلا وقد أوقدت عليه نارٌ، فوقع عدو الله على الأرض هالكًا. فغادرناه صريعًا، ومضينا، وكان قد جرح الحارث أصابته سيوفنا، فحملناه - ومعه نزيف من جرحه - حتى انتهينا إلى المدينة، فوجدنا النبي ﷺ فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جُرْح صاحبنا فشفاه الله تعالى فعدنا إلى بيوتنا فأصبحنا، وأصبح كلّ يهودي خائفًا على نفسه.

---

(١) خارج المدينة.

(٢) الفود: جانب الرأس مما يلي الأذن.

(٣) المغول: السكين يكون في السوط.

(٤) الثنة: الموقع ما بين السرة والعانة من الإنسان.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي:

١ - مشروعية الاحتيال على قتل مَنْ وَجَبَ قتلُه لغدره وخيانته بتأليب الكفار على المؤمنين.

٢ - جواز استعمال المعاريض والتوريات للتوصل إلى إحقاق حق، وإبطال باطل.

٣ - آية نبوّة الحبيب محمد ﷺ إذ شفا اللهُ الجريحَ ذا النزيف الخطير بريقته الطيبة الطاهرة.

٤ - فضيلة محمد بن سلمة رضي الله عنه بقتله كعب الطاغية - عليه لعائن الله -.

٥ - بيان أثر قتل كعب؛ إذ أصبح كل يهودي خائفًا على نفسه لا يطمئن على حياته.

وثالث الغزوات:

غزوة أحد

عوامل هذه الغزوة القاسية الشديدة:

إن لهذه الغزوة عوامل وأسبابًا ظاهرة، منها: أن قريشًا وقد أصيبت في صناديدها الذين ألقوا في القليب قليب بدر العام الماضي سنة اثنتين من الهجرة المباركة، فقد قام رجال منها بالدعوة إلى الحرب للأخذ بالثأر من محمد ﷺ وأصحابه، ومن دعاة الحرب عبدُالله بن أبي ربيعة، وعكرمةُ بن أبي جهل، وصفوان بن أمية وغيرهم كثير. فأتوا أباسفيان بن حرب وطلبوا إليه أن يُقْنع أصحابَ أموال العير - التي نجت - أن يجعلوها في حرب تشنّ على محمد وأصحابه، ولا يأخذوا منها شيئًا. واستجابوا للطلب، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦] هذا سبب، وآخر: هو أن الذين تخلفوا عن بدر من المهاجرين والأنصار، كانوا يسألون الله تعالى أن يتيح لهم فرصة قتال المشركين كالتي أتيحت لأهل بدر لِيُرُوا الله تعالى ما يفعلون بالمشركين من القتل لهم والفتك بهم إيمانًا واحتسابًا؛ ليعوّضوا ما فاتهم من الأجر والغنيمة يوم بدر. هذان عاملان ظاهران لغزوة أحد، وهناك عوامل خفية قوية ذُكرت في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَتِلْكَ

الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

وفي شوال من السنة الثالثة من الهجرة المباركة خرجت قريش برجالها ونسائها وأحابيشها وبكل من قدرت على تأليبه والإتيان به من بني كنانة وأهل تهامة، وسارت بقيادة أبي سفيان بن حرب زعيمها بعد هلاك أبي جهل، حتى نزلت على شفير وادي قناة المقابل للمدينة النبوية، وبلغ النبيّ ﷺ الخبرُ فاستشار أصحابه يوم الجمعة في الخروج إلى المشركين لقتالهم خارج المدينة، أو البقاء في المدينة، وقتالهم داخلها، ورجح لهم القتال داخلها وأراهم أنه أقرب إلى النصر على المشركين من قتالهم خارجها، وقص عليهم رؤيا رآها، وهي أنه رأى بقرة تُذبح، ورأى في ذباب سيفه ثَلْمًا، وأنه رأى أنه أدخل يده في درع حصينة، وأوّلها المدينة، ومع هذا أصرّ أكثر الأصحاب على القتال خارج المدينة، فنزل الرسول ﷺ على ما رآه لما رأوه ما دام الله تعالى لم يُوحِ في ذلك إليه بشيء.

ودخل ﷺ بيته فلبس درعه ووضع لأمَتَه على رأسه وخرج إليهم، فما إن رأوه حتى ندموا ورأوا أنهم قد أكرهوه على الخروج ظاهر المدينة، فندموا ندمًا شديدًا، وحاولوا أن يُثنوه عن عزمه، وقالوا: يا رسول الله أقِمْ؛ فالرأيُ ما رأيتَ، وكان الذين أصروا على الخروج هم الذين تخلفوا عن بدر. فقال لهم: «**ما ينبغي لِنَبي أن يضع لأمَتَه بعد ما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. وقد دعوتكم إلى هذا** - عدم الخروج - **فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدوّ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا**».

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابنَ أم مكتوم، وخرج في ألف مقاتل، وسلك بمن معه من المؤمنين على البدائع في حرة بني حارثة، ودليله في هذا أبوخيثمة أخو بني حارثة، ومروا بحائط لمربع بن قيظي، وكان منافقًا؛ فلما سمع حسَّ رسول الله ﷺ والمسلمين رفع حفنة من تراب، وقال: والله ،لو أعلم ألا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فبدره سعد بن زيد بضربة شجّ بها رأسه، وابتدره رجال ليقتلوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوه لا تقتلوه؛ فإنه أعمى القلب أعمى البصر**».

وساروا حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُحُد، انخذل عنهم عبدالله بن أبيٍّ بثلث الناس، وكان - لعنه الله - رأيه عدم الخروج مثل رأي رسول الله ﷺ فلذا قال هنا: أطاعهم وعصاني، ما ندري عَلامَ نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟! وتبعهم عبدُالله بن عمرو

ابن حرام والد جابر - يقول لهم: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا وأبوا إلا الانصراف قال لهم ﷺ: «**أبعدكُم اللهُ - أعداءَ الله - فَسَيُغني الله عنكم نبيَّهُ**». وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ولما هموا بالانصراف، قال بعض المسلمين: هيا نقاتلهم، وقال آخرون: ذروهم يعودوا إلى ديارهم. فنزل فيهم قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿**فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا**﴾ [النساء: ٨٨].

وهنا اضطرب المؤمنون - وهم بنو سلمة وبنو حارثة - بالفشل إلا أن الله ثبتهم، فثبتوا مع رسول الله ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وسار رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنون، وكانوا سبعمائة رجل بينهم فارسان لا غير: رسول الله ﷺ وآخر[1]، ساروا حتى نزلوا بالشعب من أُحُد، وجعل ظهره بجبل أُحُد، وقال: «**لا يقاتلنّ أحدٌ حتى آمره بالقتال**».

واستعرض الحبيب محمد ﷺ جيشَه، فرد عبدالله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت والبراء بن عازب في فتيان لم يبلغوا سنّ التكليف، وأجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وقد بلغا الخامسة عشرة وكانا قويين، وتعبأت قريش وذلك صبيحة يوم السبت، وكان جيش قريش ثلاثة آلاف مقاتل بينهم مائتا فارس، فجعلوا خالد بن الوليد على ميمنة الخيل، وعكرمة بن أبي جهل على ميسرتها.

وهنا قال رسول الله ﷺ: «**من يأخذ هذا السيف بحقه**»؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبودجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**أن تضرب به العدوّ حتى يَنْحَنِي**» قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، وكان أبودجانة شجاعًا يختال عند الحرب وله عصابة حمراء فلفها على رأسه ومشى يختال بين الصفوف، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر في مشيته بين الصفوف: «**إنها لمشية**

---

(١) قال في الفتح: لأبي بردة.

يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

هذا هو الموقف في معسكر التوحيد قبل الهجوم، أما معسكر الشرك فإن أباسفيان بعد ترتيب الصفوف قام - يخاطب بني عبدالدار - فقال: يا بني عبدالدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم؛ إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنا، وإمَّا أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهتفوا به وتوعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع؟!

وهذا الذي أراده أبوسفيان بن حرب، وهو تحميسهم للقتال واستعدادهم له وشدتهم فيه.

ولما التقى الجمعان، وتقابل الرجال، قامت هند امرأة أبي سفيان تحرض على القتال في نسوة معها يضربن بالدّفّ خلف الرجال؛ تحريضًا لهم علي القتال، وهذه بعض الأبيات التي كن ينشدنها للتحريض:

ويهًا بني عبد الدار
وَيهًا حماة الأدبار
ضربًا بكلِّ بتّار
نحن بنات طارق
إن تقبلوا نُعانق
ونفرش النمارقْ
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامِقْ

ونعود إلى معسكر التوحيد والإيمان:

أخذ أبودجانة السيف، ولف العصابة على رأسه - علامة الموت - ورمى بنفسه في المعركة، وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي
ونحن بالسفح لدى النخيل

ألاّ أقـــوم الدهر في الكُبـــول[1]

أضـــرب بســـيف الله والرســـول

فجعل لا يلقى أحـداً إلا قتله، ورأى أبودجانة مقاتلاً من المشركين يخمش[2] الناس خمشًا شديدًا، فقصد له، فلما حمل عليه السيف ولول فإذا به امرأةٌ هي هند، فأكرمَ سيفَ رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة.

ودارت رحى المعركـة، واستعرت نارها وتأجّج لـهبها، وكان حـمزة فيهـا أسدًا يهد الرجال هدًا، وكان وراءه وحشيٌّ غلام جُبَيْر بن مطعـم يترصّده؛ إذ أوعز إليه سيده بأنه إذا قتل حمزة يعتقه، وكان وحـشيّ بارعًا في الضرب بالرماح، ضربتُه لا تكاد تخطئ، وكانت هند موتورة بموت أبيها ببدر، كلما مرت فيـه تقول له: يا أبادَسْمَة، استشف؛ تحرضه على قتل حمزة ﷺ، فـقال وحشيّ: ما زلت أتبع حمزة وهو كالـجمل الأورق إذ تقدمني إليه سباع ابن عبدالعزى، فقال له حمزة: هلمّ يا ابن مقطعة البظور[3] فضربه ضربة ما أخطأت رأسه فقتله، ثم هززت حـربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليـه فوقعت في ثُنّته[4] حتى خرجت من بين رجليّه فأقبل نحوي فَغُلب فوقع فأمهلته حتى مات فجئت فأخذت حربتي، ثم تنحّيت إلى المعسكر، ولم تكن لي في شيء حاجة غيره.

وكان النبيّ ﷺ قـد أعطى اللواء مصعب بن عمـير ﷺ، وقتل مصـعب، فأعطاه عليّ بن أبي طالب ﷺ، وتقدم عليٌّ باللواء، وهو يقول: أنا أبوالقصم، فناداه أبوسعد بن أبي طلحـة - وهو صاحب لواء المـشركـين - قائـلاً: هل لك يا أباالقصم في البـراز من حاجة؟ قال عليّ: نعم فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليـه، فقيل له: أفلا أجهزتَ عليـه؟ قال: إنه استقبلني بعـورته ، فَعَطَفَتْني عليه الرحمُ، وعرفتُ أن الله قد قتله.

والتقى - والمـعركة دائرة - حنظلة بن أبي عـامر بأبي سفـيان بن حرب، فلمـا علاه حنظلةُ بالسيف رآه شـداد بن الأوس فضربه - أي شداد الكافـر - فقتله. فـقال رسول الله ﷺ : «إن صاحبكم لتُـغَسِّله الملائكة، فاسـألوا أهله ما شأنُه»؟ فسئلت امرأته، فقالت: إنه

---

(١) الكُبُول: آخر صفوف الحرب.

(٢) أي توقد نار الحماس في نفوسهم، وتزيد في غضبهم.

(٣) أي كانت تختن البنات، فتقطع البظرة النابتة في الحيّا، أي الفرج.

(٤) الثنة: ما بين السرة والعانة.

كان ليلة عرسه، فسمع الهاتف بالجهاد فخرج، ولم يغتسل؛ فلذا غسلته الملائكة، وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصدَقَهم وعَده، فحسوهم بالسيوف حسًّا حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، حتى قال الزبير بن العوام ﷺ: والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَم[1] هند وصواحبها وهنّ مشمرات هوارب. وفي هذا يقول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥١، ١٥٢].

ولما رأى الرماة انكشاف المشركين والمؤمنين يسلبون ويجمعون الغنائم، مالوا على المعسكر وكشفوا ظهور المؤمنين لخيل المشركين فكانت الهزيمة، وصرخ صارخ أن محمدًا قد قُتل، وأصاب المؤمنين كربٌ عظيم ذهلت فيه العقول، وخلص العدوُ إلى الرسول ﷺ فرماه ابن قميئة - أقمأه الله - بحجر فكسر أنفه ورباعيّته وشجٌ في وجهه، وتفرق عنه أصحابه إلا قليلاً وأصعدوا في الأرض حتى إن منهم من وصل إلى المدينة، وفي هذا يقول تعالى من سورة آل عمران: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢، ١٥٣].

سبب الهزيمة:

وسبب هذه الهزيمة المريرة - بعد ذلك النصر العظيم - هو أنَّ الرُماة الذين كانوا خمسين راميًا، قد وضعهم الرسول ﷺ على جبل الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جبير وقال لهم موصيًا إياهم في شخص أميرهم: «انفح عنا الخيل بالنبل؛ لا يأتوننا من خلفنا، واثبتْ مكانك إن كانت لنا أو علينا». هؤلاء الرماة - لما نصر الله المسلمين في أول النهار وانهزم المشركون أمامهم وأكبّ المؤمنون على جمع الغنائم وحيازة الأموال، ونساء المشركين مشمراتٌ عن سوقهن هاربات ولواؤهم على الأرض لم يحمله أحدٌ

(١) جمع خدمة وهي الخلخال في الرِّجْل.

حتى جاءت امرأة من قريش فرفعته - لما رأى الرماة هذا الواقع ثبت بعضهم في أماكنهم وهم القليل ونزل البعض الأكثر متعلِّلين بهزيمة المشركين، وأخذوا في نهب الأموال، وجمع الغنائم كغيرهم.

ولما رأى خالد بن الوليد - وهو على خيل المشركين - لما رأى خلو الجبل من الرماة وضعفَ المقاومة منه، كرّ عليهم بخيله، فاحتلّ الجبل وقتل مَنْ فيه، وأصلوا المسلمين نار سهامهم، فمزقوهم بها تمزيقًا، وعاد المشركون الفارون إلى المعركة ووقع المسلمون بين نارين هما كفكّي المقارض، فكانت الهزيمة، وأصيب الرسول ﷺ بما أصيب به، وصرخ الشيطان قائلاً إن محمدًا قد مات، وألقى رجال سلاحهم من أيديهم وبقوا واقفين حيارى مدهوشين، منهم عمر وطلحة فأتاهم أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - فقال لهم: ما يحبسكم؟ قالوا: قتل محمد ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه، ثم استقبل المشركين، فقاتل حتى قُتِل، فَوُجِدَ به أكثر من سبعين ضربة وطعنة ولم يعرفه إلا أخته عرفته ببنانه. وبلغ الكربُ المعسكر الإيماني حتى قال من قال: ليت لنا مَنْ يأتي عبدالله بن أبيّ ابن سلول ليأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان قبل أن يقتلونا؟ فقال لهم أنس بن النضر؟ يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن ربّ محمد لم يُقتل، فقاتلوا على ما مات عليه محمد ﷺ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم قاتل حتى قُتِل - رضي الله عنه وأرضاه -.

وكان أول من عرف أن الرسول حيٌّ - لم يقتل - كعب بن مالك، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ لم يقتل، والرسول ﷺ ينادي: «إليّ عبادَ الله!! إليّ عبادَ الله!!» وثاب إليه رجال وقاتلوا دونه، وأبلى في هذا أبوطلحة وأبودجانة البلاءَ الحسن، وتقدموا نحو الشِّعْبِ وهم يدفعون ويقاتلون حتى وصلا إليه، وما إن أسند رسول الله ﷺ على الشعب حتى جاء أبي بن خلف يصرخ: لا نجوتُ إن نجا - أي محمد ﷺ - وهو يتقدم نحو النبيّ، فتناول الرسول ﷺ حربة من يد أحد أصحابه وطعنه بها في ترقوته فخار كما يخور الثور فسحبوه كالثور المذبوح، ومات بها في طريقه إلى مكة بِسَرِف إلى جهنم وبئس المهاد.

وارتفع الحبيبُ محمد ﷺ إلى الصخرة - حيث يوجد بعض أصحابه - فسُرّ لذلك، وجاء أبوسفيان يحاول الوصول إلى أصحاب الصخرة في سفح أُحُد فردوه خاسئًا خائبًا وأخذ النعاسُ الأصحاب؛ فذهب بذلك الخوفُ عنهم وسكنت نفوسهم، وفي هذا

يقول تعالى من سورة آل عمران: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣، ١٥٤].

وانتهت المعركة وكانت درسًا قاسيًا للمسلمين، ومثّلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بالقتلى، فقطعت الآذان والأنوف والمذاكير، وبقرت بطنَ حمزة ﷺ ولاكت كبده لتأكل منها، فلم تقدر عليها، فرمتها وذهبت.

وأتى أبوسفيان فوقف تحت الصّخرة وقال: أفي القوم محمدٌ؟ ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه» ثم قال: أفي القوم ابنُ أبي قحافة؟ ثلاثًا، ثم قال في القوم ابنُ الخطاب؟ ثلاثًا، ثم التفت إلى من معه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فقال عمر: كذبتَ يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك. فقال: أُعْلُ هبلُ، فقال رسول الله ﷺ: «اجيبوه، قولوا الله أعلى وأجَلّ». فقال أبوسفيان: إنما لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» فقال أبوسفيان: أنشدك الله يا عمرُ، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: لا وإنه ليسمع كلامك فقال: أنت أصدق من ابن قميئة[1]. ثم قال هذا بيوم بدر، والحربُ سجالٌ. أما إنكم ستجدون في قتلاكم مُثْلاً، والله ما رضيتُ ولا سخطت، ولا نهيت ولا أمرت. ثم انصرف ومن معه وقال: إن موعدكم العامُ المقبل.

ثم بعث رسول الله ﷺ عليًا في أثرهم وقال له: «انظر، فإن جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنّهم» فخرج عليّ في أثرهم فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فرجع يصيح ما استطاع أن يكتم الخبر - وقد أُمِرَ أن يكتمه - من شدة الفرح.

وأمر الرسول ﷺ من ينظر في القتلى، فرأى سعد بن الربيع الأنصاري وبه رَمَقٌ، فقال سعد للذي رآه: أبلغ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبيًا عن أمته، وبلغ قومي السلام، وقل لهم: لا عذر لكم عند الله إنْ خلص إلى رسول الله ﷺ أذى وفيكم عينٌ تطرف، ثم مات إلى رضوان الله؛ فرحمك الله يا سعد بن الربيع ورضي عنك.

---

(١) إذ زعم أنه قتل محمداً وهو الذي أصاب وجه رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشج وجهه، فصلى الله وسلم على محمد، ولعن الله ابن قميئة وأقماه وأخزاه في نار جهنم.

ووجد حمزة رضي الله عنه ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثّل به، فقال النبي ﷺ حين رآه: «لولا أن تحزن صفيّة أو تكون سنّة، لتركتُه حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله تعالى على قريش لأمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم»، وقال المسلمون: لنمثّلن بهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] فعفا رسول الله ﷺ وصحبه ونهى ﷺ عن المثلة، وهمَّ رجال بحمل قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صرعوا وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأن يقدم إلى القبلة أكثرهم قرآنًا، وصلى عليهم، فكان كلما أُتي بشهيد جعل حمزةَ معه وصلى عليهما.

ونزل في قبر حمزة أبوبكر وعمرُ الزبير وجلس الرسول ﷺ على حافة القبر، وأمر ﷺ أن يدفن عمرو بن الجموح وعبدالله بن عمر بن حرام في قبر واحد.

وانصرف الحبيب ﷺ مع أصحابه عائدين إلى المدينة فدخلوها مساء يوم السبت يوم المعركة الخالدة معركة أحد التي نزل فيها جزء كبير من سورة آل عمران.

مواقف (في أحد) ومواقف

مواقف مشرفة:

وباستعراض سريع لمعركة أحد تتجلى لنا مواقف مختلفة: منها المشرف، ومنها المخزي. ومن المواقف المشرفة ما يلي:

● موقف أبي طلحة الأنصاري، إذ وقف موقفًا لا يزال يذكر له ما بقي الإسلام والمسلمون. قال أنس رضي الله عنه: لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبوطلحة بين يدي رسول الله ﷺ مُجوّب[1] عليه بجَحْفَة له، وكان أبوطلحة راميًا، كسر يوم أحد قوسين أو ثلاثة، فإذا مرّ الرجل بجعبة من النبل يقول له: انثرها لأبي طلحة، ويُشرِف النبيُّ ﷺ على القوم، فيقول له أبوطلحة: بأبي أنت وأمّي لا تُشْرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. فرضي الله عن أبي طلحة وأرضاه وجعل الجنة مأواه اللهم بحبّنا فيك لهم فاجمعنا بهم.

● موقف عائشة بنت أبي بكر وأم سليم الأنصاريّة، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت

---

(١) أي: مكِبٌّ عليه محيط به؛ يقيه من رماية العدوّ أن تصيبه.

أبي بكر وأمُّ سليم وإنهما لمشمّرتان عن خدم سوقهما تنقزان[1] بالقرب تفرغانها في أفواه القوم مرات عديدة، فما أشرف هذا الموقف وما أشرف صاحبتيه - رضي الله عنهما وأرضاهما -.

• موقف طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه بينما رسول الله ﷺ في الشِّعْبِ - ومعه نفر من أصحابه - إذ علت عالية من قريشٍ الجبلَ، ونهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبلَ ليعلوها، وكان قد بَدَّن وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها، فقال ﷺ: « **أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع**»!

• موقف الحبيب محمد ﷺ - ومواقفُه كلُّها مشرفة - لما أسند ﷺ في الشعب أدركه أبيّ بن خلف على جواد له يزعم أنه يقتل عليه محمدًا، تقدم نحو رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوتُ إن نجا، فلما اقترب منه تناول رسولُ الله ﷺ الحربة من يد الحارث بن الصِّمَّة، فلما أخذها انتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطاير الشَّعر عن ظهر البعير، ثم استقبله فطعنه بها طعنة أصابت نحره فوقع عن فرسه فحمل إلى قريش وهو يخور كالثور ويقول: قتلني - والله - محمدٌ، فمات في الطريق عند سرف.

• موقف أنس بن النضر الأنصاري أنه لما صاح أزبُّ العقبة الشيطان قائلاً: إن محمدًا قد مات، وانجفل الأبطال ووقفوا عن القتال حيارى مشدوهين ومدهوشين، صاح فيهم أنس قائلاً: ما يَحْبِسُكُمْ عن القتال؟ قالوا: قد قتل النبي ﷺ فقال لهم: ما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه. يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء.

• موقف الحبيب محمد ﷺ - وحياته كلها مواقف شرف وكمال - ولكن نذكر ما نذكر للمناسبة ولإثارة كوامن الحب في النفس بالذكر. إنه ﷺ بعد تلك الجراحات المؤلمة، أخذَ ﷺ شيئًا فجعل ينشف الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم (بالدم) وهو يدعوهم إلى ربّهم**»، فأوحي إليه: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فقال: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

---

(١) أي: تقفزان بسرعة.

● موقف فاطمة بنت محمد ﷺ: إنه لما جرح والدها ﷺ أخذ عليّ يأتي بالماء، وفاطمة تغسل جراحات الحبيب والدها محمد ﷺ. ولما رأت الدم لم يرقأ بالغسل، جاءت بحصير فأحرقته وضمّدت بالرماد الحار جراحات أبيها ﷺ فرقأ الدّم ولم يسل. إن هذا الموقف للزهراء بنت الحبيب محمد ﷺ يسمو كل موقف.

● موقف عبدالله بن عمرو بن حرام: إنه لما انهزل انخذل ابن أُبيّ بثلث الجيش، وانصرف عائدًا هو ومن معه إلى المدينة: استقبلهم عبدالله وقال: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا. قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. فأنزل الله تعالى فيه قرآنًا يقرأ إلى يوم الدين.

● موقف حنظلة غسيل الملائكة، إنه تزوج وبات عريسًا ليلته، فأيقظه صوتُ الجهاد، ولم يغتسل بعد فقام فلبس درعه وحمل سلاحه ولحق بالمعركة، وهي دائرة فخاضها خوض الأبطال قاتل حتى استشهد - وهو جنب - فغسلته الملائكة، وأخبر بذلك رسولُ الله ﷺ وقال: «سلوا امرأته» فسألوها فأخبرت أنه خرج من عندها جُنبًا ولحق بالجهاد لما سمع صوته، فكان موقفًا مشرفًا لحنظلة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

● موقف أم عمارة نسيبة، إنها خرجت أول النهار تنظر ما يصنع الناسُ ومعها سقاء فيه ماء، فانتهت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه - والدولة والربح للمسلمين - فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ، وباشرت القتال تذب بالسيف عن رسول الله ﷺ وترمي عن القوس حتى خلصت الجراحات إليها. بهذا حَدّثت رضي الله عنها فكان موقفًا مشرفًا لها رضي الله عنها.

مواقف مخزية:

كانت تلك مواقف مشرفة لأهلها ولمحبيهم معهم. وهذه مواقف مخزية لأهلها ولمحبيهم معهم أيضًا، وأول هذه المواقف المخزية:

● موقف عبدالله بن أبي ابن سلول - رأس المنافقين بالمدينة - إنه ما إن خرج الجيش الإسلامي من المدينة في طريقه إلى أحد - وهو يشكك في صحة الجهاد وجدوى هذا الخروج - حتى استجاب له ثلثمائة رجل من المنافقين وضعاف الإيمان، ورجعوا من الطريق، فخذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين الصادقين. فكان هذا موقفًا شرَّ موقف

وأخزاه لابن أبيّ ومن والاه.

• موقف مربع بن قيظي الأعمى - عليه لعائن الله -. إنه لما مرّ ببستانه الجيشُ الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ وسمع بحس الجيش، وعرف أن محمداً هو قائده ﷺ، رفع حفنة من تراب وحصًى، وقال: والله، لو أعلم ألا أصيب بها غيرك يا محمدُ لضربتُ بها وجهك، وقال: إن كنتَ رسولاً فإني لا أُحل لك أن تدخل حائطي «بستاني». فكان موقف هذا المنافق الأعمى القلب والبصر أخزى موقف وأقبحه على الإطلاق.

• موقف أبي عامر، الذي لقبه الرسول ﷺ بالفاسق بدلاً عن الراهب الذي كان يعرف به في الجاهلية قبل الإسلام. إنه وقف - لعنه الله - بين الصفين صبيحة يوم أحد، ونادى قومه وتعرف إليهم وحرّضهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين، فوقف موقفًا مخزيًا، ولذا أجابه رجال من الأنصار بقولهم: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق، فقال - لعنه الله -: لقد أصاب قومي بعدي شرّ، وقاتل مع المشركين قتالاً شديدًا، فكان بئس الموقف وموقف هذا الفاسق لا ينسى له الدهر كله.

• موقف هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان: إنها بإغرائها على قتل حمزة ؓ وبإثارتها الحماس في جيش المشركين وبتمثيلها بقتلى المسلمين، وببقرها بطنَ حمزة وأكلها كبدَه - وإن لم تبتلعها لعدم قدرتها عليها - بهذا قد وقفت شرّ موقف وأخزاه ولولا أن مَنَّ الله عليها بالإسلام لكانت مع أبيّ بن خلف وأبي جهل في جهنم، ولكن رحمها الله، فأسلمت وحسن إسلامها ونُسِي لها موقفها هذا؛ لأن الإسلام جَبٌّ ما قبله.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها إزاء الأرقام التالية:

١ - صدق رؤيا النبيّ ﷺ إذ رأي في منامه ثلمًا في سيفه، فأوّله بموت بعض آل بيته، فمات حمزة ؓ، وعبدالله بن جحش ابن عمته.

٢ - ردُّ عين قتادة بعد أن تدلت على وجنته، فأصبحت أحسنَ منها قبل إصابتها وتدلّيها بعد خروجها، فكانت آية نبوة محمد ﷺ.

٣ - قَتْلُ النبيّ ﷺ أبيَّ بن خلف كان قد أخبر به في مكة قبل الهجرة وتم كما أخبر فكان آية النبوة المحمدية، ولم يَقْتل النبيّ ﷺ أحدًا سواه، وشرُّ الخلق مَنْ قتله

نبي - كما أخبر بذلك الرسول ﷺ -.

٤ - تقرير مبدأ الشورى، إذ استشار ﷺ أصحابه في قتال المشركين خارج المدينة أو داخلها، وأخذ برأي الأغلبية، وسجّل حكمة انتفع بها كل من أخذ بها من مؤمن وكافر وهي قوله: «ما كان لنبيّ أن يضع لأمّته على رأسه، ثم يضعها قبل أن يحكم الله بينه وبين عدوه». إنها آية العزم ومظهر الحزم والصدق.

٥ - بيان شجاعة الرسول ﷺ القلبيّة والعقلية، تجلت في مواقف عديدة له ﷺ منها: أنه لم يَثْنِ عزمَه رجوعُ ابن أبيّ بثلث الجيش. وثباته ﷺ في المعركة بعد أن فرَّ الكثير من أصحابه، وانتفاضته، وهو مثقل بجراحاته وطعنه أبيٍّ بن خلف طعنةً خار لها كالثور وسقط منها كالجبل ومات في طريقه.

٦ - بيان كمال قيادته العسكرية. ويتجلى ذلك بوضوح في اختياره مكانَ المعركة وزمانها، وفي وضعه الرماةَ على جبل الرماة، ووصيته لهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت الحال ولو رأوا الموت يتخطف إخوانهم في المعركة ويدل على هذا أن الهزيمة النكراء التي أصابت الأصحاب كانت نتيجة تخلي الرماة عن مراكزهم كما مر في عرض المعركة وتسجيل أحداثها.

وفي إرساله عليًّا ﷺ يتتبع آثار الغزاة للتعرف على وجهتهم إلى المدينة أو إلى مكة ليتحرك بحسب ما يتطلبه الموقف.

٧ - مظاهر رحمة الحبيب ﷺ حيث تجلت في عفوه عن الأعمى الذي سبه ونال منه حتى هَمَّ أصحابه بقتله فأبى عليهم وقال: «دعوه فإنه أعمى القلب أعمى البصر» وفي قوله - وهو يجفف الدم السائل من وجهه الكريم الشريف -: «اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون» وفي بكائه على عمه عندما وُضع بين يديه ليصلى عليه حتي أغمي عليه من شدة الوجد والبكاء.

٨ مظاهر صبره ﷺ، وقد تجلى صبره بوضوح في عدم جزعه لما أصابه وأصاب أصحابه من آلام وأحزان، ومن فوات النصر الذي قاربه في أولِ النهار وخسره في آخره حيث انقلب إلى هزيمة مُرّة وانكسار خطير.

٩ - بيان الآثار السيئة لتقديم الرأي على قول الرسول ﷺ، إذ كان من عوامل الهزيمة إصرار الصحابة على رأيهم في القتال خارج المدينة، في الوقت الذي كان الرسول

يرى عدم الخروج حتى ألجئوه إلى ادّراعه ولباس لأمتَه، ثم ندموا فلم ينفعهم ندم.

١١ بيان أن الرغبة في الدنيا وطلبها بمعصية الله والرسول هي سببُ كل بلاء ومحنة تصيب المسلمين في كل زمان ومكان.

بيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنصر، إذ ظهر ذلك في أول النهار. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

١٢ بيان عقوبة الله تعالى للمؤمنين لما عصوه بترك الرماة لمراكزهم الدفاعية وطلبهم للغنيمة. ولما تساءلوا عن سبب هزيمتهم أجابهم تعالى بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي من النصر ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ورابع الغزوات:

غزوة حمراء الأسد

إن من مظاهر الكمال المحمدي في كل جوانب الحياة العسكريّة والمدنيّة على حد سواء خروجه صبيحة الأحد لإرهاب الأعداء في الداخل والخارج؛ إنه بعد الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين يوم السبت ما راع الناس إلاّ ومؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبي سفيان بن حرب وجيشه، وقال: لا يخرج معنا إلا من حضر معنا معركة أحد أمس، فخرج المؤمنون ومن بينهم أخوان جريحان، فكان خفيفُ الجرح يحمل أخاه، فإذا تعب وضعه يمشي ساعة حتى وصلا معسكر رسول الله ﷺ على ثمانية أميال من المدينة حيث عسكر ﷺ بحمراء الأسد. واستأذن جابر رسول الله ﷺ في الخروج فاذن له بعد أن عرف عذره، وهو أن والده الشهيد عبدالله بن عمرو بن حرام لم يأذن له في الخروج إلى أحد وأوصاه بأخواته السبع إذ لم تطب نفس عبدالله أن يترك سبع بنات ليس معهن رجل.

وما زال النبيّ ﷺ بحمراء الأسد حتى مرّ به معبد الخزاعي، وخزاعة مسلمها ومشركها كانت عيبة نُصح رسول الله ﷺ - أي موضع سرّه وثقته لا تُخفي عليه شيئًا

من الناس في تهامة، فقال معبد - وهو يومئذ مشرك -: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك، ولَوَدِدْنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج حتى لقى أباسفيان ومَنْ معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه؛ إذ قالوا: أصبنا منهم ما أصبنا فكيف نرجعَ قبل أن نستأصلهم؟

فلما رأى أبوسفيان معبدًا قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: خرج محمد وأصحابه يطلبونكم في جمع لم أرَ مثله أبدًا، فقال أبوسفيان ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى أرى نواصي الخيل. فقال أبوسفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيّتهم. قال معبد: إني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيهم أبياتًا من الشعر. قال أبوسفيان: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهدّ من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيل

تَرْدَى[1] بأسد كرام لا تَنابلة[2]
عند اللقاء ولا ميل[3] مَعازيل

فظلت عَدْوًا أظن الأرض مائلة
لمّا سَمَوْا برئيس غير مَخذول

فقلتُ ويل ابن حرب من لقائكم
إذا تَغطمَطت[4] البطحاءُ بالخيل

إني نذير لأهل البَسْل[5] ضاحية
لكل ذي إرْبَة منهم ومعقول

من جيش أحمد ولا وخش[6] تنابلة
وليس يوصف ما أنذرتُ بالقيل

---

(١) تردى: تسرع.
(٢) تنابلة: غير قصار.
(٣) جمع أَمْيل وهو الذي لا رمح له ولا ترس.
(٤) تغطمطت: اهتزت له.
(٥) البسل: قريش.
(٦) الوخش: أراذل الناس.

فأوقع هذا الشعر في نفس أبي سفيان هزيمة، وذكر كذلك رأي صفوان بن أمية إذ سبق أن كفه عن الرجوع إلى المدينة عندما عزم على الرجوع، وقال له: لا تفعل؛ فإن القوم حَرِبوا[1]، وإني أخشى أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا، ولذا أمر بالرحيل والعودة إلى مكة، وأثناء ذلك مرّ ركب من بني عبدالقيس، فقال لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلّغون عنّي محمدًا رسالة أرسلكم بها، وأحمّل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ؟: إذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيّتهم، وكان هذا مجرد مناورة من أبي سفيان يريد بها تغطية هزيمته لما سمع من معبد. ولما وصلت القافلة إلى رسول الله ﷺ وبلغوه رسالة أبي سفيان: قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النّار».

وأقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد أربعة أيام: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم قفل راجعًا إلى المدينة، فظفر في طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وبأبي عزة الجُمحي وقد تخلف عن المشركين نائمًا، وكان أبوعزة قد أسر في بدر واسترحم الرسول ﷺ فرحمه فَمَنَّ عليه، وعاهده ألا يقف موقفًا ضدّه، وخان وجاء مع المشركين إلى أحد، فلذا أمر الرسول ﷺ بقتله، فقتل، وقال ﷺ: «لا يُلدغُ المؤمنُ من جُحْر مَرّتَيْن» وأما معاوية فهو الذي مثل بحمزة في أحد، فقطع أنفه، فقد ضل الطريق فأتى دار عثمان وقد استشفع بعثمان، فقبل النبيّ ﷺ شفاعته فيه على أنه لو وجده بعد ثلاثة أيام ليقتلنّه، فجهزه عثمان لقرابته، وقال له: ارتحل، فارتحل فأخطأ الطريق وكان النبي ﷺ قد ارتحل من حمراء الأسد، وقال لأصحابه: «إنّ معاوية أصبح قريبًا ولم يبعد فاطلبوه» فطلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فوجداه فقتلاه.

وعاد الرسول ﷺ ولم يلق كيدًا. وأرهب بذلك العدو المنافق في الداخل والمشركين في الخارج فصلى الله عليه وسلم ما أعظم حكمته وجل سياسته وأكمل صبره!!

---

(١) حرنوا: اشتد غضبهم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في الآتي:

١ - بيان مظاهر الكمال المحمدي من شجاعة وصبر وتحمل وحسن سياسة، وكمال تدبير.

٢ - بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ، وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول.

٣ - تأثير الدعاية في نفوس غير الصابرين، ولذا كان خطر الدعاية عظيمًا ووجب اتقاؤه.

٤ - تقرير مبدأ: المؤمن لا يلدغ من جُحْر واحد مرتين.

٥ - مشروعية الشفاعة في غير الحدود الشرعية.

أهم ما وقع من أحداث في السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ:

إن أهم ما وقع في هذه السنة الثالثة من سنوات الهجرة المباركة من أحداث ذات خطر وشأن، يمكن ذِكْرُه إزاء النقاط التالية:

• قتل كعب بن الأشرف الذي بسط يده ولسانه لرسول الله ﷺ والمؤمنين يؤذيهم ويكيد لهم ويؤلب المشركين واليهود عليهم، قتله محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه.

• وقوع غزوة أحد، واستشهادُ قرابة سبعين رجلاً مسلمًا فيها، ونحو من ثلاثين مشركًا، ومن بين الشهداء أربعة مهاجرين، وهم: حمزة بن عبدالمطلب، ومصعب بن عمير، وعبدالله بن جحش، وشماس بن عثمان، ومن بين الأنصار: أنس بن النضر، وسعد بن الربيع وعمرو بن الجموح، وعبدالله بن عمرو بن حرام، ومن مسلمي اليهود مخيريق رضي الله عنهم.

• غزوة حمراء الأسد في اليوم الثاني بعد أحد.

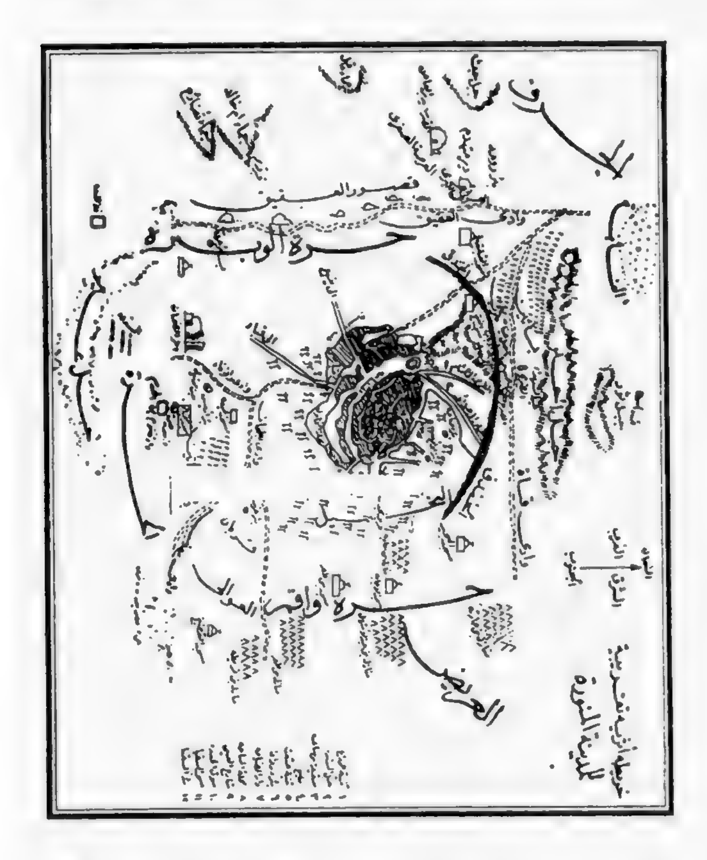
• غزوة ذي أمر، وهو ماء بنجد لغطفان.

• سريّة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ.

• ولادة الحسن بن علي رضي الله عنه، وحمل فاطمة بالحسين بعد خمسين يومًا من ولادتها.

• حمل جميلة بنت عبدالله بن أبيّ بعبدالله بن حنظلة غسيل الملائكة وذلك في شوال ليلة أحد.

* * *



بيان موقع أحد من المدينة النبويّة وهو بالشمال الشرقي منها وخلفه جبل ثور الذي ذُكِرَ في تحديد حرم المدينة؛ إذ فيه «المدينةُ حرامٌ من عائر إلى ثور»، وأما عائر أو عير فهو في الجنوب الغربي من المدينة كما هو مبين في الخريطة هذه.

أحداث السنة الرابعة

من هجرة الحبيب محمد ﷺ

ودخلت السنة الرابعة من سَنوات الهجرة المباركة وأول أحداثها.

حدَث الرَّجيع[١]

في هذه السنة، قدم نفر من عَضَل والقارة على رسول الله ﷺ بالمدينة، وذكروا له أن فيهم إسلامًا، وأن لهم رغبة في أن يبعث معهم نفراً يفقهونهم في الدين، فبعث ﷺ معهم ستة نفر: هم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البُكَيْر الليثيّ، وعاصم بن ثابت الأوسي، وخبيب بن عديّ، وزيد بن الدثنة البياضي، وعبدالله بن طارق حليف بني ظفر، وأمَّرَ عليهم ﷺ مرثدَ بن أبي مرثد الغنوي، وساروا حتى إذا بلغوا الرجيع غدر بهم النفر الذين طلبوهم من رسول الله ﷺ ليفقهوهم في الدين حيث استصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم: بنولحيان، فجاءوهم في مائة رجل، فلجأ المسلمون إلى جبل حيث لا طاقة لهم بقتال مائة رجل وهم ستة رجال لا غير، فاستنزلوهم بعهد قطعه لهم بأنهم لا يمسونهم بسوء، فقال عاصم: والله لا أنزل على عهد كافر، اللهم خبّر نبيّك عنّا، وقاتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير، نزل بن الدثنة وخُبيب، وعبدالله بن طارق فأوثقوهم، فقال عبدالله: هذا أول الغدر فقتلوه فألحقوه برفيقه، وانطلقوا بابن الدثنة وخُبيب فباعوهما بمكة فاشترى خبيبًا بنوالحارث، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فاشتروه ليقتلوه بالحارث، فسجنوه في بيت معاوية مولاة حُجَيْرِ بن أبي إهاب، فبينما هو عندها وقد استعار منها موسىً ليستحد بها حتى إذا قُتل يكون نظيفًا من شعر عانته؛ إذ جاء صبيٌّ يدب إليه، فجلس على فخذَه، وهو يستحد والموسىّ في يده فلما رأته المرأة صاحت، فقال لها: أتخشين أن أقتله؟ إن الغدر ليس من شأننا، فكانت المرأة تقول بعد ذلك: ما رأيتُ أسيرًا خيرًا من خُبيب؛ لقد رأيته – وما بمكة ثمرة – وإن في يده لَقِطْفًا من عنب يأكله، ما كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا.

ولما خرجوا به من الحرم إلى الحل ليقتلوه، قال: ذروني أُصَلِّ ركعتين، فتركوه فصلاهما؛ فكانت سنة القتل؛ إذ علم بذلك رسولُ الله ﷺ وأقره عليها، وصلاها غير

---

(١) الرجيع: ماء لهذيل بناحية الحجاز يقع قريبًا مما بين مكة وعسفان.

واحد من المؤمنين. ثم قـال لهم: لولا أن تقولوا جزع من الموت لزدتُ أو طوَّلتـهما، ثم أنشأ يقول:

ولست أبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا
على أي جنبٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشا
يبارك على أوصال شِلْو[1] ممزَّع

ودعا ربّه قائلاً: اللهم أحْصِهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبْقِ منهم أحدًا.

ثم صلبوه وقام إليه عتبة بن الحارث ليقتله، وقال له: أترضَى أن يكون محمد مكانك وأطلقَك؟ فقال: والله لا أرضى أن أُطلق ويُشَاك محمدٌ بشوكة!! وقتله فمات إلى رحمة الله ورضوانه.

وأما عاصم، فإنهم بعثوا من يأتيهم برأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد؛ إذ كانت نذرت أن تشرب الخمر في رأس عاصم يوم قَتَل ابنيها في أحد، فجاء النحلُ، فمنع من أرادا أَخْذَه؛ فتركوه حتى الليل، فجاء سيلٌ فجرفه ولم يُعثر عليه؛ استجابة الله تعالى لعاصم، إذ كان قد عاهد الله تعالى ألا يمس مشركًا ولا يمسه مشركًا، فمنعه الله في مماته كما منعه في حياته.

وأما ابن الدَّثنّة، فإن صفوان بن أميّة بعث به مع غلامه نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه، إذ كان قتل يوم بدر وأُلقي في القليب، فلما وصل به هناك إلى الحل ساومه قائلاً: أنشدك الله، أتحب أن محمدًا مكانك تُضْرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!! فقال أبوسفيان - وكان حضر الإعدام مع رجال من قريش -: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا، ثم قتله نسطاس فانتقل إلى رحاب رحمات الله تعالى وسوم رضوانه فهنيئًا له.

ومن كرامات خبيب رضي الله عنه أن سعيد بن عامر - وكان ممن حضر قتل خبيب - كان كلما ذَكَر قَتْلَ خبيب بقلبه أو لسانه أخذته غَشْيَة، وبلغ ذلك عمرَ رضي الله عنه فسأل سعيدًا فقال: نعم ما ذكرت خبيبًا إلا غُشِيَ عليّ؛ فزادته عند عمر خيرًا.

---

(١) الشِلو والجمع أشلاء: عضو الإنسان بعد التفرق والتمزع، والممزع المهرق.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالتالي:

١ - الغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك.

٢ - بيان كرامة خبيب التي أكرمه الله تعالى بها، وهي أكله قِطْفَ العنب في غير إبّانه وغير مكانه، والغشية التي تصيب سعيداً عند ذكره.

٣ - مشروعية الصلاة عند القتل، وأن خبيبًا هو الذي سنّها وأقره رسول الله ﷺ عليها.

٤ - بيان فضل ابن الدّثنّة في رضاه بالموت ولا يُصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه.

٥ - تقرير أن أصحاب رسول الله ﷺ يحبونه ﷺ أشد من حبّهم لأنفسهم، وذلك واجبهم وواجبُ كل مؤمن ومؤمنة في الحياة.

وثاني أحداثها:

حدث بئر معونة الجلل

وفي هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب ﷺ، حدث أفظع حادث، ذلك هو حادث بئر معونة الذي ذهب ضحيّته سبعونَ صحابيًا من خيرة الأصحاب؛ نتيجة الغدر والخيانة.

وذلك أن أبابراء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنّة، قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة، فعرض عليه النبيّ ﷺ الإسلامَ ودعاه إليه، فلم يُسلم، ولم يبعد عن الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، قال أبوبراء: أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب، منهم المنذر بن عمرو، والحارث بن الصّمّة، وحرام بن ملحان، وعامر بن فهيرة مولى الصديق، وعروة بن أسماء بن الصّلت، ونافع بن بديل بن ورقاء، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة - وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سُليم - ولما نزلوها بعثوا حرامًا بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر فيه - أي في الكتاب - حتى عدَا على حرام فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر قومَه فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبابراء وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصَيّة ورِعْل وذَكْوَانَ، فأجابوه إلى ذلك حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوا حتى

قتلوا عن آخرهم - رحمهم الله أجمعين -، اللهم إلا ما كان من كعب بن زيد فإنهم تركوه بين القتلى وفيه رمق من حياة، فعاش حتى قُتِلَ يوم الخندق شهيداً - فرضي الله عنهم أجمعين -.

وكان عمرو بن أمية الضمري المضري، والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري في سرح لقومهما، فرأوا الطير تحوم على قتلى المؤمنين، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأناً، فأقبلا نحوها لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، والخَيَل التي قتلتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو: ما ترى؟ قال: نرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو وما كنت لتخبرني عنه الرجال، ثم قاتل القوم حتى قُتل، وأخذوا عمراً أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر تركوه، وجزّ ناصيته عدوُّ الله عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

وسار عمرو حتى إذا كان بالقرقرة أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا بظل هو فيه فسألهما: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأهملهما حتى ناما، ثم قتلهما أخذاً بثأر شهداء بئر معونة الذين قتلوا باستصراخ عامر بن الطفيل العامري عليهم - ولم يعلم بالعقد والجوار الذي لهما من رسول الله ﷺ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره بما فعل، قال له: **«لقد قتلت قَتِلَيْن لأدِيَنَّهما»!!**

وألم رسول الله ﷺ الخبر وحزن لذلك، وقال: **«هذا عمل أبي براء فقد كنت لهذا كارهاً متخوفًا»**، وبلغ هذا أبابراء فشق عليه وآلمه، كما بلغ بنيه تحريضُ حسان له على قتل عامر بن الطفيل، فقام إليه ربيعة فطعنه فقتله إلى جهنم وبئس المهاد.

وهذه أبيات حسان في تحريض بني أبي البراء على قتل ابن الطفيل - لعنه الله تعالى -:

بني أمّ البنين ألم يرعكُم
وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكّم عامر بأبي براء
ليُخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي
فما أحدثت في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحروب أبوبراء
وخالك ماجدٌ حكم بن سعد

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام الآتية:

١ - بيان أن الغيب استأثر الله تعالى به، إذ لو كان النبيّ يعلم الغيب بدون إعلام الله تعالى له لما أرسل شهداء بئر معونَة.

٢ - بيان ما باء به عدوُّ الله عامر بن الطفيل من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

٣ - فضيلة المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري، إذ قاتل وحده؛ طلبًا للشهادة ففاز بها.

٤ - بيان ما باءت به عصيّة ورعل وذكوان من غضب الله تعالى وعذابه.

٥ - مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين.

٦ - فضل شهداء كل من الرجيع وبئر معونة، إذ ذهبوا ضحية الغدر والخيانة لنزول قرآن فيهم هذه نصه: «بلِّغوا قومَنا عنَّا، أنا قد لَقِينا ربَّنا فرضي عنا ورضينا عنه» ثم نُسِخَ.

وثالث أحداثها:

سرية عمرو بن أمية الضمري إلى مكة لقتل أبي سفيان

ما زال أبوسفيان يتحسّر على فوته قتل النبيّ ﷺ، حيث خاب أملُه في ذلك بعد غزوة أحد التي كلفته أموالاً طائلة وأتعابًا شديدة رجاء أن يثأر لقتلاه في بدر من محمد ﷺ، الذي قتل رجاله أسر أعداداً منهم في بدر.

ومن هنا، فكر في خطة خسيسة، وهي إرسال من يغتال محمداً ﷺ، إذ قال بين رجاله: ما أحد يغتال محمداً؟ فإنه يمشي في الأسواق؛ فندرك ثارنا منه، فأتاه رجل من العرب، فدخل عليه منزله وقال له: إن أنت وفيتني خرجتُ إليه حتى أغتاله، فإني هادٍ بالطريق خرّيت معي خنجر مثل خافية[1] النسر، فقال له أبوسفيان: أنت صاحبنا، وأعطاه بعيراً، ونفقةً، وقال له: اطوِ أمرك؛ فإني لا آمن أن يسمع هذا أحدٌ فينميه إلى محمد، فقال الأعرابي: لا يعلمه أحد، فخرج ليلاً فوصل المدينة في ستة أيام، فعقل راحلته بحيّ بني عبدالأشهل، ثم أقبل قاصداً رسول الله ﷺ، فوجده بين أصحابه يحدثهم في مسجده، فلما دخل المسجد رآه الرسول ﷺ، فقال: «**إن هذا الرجل يريد غدراً، والله حائلٌ بينه بين ما يريد**». فوقف وقال: أيكم ابن عبدالمطلب؟ فقال له الرسول

(١) الخافية والجمع خواف: ريشة من أربع ريشات، إذا ضم الطائر جناحه خفيت.

ﷺ: «أنا ابن عبدالمطلب» فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يساره، فجذبه أسيد بن حضير وقال: تَنَحَّ عن رسول الله ﷺ، وجذبه بداخل إزاره، فإذا الخنجر، فقال يا رسول الله: هذا غادر، فأُسْقط في يد الأعرابي، وقال: دمي دمي يا محمد، وأخذه أسيد يلببه، فقال له النبيّ ﷺ: «اصدقني ما أنت وما أقدمك؟ فإن صدقتني نفعك الصدق، فإن كذبتني فقد أُطلعتُ على ما هممتَ به». قال الأعرابي: فأنا آمن؟ قال: «وأنت آمن». فأخبره بخبر أبي سفيان بن حرب، وما جعل له. فأمر به النبي ﷺ فَحُبس عند أسيد بن حضير، ثم دعا به من الغد، فقال: «قد أمنتك؛ فاذهب حيث شئتَ، أو خيرٌ لك من ذلك». قال: وما هو؟ فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله». فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك أنت رسول الله، والله يا محمدٌ، ما كنت أفرق[1] من الرجال، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي، وضعفت، ثم اطلعتَ على ما هممتُ به، فما سَبَقَتْ به الركبانُ ولم يَطلع عليه أحدٌ؛ فعرفتُ أنك ممنوع، وأنك في حق، وأن حزب أبي سفيان حزب شيطان. فجعل النبي ﷺ يبتسم، وأقام أيامًا، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ولم يُسمع له بذكر.

ولما حدث هذا الذي حدث من أبي سفيان من إرساله من يغتال رسول الله ﷺ بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن أميّة الضمري مع رجل من الأنصار إلى مكة وأمرهما بقتل أبي سفيان بن حرب.

قال عمرو: فخرجت أنا ومعي بعير والرجل صاحبي علة[2] فكنت أحمله على بعيري حتى جئنا بطن يأجج فعقلنا بعيرنا بالشعب، وقلت لصاحبي: انطلق بنا إلى أبي سفيان لنقتله، فإن خشيتَ شيئًا فالحق بالبعير فاركبْه والحق برسول الله ﷺ وأخبره الخبرَ وَخَلِّ عنّي، قال عمرو: فدخلنا مكة ومعي خنجر قد أعددته إن عاقني إنسان ضربته به.

فقال لي صاحبي: هل لك أن نبدأ فنطوف ونُصلي ركعتين؟ فقلتُ له: إن أهل مكة يرشون أفنيتهم بالماء مساء؛ ويجلسون فيها، وأنا أعرف بهم، قال: فمشينا حتى أتينا البيت، فطفنا به وصلينا، ثم خرجنا، فمررنا بمجلس لهم فعرفني بعضهم، فصرخ بأعلى صوته: هذا عمرو بن أميّة، فثار أهل مكة إلينا، وقالوا: ما جاء إلا لشرٍّ، فقلت لصاحبي:

---

(١) أي ما كنت أخاف.

(٢) أي جمله كالضرة له يقاسمه المركب وغيره.

أن جاء هذا الذي كنت أحذر، أما أبوسفيان فليس إليه سبيل، فانج بنفسك، فخرجنا نشتد حتى صعدنا الجبل، فدخلنا غاراً بتنا فيه ليلتنا؛ ننتظر أن يَسْكن الطلبُ، فوالله إنا لفيه إذ أقبل عثمان بن ملاك التَّيمي يتخيّل بفرس له، فقام على باب الغار، فخرجت إليه فضربته بالخنجر، فصاح صيحة أسمع أهل مكة، فأقبلا إليه ورجعت إلى مكاني، فوجدوه وبه رمق فقالوا: من ضربك؟ قال: عمرو بن أمية، ثم مات ولم يقدر يُخبرهم بمكاني، وشغلهم قَتْلُ صاحبهم عن طلبي فاحتلموه، ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنّا الطلب، ثم خرجنا إلى التنعيم، فإذا بخشبة خبيب، وحوله حرس، فصعدت خشبته احتملته على ظهري، فمشيت به نحو أربعين خطوة، فعلموا به فطرحته، واشتدوا في أثري، فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا، وانطلق صاحبي فركب البعير وأتى النبي ﷺ فأخبره، وأما خبيب فلم يُر بعد ذلك، وكأن الأرض قد ابتلعته. وسرت حتى دخلت غاراً ومعي قوسي وأسهمي، فبينما أنا فيه إذ دخل عليّ رجلٌ من بني الديل أعور يسوق غنمًا، فقال: مَنِ الرجل؟ قلت: من بني الدئِل فاضطجع معي ورفع عقيرته يتغنى ويقول:

ولستُ بمسلم ما دمتُ حيّا

ولست أدينُ دين المسلمينا

ثم نام فقتلته، ثم سرت فإذا رجلان بعثتهما قريش يتحسسان أمر النبي ﷺ فرميتُ أحدهما بسهم فقتلتَه، واستأسرتُ الآخر، فقدمت به على النبي ﷺ وأخبرته الخبر فضحك ودعا لي بخير.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها إزاء الأرقام التالية:

١ - مشروعية المعاملة بالمثل: وهي في كتاب الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

إذ أبوسفيان هو الذي بدأ فبعث من يغتال رسول الله ﷺ، ولذا بعث رسول الله ﷺ من يقتل أباسفيان.

٢ - تقرير القضاء والقدر، إذ أبوسفيان قضى الله تعالى أن يسلم ويصبح في عداد المسلمين بل في عداد الأصحاب - رضوان الله عليهم - فلذا لم يتأتَّ لعمرو بن أمية قَتْلُه.

٣ - بيان شجاعة وبطولة عمرو بن أمية حتى لكأنها نادرة في الناس، وفوزه بدعاء الرسول الله ﷺ له بالخير.

٤ - بيان تأثير الدعاية في عقول الناس، وإلا فكيف يتغنى الراعي الدئلي بكونه غير مسلم وأنه لا يدين بدين المسلمين؟

٥ - بيان مدى ما بذلته قريش من حرب الإسلام وإطفاء نوره، ولم تقدر، والحمد لله.

وأولى غزواتها:

غزوة بني النضير

بنوالنضير إحدى ثلاث طوائف، كانت تسكن حوالي المدينة من اليهود، وقد وادعهم الرسول ﷺ يوم قدم المدينة مهاجراً، وكتب لهم بذلك كتابًا فنقضت بنوقينقاع عهدها أول ما نقض، وذلك في السنة الثانية وبعد غزوة بدر مباشرة - كما تقدم استعراضه في أحداث السنة الثانية - فأجلاهم الرسول ﷺ ولم يقتلهم؛ إذ قبل فيهم شفاعة حليفهم عبدالله بن أبيّ، فخرجوا من المدينة ونزلوا أذرعات بالشام وهلكوا بها. وها هم أولاء بنوالنضير ينقضون عهدهم اليوم بتآمرهم على قتل النبي بصورة مكشوفة واضحة.

إنه بعد انتهاء وقعة أحد المؤلمة، جاء أبوبراء العامري زائراً المدينة فلاقي رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يرفض، وقال للرسول ﷺ: لو تبعث إلى ديارنا بعثًا من صالحي رجالك يدعون إلى أمرك، فإني أرجو أن يجابوا لذلك، فأبدى النبي ﷺ تخوفًا على أصحابه، فوعده أبوبراء بأنه سيكون جاراً حتى لا يُمَسُّوا بسوء، وبعث النبي ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب. وحدثتْ واقعة بئر معونة، واستشهد فيها كافة الأصحاب. وإن عمرو بن أمية لما وقع في أسر عامر بن الطفيل أعتقه وعاد عمرو إلى المدينة، وفي طريقه لقى رجلين من بني عامر فقتلهما؛ ثأرًا لشهداء بئر معونة، وكان القتيلان معاهدين للنبي ﷺ ولم يَعْلم بذلك عمرو، وأخبر النبيَّ ﷺ بالحادث فقال النبي ﷺ: «لأدينَّهما»، وفعلاً جاء ذووهما يطالبون بديتهما. وكانت معاهدة اليهود تقضي بأن يَدِيَ كلٌّ من الطرفين ما لزمه من دية شرعيّة، فخرج النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر وعليٌّ إليهم - أي إلى بني النضير - يطالبهم بالإسهام في دية العامريين بموجب المعاهدة، فانتهى إلى ديارهم وذكر لهم ما جاءهم من أجله، فأبدوا ارتياحًا واستعدادًا وأنزلوه مع أصحابه منزلاً حسنًا في ظل جدار من بيت أحدهم. وأظهروا أنهم يسعون في تحقيق طلبه، وإذا بهم

متآمرون على قتله؛ إذ قالوا: إنها فرصة قد لا تتاح لكم، فتخلَّصُوا من الرجل بقتله، وعينوا لذلك عمرو بن جحاش، فقال أنا لذلك، فقالوا: نطلع على السطح ونُلْقي عليه رحى من فوقه نقتله بها، وأنكر عليهم سلاّم بن مشكم عملهم، وقال: لا تفعلوا، لكنهم أجمعوا على أن ينفذوا خطتهم القذرة هذه، وقبلَ أن يفعلوا بدقائق أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما هَمُّوا به من قتله، فقام على الفور كأنه يقضي حاجة ودخل المدينة، ولما استبطأه أصحابُه قاما ولحقوا به فأخبرهم بمؤامرة اليهود، وأن خبر السماء قد سبقهم وكأن آية المائدة نزلت في هذه الحادثة هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. ولهذه الحادثة أشباه، وتتلى الآية عند كل واحدة منها تذكيراً بنعمة الله وفضله على المؤمنين ليشكروا بالصبر والطاعة.

وبعث إليهم ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده لنقضهم العهدَ الذي بينهم وبينه، فبعث إليهم المنافقون - وعلى رأسهم ابن أبيّ كبير المنافقين - يشجعونهم على البقاء وعدم الجلاء وفي ذلك يقول تعالى من سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر: ١١] في عدة آيات إلى قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥] وهم بنوقينقاع أهلكهم الله.

ولما لم ينصاعوا للأمر بالجلاء، لتشجيع المنافقين لهم - أعلن القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ الحربَ عليهم فولّى على المدينة ابنَ أم مكتوم، وخرج إليهم برجاله، فحاصرهم قرابة نصف شهر، وأثناء ذلك هددهم بإحراق نخلهم وقطعه وفعلاً أحرق بعضُ المؤمنين طرفًا وقطعوا بعضًا، وتألم لذلك بعضُ المسلمين لاسيما لما قال اليهود للرسول ﷺ: عَهِدْنَا بك تنهى عن الفساد وتعيب صاحبَه، فكيف تأذن بإحراق النخيل؟ ونزل في ذلك قوله تعالى من سورة الحشر: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]

ونزل اليهود أخيراً على حكم الرسول ﷺ منصاعين لأمره، وهو أن يخرجوا من المدينة حاملين أموالهم على إبلهم، ما عدا الحلقة «السلاح» حتى لا يحاربوا بها مرة أخرى، فأخذا أموالهم الصامتة والناطقة حتى إن أحدهم يهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه، أو يهدّ نجف الباب ليأخذَ الباب، وفي هذا يقول تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا[1] وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢ - ٤].

وأجلي بنوالنضير عن المدينة، ولم يُسلم منهم إلا رجلان، هما يامين بن عمير، وأبوسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما. لما مر اليهود بخيبر، نزل بها سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحيي بن أخطب، فاستقبلهم يهود خيبر بالطبول، والمزامير، والغناء بزهاء وفخر كأنهم أبطال فاتحون، وما هم إلا خونة ناكثون مهزومون.

وقسم الحبيب ﷺ أموال بني النضير بين المهاجرين لا غير؛ إذ هم أصحاب الحاجة حتى إنهم عالة على الأنصار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أموال بني النضير لم تكن غنائم أحرزت بالقتال، وإنما كانت فيئًا أفاءها الله على رسوله بدون سفر ولا قتال. وفي هذا يقول تعالى من سورة الحشر: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٦، ٧].

إلا أنه ﷺ قد شكا إليه أبو دجانة، وسهل بن حنيف حاجة فأعطاهما خاصة دون بقية الأنصار - رضوان الله عليهم أجمعين -.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

١ - تقرير مبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.

٢ - بيان الكمال المحمدي في الوفاء بالعهود والالتزام التام بالمعاهدات.

٣ - بيان سجيّة من سجايا اليهود، وهي نقض المعاهدات، وكذا الحال بالنسبة إلى الكفار إذا رأوا حاجتهم في النقض نقضوا؛ لكفرهم بالله ولقائه.

٤ قد تقتضي الضرورةُ هدمَ الجسور وبعض الدور وقطع الأشجار للضرورة.

٥ - بيان أن الفيء خلاف الغنيمة صورةً وحكمًا.

٦ - ولوعُ اليهود بالمزامير والطبول والأغاني وحفلات الرقص والمجون في كل زمان.

٧ - بيان أن سوورة الحشر جلُّها نزلَ في يهود بني النضير.

---

(١) يعني القتل.

عبرة خاصة

عبرة لو كان هناك من يعتبر؛ أنه لما أُخرج بنوالنضير من ديارهم وتركوها خرابًا، مرّ بها عمرو بن سُعْدى اليهودي، وكان متألهًا في بني قريظة لا يفارق الكنيسة، فرأى خرابها، وفقدان أهلها، بعد ما كانوا يعمرونها، ولهم فيها طيب عيش وهدوء نفس وراحة بال، فأتى بوق الكنيسة، فنفخ فيه، فاجتمع رجال بني قريظة، فذكرهم بحال بني النضير، وحال بني قنيقاع من قبلهم وما حل بهم من ذل وهوان وخسران، وقررهم بما يعرفون من التوراة، وهو أن محمدًا هو النبيّ الخاتم، وأنه رسول الله ﷺ حقًّا وصدقًا، وأن النجاة في اتباعه والخسرانَ في حربه والكفر به ومعاداته، فأقروا لما أكثر عليهم من الحجج والشواهد والبراهين، فقال له كعب بن أسد القرظي: ما يمنعك يا أباعبدالرحمن من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب، قال كعب: فَلِمَ - والتوراة - ما حُلْت بينك وبينه قط؟ قال الزبير بن باطا: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيتَ أبينا. فأقبل عمرو بن سُعدى على كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلى أن قال عمرو: ما عندي في أمره إلا ما قلت: ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا!!

وهكذا يحمل الكبرُ صاحبه على جحود الحق وإنكاره وإن خسر نفسه وأهله في الدنيا والآخرة، وهو الخسران المبين.

وثاني غزواتها:

غزوة ذات الرقاع

ذُكر في سبب هذه الغزوة أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، قد جمعوا الجموعَ وأجمعوا أمرهم على حرب رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم في أربعمائة مقاتل، واستخلف على المدينة أباذرّ الغفاري، أو عثمان بن عفان رضي الله عنه وسار إليهم وهم بديار نجد فنزل - نخلاً - وهو موضع من نجد في أرض غطفان.

ولما علم بمسيره مَنْ أجمعوا أمرهم على قتاله: تفرقوا ولحقوا برءوس الجبال فلم يكن قتال، وسُميت هذه الغزوة بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يعتقبون البعير كلُّ ستة ببعير، وكان الفصل صيفًا ولم يطيقوا الحر، فكانوا يَلُفُّون الخِرق على أرجلهم فسمِّيت ذات الرقاع.

وحدث في هذه الغزوة ما يلي:

١ - أن النبيّ ﷺ لما بات برجاله بات في مضيق «شِعْب بين جبلين» وجعل على الحراسة مهاجرًا وهو عمار بن ياسر، وأنصاريًا وهو عباد بن بشر، فخير أحدُهما الآخرَ في حراسة أول الليل، أو آخره، فاختار الأنصاري أول الليل، فحرس ثم قام يصلي ويقرأ في سورة الكهف فجاء أحد القناصة من العدو، فرماه بسهم فنزعه وواصل صلاته، ثم رمه بآخر فنزعه، وواصل صلاته ثم رماه بثالث فاستيقظ صاحبه، فرأى الدم يسيل منه فسأله فأخبره فقال: لم لا توقظني؟ فقال: إني كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أكملها، فلما تابع عليّ الرمي ركعتُ فآذنتك، وايم الله لولا أن أُضيِّع ثَغْرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذَها. أي: أتمها قراءةً.

٢ - أن غورث الغطفاني قال لرجاله: ألا أقتلُ لكم محمدًا؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، وأخذ يتتبّع جيش الإسلام، فلما نزلوا في وادٍ كثير الأشجار، وتفرقوا فيه للاستراحة تحت ظلال أشجاره، وكان النبيّ ﷺ قد جلس تحت ظل شجرة وعلّق سيفَه بها، فجاء غورث الغطفاني في استخفاء وختل حتى أخذ السيف وأصلته، وقال للرسول ﷺ: من يمنعك اليوم عنّي يا محمد؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «الله». فانهار الرجل وسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال له: «من يمنعك منّي اليوم»؟ قال: لا أحد، وجلس بين يدي رسول الله ﷺ وعاهده على ألا يحارب ضده، ورجع إلى قومه فأخبرهم فأسلم كثيرٌ على خبر هذه الحادثة.

٣ - أن جمل جابر بن عبدالله قد انقطع وأصبح لا يقدر على المشي إلا بصعوبة، فمرّ به الحبيب محمد ﷺ وهو واقف، والجملُ حاسر بارك، فقال له: «ناولني سوطه» فناوله إيّاه، فضرب به الجملَ؛ فقام وسار حتى كاد يسبق غيره.

ومن باب المطايبة قال ﷺ لجابر: «أتبيعنيه يا جابر»؟ قال: بل أَهَبُهُ لك يا رسول الله قال: «لا، بل بعْنيه» فساومه شيئًا حتى بلغ الثمن المطلوب فباعه إياهُ، واشترط جابر حملانه إلى المدينة، فقبل النبيّ ﷺ الشرط. ولما وصلوا إلى المدينة جاء جابر بالجمل فأناخه على مقربة من بيوت النبيّ، وقال لبعضهم: أخبر النبيّ ﷺ بأن جابرًا جاء بالجمل فأخبره، فقال ﷺ لعمّار: «أعط هذه الدراهم لجابر، وقُلْ له يأخذ جملَهُ؛ فإنه لا حاجة لي به». فأخذ جابر الجمل وثمنه شاكرًا لله ولرسوله فضلهما.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ - بيان مصداق قوله ﷺ : «نُصِرْتُ بالرعْبِ مسيرةَ شهرٍ».

٢ - مشروعية اتخاذ الحرس عند الخوف.

٣ - بيان كمال عباد بن بشر الأنصاري في خشوعه في صلاته وتدبّره كلامَ الله تعالى.

٤ - آية النبوة المحمدية تتجلى في انهيار غورث وسقوط السيف من يده.

٥ - بيان الكرم المحمدي المتجلي في إعطاء جابر الجملَ والثمن معًا.

٦ - آية النبوة المحمدية في جمل جابر الذي أصابه الكلل والإعياء حتى انقطع، ثم عاد خيرًا مما كان ببركة ضربه له ورغبته في عودة صحته وسلامته.

وثالث الغزوات:

غزوة السويق أو بدر الأخرى

سبب هذه الغزوة: أن أباسفيان بن حرب لما كان عائدًا من غزوة أحد قال للنبيّ ﷺ وأصحابه: موعدُنا بدرًا عامًا قابلاً، فقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «**قولوا له: نعم**». فقالوا: نعم إن موعدنا معك العام القابل، فلما آن أوان الموعد، استخلف النبيّ ﷺ على المدينة عبدالله بن رواحة، أو عبدالله بن عبدالله بن أبي ابن سلول، وخرج في ألف وخمسمائة مقاتل، وسار حتى وصل بدرًا، وكان بهما سوق كبيرة تقام سنويًا ولذا واعد أبوسفيان فيها النبيّ ﷺ وأصحابه. فباع النبيّ ﷺ وأصحابه واشتروا فربحوا ضعف رأس المال إذ ربح الدرهم درهمين، وعادوا لم يمسسهم سوء؛ إذ أبوسفيان لما خرج برجال ووصل إلي قريب من عسفان رأى أنه لا فائدة من الحرب وخاف الهزيمة فخطب في رجاله فقال: إن هذا العام عام جدب، ولا يصلح لكم إلا عام خصب؛ فلذا أرى أن تعودوا، فأكلوا أزوادهم وكانت سويقًا ورجعوا، فقال أهل مكة يُنحون عليهم باللائمة: كأنكم ما خرجتم للقتال، وإنما خرجتم لأكل السويق، فسمّيت هذه الغزوة أيضًا بغزوة السويق.

وقال في هذه الغزوة كعبُ بن مالك شعرًا، منه قولُه:

وعدنا أباسفيان بدرًا فلم نجد
لميعاده صدقًا وما كان وافيا

فأقسمُ لو وافيتنا فلقيتنا
لأُبتَ ذميمًا وافتقدتَ المواليا

تركنا به أوصال عتبة وابنه
وعمرًا أباجهل تركناه ثاويا

عصيتم رسول الله أفٍّ لدينكم
وأمركم السَّيئ الذي كان غاويا

فإني إنْ عنَّفتموني لقائلٌ
فدًى لرسول الله أهلي وماليا

أطعنا فلم نَعْدله فينا بغيره
شهابًا لنا في ظلمة الليل هاديا

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي الآتية:

١ - بيان الوفاء المحمدي الدال على الشجاعة النادرة؛ إذ لم يرهب أباسفيان كما رهب هو وولى من الطريق خائفًا.

٢ - مشروعية البيع والشراء في كل فرصة تسنح حتى في الجهاد والحج.

٣ - بيان مصداق حديث: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»؛ لانهزام جيش أبي سفيان قبل الالتقاء بأرض الموعد وهي بدر.

٤ - تفسير قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

* * *

أهم ما وقع في أحداث في هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

تمت في هذه السنة - وهي الرابعة من الهجرة - أحداث يحسن ذكرها مجملة؛ للتاريخ والعبرة إزاء النقاط السوداء الآتية:

- وفاة أبي سلمة عبدالله بن عبدالأسود المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ برّة بنت عبدالمطلب.
- وفاة عبدالله بن عثمان بن عفان وهو ابن رقية بنت رسول الله ﷺ، وله من العمر ست سنين.
- ولادة الحسين بن علي رضي الله عنه وهو سبط النبيّ ﷺ لأنه ابن بنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها.
- زواج النبيّ ﷺ بزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية والملقبة بأم المساكين.
- تزوج الحبيب محمد ﷺ بأم سلمة بعد وفاة زوجها أبي سلمة وانقضاء عدتها منه.
- أمر النبيّ ﷺ زيد بن ثابت الشاب الأنصاري أنْ يتعلم كتابة اليهود فتعلمها في نصف شهر.

أحداث السنة الخامسة

ودخلت السنة الخامسة من هجرة الحبيب محمد ﷺ، وكان أول أحداثها:

غزة دومة الجندل

بلغ النبيّ ﷺ أن جمعًا من المشركين بدومة الجندل - وهي قرية تبعد عن المدينة بمسافة خمس عشرة ليلة، وعن دمشق بنحو من خمس ليال - فهي إلى الشام أقرب، وإن كانت من أعمال المدينة النبويّة - يتلَصّصون، ويؤذون المارة، فأراد النبيّ ﷺ أن يؤدبهم من جهة؛ تخليصًا للبلاد من ظلمهم ومن جهة أخرى ليرعب الروم، وكلّ من في المنطقة حتى لا يفكروا في حربه ﷺ، ومن جهة ثالثة ينشر دعوة الله تعالى ويبلغها إلى سكان تلك الديار. فاستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفري، وخرج في ألف مقاتل، وانتهى إلى تلك البلاد، ولم يجد بها أحدًا، إذ رعبُوا وتفرقوا بمجرّد أن علموا أن محمدًا قد خرج إليهم.

وأقام ﷺ بالمنطقة كـذا يومًا، أرسل فيها السـرايا هنا وهناك، ولم يعثروا إلا على المواشي من إبل وغنم، فساقوا منها ما شاء الله، وعاد الحبيب محمد ﷺ إلى المدينة، ولم يلق كيدًا والحمد لله أولاً وآخرًا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:

١ ـ بيان ما كـان من الفوضى في تلك الديار قبل الإسلام بدليل وجـود عصابات تتلصص فتؤذي المارة وتسلب أموالهم.

٢ ـ بيان ما أوتي ﷺ من كمـال السياسة وحُسنها، إذ خـروجه إلى دومة الجندل حقق عدة أهداف شريفة: منها إرعابُ الروم، ورفعُ الظلم، والدعوة إلى الإسلام.

٣ ـ بيان مصداق قوله ﷺ : «نصرت بالرعب مـسيرة شـهر»، إذ بمجرد أن علم الظلمة بخروج النبيّ ﷺ إليهم حتى تفرقوا منهزمين والمسافة مسافة شهر.

٤ ـ مشروعـية أخذ الغنائم في الإسلام وحلِّيَتها لهذه الأمة المـجاهدة، المقيـمة للعدل، الناشرة للهدى والخير بين من تظلهم تحت راية الإسلام.

وثاني أحداثها:

غزوة الخندق أو الأحزاب

هذه الغزوة نزلت في بيان أحـداثها الجسام سبع عشـرة آية من سورة الأحزاب، وهذه عناصر تكوينها متسلسلة ليسهل فَهْمُها والانتفاعُ بعبرها.

أ - سبب وقوعها:

إن السبب الأقوى والمباشر لحدوث هذه الغزوة، هو أن رؤساء بني النضير الذين نزلوا بخيبر يوم جـلائهم، واحتفل بهم يهود خيبـر، وأقاموا لهم الأفراح يوم استقـبالهم - كما تقدم بيانه في استعراض غزوة بني النضير من السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ هؤلاء الرؤساء، وهم حيي بن أخطب، وعبدالله بن سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع ابن أبي الحـقيق، وغـيرهم رأوا أن يثـأروا لما أصـابهم من الذل والهوان، وينـتقمـوا من الرسول ﷺ والمؤمنين، فخرجوا إلى مكة لتأليب قريش، وتحزيب الأحزاب لقتال النبيّ ﷺ والقضاء عليه، فوجـدوا قريشًا مستعدة لذلك من أجل الهزائم التي لحقـتها في غير

ميدان وساحة قتال، وضللها هؤلاء اليهود؛ إذ قالوا لها إنها علي حق، وأن دينها خير من دين محمد، وأنها أهدى منه سبيلاً في حياتها الدينية والاجتماعية السياسية. وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]

فخرجوا من عند قريش وتركوها تَعُدُّ العدة وتجمع الرجال من قبائلها على اختلافهم مُجمعةً الخروج إلى المدينة لحرب محمد ﷺ، واستئصاله.

وذهب أولئك الرؤساء في الشر إلى قبائل غطفان يؤلبونهم على حرب محمد ﷺ فاستجابوا لهم لظلمة نفوسهم، ولقوة تأثير كلام اليهود فيهم، وخرجت قبائل غطفان بزعامة عُيينة بن حصن، وكلُّ قبيلة معها سيدها: فمع بني فَزارة عيينة، ومع مرّة الحارث بن عوف المرّي، ومع أشجع مُسْعِر بن رخيلة الأشجعيّ.

وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وواصَلَ كلٌّ سيرَهُ، فنزلت قريش بمجمع الأسيال قريبًا من دومة الجرف والغابة، وكان أفراد معسكرهم عشرة آلاف مقاتل من أحابيشهم، ومن تبعهم من كنانة وتهامة. ونزلت قبائل غطفان شرق المدينة إلى جنب أحد الشرقي. وفي هذا يقول تعالى من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]

ب - الخندق إجراء وقائي:

وكان النبيّ ﷺ قد سمع بتحركات اليهود وتحزيبهم الأحزاب لقتاله - فداه أبي وأمّي - فاستشار رجاله. فاقترح سلمان الفارسي حَفْرَ خندق حول جبل سلع تكون ظهورُ المسلمين إلى جبل سلع، ووجوهُهم إلىَ الخندق، فيمنعون كل مقتحم للخندق يريد الوصول إليهم. وأن يوضع النساء والأطفال في حصون المدينة وآطامها، فاجتمعت الكلمة على حفر الخندق، وأخذ المسلمون يحفرون ومعهم نبيّهم ﷺ يحفر معهم. وقد وزّع ﷺ الحفر عليهم، فجعل لكل عشرة أنفار أربعين ذراعًا. واشتغلت الفئوس والمساحي في الحفر، والرجال في نقل التراب وإبعاده، وكان بين الذين ينقلون التراب الحبيبُ ﷺ، حتى علا جلدَه الطيب الطاهر، وكان ذلك منه ﷺ تشجيعًا لهم على العمل

ومواصلته، حتى إنه كان إذا تقاولوا يقول معهم. فقد كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جُعَيْل وسماه النبي ﷺ عَمْرًا فيقولون:

سمّاه من بعد جعيل عَمْرًا. فيقول ﷺ: «عَمْرًا»

وإذا قالوا: وكان للبائس يومًا ظهرًا. يقول هو ﷺ: «ظَهْرًا»

ولما رأى ﷺ ما بهم من التعب والجوع قال: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة»**.

فقالوا هم مُجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

وكان ﷺ ينقل التراب معهم ويردّد قول عبدالله بن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلّينا

فأنزِلَنْ سكينةً علينا

وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الأُلى قد بَغَوْا عَلَيْنا

إذا أرادوا فتنة أبينا

ج- آيات تظهر أثناء الحفر وبعده:

وتجلت أثناء حفر الخندق آية من آيات النبوّة المحمدية وذلك أن كُدْيَة قد اشتدّت عليهم وهم يحفرون فشكوها إلى رسول الله ﷺ فقال: **«أنا نازل»** - أي إليها داخل الخندق - ثم قام وبطنه معصوب بحجر - إذ لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا - فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب الكدية المستعصاة، فعادت كثيبًا أهيل. هذه آية ظاهرة.

وأخرى: قال جابر بن عبدالله، قلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت فأذن لي فأتيتُ امرأتي فقلت لها: إني رأيت برسول الله ﷺ شيئًا، ما كان في ذلك صبر، فهل عندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق (جدي صغير) قال: فذبحت العناق وطحنت الشعري حتي جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ، والعجينُ قد

انكسر[١] والبرمة بين الأثافي[٢] كادت تنضج، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ﷺ ورجل أو رجلان، قال: «كم هو»؟ فذكرته لـه، فقال: «كثير طيب، قُلْ لها: لا تنزع البرمة ولا الخبزَ من التنور حتى آتي»، فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار ومن معهم قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: «ادخلوا ولا تضاغطوا» فجعل ﷺ يكسر الخبز ويغرف من البرمة حتى شبعوا وبقي بقيةٌ، فقال لي: «كلي هذا وأهْدي؛ فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وثالثة: قال سلمان ﷺ: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظتْ عليَّ صخرةٌ - ورسول الله ﷺ قريبٌ منّي - فلما رآني أضربُ ورأى شدة المكان عليَّ - نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول بَرْقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى. قال سلمان: فقلت: بأبي أنت وأمّي، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أوقد رأيتَ ذلك يا سلمان»؟ قلت: نعم قال: «أما الأولى، فإن الله فتح عليّ باب اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ باب الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق».

د - موقف مخز للمنافقين:

لما شرع الرسول ﷺ والمؤمنون في حفر الخندق، كان المؤمنون يواصلون العمل، وإن كانت لأحدهم حاجة ضروريّة استأذن رسول الله ﷺ، فأذن له فيذهب إلى أهله فيقضي حاجته ويعود، أما المنافقون فإن أحدهم يُوَرِّي بقليل من العمل، ثم يذهب إلى أهله بدون إذن ولا استئذان في خفاء، فأنزل الله تعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا[٣] فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ونزل في المؤمنين الصادقين ثناء الله عليهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

---

(١) أي صار كسرة بمعنى نضج.

(٢) الأثافي جمع أثفيّة: حجر يوضع فوقه القدر.

(٣) مستترين بشيء عند الهرب من العمل حتى لا يُرَوْا.

هـ - مواجهة العدو:

وما إن تمَّ حَفْرُ الخندق حتى وصلت قريش وعسكرتْ بمجمع الأسيال قريبًا من بئر دومة الجرف والغابة، ووصلت غطفانُ بقبائلها، فعسكرت شرق المدينة بجانب أحد، وكان عامة أفراد قوات العدو تُقَدر باثني عشر ألف مقاتل. وخرج النبي ﷺ بأصحابه، وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل - جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، ووجوهَهُم تجاه العدو، بعد أن استعمل على المدينة ابن أم مكتوم الأعمى، وجعل النساء والأطفال في الآطام[1] والحصون.

و - عمل شرير يقوم به ابنُ أخطب:

وذهب حُيَيُّ بن أخطب - عليه لعائن الله - إلى كعب بن أسد القرظي - صاحب عقد بني قريظة وعهدهم - إذ كان قد عاقد الرسول ﷺ وعاهده على قومه، فلما سمع كعبٌ صوتَ حُيي وعَرَفَه أغلق باب حصنه دونه، فاستأذن حيي فلم يأذن له، فصاح حيي: ويحَك يا كعبُ افتح لي، فقال كعب: ويحك يا حيي فإنك امرؤ مَشْئُومٌ، وإني قد عاهدتُ محمدًا؛ فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا الوفاء والصدق. وما زال يُراوده على الفتح حتى فتح له الباب ودخل، وكان أول ما قال قوله: ويحك يا كعب، لقد جئتك بعزٍّ الدهر وبِبَحرٍ طامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَى إلى جنب أحد، قد عاهدوني ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه. فقال له كعب: جئتني - والله بذلٍّ الدهر، ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه، وما زال حيي يراود كعبًا حتى نقض عهده مع رسول الله ﷺ، وبرئ مما كان بينه وبين محمد ﷺ. وبهذا نقضت قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، وبلغ هذا النبي ﷺ فأرسل السعدين: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من الأنصار لتقصِّي الحقيقة، ومعرفة ما إذا كانت قريظة قد نقضت عهدها حقًّا. وذهب السعدان - رضي الله عنهما ومن معهما - وعادا بالحقيقة المرة، وهي أن قريظة قد نقضت عهدها، وهي على أخبث حال، وقد أوصاهم رسول الله ﷺ إذا كانت قريظة قد نقضت عهدها ألا يُصَرِّحوا بذلك، ولكن يُلْحنوا لحنًا حتى لا يَفْتَتِنَ الناسُ في المعسكر، ولا يفُتَّ في أعضادهم، ولذا قالوا: عضل والقارة، أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب

(١) جمع أطم وهو الحصن أو البيت المرتفع.

وأصحابه وهنا قام رسول الله ﷺ فكبّر وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين».

بنقض قريظة عهدَها عظُمت الفتنةُ واشتد البلاء وعظم الكرب، وأصبحت الحال كما وصف الله تعالى في كتابه، إذ قال من سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]أي قريظة من فوق الجنوب الغربي، وقريش وغطفان من أسفل إذ هم من الشمال الغربي والشرقي، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]- أي من شدة الخوف - ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]- أي المختلفة، وهذه حال المنافقين وضَعَفَة الإيمان، أما المؤمنون الصادقون فهم كما قال تعالى فيهم: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١١، ١٢]إذ قال معتّب بن قشير: كان محمد يَعدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدُنا اليومَ لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!! وقال أوسُ بن قيظي: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، أي مكشوفة له فأذَنْ لنا أن نخرجَ - أي من المعسكر - فنرجع إلى ديارنا، وهو ومن مالأه من قومه المعنيُّون بقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]في آيات كثيرة تكشف عُوارهم وتُظهر نفاقهم.

ز - رحمة نبوية تتجلى في عرض صالح:

ولما رأى الحبيب محمد ﷺ صعوبة الموقف وشدة البلاء، وما أصاب المسلمين من مخاوف: بعث إلى عيينة بن حصن، وإلى الحارث بن عوف - وهما قائدا غطفان - يعرض عليهما صلحًا، وهو أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهم من قومهم،وتم الصلح حتى كُتبت الوثيقة إلا أنها لم يشهدْ عليها بعد، وقبل التوقيع النهائي بعث رسول الله ﷺ إلى السعدين فذكر لهما، واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أمرٌ تحبّه فنصنعه أم شيءٌ أمرك الله به لابد لنا من عمل به، أم شيءٌ تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم [1] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمرٍ ما». فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى، أو بيعًا، أفَحينَ أكرمنا الله بالإسلام

---

(١)أي اشتدوا عليكم.

وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك»، فتناول سعد ابن معاذ الصحيفة «الوثيقة» فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال: ليجهروا علينا.

ح - بداية المعركة:

ووقف الرسول ﷺ والمؤمنون وجهًا لوجه أمام العدو، وتحركت خيلٌ من قريش على رأسها عمرو بن عبد وُدّ، فمروا بخيمات بني كنانة، فقالوا لهم: تهيَّئوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون مَنِ الفرسانُ اليوم!! ثم أقبلوا تُسْرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدُها، ثم قصدوا مكانًا ضيقًا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم بين السبخة وسَلْع، وما إن رآهم المسلمون حتى خرج عليّ بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين ووقفوا بينهم وبين الثغرة التي دخلوا منها بخيلهم، لما رأوا ذلك أقبلوا مسرعين نحو الثغرة التي أخذت منهم فوقفوا دونها، وقال عمرو بن ود: مَنْ يبارز؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب ﷺ، وقال: له: يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله تعالى ألاّ يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلاّ أخذتهما منه، قال له: أجل! فقال عليّ: إني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام فقال: لا حاجة لي بذلك، قال عليّ: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا ابن أخي؟! فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال عليّ: لكني - والله - أحب أن أقتلك، فَحَمي عمرو عند ذلك، فنزل عن فرسه وعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ يُنازله، فتنازلا وتجاولا، فقتل عليّ عمرًا، ولما رأت خيل المشركين ذلك فرّت هاربة مقتحمة الخندق. ولم يقدروا بعد هذه الجولة أن يقتحموا الخندق لا رجالاً ولا فرسانًا، وإنما هي الاقتناص والرماية حتى إن ابن العَرِقة رمى سعد بن معاذٍ بسهم وقال: خُذها وأنا ابن العرقة[1] فقال له سعد: عرق وجهك في النار، وكان سعد قد أصيب في أكْحَله، وقلَّ مَنْ ينجو من الموت من أُصيب إصابته، ولذا دعا فقال اللهم إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئًا فأبقني لها؛ فإنه لا قومٌ أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه. اللهم إن كنت قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم، فاجعله لي شهادة، ولا تُمتْني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة. وعظم البلاء وفزع الحبيب ﷺ إلى ربه يدعوه ويسأله النصر له والهزيمةَ لأعدائه فقال:

---

(١) هي قلابة بنت سعيد تكنى أم فاطمة، وهي جدة خديجة أي أم أمها هالة، وقيل لها: العرقة لطيب عَرَقها.

«**اللهم مُنزلَ الكتاب، سريعَ الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»، وقال له بعض أصحابه: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوبُ الحناجر، فقال: «**نعم، قولوا: اللهم استُر عوراتنا وآمن رَوْعاتنا**» وقد حالت المواجهةُ للعدو دون صلاة العصر حتى غربت الشمس فصلّى بعد ذلك، ودعا على المشركين فقال: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا الصلاة الوسطى**»، صلاة العصر. وحصل هذا عدة مرات، وذلك لأن صلاة الخوف لم ينزل القرآن بها بَعْدُ، وإلاّ لصلوا على أي حال ولا يؤخرونها عن وقتها.

واستجاب الله دعوة رسوله وعباده المؤمنين، فساق إلى رسوله نُعيم بن مسعود الغطفاني - بعد أن هداه إلى الإسلام فأسلم - وأتَى النبيّ ﷺ يقول له: يا رسول الله، إني قد أسلمتُ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي؛ فمُرْني بما شئتَ، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعتَ، فإن الحرب خدعة**»، وخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - كان لهم نديمًا في الجاهلية - فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودّي إيّاكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالا: صدقت، لستَ عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلدُ بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحوّلوا منه إلا غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوها نهزة[1] أصابوها، وكان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إنْ خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذا منهم رُهُنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

ثم خرج من عندهم حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليّ حقًا أن أبلغكُموه؛ نصحًا لكم فاكتموه عنّي، فقالوا نفعل. فقال: تَعَلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك علي من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: إنْ نعم، فإن

---

(١) نهزة: أي فرصة انتهزوها.

بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منك رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان: فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي وأحبُّ الناس إليّ، ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقْتَ ما أنت عندنا بمتّهم، قال: فاكتموا عنّي، قالوا: نفعل، فما أمْرُك؟ فقال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

وكان من تدبير الله تعالى لرسوله والمؤمنين - ليخرجهم من محنتهم - أن أرسل أبوسفيان ورجالٌ من غطفان إلى بني قريظة وفي ليلة سبت يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخُفُّ والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: أنَّ اليوم يومُ السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيها بعضُنا حَدَثًا فأصابهم ما لم يَخْفَ عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقتل معكم محمدًا حتى تعطوا رُهُنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجزَ محمدًا، فإنا نخشى إن ضرّستكم(١) الحربُ، واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا(٢) إلى بلادكم وتتركونا؛ والرجلُ في بلادنا ولا طاقة لنا به. فلما رجعت الرسل إلى قريش وغطفان بما قالت بنوقريظة، قالوا: والله إن الذي حدثكم به نُعيم بن مسعود لحَقٌّ فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا نَدفع إليكم رجلاً واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلُوا، فقالت بنوقريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيمٌ لحقٌّ ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشَمَرُوا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلادكم، فأرسلوا إلى قريش وإلى غطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم، وخذّل الله تعالى بينهم، فلم يعزموا على القتال، وأرسل الله عز وجل عليهم الريح في ليلة شاتية باردة شديدة البَرْدِ، فجعلت تكفأ قدورهم وتقتلع خيامهم، وما أطاقوا المقام؛ فقرروا العودة فورًا إلى بلادهم، وارتحلوا عاندين لم ينالوا خيرًا، وكفى الله رسولَهُ والمؤمنين قتالهم، وكان الله قويًا عزيزًا. وأنزل في ذلك قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩] وقوله: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

---

(١) نالتكم الحرب بأضراسها كناية عما تُلحق بهم من موت وهزيمة.

(٢) تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم.

ولنستمع الآن إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يحدثنا عن مشاهدته لمعسكر أبي سفيان في تلك الليلة الباردة وهو يعلن الرحيل بسرعة.

قال رضي الله عنه وقد قال له رجل من أهل الكوفة: يا أباعبدالله، أرأيتم رسول الله وَصَحِبتُموهُ؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟! قال: والله لقد كنا نجهد، فقال السائل لحذيفة: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يا ابن أخي والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوِيًّا[1] من الليل ثم التفت إلينا فقال: «**مَنْ رجُلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع**»؟ - فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - «**أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة**». فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يَقُمْ أحدٌ دعاني رسولُ الله ﷺ فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني. فقال: «**يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم فانظر ما يصنعون ولا تُحْدِثَنّ شيئًا حتى تأتينا**» قال: فذهبت فدخلت في القوم، الريحُ وجنودُ الله «الملائكة» تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم نارًا ولا قدرًا ولا بناء، فقام أبوسفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسهُ؟ قال: حذيفة فأخذتُ بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان، ثم قام أبوسفيان فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام؛ لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنوقريظة وبلَغَنَا عنهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدْر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء؛ فارتحلوا إني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ: «**لا تُحدث شيئًا حتى تأتيني**» ثم شئت لقتلته بسهم، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط[2] لبعض نسائه. فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليّ طرف المرط، ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر. وسمعتْ غطفانُ بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

وهناك قال الحبيب ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**»، وحقًّا لم تَغْزُ بعدها قريشٌ النبيَّ الحبيب ﷺ حتى غزاهم في عقر دارهم ودخل مكة عليهم. ولما أصبح رسول الله ﷺ من تلك الليلة، عاد إلى المدينة وعاد أصحابه، والحمد لله.

---

(١) هُوِيًّا: أي قطعة من الليل.
(٢) كساء.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها إزاء الأرقام التالية:

١ - مُوقِدُ نار حرب غزوة الخندق هم رؤساء يهود بني النضير: حيي بن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع. وما زال اليهود يوقدون نيران الحرب إلى اليوم.

٢ - بيان خيانة وغدر عيينة بن حصن الغطفاني، إذ وادعه الرسول ﷺ واقتطع له أرضًا وغدر.

٣ - فضل سلمان الفارسي في إرشاده المؤمنين إلى حفر الخندق، وقول الرسول ﷺ فيه: «سلمانُ منا آلَ البيت» لما تنازعه كلٌّ من المهاجرين والأنصار.

٤ - تجلي آيات النبوة المحمدية عند حفر الخندق في ثلاثة مواطن وهي تفتّت الصخرة حتى كانت كثيبًا مهيلاً، وما أعلنه عند كل بارقة برقت إذ كان ما أخبر به كما أخبر. وإطعام المئات بصاع شعير وجدي من الماعز.

٥ - بيان أن هذه الغزوة كانت تمحيصًا للمؤمنين، وكشفًا لعوار المنافقين.

٦ - تجلي الرحمة المحمدية في سعيه ﷺ للصلح مع العدو الغازي ليخفف به على المؤمنين.

٧ - جلال موقف سعد بن معاذ في رفضه الاتفاقيّة؛ إيمانًا وتوكلاً وصبرًا وصدقًا.

٨ - ظهور بطولة علي بن أبي طالب في منازلته عمرو بن ود، وقتله إياه في جولات محدودة.

٩ - عظم مصاب المسلمين في سعد بن معاذ وهو القائل عند قدومه على المعركة:

لبث قليلاً يُدرك الهيجا جَمل
لا بأس بالموت إذا حان الأجَلْ

١٠ - استجابة الله تعالى دعاء رسوله والمؤمنين.

١١ - عظم دور نُعيم بن مسعود في تخذيل كل من اليهود والمشركين.

١٢ - تقرير حقيقة سياسية رشيدة، وهي عدم الأخذ بنصائح العدو مهما كان صادقًا ووجوب الحذر منها، تجلّت هذه الحقيقة في دور نُعيم الذي قام به في تخذيل العدو في قالب نصائح لا نظير لها.

١٣ - فضل حذيفة بن اليمان لاختيار الرسول ﷺ له وبعثه لاستطلاع حال العدو، وفوزه بمرافقة الحبيب ﷺ في الجنة.

١٤ - تفسير آيات الأحزاب الواردة في غزوة الأحزاب وفي نحو من سبع عشر آية.

وثالث أحداثها:

غزوة بني قريظة

بنوقريظة إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا يسكنون حول المدينة النبويّة ووادعهم رسولُ الله ﷺ ونقضوا عهدهم واحدةً بعد واحدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠] فاليهود إلى اليوم لا يَفُون بعهد، ولا يلتزمون بميثاق، فكان النكث والغدر وصفًا لازمًا لهم - إلا ما شاء الله منهم.

فبنوقريظة، نقضوا عهدهم وانضموا إلى معسكر المشركين المحاصرين للمدينة الذين جاءوا لاستئصال الرسول والمؤمنين - خيّب الله مسعاهم - فبهذا وجب قتالهم وتعيّن قتلهم أو إجلاؤهم عن البلاد وإخراجهم منها.

كان هذا سبب غزوة بني قريظة، وهو نقضهم للمعاهدة، وانضمامهم إلى المشركين الغزاة الظالمين المعتدين.

بداية غزوهم:

لما عاد الرسول ﷺ والمؤمنون من الخندق - وذلك يوم الأربعاء من أواخر شهر ذي القعدة من سنة خمسٍ من الهجرة - ودخلوا المدينة، فلما كان وقت الظهر أتى جبريل عليه السلام معتجراً[1] بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة[2]، عليها قطيفة من ديباج فقال: «أوقد وضعتَ السلاح يا رسول الله»؟ قال: «نعم»، فقال جبريل: «فما وضعت الملائكةُ السلاحَ بعدُ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم».

واستجاب الرسول الحبيب ﷺ أمر ربّه تعالى فعيّن على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر ابن عمه عليّ بي أبي طالب أن يتقدم برايته إلى بني قريظة بِجَسٍّ نبضهم، ومعرفة

(١) الاعتجار بالعمامة: ألا يجعل شيء منها تحت اللحية.

(٢) الرحالة: السرج.

أحوالهم، وما هم عليه. وأذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس أن احضرا فوراً إلى النبيّ ﷺ فحضروا، فأمرهم بالمسير إلى بني قريظة، وقال لهم: «**لا يُصلينَّ أحدُكم العصرَ إلا في بني قريظة**». وخف الناس وخرجوا، وحانت صلاة العصر، فمنهم من صلاها في طريقه متأولاً قولَ الرسول ﷺ، ومنهم من لم يصلها حتى دخل الليل عملاً بظاهر النص: «**لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة**»، ولم يَعِب النبيّ ﷺ على من صلى ولا من آخر؛ إذ الكل عامل بطاعته ﷺ.

وخرج الحبيب ﷺ مع أصحابه، فإذا بعليّ رضي الله عنه عائد من بني قريظة، وقال للرسول ﷺ لا عليك ألا تدنوا من هؤلاء الأخباث، فقال الرسول ﷺ: «**لَمِ؟ أظنك سمعَ منهم لي أذي؟**» قال: نعم. قال: «**لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا**»، وكانوا قد نالوا من الرسول شيئًا لما دنا منهم عليٌ وخاطبهم. وسار الحبيب ﷺ حتى وصل إلى ديارهم ودنا من حصونهم ناداهم قائلاً: «**يا إخوان القردة، هل أخزاكم اللهُ وأنزل بكم نقمه!**» قالوا: يا أباالقاسم ما كنتَ جهولاً.

وأثناء مسيره ﷺ إلى بني قريظة مـرّ بنفر من أصحابه فسألهم: «**هل مر بكم أحد؟**» قالوا: يا رسول الله مـرّ بنا دحيةُ بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء، عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حُصُونهم ويقذف الرعبَ في قلوبهم**». ونزل الحبيب ﷺ وأصحابه على بئر من آبار بني قريظة يقال له: «أنا» أوْ «أنَي»، ولما تلاحق المسلمون حاصرهم ﷺ، وطلب منهم النزول، فأبوا أن ينزلوا. وفي هذه الأثناء - وعندما جهدهم الحصار وأيقنوا أنّ النبيّ ﷺ لا يفلّتهم - قام فيهم كعب بن أسد أحد أشرافهم، وهو صاحب الحل والعقد بينهم فقال لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثًا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنّه لنبيّ مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون علي دمائكم، وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم هذه فَهَلُمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك، نهلك ولم نترك وراءنا نسْلاً نخشى عليه، وإن نظهرفلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة سبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد

أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من أصحابه غرّة، قالوا: نفسد سبتنا علينا[1] ونُحْدث فيه ما لم يُحْدِث مَنْ كان قبلنا إلا مَنْ قد علمتَ؛ فأصابهم ما لم يَخْفَ عليك من المسخ؟

وهنا قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمة ليلة واحدة من الدهر حازمًا.

عرض مرفوض:

ولما اشتدت حيرتُهم، وعظمت مخاوفهم أنزلوا رجلاً منهم هو شاس بن قيس ليفاوض رسول الله ﷺ في شأنهم، فنزل وكلَّم رسول الله ﷺ وعرض عليه أن يعاملهم معاملة بني النضير بحيث يخرجون بأموالهم ونسائهم وأولادهم ويتركون السلاح، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فقال شاس: تحقن دماءنا وتعطينا النساء والذريّة ولا نأخذ من أموالنا شيئًا؟ فأبي ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، فعاد شاس فأخبرهم بنتيجة المفاوضات وأنها في غير صالحهم.

وآخر مقبول:

ولما رفض رسول الله ﷺ مقترحَهم، بعثوا إليه يطلبون أن يبعث إليهم أبالبابة ليستشيروه في موضوع النزول على حكم رسول الله ﷺ، وكان أبولبابة أوسيًا - وقريظةُ كنت حلفاء الأوس - فبعث إليهم النبي ﷺ أبالبابة فدخل عليهم حصنهم، فما إن رأوه حتى قام إليه الرجال وجهش النساءُ والصبيان بالبكاء، فَرَقّ لهم أبولبابة، فقالوا له: يا أبالبابة، أننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح!!

عثرة كريم أقالها جل جلاله:

وخرج أبولبابة من عندهم وهو يقول: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفتُ أني قد خنتُ الله ورسوله، ولذا انطلق على وجهه، ولم يأتِ رسول الله ﷺ حتي ربط نفسه في سارية المسجد، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوبَ الله عليّ مما صنعتُ، وعاهد الله ألا يطأ بني قريظةَ أبدًا، ولا يُرى في بلد خان فيه الله ورسوله أبدًا. وكانت آية الأنفال تعنيه وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ولما بلغ النبيَّ ﷺ خبرُه - وكان قد استبطأه فلم يأتِ - قال: «أما إنه لو جاءني

---

(١) إشارة إلى الذين اعتدوا في السبت بالصيد فمسخوا قردة.

لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه»، وقضى أبولبابة كذا يومًا مربوطًا، تأتي امرأته وقت الصلاة فتطلقه، فإذا صلى ارتبط.

في سحر الليلة السادسة من ارتباطه سمعت أم سلمة النبيّ ﷺ يضحك فقالت له: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سِنَّك!! قال: «تيب على أبي لبابة» قالت: ألا أبشره يا رسول الله؟ - وكان الحجاب لم يضرب بعد على نساء النبيّ والمؤمنين - قال: «بلى» فقامت على باب حجرتها وقالت: يا أبالبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه قال: لا، والله حتى يكون الرسول ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مرّ عليه الرسول ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

في ليلة نزول قريظة:

وفي ليلة نزول قريظة على حكم رسول الله ﷺ أكرم الله أربعة أنفار من اليهود فأسلموا، ثلاثةٌ منهم ليسوا من بني قريظة والرابعُ قرظي، فغيرُ القرظيين هم: ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد وهم من بني هدل فليسوا قرظيين ولا نضريين. والقرظي هو عمرو بن سُعدى القرظي، فإنه أبى أن يدخل مع قريظة في غدرها لرسول الله ﷺ، وقال لا أغدر محمدًا أبدًا، ومرّ في الليل بحرس رسول الله ﷺ الذي عليه محمد بن مسلمة، فعرفه محمد بن مسلمة، وقال: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، وخلّي سبيله، فذهب على وجهه حتى أتى مسجد الرسول ﷺ فبات به تلك الليلة. ثم ذهب فلم يُدْرَ أين توجّه من الأرض إلى يومنا هذا. ولما ذكر لرسول الله ﷺ قال: «ذاك رجل نجاه الله بوفائه».

نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ:

ولما أصبح الصباح وأعلن عن نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ، وتوافد رجال الأوس على رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمتَ - وهو أنه قد وهب بني قينقاع لابن أبيّ الخزرجي لما ألحّ عليه في ذلك شافعًا فيهم بوصفهم مواليه - أي أحلاف الخزرج - فقال لهم ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم»؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: «فذلك إلى سعد بن معاذ».

من المستشفى إلى المحكمة:

لقد أصيب سعد في الخندق بسَهْم في أَكْحَلِه ودعا ربّه لا يتوفاه حتى يُرِيَهُ نقمه في بني قريظة الخونة الغادرين، ولما هزم الله المشركين، وارتحلوا، وعاد النبيّ ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، وضع الرسول ﷺ سعد بن معاذ في خيمة رفيدة الأسلميّة في مسجد ﷺ التي اتخذتها مثل المستشفى تعالج فيها الجرحى من فقراء المسلمين وضعفائهم، محتسبةً ذلك عند الله ترجو ثوابه يوم القيامة، وأمر النبيّ ﷺ بوضع سعد في خيمة رفيدة من أجل أن يقرب منه ليعوده من قريب.

ولما حكّمه ﷺ في بني قريظة، أتاه قومه من الأوس فحملوه على حمار قد وطّئوا له بوسادة من أدَم، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أباعمرو أَحْسِنْ في مواليك، فإنما ولأّك رسولُ الله ﷺ ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد الا تأخذه في الله لومة لائم. وهنا فهم القوم أن سعداً سوف لا يرحمهم، ولما وصل سعد، قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**» فقاموا إليه وأنزلوه عن الدابة وقالوا له: يا أباعمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمرَ مواليك لتحكم فيهم، فقال لهم سعد: عليكم بذلك عقد الله وميثاقه أنَّ الحكم فيهم ما حكمتُ؟ قالوا: نعم: وعلى من ههنا؟ - يشير إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ جالسٌ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له وتوقيراً - فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسْبَى الذراريّ والنساء. فقال رسول الله ﷺ: «**حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**»[1].

كيف نزل القرظيون من حصونهم:

إنه لما صدر حكم الله تعالى على لسان سعد بن معاذ في بني قريظة، ورضي الحكمَ رسولُ الله ﷺ والمؤمنون ووافقوا عليه مجتمعين، كان القرظيون ساعتئذ في حصونهم، وقد أبوا أن ينزلوا على حكم سعد، فصاح علي بن أبي طالب قائلاً: يا كتيبة الإيمان - وتقدم هو والزبير بن العوام - وقال: الله لأذوقنَّ ما ذاق حمزة أو لأقتحمنّ حصنَهم، فصاح اليهود وقالوا: يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ، ونزلوا فاقتيدوا إلى المدينة، وحُبِسوا في دار بنت الحارث - امرأة من بني النجار يقال لها: نُسَيْبَةُ بنتُ الحارث.

---

(١) جمع رقيع. والمراد: السموات السبع؛ لأنه رقعة فوق أخرى.

تنفيذ الحكم:

ثم خرج الحبيب محمد ﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر أخاديد فيها، ثم أمر أن يؤتى بهم أرسالاً، فَتُضْرب أعناقهم ويُلْقَون في تلك الأخاديد، وكانوا قرابة سبعمائة الرجل من بينهم كعب بن أسد رئيسهم، وعدو الله حيي بن أخطب النضري محزِّب الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين، وقد قالوا لكعب - وهم يُسَاقون أرسالاً إلى رسول الله ﷺ - إلى أين يُذْهب بنا يا كعب؟ فقال لهم: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترونَ الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!! وأخيرًا جيء بعدوا الله حيي بن أخطب - عليه حلّة فقاحيّة[1] قد شقها من كلَ جهاتها حتى لا ينتفع بها المسلمون، جيء به مجموعة يداه إلى عنقه، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمتُ نفسي في عدواتك، ولكنه مَنْ يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس، وقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتابٌ وقَدَرٌ، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس، فَضُربت عنقه.

القرظية العجب:

لقد أعدم كل من أنبت الشعر واحتلم من ذكران بني قريظة إلا رفاعة فقد استوهبته سلمى بنت قيس - أم المنذر النجاريّة - النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله - بأبي أنت وأمّي - هَبْ لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيُصلّي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها فاستحيته، أما نساؤهم فلم يقتل منهم إلا امرأة واحدة قُتلت بجناية ارتكبتها[2]. وكانت المرأة عجبًا في حياتها، ولنترك لأم المؤمنين عائشة تحدثنا عنها.

حدث عروة بن الزبير عن خالته ﵂ قال: إنها قالت: لم يُقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، إنها والله لَعِنْدي تتحدّث معي وتضحك وتتقلّبُ ظهرًا لبطن من الضحك، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق؛ إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، فقلت لها: ويلك مالك؟ قالتْ: أُقتَل. قلت: ولم؟ قالت: بحدث أحدثته، فانطلق بها فضرب عنقها. فكانت عائشة تقول: والله ما أنسَى عجبًا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفتْ أنها تقتل.

---

(١) موشاة بالحمرة كالورد.

(٢) كانت قد طرحت الرَّحَا على خلاد بن سويد فقتلته.

وقرظي أعجب:

هذا القرظي الأعجب حالاً من القرظيّة العجب، هو الزَّبير[1] بن باطا أحد أعيان بني قريظة. وكان هذا الزَّبير قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية، وذلك في حرب بُعاث؛ إذ قد جزَّ ناصيته وخلَّى سبيله، فجاء ثابت - وهو شيخ كبير - فقال: يا أباعبدالرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال الزبير: إن الكريم يجزي الكريم.

ثم أتى ثابتٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد كان للزبير بن باطا عليّ منة، قد أحببتُ أن أجزيه بها؛ فَهَبْ لي دمه. فقال رسول الله ﷺ: «هو لك» فأتاه فقال له: إن رسول الله ﷺ قد وَهَبَ لي دمك فهو لك، فقال الزبير: شيخ كبير لا أهلَ له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابتٌ رسولَ الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده، قال: «هما لك» فأتاه فقال له: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهما لك، فقال: أهل بيت في الحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ماله، قال: «هما لك» فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك فهما لك، قال أي ثابت: ما فعل الذي كَأنَّ وجهَه مرآة صينيّة يتراءى فيها عذارى الحيّ كعب بن أسد؟ قال: قتل. قال: فما فعل سيّدُ الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مُقدّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا، إذا فررنا، عزّال بن سموءل؟ قال: قُتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا قتلوا، قال: فإني أسلك يا ثابت؛ بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم؛ فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير. فما أنا بصابر لله فَتْلَة[2] دَلْوِ ناضِحٍ حتى ألقى الأحبّة، فقدمه ثابتٌ فضرب عنقه.

ولما بلغ أبابكر الصديق قولهُ: «ألقى الأحبة» قال: يلقاهم والله في نار جهنّم خالداً فيها مخلداً.

أموال بني قريظة:

بناءً على حكم سعد بن معاذ الذي وافق فيه حكمَ الله تعالى، ورضيه رسوله محمد

---

(١) الزبير بفتح الزاي بخلاف الزبير بن العوام فبضم الزاي.

(٢) إفراغه دلو أي زمن ما يفرغ دلو ماء، كناية عن أقصر زمن.

ﷺ، فإن أموال بني قريظة، - كنسائهم وذرّياتهم - تقسم على المسلمين، فلذا قسمها رسول الله ﷺ فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا - بعد أخذ الخمس الذي هو لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل - وعلى هذه السُّنة مضَتْ في الإسلام قسمةُ الغنائم إلا أن بعض أئمة الفقه يرى أن الفارس يُعطى سهمين والراجل يُعطى سهمًا واحدًا.

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري - أخا بني عبدالأشهل - بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد فباعهم، واشترى بثمنهم خيلاً وسلاحًا للمسلمين.

ريحانة الحبيب ﷺ:

ريحانة: امرأةٌ من بني عمرو بن قريظة، اصطفاها رسول الله ﷺ قبل قسمة السبايا وعرض عليها الزواج بها ويضرب عليها الحجاب فأبت، وقالت: يا رسول الله، اتركني في ملكك فهو أخفّ عليّ وعليك، فتركها، وعرض عليها الإسلام فأبَتْ إلا اليهوديّة، فعزلها ووجد في نفسه لذلك من أمرها، فبينما هو مع أصحابه، إذ سمع وَقْعَ نعلين خلفه فقال: «إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة». فجاء فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسره ذلك من أمرها فكانت عنده ﷺ حتى توفي وهي في ملكه ﷺ.

وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه:

بعد أن حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بحكمه الذي وافق حكم الله ورسوله عادوا به إلى خيمة رفيدة بالمسجد النبوي، تعالجه وتشرف عليه رفيدة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بني قريظة - حيث تم قتل رجالهم وقسمة أموالهم، ونسائهم وذراريهم، وفي ذات ليلة انفجر عرق سعد الذي كان قد رقأ حتى أقرّ الله تعالى عينه بهلاك بني قريظة - كما سأل ربّه ذلك - فأتى النبيّ ﷺ جبريلٌ وقال له: يا محمد مَنْ هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ فقام ﷺ سريعًا يجر رداءه إلى سعد، ولحق به أبوبكر وعمر، فوجده قد مات شهيدًا متأثرًا بجرحه الذي أصيب به في الخندق يوم أتى الخندق وهو ينشد:

لَبِّث قليلاً يدرك الهيجا جمل

لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قالت عائشة رضي الله عنها: سمعتُ بكاء أبي بكر وعمر على سعد، إلا أن النبي ﷺ كان لا يبكي على أحد، ولكن إذا اشتد وَجْدُه[1] أخذ بلحيته ﷺ.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها فيما يأتي:

١ - بيان وبال عاقبة الغدر والخيانة وأنه عائد على صاحبهما، وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

٢ - بيان فضل الله تعالى على أبي لبابة في قبول توبته، وفضل أبي لبابة في صدق لجئه إلى ربّه تعالى.

٣ - بيان أن في الوفاء النجاة، وأن الصدق منجاة.

٤ - بيان فضل رفُيدة الأسلمية في بنائها خيمةً تعالج فيها الجرحى، كأنها بنت مصحة اليوم وتعالج فيها بنفسها فضربت المثل في ذلك.

٥ بعض الأفراد من البشر أمرُهم عجبٌ كالقرظية القتيلة والزبير بن باطا.

٦ - تجليات الكرم والحلم والحزم المحمدي في غزوة بني قريظة، يَرَى ذلك كلٌّ من استعرض أحداث هذه الغزوة.

أهم ما وقع من أحداث في السنة الخامسة من هجرة الحبيب ﷺ

إن ما اشتملت عليه السنة الخامسة من هجرة النبيّ ﷺ من أحداث ذات شأن يمكن الوقوف عليه إزاء النقاط الآتية:

- غزوة دومة الجندل.
- غزوة الخندق، وما تجلت فيها من آيات النبوة المحمدية، وما لاقى فيها المسلمون من بلاء.
- غزوة بني قريظة وهلاكهم؛ بموتِ رجالهم وسبي نسائهم وأولادهم نتيجة غدرهم وخيانتهم.

---

(١) الوجد بفتح الواو: الحزن والألم النفسي، وبالضم: اليسار والسعة في الرزق.

• وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه.

• زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش بنت عمته بعد طلاق زيد مولاه لها.

• فرضية الحجاب صبيحة عرس زينب الذي تولى الله تعالى عَقْد نكاحها - رضي الله وأرضاها - ثمرة طاعتها لله ورسوله.

• إبطال عادة التبني نهائيًا بتزوج الرسول ﷺ بزينب امرأة زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه النبيّ ﷺ في مكة أيام العمل بهذه البدعة.

أحداث السنة السادسة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السادسة من هجرة النبيّ المباركة وكان أول أحداثها:

غزوة بني لحيان

في جمادى الأولى من هذه السنة السادسة من هجرته (فداه أبي وأمي ونفسي) رأى ﷺ أن يطالب بدم أصحاب الرجيع الذين غدر بهم رجال لحيان وقتلوهم هم: خبيب وأصحابه رضي الله عنهم فانتدب مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابنَ أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام - هي تورية فقط والحرب خدعة - فخرج برجاله عن الطريق المؤدي إلى ديار بني لحيان، فعَمّى على الأعداء، ثم عاد إلى الطريق القاصد، وذلك من أجل أن يصيب من القوم غِرَّةً، وواصل سيره وأغذّه وبسرعة هائلة حتى نزل على غُرَان وهي منازل بني لحيان، وغُران هذا وادٍ بين أمج وعسفان ممتد إلى بلد يقال له: سَايَة، فلما علموا بطلبه لهم حذروا فتمنّعوا في رءوس الجبال، فلما نزل بديارهم ولم يلقهم - لتحصنهم برءوس الجبال - رأي أن يُرهب قريشًا فيُشْعرهم بقدومه إلى قرب ديارهم طلبًا للغادرين من بني لحيان، ليكون ذلك ذا وَقْع في نفوسهم، وقد سبق له ﷺ أن صرّح فقال: «**اليوم نغزوهم ولا يغزوننا**» قالها بعد خيبة قريش في الخندق. فسار ﷺ برجاله وهم مائتا راكب كما تقدم حتي هبط عسفان، ثم بعث فوارسَ من رجاله على رأسهم أبوبكر الصديق حتى بلغوا كراع[1] الغميم، ثم كرَّ وراح ﷺ راجعًا وهو يقول: «**آيبُون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون. أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال**». وقال في هذه الغزوة كعبُ بن مالك شعرًا هو:

(١) موضع بالحجاز بين مكة والمدينة وهو إلى مكة أقرب.

لو أنَّ بني لحيان كانوا تناظروا[١]
لَقُوا عُصَبًا[٢] في دارهم ذات مصدقِ
لَقوا سَرَعانًا[٣] يملأ السّرب[٤] رَوْعُه
أمام طحون[٥] كالمَجَرّةِ فَيْلَقِ
ولكنهم كانوا وبارًا[٦] تتبَّعت
شعاب حجازٍ غير ذي متنفّق[٧]

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوردها كتالي:

١ - مشروعية المعاقبة بالمثل بقتالٍ وقَتْلٍ من خان وغدر.

٢ - مشروعية التورية والتعمية على العدو ليصاب منه غرّة.

٣ - مشروعية إرهاب العدو بالنزول بساحته وإظهار القوة له.

٤ - مشروعية قول: «آيبون تائبون لربنا حامدون» عند العودة من السفر الصالح.

٥ - مشروعية التعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال.

* * *

(١) بمعنى انتظروا.
(٢) جمع عصبة أي الجماعة.
(٣) السرعان أول القوم.
(٤) النفس.
(٥) الكتيبة تطحن كل ما تمرّ به.
(٦) جمع وبرة: دويبة.
(٧) أي لا نفق فيه يخرج منه.

وثاني أحداثها:

غزوة ذي قَرَد

سبب هذه الغزوة:

إن لهذه الغزوة - كما لغيرها - سببًا اقتضاها، وهو أن عيينة بن حصن الفزاري وهو ذاك الذي قاد قبائل غطفان لحرب الرسول ﷺ بالمدينة مع الأحزاب، هذا العدو الحاقد أغار في خيل له من رجاله على سرح المدينة وهي لقاح للنبيّ ﷺ تبلغ عشرين لقحة[1] وهي الإبل ذوات الألبان، فاستاقوا الإبل وقتلوا الراعي وأخذوا امرأته.

أول من علم بالغارة:

وكان أولَ من علم بهذه الغارة سلمةُ بن الأكوع السُّلمي ﷺ إذ خرج يريد الغابة فلما علا ثنيّةَ الوداع شاهد خيل عيينة من بُعْد فَعَلا علي جبل سلع وصاح: واصبحاه! واصبحاه!! وهي صيحة الإنذار في ذلك الزمن، ثم جرى وراء الخيل الغازية يطاردها ويرميهم بالنبل وهم يخلون عن اللقاح ويلقون برماحهم وبعض أمتعتهم تخففًا حتى افتكَّ منهم أكثر اللقاح وتركها وراءه ومازال يطاردهم حتى وصلت خيل النبي ﷺ، إذ كان أول من أتي إلى رسول الله ﷺ بعد صيحة سلمة من الفرسان المقدادُ بن عمرو الكِنْدي، ثم تتابعوا، وقال الرسول ﷺ لأول مرة: «**يا خيل الله اركبي**».

واستخلف النبيّ ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وسار بالنّاس، وقدم الخيل وأمَّر عليهم سعد بن زيد، وقال له: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس، وسارت الخيل فكان أول فارس وصل إلى المُغيرين هو محرز بن فضلة الملقب بالأخرم. فلما انتهى إلى العدو قال لهم: قفوا معشر بني اللكَيْعة حتى يلحق بكم مَنْ وراءكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه رجل من العدو فقتله، وجال الفرس في الميدان، ولم يقدر عليه، وعاد إلى المدينة حتى وقف على آريِّه. وتلاحقت الخيل فقتل أبوقتادة رجلاً من المغيرين يقال له: حبيب بن عيينة وغطاه ببرده، وتقدم يطارد القوم. فلما وصل الناس إليه وظنوا أن القتيل أبوقتادة لوجود برده على القتيل استرجعوا أي قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل أبي قتادة**

---

(١) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، وهي بسكون القاف بعد اللام المفتوحة.

وضع عليه برده ليعرف أنه قتيله»، وأدرك عكاشة بن محصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فقتلهما معًا.

وسار رسول الله ﷺ والناس معه حتى نزلوا بجبل بذي قَرَدة، وتلاحق به الناس فأقام بهم يومًا وليلة، وقال له سلمة بن الأكوع الذي كان يرمي القوم ويقول:

خـذها وأنا ابن الأكـوع

اليـوم يـوم الـرّضّـع

قال: يا رسول الله، لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت بقيّة السرح، وأخذت بأعناق القوم. فقال له رسول الله ﷺ: «**إنهم الآن ليغبقون**[1] **في غطفان**» بمعنى إنك لا تُدركهم لأنهم وصلوا إلى ديارهم وهم يتناولون طعام العشاء. ونحر لهم رسول الله ﷺ بعيرين طعموهما، ثم ارتحلوا إلى المدينة النبويّة، وجاءت امرأة الغفاري الذي قتل يوم ساق رجال عيينة اللقاح، وقتلوا زوجها فأخبرت النبيّ ﷺ أنها نذرت أن تنحر الناقة التي تكربها إن نجّاها الله تعالى عليها، فقال رسول الله ﷺ - وقد تبسّم -: «**بئس ما جزَيْتِها أن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها. إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله**».

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبراً نجملها مع الأرقام الآتية:

١ - بيان تسمية هذه الغزوة بغزوة ذي قرد، وذلك لأن الماء الذي نزل به رسول الله ﷺ يقال له: ماء ذو قَرَد.

٢ - بيان فضل سلمة بن الأكوع وأبي قتادة لقول الرسول ﷺ: «**خير فرساننا أبوقتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع**».

٣ - تأكد عداوة عيينة بن حصن وبيان خبثه.

٤ - تقرير بطولة سلمة بن الأكوع وشجاعته.

٥ - بطلان نذر المعصية، ونذر ما لا يملك.

٦ - حلم الرسول ﷺ وكرمه وحسن سياسته، وكمال أدبه ﷺ.

---

(١) أي يسقون اللبن بالعشي، ويُقال لهذا المشروب في هذا الوقت: الغَبوق.

غزوة بني المصطلق من خزاعة أو المُرَيسيع

سبب وقوع هذه الغزوة:

لهذه الغزوة سبب كغيرها من الغزوات، وهو أن النبيّ ﷺ بلغه أن بني المصطلق من خزاعة قد تجمعوا بقيادة الحارث بن أبي ضرار والد جويرية زوج النبي ﷺ، وذلك بماء يُقال له: المريسيع بناحية قديد، وكذا سميت الغزوة بغزوة بني المصطلق أو المريسيع، فاستعمل النبيّ ﷺ على المدينة أباذر الغفاري، وخرج إليهم رسول الله ﷺ في جمع من المهاجرين والأنصار، ونازلهم بالمريسيع فهَزَم الله المشركين، وقتل مَنْ قتل منهم، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا كثيرة فقسمها بين المسلمين، ومن بين السبايا جُوَيْرية أم المؤمنين ﵂، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو في سهم ابن عم له.

جويرية تكاتب مالكها:

ولما وقعت جويرية - وهي بنت سيد الحيّ الحارث بن أبي ضرار - طلبت من مالكها ثابت بن قيس أن يكاتبها لتتحرر، وأتَتْ النبيّ ﷺ تستعينه في كتابتها فقال لها: «هل لك في خير من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي[١] عنك كتابك وأتزوّجُك» قالت: نعم يا رسول الله ففعل أي تزوجها بعد سداد كتابتها، وسمع المسلمون بتزوج رسول الله ﷺ بها فقالوا: أصهار رسول الله!! أي فكيف نملكهم؟ فأعتقوا ما لديهم من سبايا بني المصطلق، فانعتق أكثر من مائة بيت من أهل بني المصطلق، فكانت عائشة ﵂ أم المؤمنين تقول: ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها!!

فتنة أرادها ابن أبيّ، ولكنّ الله سلم:

وما زال المسلمون معسكرين على المريسيع وإذ بصارخين أحدهما يقول: يا للأنصار!! والآخر يقول: يا للمهاجرين!! ففزع الناس وإذا بجَهْجَاه الغفاري - وهو أجير لعمر بن الخطاب ﵁ -، وسنان الجُهَني حليف الخزرج يقتتلان على الماء، فصرخ كل واحد بأحلافه، فغضب لذلك رئيس المنافقين عبدالله بن أبيّ ابن سلول، وعنده رهط من قومه من بينهم زيد بن أرقم - وهو غلام حدث السن - فقال ابن

---

(١) أقضي عنك: أي أسدد ثمن المكاتبة الذي عليكم لمالكك وهو ثابت بن قيس.

أبيّ: أوقد فعلوها!! قد كاثرونا في بلادنا. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل، ثم أقبل على رهطه وقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ووالله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غيركم. ولما سمع زيدٌ مقالة ابن أبيّ هذه مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال ابن أبيّ وكان عنده عمر بن الخطاب - فقال: يا رسول الله مُرْ به عباد بن بشر فيقتله، فقال رسول الله ﷺ: **«كيف إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه!! ولكن أذّن بالرحيل»** فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناسُ فيه - أي من التفكير في الفتنة - وهذا من الهدي النبوي الذي لا يُجاري فيه، ولا يلحق به ﷺ وآله.

وجاء أسيد بن حُضير فسلّم على النبيّ ﷺ وقال: يا نبيّ الله لقد رحت في ساعة لم تكن تروح فيها!! فقال له ﷺ: **«أما بلغك ما قال عبدالله بن أبيّ؟»** قال: وماذا قال؟ قال: **«زَعَمَ إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»** قال أسيد: فأنت والله تُخْرِجه إن شئت؛ فإنك العزيز وهو الذليل، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به؛ فوالله لقد مَنَّ الله بك وإن قومه لَيَنْظِمُونَ له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته مُلْكًا.

وسمع ابن أبيّ بالخبر، فجاء يركض إلى رسول الله ﷺ ويحلف بالله ما قلتُ ما قال زيد، ولا تكلمتُ به، ولما كان ابن أبيّ شريفًا في قومه، قالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ، وأنزل الله سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] إلخ. . .

موقف متحفظ:

وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ - وهو شاب صالح أحد الذين كانوا يكتبون الوحي لرسول الله - بلغه ما كان من أمر أبيه فأتى النبيّ ﷺ، وقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل[1] أبي، فإن كنت فاعلاً فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، إنّي أخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار. فأجابه الرسول ﷺ قائلاً: **«بل نرفق به ونُحْسن صحبته ما بقي معنا»** فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثًا عاتبه قومه وعنّفوه وتوعّدوه.

(١) أي: إنْ ارتحلت عائدًا إلى المدينة.

أي الأمرين خير؟

لما علم النبيّ ﷺ لما أصبح عليه قوم ابن أبيّ بعد الذي حدث، وهو أنهم أصبحوا إذا أحدث حدثًا سيئًا عاتبوه وعنفوه وتوعدوه، وكَفَوا بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، قال ﷺ لعمر بن الخطاب: «كيف ترى ذلك يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم أمرتني بقتله لأرعدت[1] له آنافٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر: أَمْرُ رسول الله أعظم بركةً من أمري.

لا عجب في غدر الكافر:

إنه لا ينبغي أن يتعجب من غدر الكافر؛ لأن ظلمة الكفر عندما تغطي القلب تحجب عنه كل معنى للخير والفضيلة والمعروف، فيصبح لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

وهذا مِقْيَس بن صبابة اللّيْثي كان قد قُتِل أخوه هشام بن صبابة في هذه الغزوة، ضربه رجل من الأنصار رهط عبادَة بن الصامت بسهم في المعركة خطأً فمات، فجاء مَقْيَس اليوم يدعي الإسلام ويطالب بدم أخيه هشام بن صبابة الليثيّ فأعطاه الرسول ﷺ دية أخيه، وأقام قليلاً عند رسول الله ﷺ، ثم عَدَا على قاتل أخيه فقتله، ثم خرج إلى مكة مرتدًّا وهو يقول:

حللتُ بها نذري وأدركت ثُؤْرتي[2]
وكنتُ إلى الأصنام أوّل راجع

في ثلاثة أبياتٍ المذكورُ ثالثُها.

حادث الإفك:

عند عودة النبيّ ﷺ وأصحابه من غزوة بني المصطلق وقريبًا من المدينة، نزل الرسول ﷺ منزلاً ثم ارتحل، وحدث في ذلك ما حدث، ولنترك لأم المؤمنين عائشة ﵂ صاحبة القصة تحدثنا عنها بالتفصيل كما روى ذلك أصحابُ السنن وأهل التفسير.

قالت ﵂: كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها

---

(١) أي أخذتها الحمية وغضبت لذلك.

(٢) بمعنى الثأر، ومقيس هذا أحد أربعة رجال أباح رسول الله ﷺ دماءهم وقال اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة؛ لأنهم مرتدون ومن بدل دينه يقتل كفرًا.

خرج بها معه. فلما كان غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه، فخرج سهمي فخرج بي معه، وكان النساء إذ ذاك يأكلن العُلَق(١) لم يَهِجْهُنّ(٢) اللحم فيثقلن. وكنتُ إذا وصل بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يُرحّلون بعيري، فيحملون الهودج وأنا فيه فيضعونه على ظهر بعيري، ثم يأخذون برأس البعير ويسيرون. قالت: فلما قفل رسول الله ﷺ من سفره ذلك - وكان قريبًا من المدينة - بات بمنزل بعض الليل، ثم ارتحل هو والناس، وكنتُ قد خرجتُ لبعض حاجتي - وفي عنقي عِقْدٌ لي من جُزع(٣) ظفار، انسلّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعت التمست العقد فلم أجده، فرجعت إلى المكان الذي كنت فيه ألتمسُه فوجدته، وجاء القوم الذين يُرحّلون بعيري فأخذوا الهودج - وهم يظنون أني فيه - فاحتملوه على عادتهم وانطلقوا، ورجعت إلى المعسكر، وما فيه داعٍ ولا مجيب - أي ما فيه أحد - فتلففتُ بجلبابي واضطجعت إذ مرّ بي صفوان بن المعطّل السُّلَمي - وكان تخلف عن المعسكر لحاجته، فلم يبت مع الناس - فلما رأى سوادي أقبل حتى وقف عليّ فعرفني - وكان رآني قبل أن يُضْرب الحجاب - فلما رآني استرجع، وقال: ما خلّفك؟ فما كلمته، ثم قرّب البعير وقال: اركبي، فركبتُ وأخذ برأس البعير مسرعًا. فَلَمَّا نَزَلَ الناسُ واطمأنوا طلع الرجل يقودني، فقال أهل الإفك فِيَّ ما قالوا، فارتجّ المعسكر ولم أعلم بشيء من ذلك، ثم قدمنا المدينة فاشتكيت شكوى شديدة، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويَّ ولا يذكران لي منه شيئًا إلا أنني أنكرت من رسول الله ﷺ بعضَ لطفه، فكان إذا دخل عليّ - وأمّي تمرضني - قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك، فوجدتُ في نفسي مما رأيت من جفائه، فاستأذنته في الانتقال إلى أمّي لتمرّضني، فأذن لي، وانتقلت ولا أعلم بشيء مما كان حتى نقهت(٤) من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة. قالت ﷺ: وكنا عَرَبًا لا نتخذ في بيوتنا هذا الكنفَ؛ نَعَافها ونكرهها، إنما كان النساء يخرجن كل ليلة، فخرجت ليلةً لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رُهْم ابن المطلب، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق، فوالله إنها لتمشي، إذ عثرت في مِرْطِها، فقالت: تَعِس مسطح، فقلت لها: لَعَمْرُ الله بئس ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد

(١) العُلَق: جمع علقة: ما يكتفى به من العيش.

(٢) أي لم يسمنّ لقلة اللحم في أجسامهن لقلة الأكل.

(٣) الجزع: الخرز، وظفار مدينة في جنوب اليمن تنسب إليها الخرز.

(٤) تماثلت للشفاء.

بدرًا، قالت: أو ما بلغك الخبر؟ قلت: وما الخبـر؟ فأخبرتني بالذي كان، فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، فـرجعت، فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي تحدث الناس بما تحـدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟! فـقالت لي: يا بُنيّة خفِّفي عليك؛ فوالله قلّ مـا كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضـرائر إلاّ أكثرن وكثّر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ فخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس مـا بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقـولون عليهم غيـر الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما عـلمتُ منه إلا خيرًا، ولا يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي». قالت: وكان كِبْرُ ذلك عند عبدالله بن أبيّ ابن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مـسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أخـتها زينب بنت جـحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني[1] في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله فلم تقل إلا خيرًا، وأما حمنة فأشاعت تضارّني لأختها، فشقيتْ بذلك.

وتكلم أناس في المسجد حتى كـادت تكون فتنة، ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليَّ فدعا عليّ بـن أبي طالب وأسامةَ بن زيد، فاسـتشارهما في الأمر، فـقال علي رضي الله عنه: سَلِ الجاريةَ وهي بريرة، فسألها وضربها عليّ فحلفتْ وما زالتْ تحلف أنها ما تعلم عن عائشة إلا خيرًا، وأنهـا ما كانت تعيب عليها شـيئًا إلا أنها كانت - أي بريرة - تعـجن العجينة، وتأمر عائشة بحفظها فتنام عنها فتأتي الشاة فتأكلها.

ثم دخل عليَّ رسـولُ الله ﷺ وعندي أبـواي وامـرأةٌ من الأنصـار وأنا أبكي وهي تبكي، فجلس، فـحمد الله تعالى وأثنى عليـه ثم قال: «يا عائشة» وذكرت كلامًـا وكيف كانت حالها إذ ذاك حتى قالت فقلت كما قال أبويوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشّاه، فَسُجِّيَ بثوبه ووُضعتِ وسادة من أدم[2] تحت رأسه.

فأمـا أنا حين رأيت مـن ذلك ما رأيت، فوالله مـا فزعت ومـا باليت قد عـرفت أني بريئة، وأنَّ الله غيـر ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفسُ عائشة بيده مـا سُرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجنّ أنفُسهما فَرَقًا[3] من أن يأتي من الله تحقيقُ ما قال الناس.

---

(١) أي تساميني وتريد أن تكون في منزلتي عند رسول الله ﷺ.
(٢) أي من جلد.
(٣) أي خوفًا.

قالت: ثم سُرّي عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «أبشري يا عائشة قد أنزل الله براءتك» قالت: قلت: الحمد لله، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش - وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُرِبوا حَدَّهم.

وروي أنها لما نزلت براءتها، قال لها أبواها[1]: احمدي رسول الله ﷺ، قالت: لا أحمد إلا الله الذي برأني، فقال رسول الله ﷺ : «لقد عرفتِ الحقَّ لأهله».

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها كالآتي:

١ - في تزوجِ رسول الله ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق مبدأ: (أنزلوا القوم منازلهم) إذ تزوُّجُه ﷺ بها كان إكرامًا لها ولأبيها لشرفهما عند قومهما.

٢ - بيان بركة جويرية؛ إذ بزواجها انعتق أكثر من مائة بيت من قومها.

٣ - بيان نفاق وخبث ومكر ابن أبي (عليه لعائن الله تعالى)، وما أراده من الفتنة.

٤ - تجلي الحكمة المحمدية والسياسة الرشيدة في إخماد نار الفتنة وقطع دابر الشر بالرحيل بالقوم وعدم الإذن في قتل ابن أُبيّ بعد أن استوجب القتل بقوله: ما زال ابن أبي كبشة يعيث في البلاد فسادًا، وهي كلمة صاحبها مرتد قطعًا، إلا أن ابن سلول كافرٌ ما آمن حتى يقال: ارتد.

٥ - مشروعية القرع، والأخذ بها بدل مجرد التخيير لما فيها من تطييب النفوس.

٦ - مشروعية أخذ المجاهد امرأته معه للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك.

٧ بيان أن الحبيب ﷺ ما كان يعلم الغيب حتى يُعلمه الله تعالى، فكيف إذًا بغيره ممن يدعون علم الغيب والمكاشفة؛ تغريراً بالمسلمين وتظليلاً لهم لاستغلالهم؟!

٨ بيان ما تعرضت له أم المؤمنين من البلاء، وصبرها عليه حتى كشف الله غمتها وفرج كربها، وهكذا يتحقق مصداق قول الرسول ﷺ : «أشدكم بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثل».

---

(١) أبوبكر وأم رومان، وأم رومان كنيتها وإلا فاسمها زينب ﷺ.

٩ - بيان براءة أم المؤمنين، ولذا من شك في براءتها بعد نزول القرآن بذلك فقد كفر، إمّا أن يراجع الإسلام وإلاّ فهو كافر من أهل النار.

١٠ - بيان إقامة حد القذف على من قذف مؤمنًا أو مؤمنة بفاحشة، إذ أقيم الحد على مسطح وحسان وحمنة فطهرهم الله تعالى بذلك، ولم يُقِم الحدَّ على ابن أبيّ؛ لأنه كافر لا تطهره الحدود.

١١ - استجابة أبي بكر لربّه في قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾[النور: ٢٢] إذ كان قد منع ابن خالته مسطحًا ما كان يقدمه له من طعام وكساء لما تورط في قذف أم المؤمنين، ثم كفّر أبوبكر عن يمينه وردّ إلى مسطح ما كان يجريه عليه من النفقة بوصفه ابن خالته، وهو مهاجر فقير.

١٢ - حرمة قذف المحصنات المؤمنات وكذا المحصنين المؤمنين، وأنه من كبائر الذنوب وموجب للحد، وهو ثمانون جلدة.

١٣ - تجلّى(١) الكمال المحمدي، في عدة مواقف من هذه الغزوة بما فيه حادثة الإفك من ذلك: حلمه وأناته، صبره وكرمه، حسن تدبيره لأموره وأمر أصحابه، استشارته لأفراد آل بيته فيما يتعلّق بهم دون غيرهم.

ورابع أحداثها:

عمرة الحديبية وبيعة الرضوان والصلح فيها

في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة المباركة، عزم الحبيب ﷺ على زيارة البيت الحرام، فانتدب المؤمنين من حوله للخروج معه لأداء نسك العمرة في الشهر الحرام، فخفّ ناس، وثقل آخرون، وجلُّ مَنْ ثقل كان من الأعراب النازلين حول المدينة.

وأحرم ﷺ وأحرم من معه ملبّين بالعمرة، وساروا في طريقهم إلى مكة، وبلغ قريشًا خروجُ النبيّ ﷺ وأصحابه، وكانوا ألفًا وأربعمائة رجل، وساقوا معهم الهدي وكان قرابة سبعين بعيراً، وبذلك كان واضحًا أنه ﷺ لا يريد حربًا، وإنما يريد - قطعًا - الاعتمار لا غير.

ولما وصل ﷺ عُسفان، لقيه بشر بن سفيان الكَعْبيُّ فقال له: إن قريشًا قد سمعت

(١) تجلّى: ظهر، والتجلي: الظهور.

بمسيرك فخرجوا معهم العوذ(١) المطافيل، قد لبسوا جلودَ النّمار، وقد نزلوا بذي طوى؛ يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم.

ولما سمع رسول الله ﷺ قولَ بشر، قال: «**يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين، والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة**»(٢).

ثم عدل عن الطريق التي هم بها، فَتَيامَنَ وسلك الطريق التي تهبط على الحديبية، وفجأة بركت ناقته به، فقال الناس خلأت(٣)، فقال: «**ما خلأتْ، وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل**» أي عن مكة. ثم قال: «**لا تدعوني قريشٌ اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**» ولما اجتازوا المضايق بين الجبال الوعرة وانتهوا إلى وادٍ من أودية المنطقة، قال لهم: «**قولوا نستغفر الله ونتوب إليه**» فقالوا ذلك، فقال: «**والله إنها للحطة(٤) التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها**»، وقال: «**انزلوا**» فقيل: يا رسول الله ما بالوادي ماءٌ ننزل عليه، فأخرج ﷺ سهمًا من كنانته وأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليب من تلك القُلُب الموجودة بالوادي فغرزه فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن(٥)- أي نزلوا حوله - يسقون ويشربون ويتوضئون كأنهم نزلوا حول نهر ماء.

ولما رأت خيلُ قريش عدولَ النبيِّ ﷺ عن الطريق إليهم عادوا إلى مكة.

وفد خزاعة:

ولما استقر النبيّ ﷺ في المنزل الذي نزله جاءه وفد من خزاعة برئاسة بُدَيْل بن وَرْقاء الخزاعي، فكلموه وسألوه عن السبب الذي جاء به، فأخبرهم بأنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت ومُعَظِّمًا لحرمته، ثم قال لهم نحوًا مما قال لبشر بن سفيان، وعاد الوفد إلى قريش كوسيط فقال لقريش: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد،

(١)العوذ: جمع عائذ وهي الناقة الحديث النتاج، والمطافيل: الإبل مع أولادها.
(٢)صفحة العنق كناية عن الموت.
(٣)بركت.
(٤)احطط عنا خطايانا.
(٥)العطن: مبرك الإبل والجمع معاطن.

إن محمداً لم يأتِ لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت؛ فاتهموهم وَجَبَهُوهم[١] ، وقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبدًا، ولا تتحدث بذلك عنا العربُ.

سفارة قريش:

وبعثت قريش سفيرها مكرز بن حفص بن الأخيف، ولما وصل رآه النبيّ ﷺ وهو يتقدم نحوه - حتى قال: «هذا رجلٌ غادر» ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له نحواً مما قال لبديل بن ورقاء وأصحابه، فرجع السفير الغادر فبلغ قريشًا ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فبعثت سفيراً آخر هو الحُلَيس بن علقمة سيِّد الأحابيش، ولما وصل ورآه النبي قال: «إن هذا من قوم يتألَّهون[٢] فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه» فلما رأى الهدي سيل عليه من عُرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس في محلّه، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى، فقال لهم ما رأى، فقالوا: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك!!

غضبة صادقة:

ولما قالت له قريش ما قالت من اتهامه بالجهل قال لهم في غضب: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفتكم ولا على هذا عاقدنكم، أيُصدّ عن بيت الله من جاء مُعَظِّمًا له؟! والذي نفس الحُليس بيده لتخلّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرَنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد. فلما رأت قريش الجدَّ من الحُليس، والغضبَ لله قالت: مَهْ[٣]، كفّ عنّا يا حُليس حتى نأخذ لأنفسنا ما ترضى به، يريدون تحقيق بعض الأهداف أو اشتراط بعض الشروط دفعًا للمعرة عنهم في نظرهم.

سفير ثالث:

وبعثت قريش بعروة بن مسعود الثقفي، فما لبث أن جاءهم فقال لهم: يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم مَنْ تبعثونه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد، وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقتَ ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى

---

(١) أي بالمكروه.

(٢) أي يتعبدون.

(٣) اسم فعل بمعنى اسكت.

أتى النبي ﷺ فجلس بين يديه، ثم قال يا محمد أجمعتَ أوشابَ[١] الناس، ثم جئتَ بهم إلى بيضتك لتفضها[٢] بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا - وأبوبكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعدٌ فقال: امصص بظرَ[٣] اللاّت أنحن ننكشف عنه؟ قال: مَنْ هذا يا محمد؟ قال: «**هذا ابن أبي قحافة**» قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكفأتك بها، ولكن هذه بها، ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه - والمغيرة بن شعبة واقفٌ على رأس رسول الله ﷺ في الحديد - فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك، ما أفظعك وأغلظك!! فتبسَّم رسول الله ﷺ فقال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «**هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة**» قال: أيْ غدر، وهل غسلتَ سوءتك إلا بالأمس؟! وكلَّمه رسول الله ﷺ بما كلم به من قبله، وأنه لم يأت لحرب وإنما للعمرة فقط.

عودة السفير:

وعاد سفير المشركين عروة بن مسعود الثقفي بعد أن رأي بأم عينيه ما يصنع أصحاب النبي ﷺ بنبيهم من التقدير والتعظيم، رأى أنه لا يتوضأ ﷺ إلا ابتدروا وَضُوءَه، ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فعاد إلى قريش ليقول لهم: يا معشر قريش إني قد جئتُ كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، إني والله ما رأيتُ ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه وقد رأيت قومًا لا يسلِّمونه لشيء أبدًا فَرُوا رأيكم!!

سفير النبي ﷺ:

ولما لم تنتج سفارات قريش شيئًا يذكر، أرسل النبيّ ﷺ خراش بن أميّة الخزاعي إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له: الثعلب؛ ليبلِّغ أشرافهم عنه ما جاء له،

(١) أخلاطهم وكذا الأوباش بمعنى واحد.

(٢) أي لتكسرها بهم، كناية عن دخول مكة بالقوة إهانة لأصحابها.

(٣) البظر شيء كحلمة الثدي، وهذا كناية عن تيئيسه من عدم نصرة النبيّ ﷺ إذ مصه لثدي اللات لا لبن فيه فهو آيس من الانتفاع به.

فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

إساءة وإحسان:

لما فعلت قريش ما فعلتْ بسفير رسول الله ﷺ إليها حيث عقرت بعيره، وأرادت قتله، ولم تقبل منه قولاً ولا رأيًا، وعاد إلى النبيّ ﷺ هاربًا بنفسه. في هذه الأثناء تبعث قريشٌ بأربعين مجرمًا من مجرميها يرمون معسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنَّبل؛ لعلهم يصيبون بعضًا من أصحاب رسول الله ﷺ فَناهَضَهم بعض أفراد المعسكر المحمدي فألقَوْا القبض عليهم وأتوا بهم أحياء أذلاء للنبي ﷺ فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، فتحقق وصفُهُ في التوراة وأنه لا يدفع السيئةَ بالسيئة ولكن يعفو ويصفح فصلى الله عليه وسلم، وهكذا يتجلى الإحسان المحمدي، وتنكشف إساءة المشركين.

سفارة أعظم:

ولم يكلّ الحبيب ﷺ ولم يملّ في سبيل تحقيق السِّلم، وإخماد نار الحرب التي يشعلها الكافرون، فيدعوا عمر بن الخطاب سفيرًا إلى قريش مرة ثانية - إذ سبق له أن أرسل خراش بن أمية الخزاعي - فيعتذر عمر لعدم قدرته على هذه المهمة فيقول: يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي؛ إذ ليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفتْ قريشٌ عدواتي إياها، وغلظي عليها - واقترح عمر على رسول الله ﷺ أن يرسل بدله عثمان بن عفان -: ولكني أدلك على رجل أعزّ مني، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته.

ويمشي عثمان سفيرًا لرسول الله ﷺ إلى مكة، وما إن دخل مكة حتى تلقاه أبان بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه إعظامًا له لقرابته، وأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق به إلى أبي سفيان وأشراف قريش، فبلّغهم ما أرسل به وأذنوا له بالطواف بالبيت؛ إكرامًا له، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسولُ الله ﷺ . واحتبسته[1] قريش عندها. إلا أنه قد أشيع أن قريشًا قتلت عثمان سفير رسول الله ﷺ إليها.

---

(١) لم أعثر على سبب هذا الحبس في قول أحد، والظاهر أنه مجرد حبس ليقضى أيامًا بينهم لا أنهم حبسوه منعًا له من الرجوع إلى المعسكر الإسلامي.

بيعة الرضوان:

إنه بمجرد أن أُشيع أن عثمان قد قُتل، قام رسول الله ﷺ في أصحابه معلنًا عزمَه على قتال المشركين فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، وبايعهم تحت شجرة على ألا يفروا عند لقاء العدو، فكانت هذه بيعة الرضوان، ونزل فيها قولُ الله تعالى من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ولم يتخلف أحد عن هذه البيعة إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة قال فيه جابر بن عبدالله: لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته قد ضبأ[١] إليها يستتر بها من الناس. وكان أول من بايعَ في هذه البيعة أبوسنان الأسدي أخوعكاشة بن محصن، وبايع رسول الله ﷺ لعثمان، فَضرَب بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذه لعثمان.

وبعد قليل من الوقت، تبين أن عثمان لم يقتل، وأن ما ذكر عنه باطل؛ إذ جاء بعد الفراغ من البيعة بقليل، والحمد لله.

سفارة وهدنة:

ولما علمت قريش بالبيعة على قتالها، خفّت فأرسلت سفيرها سهيل بن عمرو تطالب بالصلح إذ قالت له: ائتِ محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا؛ حفاظًا لماء وجهها؛ إذ قالوا: فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا، وأتى السفيرُ النبيَّ ﷺ فما إن رآه مُقبلاً نحوه حتى قال: «قد أراد القومُ الصلحَ حين بعثوا هذا الرجل» وانتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ، وتكلم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح ولم يَبْقَ إلا كتابة الوثيقة بالصلح الذي أنتج الهدنة المباركة.

عمر ينكر:

لما تمت المفاوضات وانتهت بالصلح - وعمرُ يسمع - أتى أبابكر فقال: يا أبابكر، أليس برسول الله؟ - أي محمد ﷺ - قال: بلى، أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدنيّة[٢] في ديننا؟ فقال أبوبكر: الزم

(١) ضبأ إليها: لصق بها واستتر.
(٢) الذل والأمر الخسيس.

غرزه[١] فإني أشهد أنه رسول الله، فقال عمرُ وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ وقال له نفس القول الذي قاله لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمرَهُ، ولن يضيِّعني».

توبة عمر:

رُوي أن عمر رضي الله عنه قال: ما زلتُ أتصدق وأصوم وأصلي وأعتقُ من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

كتابة وثيقة الصلح ونصها:

ودعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ليكتب وثيقة الصلح، وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل ممثل قريش وسفيرها: لا أعرف هذا، ولكن اكتب «باسمك اللهم» فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» فكتبها، ثم قال: «اكتب، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيلَ بن عمرو» فقال سهيل: لو شهدتَ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبدالله سهيلَ بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض: على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه[٢] ردَّه عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه. وأن بيننا عَيْبةً[٣] مكفوفةً، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد عهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه» وفعلاً تواثبت خزاعةُ فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثب بنوبكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. «وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك تدخلها بأصحابك فأقمتَ بها ثلاثًا معك سلاح الراكب: السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها»، وشهد على الوثيقة عدد من المسلمين وآخر من المشركين، وأصبحت سارية المفعول.

---

(١) أي الزم أمره ولا تخالفه، والغرز من الرَّحْلِ كالركاب من السرج.

(٢) هذه الفقرة من المعاهدة التي أثارت حفيظة عمر، كما أن رفض سهيل «بسم الله الرحمن الرحيم» و«محمد رسول الله» مما أثار نفوس المسلمين وآلمهم أشد الألم هو مؤلم حقًا ولكن طاعة الله والرسول أولى والعاقبة الحسنى في ذلك.

(٣) يريد أن صدرونا منطوية على ما فيها، فلا نبدي عدواةً ولا نظهر مدة الهدنة لا إسلال ولا إغلال أي لا سرقة خفية ولا خيانة.

أبوجندل يستصرخ:

ما زالت الوثيقة لم يجفَّ حبرها حتى جاء أبوجندل - ابن السفير المشرك سهيل بن عمرو - يرسف في الحديد هاربًا من المشركين فقام إليه أبوه فضربه في وجهه، وقال: يا محمد، قد تمت القضيةُ بيني وبينكَ قبل أن يجئ هذا؟ قال: «صدقتَ»، فجعل ينتهره ويجره ليردّه إلى قريش، وجعل أبوجندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أردٌّ إلى المشركين كي يفتنوني في ديني؛ فاغتمّ لذلك المسلمون وكربوا، وزادهم أسًى وحزنًا، فقال الرسول ﷺ: «يا أباجندل، اصبرْ واحتسبْ؛ إن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا عقدنا بيننا وبينهم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدَ الله وإنا لا نغدر بهم».

التحلل من الإحرام:

ولما فرغ الحبيب ﷺ من أمر المصالحة، وكان من بنود وثيقة الصلح أن يعود محمد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة على أن يعتمروا من العام القابل، من هنا أمر الناس بالتحلل من الإحرام ليعودوا إلى المدينة، فكَبُرَ عليهم ذلك ولم يفعلا، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقالت له: انحرْ هديك وتحلل؛ فسوف يفعلون ما تفعل، وكانت رضي الله عنها سديدة الرأي، فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه، وتحلل من إحرامه، فما إن رآه أصحابه حتى فعلوا فحلق بعضٌ وقصرّ بعضٌ، فقال ﷺ: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله قال: «يرحم الله المحلقين» وفي الرابعة قال: «والمقصرين» ويسألونه قائلين لم ظاهرتَ الترحيمَ للمحلقين - أي قوّيته - أي دون المقصرين؟ قال: «لم يَشُكُّوا».

وقفل رسول الله ﷺ عائدًا إلى المدينة مع أصحابه، وأثناء مسيره نزلت عليه سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلى اخر السورة، وقد اشتملت على جلّ أحداث غزوة الحديبية مما تم فيها وما لحق بها من فتح خيبر وفوز المؤمنين بغنائم خيبر، والبشارة بعمرة القضاء وتمامها على الوجه الأكمل بعد عام واحد من تلك الأيام، وبذلك صدق الله رسوله رؤياه المبشّرة له وللمؤمنين بدخولهم مكة آمنين غير خائفين.

آثار المصالحة:

ومن آثار المصالحة، أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قد هاجرت إلى المدينة بعد عقد الهدنة بأيام هاربةً من دار الكفر إلى دار الإسلام، فلحق أخواها عُمارة والوليدُ يطالبان بها بموجب عقد الهدنة، ولما كانت نصوص الهدنة تتعلق بالرجال دون النساء؛ لأن النساء لا يحاربن أبى رسولُ الله ﷺ أن يردها إليهما، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا، هو قوله تعالى من سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ومن آثار المصالحة أيضًا: أن أبابصير هرب من مكة، فبعثت قريش في طلبه رجلين، فطالبا رسول الله ﷺ به فأعطاهماإياه بموجب بنود الاتفاقية وقال له: **«يا أبابصير: إنا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلقْ إلى قومك»** فقال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!

فقال: **«يا أبابصير، انطلق إلى قومك»** إلى قوله: **«مخرجًا»** فانطلق أبوبصير مع الرجلين حتى نزلوا ذا الحليفة للاستراحة، فنظر أبوبصير إلى سيف المشرك وقال له: أتأذن لي أن أنظر إليه؟ قال: نعم. فأخذه واستلّه من قرابه، ثم ضرب به المشركَ فقتله، وهربَ الثاني فلحق برسول الله ﷺ وأخبره بالحادث، وجاء أبوبصير متوشحًا بالسيف، وقال: يا رسول الله وَفَتْ ذمتُك وأدّى الله عنك، أسلمتَني بيد القوم وأدى الله عنك، وقد امتنعتُ بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي، فقال رسول الله ﷺ: **«ويل أمّه، مُسعر حرب لو كان معه رجال»** ثم خرج أبوبصير فارًّا حتى أتى العيص من ساحل البحر طريق قوافل قريش إلى الشام، وسمع به آخرون في مكة فهاجروا إليه، فكونوا بذلك جيشًا مسلمًا، وأذاق قريشًا الأمرّين بأخذ قوافلهم وقَتْلِ رجالهم فما كان إلا أن كتبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون إليه ويسألونه بالرحم إلا آواهم وردَّهم إليه، فآواهم رسول الله ﷺ، وردهم إلى المدينة، وهذا من الفرجَ والمخرج الذي بشر به رسول الله ﷺ أبابصير وأباجندل قبله، فكان والحمد لله.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نبينها كالآتي:

١ - وجوب الاعتمار وحرمة البيت الحرام وتعظيمه.

٢ - بيان العزم المحمدي الذي لا يهن، المتجلّي في قوله: «والله، لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة».

٣ - كلمة التوبة هي: نستغفر الله ونتوب إليه.

٤ - آية النبوة المحمدية المتجلية في جَيَشَانَ الماء في البئر التي أُدْخِلَ فيها سهمُ النبي ﷺ.

٥ - بيان كمال الحليس سيد الأحابيش في سفارته فقد كان لغضبه المشرّف أثرٌ طيّب.

٦ - بيان مدى إجلال الصحابة للنبيّ ﷺ، والأمر الذي أدهش سفير المشركين عروة بن مسعود، فحذر لذلك قريشًا وقال: رُوا رأيكم!!!

٧ - تجلّي الكمال المحمدي في عفوه عن الأربعين مجرمًا الذي أُلقي القبضة عليهم حول المعسكر، وهم يرمونه بالحجارة والنبل أيضًا، وهو موقف مشرّف كان له أثر طيب في اتفاقيّة الهدنة المباركة.

٨ - بيان فضيلة عثمان في كونه لم يَرْضَ أن يطوف بالبيت دون رسول الله ﷺ، وفي بيعة الرسول له وهو غائب.

٩ - بيان فضل أهل بيعة الرضوان؛ إذ هم في الدرجة الثانية بعد أهل بدر، قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

١ بيان فضل عمر بن الخطاب المتجلي في توبته الطويلة الأمد من أجل كلماته التي قالها - وهي حق - إلا أنها اصطبغت بصيغة شبه المعارضة في قضية عامة.

١١ من الحكمة أن يتنازل المرءُ عن أشياء لا تضرُّ بأصل قضيته لتحقيق أشياء أعظم منها.

١٢ - فضل عليّ ﵁ في كتابته الوثيقة وعدم اعتراضه على ما اعترض عليه فيها غيره من الأصحاب.

١٣ - وجوب الوفاء بالعهود وحرمة الغدر والخيانة.

١٤ - وجوب الهدي على من أحصر عن إتمام الحج أو العمرة، وبعد نحر الهدي يتحلل بحلق أو تقصير.

١٥ - بيان حكم المهاجرات من النساء المؤمنات وأنهنّ لا يُرجعن إلى دار الكفر بعد خروجهن منها.

وخامس أحداثها:

مجموعة السرايا الآتية

أ - سريّة عكاشة بن محصن: وكانت في ربيع أول من هذه السنة، فقد خرج في أربعين رجلاً، فعلم بهم مَنْ خرجوا لهم فهربوا، فطلبوهم هنا وهناك فلم يعثروا عليه إلا أنهم عثروا على مائتي بعير فساقوها إلى المدينة وعادوا سالمين. والحمد لله.

ب - سريّة محمد بن مسلمة: إلى بني ثعلبة بن سعد وكانوا عشرة فوارس، فكمن العدو لهم وبيتوهم، فلما ناموا قتلوهم عن آخرهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة فقد نجا وهو جريح - رضي الله عنهم أجمعين -.

جـ - سريّة أبي عبيدة: عامر بن الجراح إلى ذي القَصَّة، وكان أفراد السريّة أربعين رجلاً، ولما علم المشركون بخروجة السريّة إليهم هربوا، وصلت السريّة إلى مائهم فلم تجد أحداً إلا رجلاً واحداً ونَعَمًا فساقوا النعم، وأسلمَ الرجلُ فتركه النبيّ ﷺ.

د - سريّة زيد بن حارثة: بالجموم فأصاب امرأة من مزينة، اسمُها حليمةُ، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا نعمًا وشاءً وأسروا. وكان بين الأسرى زوجُ حليمة التي دلتهم على محلة العدو، فوهبه رسولُ الله ﷺ لزوجته حليمة وأطلقها.

هـ - سريّة زيد بن حارثة: أيضًا إلى العيص، وفيها أخذت الأموال التي كانت مع أبي العاص بن الربيع، واستجار أبوالعاص بزينب فأجارته كما تقدم، وردت إليه أمواله كلها حتى الشظاظ.

و - سريّة زيد: وأيضًا إلى بني ثعلبة بالطرف على رأس خمسة عشر رجلاً فهربوا منه، وأصاب من نعمهم عشرين بعيراً وعادوا سالمين.

ز - سرايا زيد: من غير ما ذكر وهي ثلاث: سريّة إلى حسمى، وثانية إلى وادي القرى وثالثة إلى أمّ قرفة.

ح - سريّة كرز بن جابر: الفهري إلى العُرنيين الذي قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل، بعثه رسول الله ﷺ في عشرين فارسًا، وقد استردوا الإبل وجاءوا بالعرنيين - وهم الذين قتلوا بالحرة - وتركوا بها أيامًا لأنهم أسلموا ثم ارتدوا وساقوا إبل الصدقة وفيهم نزلت آية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: ٣٣]. وفعل بهم رسول الله ﷺ ذلك حكمًا بقضاء الله تعالى فيهم.

مكاتبة الرسول ﷺ الملوك والرؤساء

وفي هذه السنة السادسة من الهجرة، وبعد عقد الصلح مع قريش، كاتب الرسول ﷺ الملوكَ والرؤساءَ يدعوهم إلى الإسلام الدين الحق الذي أرسل به لهداية الناس كلّ الناس أبيضهم وأصفرهم إلى ما يكملهم عقولاً وأخلاقًا ويسعدهم أجسامًا وأرواحًا في الحياتين: الدنيا والآخرة.

فبعث ﷺ الرسلَ تحمل كتبه القيّمة الكريمة إلي كل من كسرى ملك الفرس، وقيصر ملك الروم، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر. وأرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمرْ الغساني، وأرسل سليط بن عمرو العامري إلى هوذَة بن علي الحنفي، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن سَاوَى أخي عبدالقيس.

أسماء حاملي كتبه إلى الملوك:

- دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم.
- حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر.
- عبدالله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس.
- عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

* * *

نماذج من كتبه ﷺ

أ - كتابه إلى كسرى:

«إلى كسرى ملك فارس: «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين. فأسلم تَسلم، فإنْ أبيتَ فإنَّ إثمَ المجوس عليك».

الله
رسول
محمد
صورة الخاتم النبوي

ولما بلغ كسرى غضب وقال هَجْراً ومزق الكتاب، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه بأن يمزق الله ملكه واستجاب الله له ومزق ملكه.

ب - كتابه ﷺ إلى قيصر:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٤]».

الله
رسول
محمد
صورة الخاتم النبوي

جـ - كتابه ﷺ إلى المقوقس:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبْط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتَكَ الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

د - كتابه إلى ملك الحبشة:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خَلَقَ آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله ﷺ وإني أدعوك وجنودَكَ إلى الله عز وجل، وقد بلغتُ ونصحتُ؛ فاقبلْ نصيحتي، والسلامُ على من اتبع الهدى».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

هـ - كتابه إلى الحارث الغساني بالشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمْر: سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

و - كتابه إلى ملك عمان:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعبّاد[١] ابنَي الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام. أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل؛ خيل تحلُّ ساحتكما وتظهر نبوءتي على ملككما».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

ز - كتابه ﷺ إلى هوذة صاحب اليمامة:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن عليّ: سلام على من اتبع الهدى واعلمْ أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك».

الله

رسول

محمد

صورة الخاتم النبوي

ح - كتابه ﷺ إلى المنذر حاكم البحرين:

«بسم الله الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك. الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أمّا بعد فإني أُذَكِّرك الله عز وجل، فإن من ينصح إنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فاترك

(١) في سيرة ابن هشام عياد بالياء ولعله بالباء كما كتبناها. وعباد وأخوه جيفر هما من الأزد، وهما ملكان على عرب عمان.

للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسيّة فعليه الجزية».

الله
رسول
محمد
صورة الخاتم النبوي

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في التالي:

١ - لما كان كسرى مجوسيًّا غير كتابي، قدم رسول الله ﷺ اسم كسرى على اسم الله تعالى؛ وقاية، كما فعل سليمان - عليه السلام - إذ كتب: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتاب الرسول ﷺ إلى كسرى قال فيه: «إلى كسرى ملك فارس بسم الله الرحمن الرحيم» فقدم اسم كسرى وقاية لاسم الله تعالى. ولما كان الملوك الآخرون أهل كتاب قدم اسم الله تعالى لأنهم يؤمنون بالله ويعظمونه.

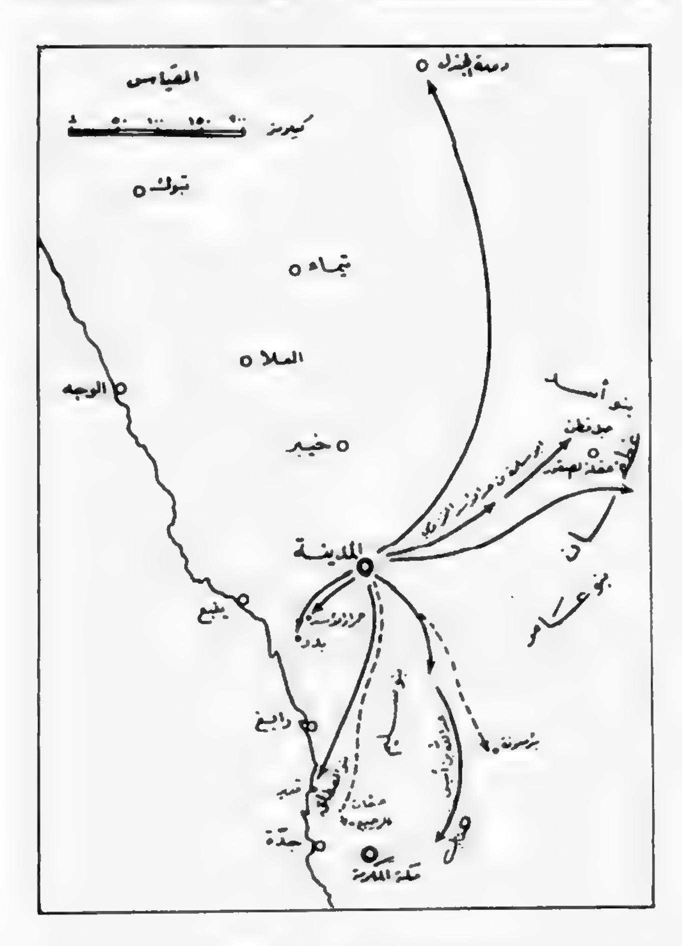
٢ - تنوّعت عبارات كتبه ﷺ بحسب مقام وحال من كتب إليهم، وهذا من الحكمة التي هو أستاذها بلا منازع. قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]

٣ - سلك ﷺ في كتبه مسلك: أنزلوا القوم منازلهم، ولكل مقام مقال.

٤ - إقراره ﷺ لمن كتب لهم - إن أسلموا - على ملكهم نابع من سياسة رشيدة لا يجارى فيها ﷺ.

٥ - استعمل كلمة: «يؤتك الله أجرك مرتين» في كتبه إلى أهل الكتاب أخذًا من قول الله تعالى في خطاب أهل الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي يعطيكم نصيبين من الأجر؛ الأول لإيمانهم برسولهم الأول، والثاني لإيمانهم بمحمد ﷺ.

٦ - جَعْلُه ﷺ اسمَ الله أعلى في الخاتم، واسمَه الأدنى: فيه من تعظيم الله وإعظام اسمه ما لا يُقَادر قدره، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا.



بيان مواقع غزوات الشمال: خيبر ودومة الجندل وتبوك.

أحداث السنة السابعة

من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السابعة من هجرة النبيّ ﷺ وكان أول أحداثها:

غزوة خيبر

خيبر مركز تجمع كبير لأعداء الإسلام والمسلمين؛ إذ عصابات الشر اليهودية كانت قد تجمعت فيها، إن حرب الأحزاب كانت خيبر هي الرأس المفكر فيها، والطاقة الدافعة لها، ولذا تعين غزوها وتطهيرها من عصابات الشر بها.

ففي السنة السابعة - في أواخر المحرم منها - غزا رسول الله ﷺ خيبر، فاستخلف على المدينة سباع بن عُرفُطة الغطفاني - وقيل: نُمَيْلة بن عبدالله الليثيّ - وخرج في ألف وأربعمائة مقاتل، من بينهم مائتا فارس، وسار بجيشه المظفر مارًّا على عِصْر «جبل» حيث بنى له فيه مسجدًا، ثم على الصهباء حتى نزل بالرجيع - وهو واد كبير يقال له: الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، إذ كانوا على وفاق معهم في حرب الرسول ﷺ.

ومن آيات النبوّة المحمدية أنه ﷺ في مسيره قال لعامر بن الأكوع - عم سلمة بن عمرو بن الأكوع -: «خذ لنا من هناتك[1] احْدُ[2] لنا» فنزل وحَدَاهُم يقول:

والله لولا اللهُ ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلّينا
فأنزلَنْ سكينة علينا
وثبّت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: «رحمك» فقال عمر رضي الله عنه: هلاّ أمتعتنا به يا رسول الله، وكان إذا قالها لرجل مات. فكانت نعيًا منه ﷺ لعامر رضي الله عنه، وكانت آية نبوّته ﷺ.

وفعلاً فقد خاض المعارك ورجع عليه سيفه فكَلَمه[3] كَلْمًا شديدًا، فمات متأثرًا،

---

(١) جمع هنة، وهو لفظ يكنى به عن شيء لا يعرف اسمه، والمراد بها هنا أخبارك وأمورك في أسفارك.
(٢) أي أنشد الشعر على الإبل تحدوها به لتسير مسرعة.
(٣) جرحَه، والكلْم الجرح.

بذلك، فقال بعضٌ: إنما قتله سلاحُه، فعلم الرسولُ ﷺ بذلك فقال: «إنه لشهيد» وصلى عليه فصلّى عليه المسلمون.

وسار رسول الله ﷺ بالجيش حتى أشرف على خيبر، وقال لأصحابه: «قفوا» فوقفوا ودعا قائلاً: «اللهم ربَّ السموات وما أظللن، وربَّ الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من هذه القرية، وشر أهلها، وشرّ ما فيها» ثم قال: «أقدموا باسم الله»[١].

ونزل ﷺ بأصحابه خيبر ليلاً، ولم يعلم أهلُها بنزوله، فلما أصبحوا وخرجوا بمساحيهم إلى أعمالهم الفلاحية ورأوا الرسول ﷺ وجيشه قالوا: محمد والخميس، محمد والخميس[٢]، وعادوا إلى حصونهم فدخلوها، فقال النبيّ ﷺ: «الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فَسَاءَ صباحُ المنذَرين». وأخذ يحاصرهم في حصونهم ويأخذ أموالهم خارجها، ثم أخذ يفتح الحصون حصنًا بعد حصن، وكان أول حصن افتتحه حصْنَ نَاعم، وعنده قُتِلَ محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة ﷺ، إذ أُلقِيَ عليه رحًى فقتلته. ثم افتتح القَمُوص حصن بني أبي الحُقَيْق، وأصابَ منهم سبايا من بينهم صفيّة بنت حيي بن أخطب النضري، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فاصطفاها رسولُ الله ﷺ لنفسه، ولم يَعْلم بذلك دحية[٣]، فسأله إياها فأعلمه أنه اصطفاها لنفسه، وأعطاه ابنتي عمِّها، وكثر السَّبْيُ في أيدي المسلمين.

خطبة تشريع حكيم:

ولما كثر السبيُ بأيدي المسلمين مع جواز التسرّي بالسبايا وكانوا قد أكلوا لحوم الحمر الأهليّة لتوفّرها في خيبر وعدم الحاجة إليها، خطب فيهم رسول الله ﷺ فضمَّن خطبته قواعد تشريعيّة تتعلق بالسبي وغيره. قال ابن إسحاق ابن حنش الصنعاني: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها: جرِبَة[٤]، فقام فينا خطيبًا فقال: يا أيها الناس، لا أقول فيكم إلا ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقوله

(١) يشرع هذا الدعاء عند دخول أي بلد من البلاد.

(٢) الخميس الجيش الكبير.

(٣) لأنها كانت قد وقعت في سهمه عند القسمة، فلذا أعطاه الرسول عوضًا منها.

(٤) مدينة في الجنوب التونسي اليوم.

فينا يوم خيبر فقال: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُسْقِيَ ماءه زرعَ غيره - يعني إتيان الحبالى من السبايا - ولا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيبَ امرأةً من السبي حتى يستبرئها، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها [1] ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبًا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه [2] رَدَّه فيه».

ونادى منادي رسول الله ﷺ: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية؛ فإنها رجْسٌ.

دعوة نبوية مستجابة:

أثناء قتال الرسول ﷺ ليهود خيبر وفتح حصونهم، أتاه بنو سهم من أسْلَم وقالوا: يا رسول الله لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يعطيهم إياه، فقال داعيًا: «اللهم إنك قد عرفتَ حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه؛ فافتح عليهم أعظم حصونها عندهم غناءً وأكثرها طعامًا وودكًا» فغدا الناس للقتال، ففتح الله حصن الصَّعْب بن معاذ، وما بخيبر حصن أكثر طعامًا وودكًا منه.

آخر حصن يفتح:

واصل الحبيب ﷺ فتح حصون خيبر حصنًا بعد حصن، وانتهى إلى آخر حصن، وهو الوطيح والسُّلالِم فحاصرهم بضع عشرة ليلة، وأثناء ذلك كانت مبارزات منها مبارزة مرحب اليهودي، إذ خرج من الحصن وقد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحبُ
شاكي [3] السلاح بطل مُجرّبُ
أطعن أحيانًا وحينًا أضربُ
إذا الليوث أقبلت تحرّبُ [4]

---

(١) أهزلها وأضعفها.

(٢) أبلاه ومزقه.

(٣) حاد السلاح.

(٤) أي مغضبة.

إن حسامي للحمى لا يقرب

يحجم عن صولتي المجرب

فرد عليه عليّ بن أبي طالب ﷺ قائلاً:

أنا الذي سمتني أمي حيدره

كليث غابات شديد القسوره

أكيلكم بالصاع كيل السندره[1]

وقال: من يبارز؟

فقال رسول الله ﷺ: «**من لهذا**؟» فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر؛ قُتِلَ أخي بالأمس، فقال: «**فقم إليه. اللهم أعنْه عليه**» فتصاولا فترة، ثم أمكن الله منه، فقتله محمد بن مسلمة استجابة الله دعوة نبيّه ﷺ، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز؟ فقال الزبير بن العوام: أنا لك، فقالت أمه صفيّة: لا يا رسول الله؛ يَقْتل ابني، فقال لها: «**بل ابنك يقتله إن شاء الله**» فالتقيا فقتل الزبير ياسر اليهودي، وبعد المبارزة اقتتل الناس وكانت الراية عند أبي بكر ﷺ وشعارهم يومئذ: يا منصور أمت أمتْ، فقاتل قتالاً شديداً، ثم وَجِعَ فأخذها عمر ﷺ فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من الأول، ثم وجع، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «**أما والله لأعطينَّها غداً رجلاً يحب الله ورسولَه، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه ليس بفرار**» فدعا رسولُ الله ﷺ عليًا ﷺ وهو أرمد فتفل في عينيه، ثم قال: «**خُذ هذه الراية فامضِ بها ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**» فخرج يهرول بها حتى ركز الراية في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، قال: عَلَوتُم وما أُنزِل على موسى، فما رجع حتى فتح الله على يديه، ودخل المسلمون المدينة. وبذلك انتهى فتح خيبر، وأصبحت دار إسلام إلى اليوم، والحمد لله ربّ العالمين.

مواقف يحسن أن تذكر، وهي:

١ - لقد كان خروج النبيّ ﷺ إلى خيبر بإذن الله تعالى؛ إذ وعد الله عز وجل المؤمنين غنائم خيبر عند رجوعهم من الحديبية في قوله من سورة الفتح: ﴿**وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ**

---

(١) السندرة: شجرة يصنع منها مكاييل عظام.

كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [illegible] ٢٠، وهي صلح الحديبية، والغنائم الكثيرة هي أموال خيبر.

٢ - كان عدد من استشهد في غزوة خيبر من المسلمين خمسة عشر رجلاً.

٣ - لما لم يَبْقَ لليهود من حصن إلا الوطيح والسُّلالم - وقد فتحا عنوة - سألوا رسول الله ﷺ أن يسيِّرهم في الأرض ويحقن دماءهم، ويتركوا له الأموال ففعل، ثم صالحهم على أن يبقوا على مزارعهم ونخيلهم على أن لهم الشطر وللرسول والمؤمنين الشطر، وأنه متى أراد إخراجهم أخرجهم، فوافقوا على ذلك وأبقاهم.

٤ - بعد سقوط خيبر في يد المسلمين لم يقتل النبيّ ﷺ إلا ابنَي أبي الحقيق لنكثهم وخيانتهم، وكان أحدهما زوج صفية بنت حييّ، فأمر بلالاً أن يذهب بصفيّة إلى رَحْلِه مع بعض نساء السبي، فَمَرَّ بهن على القتلى، فبكين، فعتب رسول الله ﷺ على بلال، وقال: «أَنُزِعَت الرحمةُ من قلبك يا بلال»؟! وعرض رسول الله ﷺ على صفيّة الإسلام فأسلمت وتزوجها، وجعل مهرها عتقها، وبنى بها في طريق عودته إلى المدينة، وأولم عليها وليمة فاخرة، ونظر الرسول ﷺ إليها فرأى في وجهها خضرة إثر ضربة، فسألها، فقالت: كنت قد رأيتُ في منامي القمرَ زال من مكانه وسقط في حجري، فقصصتها على زوجي ابن أبي الحقيق، فلطم وجهي، وقال: تتمنين هذا الملك بالمدينة، وأنا - والله - ما كنت أذكر من ذلك شيئًا.

٥ - قسم النبيّ ﷺ خيبر بعد فتحها على ستة وثلاثين سهمًا، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين نصفها، والنصف الباقي لمن نزل له من الوفود، ونوائب المسلمين.

٦ - سَمَّت النبي ﷺ زينب بنت الحارث - امرأة سلاّم بن مشكم اليهودي - إذ أهدت للرسول ﷺ شاة مصلية فيها سمٌّ، فأكل منها بشر بن البراء فماتَ، وسأل النبيُّ ﷺ المرأةَ: «لم فعلت هذا؟» قالت: أردتُ إنْ كنتَ ملكًا استرحنا منك، وإن كنتَ نبيًا لم يضرَّك؛ فعفا عنها فأسلمت، وقيل لما مات بشرٌ قُتلت به.

٧ - وصولُ جعفر بن أبي طالب وأصحابه - معهم الأشعريون - خيبر بعد فتحها، فأسهم لهم رسول الله ﷺ، وما أسهم لأحد غاب عن خيبر إلا هم؛ لأنهم أدركوه فيها. ورُوي أن النبي ﷺ قبّلَ جبهة جعفر، وقال: «والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم

بقدوم جعفر؟»

٨ - لما كان النبيّ ﷺ محاصرًا لبعض حصون خيبر، أتاه راع أسود، فقال: يا رسول الله اعرضْ عليّ الإسلام فعرض عليه الإسلام فأسلم، ثم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم - وهي أمانة عندي - فكيف أصنع بها؟ قال: «اضربْ في وجهها؛ فإنها سترجع إلى ربها» فأخذ الأسود حفنة من الحصى ورمى بها في وجهها، وقال: ارجعي لصاحبك، فرجعتْ كأن سائقًا يسوقها حتى دخلت الحصن، وتقدم الراعي إلى الحصن ليقاتل، فأصابه حَجَرٌ فمات، فسجّي بثوب، وأعرض عنه النبيّ ﷺ فقيل له: لم أعرضتَ عنه يا رسول الله؟ قال: «إن معه الآن زوجتيه من الحور العين».

٩ - لما سمع أهل فَدَك بفتح خيبر، نزل بهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فصالحهم على ذلك، وكان ذلك لرسول الله ﷺ وحده لأنه فيء أفاءه الله عليه، إذ لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب، وإنما بعث إليهم من خيبر محيّصة يدعوهم إلى الإسلام فصالحوا، وكان رئيسهم يوشع ابن نون اليهودي.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي:

١ - جواز الحداء والأناشيد الحسنة الخالية من السوء والبذاءة.

٢ - بيان آية النبوة المحمدية في نعي عامر بن الأكوع قبل استشهاده ودخوله المعركة.

٣ - استحباب قول: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب الشياطين وما أضللن: نسألك من خير هذا البلد ... إلخ.

٤ - حرمة الغُلول، أي الأخذ من الغنائم قبل قسمتها.

٥ - حرمة وطء المسبيّة قبل استبرائها.

٦ - بيان فضل علي بن أبي طالب، وما فاز به من حب الله ورسوله.

٧ - بيان صدق وعد الله تعالى في غنائم خيبر، إذ وَعَدَ المؤمنين بها، فانجزها لهم، وله الحمد والمنة.

٨ - فضل صفية أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -.

٩ - مشروعية تقبيل جبهة الإنسان إن كان أهلاً لذلك لصلاحه أو قربه.

١٠ - في مصالحة أهل فدك قبل غزوهم تقرير معنى حديث: «نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر».

وثاني أحداثها:

غزوة وادي القرى

وبعد الفراغ من غزوة خيبر ومصالحة أهل فدك برئاسة يوشع بن نون على النصف من أموالهم، وإقرارهم على العمل فيها كإقرار أهل خيبر: قصد ﷺ وادي القرى ليفتحها، فحاصرها عدة ليالٍ وافتتحها عنوة، وأثناء الحصار قتل مولاه مِدْعَم الذي أهداه إياه رفاعةُ بن زيد الجذاميّ، أصابه سهم غرب[1] فقتله، وقال بعض المسلمين: هنيئًا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا، والذي نفس محمد بيده إن شملته الآن لتشتعل نارًا**» وكان قد غلّها في فيء المسلمين يوم خيبر؛ وهنا سمعه رجل، فجاء فقال: يا رسول الله أصبتُ شراكين لنعلين لي كنت أخذتهما، فقال له رسول الله ﷺ: «**يُقَدُّ لك مثلهما من نار**».

وترك النبيّ ﷺ النخل والأرض في أيدي أهلها، وعاملهم معاملة أهل خيبر وفدك، سواء بسواء وبقي الأمر في خيبر وفدك ووادي القرى كما تركه رسول الله ﷺ إلى عهد عمر رضي الله عنه ثم نفذ عمر رضي الله عنه وصيّة رسول الله ﷺ وهي قوله: «**لا يجتمع دينان في الجزيرة**» فأجلى اليهود من الجزيرة إلى خارجها. وطهرت قبة الإسلام من رجس المشركين وكفر الكافرين من سائر الناس.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي كتالي:

---

(١) سهم غرب: هو الذي لا يعلم مَنْ رماه أو من أين أتاه.

١ - مشروعية مواصلة الغزو والفتح حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

٢ - حرمة الغلول من الغنيمة ولو كان المأخوذ شراك نعل.

٣ - لا يصح الجزم لأحد بأنه في الجنة أو في النار، لكن يُرْجَى لـلمحسن، ويُخَاف على المسيء من المسلمين.

٤ - جواز الحلف بدون طلب واستحلاف، وذلك لتأكـيد الكلام وتقويته لفائدة المتكلم أو السامع.

ما تم من أمور هامة عند العودة من غزوة خيبر

لقد تمت أمـور ذات بال - والحبيبُ ﷺ في طريقه إلى المدينـة من غزوة خيـبر ووادي القرى - ومن تلك الأمور الهامة ذات البال والشأن ما يلي:

أ - بناء النبيّ ﷺ على صفية بنت حـيي ﵂، وكانت أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مـالك هي التي أصلحتـهـا وجملتـها لـه ﷺ، وبات في قبـة له، وبات أبوايوب الأنصاري خالد بن زيد متوشحًا سيـفه يحرس رسول الله ﷺ، وهو معرس بصفية النضرية أم المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها -.

ب - نام ﷺ مع أصحـابه بالطريق وقال: «مَنْ رجل يحـفظ عنا الفجـر لعلنا نَنام»؟ فقال بلال: أنا يا رسول الله أحـفظ عليك، ونام رسول الله ﷺ ونام الـناس، وقام بلال يصلي، فصلى مـا شاء الله أن يصلي، ثم استند إلى بعـيره واستـقبل الفجر يَرمُـقه، فغلبـته عينه فنام، فلم يوقظهم إلاَّ مسُّ الـشمس، وكان الرسول ﷺ أول أصـحابه هَبَّ من نومه، فقال: «ماذا صنعتَ بنا يا بلال»؟ قال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: «صدقتَ» ثم اقتاد رسـولُ الله بعيره غيـر كثير، ثم أناخ فـتوضأ وتوضأ الـناس، ثم أمر بلالاً فأذن وصـلوا سنة الفجـر، ثم أقام بلال الصلاة فـصلوا صـلاة الصبـح، ثم أقبل ﷺ على الـناس فقـال: «إذانسـيتم الصـلاة فـصلوها إذا ذكرتموها، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾» [طه: ١٤].

جـ - رضَخَ النبيّ ﷺ للنساء من الغنيمة ولم يضرب لهن بسهم، إذ كان قد حضر خيبر عدةُ نسوة من بني غفار جئْنَ النبيَّ ﷺ عند خروجه إلى خيبر، فقلن له: يا رسول الله، قد

أردنا أن نخرج معك إلى وجهك، هذا - أي إلى خيبر - فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال ﷺ: «على بركة الله» وحدثت إحدى هؤلاء النسوة فقالت: فخرجنا معه وكنت جارية حدثة، فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله. قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ ونزلت عن حقيبة الرَّحْلِ، وإذا بها دمٌ منيٌ وكان أول حيضة حضتها فتقبضت إلى الناقة واستحييتُ، فلما رأى رسول الله ما بي ورأي الدم قال: «**مالك؟ لعلك نفست**» قالت: قلت: نعم، قال: «**فأصلحي من نفسك، ثم خُذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحًا، ثم اغسلي به ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودي لمركبك**» قالت: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبرًا رضخ لنا من الفيء، ولم يسهم، وأعطاني هذه القلادة التي في عنقي؛ فوالله لا تفارقني أبدًا.

د - احتال ونجح، ذلك هو الحجاج بن علاط السُّلَميّ، فقد كان من ذوي المال واليسار في مكة، وأسلم في خيبر ولم يعلم المشركون بإسلامه، فاستأذن الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة قبل وصول الخبر إليها بفتح النبيّ ﷺ وأصحابه لخيبر، فأذن له، واستأذنه أن يقول ما يقول فأذن له، وكان أهل مكة يتطلعون إلى أخبار النبيّ ﷺ، وأكثرُهم يرغب في هزيمة النبيّ ﷺ وأن يقتل هو وأصحابه، فخرج الحجاج يريد مكة واستحث الخطى وأغذّ السير، فوصل مكة فأشاع أن محمدًا قد انهزم، وأن اليهود قد عزموا على أن يأتوا به إلى مكة ليقتل بها، فطار المشركون بالفرح وحزن العباسُ وآلمه الخبرُ، فاتصل بالحجاج سرًا، فأطلعه إنما أراد بهذا أن يجمع أمواله ويخرج بها، لأن قريشًا لو تعلم بإسلامه لما سمحت له بإخراج درهم واحد وجمع أمواله وقال: إنه يريد أن يأتي خيبرًا ليشتري من فيء محمد وأصحابه قبل أن يسبق التّجار إلى ذلك، وعند انصرافه من مكة قال للعباس: إذا مضى عليّ ثلاثٌ فأعلن الحقيقة، وهي انتصار محمد ﷺ وأصحابه على اليهود وفتح خيبر بكل ما فيها. وفعلاً في اليوم الثالث لبس العباس حُلّة وتَخلّقَ أي تطيّب وأخذ عصًا ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا يا أباالفضل هذا والله التجلّد لحرّ المصيبة قال: كلا والله الذي حلفتم به، لقد فتح محمد خيبرًا وترك عروسًا على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها وأصبحتْ له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال:

الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا فأخذ ماله وانطلق؛ ليلحق بمحمد ﷺ وأصحابه فيكون معه. قالوا: يا لعباد الله!! انفلت عدو الله!! ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك.

وثالث أحداثها:

سبع سرايا تبعث إلى أنحاء مختلفة

إنه بعد أن عاد ﷺ إلى المدينة ظافرًا منتصرًا في أواخر ربيع الثاني: أخذ يبعث السرايا سريّة بعد أخرى، لإبلاغ دعوة الله، وتفتيت قوى الشر، والضرب على أيدي الظالمين فكانت أول سريّة بعثها:

سريّة أبي بكر الصديق

فقد بعث ﷺ أبابكر الصديق -ومعه سلمة بن الأكوع - إلى نجد حيث بنوفزارة، فغزوا وأسروا من العدو ما شاء الله تعالى، ووقع في الأسر جارية حسناء كانت في سهم سلمة، فاستوهبها منه رسول الله ﷺ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة موثقين.

وثاني سريّة:

سريّة عمر بن الخطاب

إذ بعث به ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى تُربَة مِنَ أرضِ هَوازِن، وكان دليله من بني هلال، فكانوا يسيرون الليل، ويكمنون النهار، فبلغ هوازن فهربوا ووصلت السريّة إلى ديارهم فلم يلقوا منهم أحدًا فانصرفوا راجعين المدينة، ولم يلقوا كيدًا.

وثالث سريّة:

سريّة بشير بن سعد الأنصاري

إذ بعث به ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى بني مرَّة بمنطقة فدك، فاستاقوا نَعَمَهم؛ فقاتلوهم، فقتلوا عامةَ أفراد السريّة، وصبر بشير يقاتل وحده قتالَ الأبطال حتى جاء جَنٌ

الظلام، فلجأ إلى فدك وحده، فبات عند يهودي من أهلها، ثم كر عائداً إلى المدينة، وما شاء الله كان ولا قوة إلا بالله.

ورابع سرية:

سريّة غالب الكلبي

وبعث رسول الله ﷺ سريّة غالب بن عبدالله الكلبي إلى الحرقات من جهينة، فصبحوهم فهزموهم، وكان في السريّة أسامة بن زيد بن حارثة، ففرّ رجل من القوم، فلحقه هو ورجل من الأنصار فأدركه أسامةُ، فقال الرجل[1]: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه وطعنه أسامةُ بحربته فقتله، فلما قدموا إلى المدينة أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال له: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»؟ فقال أسامة: إنما كان متعوذاً[2]، فما زال الرسول يكررها حتى قال أسامة: تمنّيتُ أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. وهذا الحادثة ينظر إليها من خلال قوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] فإنها تدل على نوع الحادث.

وخامس السرايا:

سريّة بشير[3] بن سعد الأنصاري

وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري في ثلثمائة رجل إلى اليُمْن من أرض غطفان، وذلك من أجل جمع من المشركين تجمعوا للإغارة على المدينة النبويّة بإغراء وإمداد عيينة بن حصن الطاغية الظالم، فساروا إليهم يمشون الليل ويكمنون النهار، وبلغ ذلك الجمعَ مسيرُ بشير بن سعد الأنصاري، فهربوا فأصاب بشير وأصحابه نَعَمًا كثيرةً وأسروا منهم رجلين قدموا بهما إلى النبيّ ﷺ فأسلما وحسن إسلامهما.

---

(١) مرداس بن نهيك.

(٢) أي بقوله لا إله إلا الله ليحفظ نفسه من القتل.

(٣) هو والد النعمان بن بشير الصحابي الجليل.

وسادس السرايا:

سريّة عبدالله بن رواحة

وبلغ رسولَ الله ﷺ أن يسير بن رزام اليهودي يجمع غطفان ليغزوهُ بهم، فبعث عبدَالله بن رواحة في ثلاثين راكبًا، من بينهم عبدالله بن أُنيس، فأتوه بخيبر فقالوا له: إن رسول الله ﷺ أرسلنا إليك ليستعملك على خيبر، حتى تبعهم في ثلاثين رجلاً مع كل رجل رديفٌ من المسلمين، فلما بلغوا قرقرة نيار - وهي من خيبر على ستة أميال - ندم اليهودي، فأهوى بيده إلى السيف ليضرب عبدالله بن أنيس، ففطن له عبدالله فزجر بعيره ثم اقتحم عن بعيره يسوق القوم، حتى إذا استمكن من يسير اليهودي ضرب رجله فقطعها، فاقتحم يسير - وفي يده مخراش من شوحط - فضرب به وجه عبدالله بن أنيس فشجه، فانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم هربًا ولم يُصَب من المسلمين أحدٌ.

فقدموا على رسول الله ﷺ، فبصق في شجة عبدالله فلم تَقِحْ ولم تؤذه حتى مات رضي الله عنه.

وسابع السرايا:

سريّة عبدالله بن حذافة

وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن حذافة على رأس سريّة، وأمر أفراد السريّة أن يسمعوا لعبدالله وأن يطيعوا، وسار حتى إذا كان في بعض الطريق نزل منزلاً وطلب من أفراد السريّة شيئًا فأغضبوه، وهنا قال لهم: اجمعوا لي حطبًا فجمعوا، فقال لهم: أوقدوا نارًا، فأوقدوا، ثم قال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلي قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار، وعندها سكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبيّ ﷺ ذكروا له ذلك، فقال: **«لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»**.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالآتي:

١ - بيان قوة وصحة العزم المحمدي وعظم صبره على الجهاد إبلاغًا لدعوة ربه عز وجل.

٢ - مظاهر الحكمة المحمدية حيث تجلّت في مواطن كثيرة.

٣ - لا ينقص من قيمة السريّة ولا من أجرها إذا فرّ العدو ولم يتمكنوا منه، أو يحصلوا منه على طائل.

٤ - مشروعية مفاداة الأسرى.

٥ - لا يحل قَتْلُ مَنْ شهد أن لا إله إلا الله محمداً رسول الله ولواتهم بالتقيّة تخلصاً من القتل.

٦ - بيان بركة ريقة النبيّ ﷺ إذ شفى الله شجة عبدالله بن أنيس.

٧ - وجوب طاعة أولي الأمر في المعروف دون المنكر.

٨ - بيان أن المعصية لله والرسول إن كانت من كبائر الذنوب موجبة لدخول النار إلا أن يغفرها الله تعالى.

ورابع أحداثها:

عمرة القضاء

إنه بموجب صلح الحديبية الذي تم في السنة الفارطة، خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه - رضوان الله عليهم - بعد أن استعمل على المدينة عُوَيْف بن الأضبط الدئلي، وكان عدد المسلمين ألفين ما عدا النساء والصبيان، ومن بين أفراد هذا العدد من صُدَّ عن العمرة في السنة الماضية، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة سبع بناءً على بنود الاتفاقية القاضية بأن يرجع ﷺ وأصحابه من الحديبية فلا يدخلون مكة ولا يعتمرون على أن يعودوا في السنة القابلة فَتُخَلّى لهم مكة ثلاثة أيام يعتمرون ثم يعودون لا يمسهم سوء، وتُسمّى هذه العمرة: عمرة القضاء، أو القضية، أو عمرة الصلح أيضًا.

ولما قارب الرسول ﷺ دخول مكة، أخلت قريش له مكة، فلزموا بيوتهم وأنديتهم ودخل رسول الله ﷺ راكبًا على ناقته - وخطامُها بيد عبدالله بن رواحة - وهو ينشد ويقول:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله
خَلُّوا فكلُّ الخير في رسوله

يا ربِّ إنِّي مؤمن بقيله
أعرف حق الله في قَبُوله

وتحدث المشركون فيما بينهم وقالوا: إن محمدًا وأصحابه في عسرة جهد وشدة، وزين لهم الشيطانُ ذلك في نفوسهم حتّى هموا بالانقضاض عليهم، وعلم ذلك رسول الله ﷺ فلما دخل ﷺ اضطبع واضطبع أصحابه وقال لهم: **«رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة»**. ثم استلموا الركن وهرولوا في الطواف ثلاثة أشواط فرأت قريش بأم عينيها مظاهر القوة، فذهب وسواسُها من نفسها. وبقي الاضطباع والهرولة سُنةً، ترمز إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون دائمًا وهو القوة؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

زواج الحبيب ﷺ:

وأثناء إقامته ﷺ بمكة تزوج ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل التي تحت العباس ﷺ، وقد وكلت زوج أختها العباس، فتولى عقد نكاحها وأصبحت ميمونة أم المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

وفي اليوم الثالث بعث قريش رجلَها حويطب بن عبدالعزى ومعه نفر يطلبون من الرسول ﷺ أن يخرج بنهاية الثالث؛ تنفيذًا للاتفاقية، فقالوا له: إذا انقضى أجلك فاخرج عنا.

الكرم المحمدي:

ولما أبلغ حويطبٌ رسولَ الله ﷺ أمْرَ قريش بالخروج، قال لهم: **«وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه»**؟ فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا، فخرج ﷺ وترك أبارافع مولاه لأجل ميمونة، فإذا فرغ من

جهازها أتاه بها وهو في «سَرِف» فبنى بها هناك، ثم انصرف ﷺ عائداً إلى المدينة في أول الحجة وتولى الحج هذا العام المشركون ونزل في عمرة القضاء قرآن هو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧]، ومصداق ذلك فيما يلي:

١ - فتح خيبر وهو فتح قريب، والفتح البعيد هو فتح مكة العام القابل سنة ثمان من الهجرة، لأن كلمة «فتحًا قريبًا» تشير إلى فتح بعيد يأتي بعد القريب.

٢ - دخولهم مكة في عمرة القضاء آمنين غير خائفين.

٣ إذ بعد الفراغ من طوافهم وسعيهم، منهم من حلق ومنهم من قصر، فكان هذا تأويل رؤيا الرسول ﷺ التي رآها قبيل الحديبية.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالآتي:

١ - مشروعية قضاء العبادة إذا فاتت لأسباب قاهرة حالت دون أدائها.

٢ - جواز الاعتمار في الأشهر الحرم، وقد كان أهل الجاهلية يكرهونه.

٣ - مشروعية سنة الاضطباع والهرولة في طواف القدوم للعمرة أو الحج.

٤ - بيان العلة في سنة الاضطباع والهرولة في الأشواط الثلاثة الأولى، وهي إظهار القوة، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

٥ - مشروعية الزواج في دار الحرب للقادر عليه.

٦ - نظرًا إلى الخلاف في هل تزوجَ الرسولُ ﷺ ميمونةَ وهو مُحْرِم وبنى بها وهو حلال؟ فإني أرى الخروج من الخلاف يكون بارتشاء أن النبيّ ﷺ خطب ميمونة وعقد عليها بمكة بعد تحلله من إحرامه في أول يوم دخل مكة، ثم أمر مولاه أن يلحقه بها بعد تجهيزها في «سَرِفَ» فبنى بها هنالك؛ فلم يخطبها ولم يعقد عليها ولم يبْنِ بها وهو محرم أبداً.

٧ - لطيفة في أن آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه من ميمونة، وآخر من مات من نسائه بعده ميمونة. وأنها ﷺ بنى بها بسرف، وماتت ودفنت بسرف، فمكانُ عرسها هو مكان دفنها، فرضي الله عنها وأرضاها وجعل الجنة مأواها.

وخامس أحداثها:

سريّة ابن أبي العوجاء

ولما رجع ﷺ من عمرة القضاء - وذلك في شهر ذي الحجة - بعث سريّة عليها ابن أبي العوجاء السُّلَميّ في خمسين فارسًا، بعثهم إلى بني سُليم، وكان لهم عَيْنٌ(١)، فذهب إليهم فأخبرهم بقدوم السريّة عليهم لدعوتهم إلى الإسلام فتهيئوا للقتال، ودَفْعِ دعوة الإسلام، فلما انتهى إليهم رجال السريّة ودعوهم إلى الإسلام رشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم، وقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتهم إليه، فرموهم ساعةً، وجعلت الأمداد تتلاحق، وتحدق به من كل جانب، وقاتل أفراد السريّة قتالاً شديدًا حتى قتل عامتهم وأصيب أميرهم بجروح كثيرة إلا أنه تحامل حتى وصل المدينة مع مَنْ بقى معه من المسلمين.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي:

١ - وجوب الدعوة إلى الله تعالى والتحمل والصبر في سبيلها.

٢ - خطر العيون والجواسيس أيام الحروب، ووجوب الحذر منهم.

٣ - بيان شجاعة أصحاب الرسول ﷺ وسائر أهل الإيمان وعظيم صبرهم وتحملهم.

* * *

(١) جاسوس.

أهم أحداث هذه السنة غير الغزوات والسرايا

من أهم الأحداث والوقائع عدا الغزوات والسرايا التي كانت في سنة سبع من الهجرة ما يلي:

ردُّ النبي ﷺ ابنته زينب علي زوجها أبي العاص بن الربيع.

٢ زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية.

٣ قدوم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس ملك الأقباط بمصر ومعه مارية القبطية أم إبراهيم بن النبي ﷺ، وسيرين، وقد أسلمتا في طريقهما إلى المدينة.

٤ قضاء الرسول ﷺ وأصحابه عمرتهم التي مُنِعوا من إتمامها سنة ست من الهجرة.

أحداث السنة الثامنة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة الثامنة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها:

سريّة غالب

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبدالله الليثي الكلبي إلى بني المُلَوَّح، فلقيه في مسيره الحارث بن البَرْصَاء الليثي فأخذه أسيراً، فقال: إنما جئت لأسْلم. فقال له غالب: إن كنتَ صادقًا فلن يضرَّك رباط ليلة، وإن كنت كاذبًا استوثقنا منك. ووكَّل به بعض أصحابه، وقال له إن نازعكَ فخذ رأسه، وأمره بالمقام إلى أن يعود، ثم ساروا حتى أتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر، وأرسلوا جُنْدُب بن مكيث الجهني ربيئة[1] لهم، قال: فقصدت تلاً هناك يطلعني على الحاضر، فانبطحت عليه، فرآني رجل منبطحًا، فأخذ قوسه وسهمين، فرماني بأحدهما فوضعه في جنبي، فنزعته ولم أتحرك، ثم رماني بالسهم الثاني فوضعه في رأس منكبي، فنزعته ولم أتحرك، فقال الرامي: أما والله لقد خالطه سهماي، ولو كان ربيئة لتحرك، فأمهلناهم حتى راحت مواشيهم واحتلبوا، فشننّا عليهم الغارة، فقتلنا منهم واستقنا منهم النعم، ورجعنا سراعًا، وأتى صريخ القوم فجاءنا ما لا قبل لنا به حتى إذا لم يكن بيننا إلا بطن الوادي من قديد، بعث الله من حيث شاء سحابًا

(١) الربيئة: الطليعة من الجيش.

ما رأينا قبل ذلك مطرًا مثله، فجاء الوادي بما لا يقدر أحد أن يجوزه، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد أن يتقدم.

وكان شعارنا في هذه السريّة: أمت أمت، وكنا بضعة عشر رجلاً.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ - بيان إنفاذ الرسول ﷺ أمر ربّه عز وجل في إبلاغ دعوته بلا كلل ولا ملل ولا فتور.

٢ - بيان الصبر والتحمل في ذات الله عز وجل وأنه شعار المؤمنين الصادقين.

٣ - مشروعية الغزو في سبيل الله لِيُعْبَدَ اللهُ وحده، فيكمل الناس ويسعدوا على عبادته تعالى.

٤ - بيان إكرام الله تعالى لأوليائه بإنجائهم بالمطر والسيول وبما شاء من أسباب.

وثاني أحداثها:

سريّة شجاع

وبعث ﷺ شجاع بن وهب إلى بني عامر في أربعة عشر رجلاً، فأصابوا نعمًا، فكان سهم كل واحد منهم خمسة عشر بعيرًا.

وثالث أحداثها:

سريّة عمرو بن كعب

وبعث ﷺ عمرو بن كعب الغفاري إلى ذات الأطلاع في خمسة عشر رجلاً، فوجد بها جمعًا كثيرًا فدعاهم إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا، وقتلوا أصحاب عمرو ولم يَنْجُ إلا هو، وكانت ذات الأطلاع هذه من ناحية الشام - وهم من قضاعة - ورئيسهم يُقال له سدوس.

* * *

ورابع أحداثها:

إسلام كل من: خالد، وعمرو، وعثمان

إن في إسلام كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة العبدري نصرًا كبيرًا، وفتحًا عظيمًا للدعوة الإسلامية؛ ولذا كان إسلامهم حدثًا هامًا في تاريخ الدعوة، وقد تأخر إسلامهم إلى صفر من هذه السنة الثامنة.

وهذا بيان كيفية إسلامهم ﷺ، يقول عمرو: لما انصرفنا عن الخندق، قلت لأصحابي: إنني أرى أمر محمد يعلو علوًا منكرًا، وإني قد رأيت أن الحق بالنجاشي، فإن ظهر على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومنا علي محمد فنحن مَنْ قد عرفوا. فقالوا له: إن هذا الرأيُ، قال: فجمعنا له، أي للنجاشي أدمًا كثيرًا هديةً، وخرجنا إلى النجاشي، فإنا لعنده إذ وصل عمر بن أمية الضمري رسولاً من النبي ﷺ في أمر جعفر وأصحابه، فدخلتُ على النجاشي، وطلبتُ منه أن يُسْلم إليّ عمرو بن أمية؛ لأقتله؛ تقربًا إلى قريش بمكة، فلما سمع النجاشيُّ كلامي غضب وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره - أي النجاشي - فخفته، ثم قلت: والله لو ظننتُ أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموسُ الأكبر الذي كان يأتي لموسى لتقتله؟ قلتُ: أيها الملك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو!! أطعه واتّبعه؛ فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعونَ وجنده، فقلت: فبايعني له على الإسلام، فبسط يده فبايعته، ثم خرجتُ إلى أصحابي وكتمتهم إسلامي، وخرجت عائدًا إلى رسول الله ﷺ.

ولقيني خالد بن الوليد - وذلك قبل الفتح، وهو مقبل من مكة - فقلت: إلى أين يا أباسليمان، قال: والله لقد استقام المنسم[1] إن الرجل لنبيٌّ أذهبُ - والله - أُسْلِمُ، فحتّى متى؟؟ فقلتُ: ما جئتُ إلا للإسلام، فقدمنا على النبيّ ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، ثم دنوت فأسلمت، وتقدم عثمان فأسلم.

---

(١) أي تبين الطريق ووضح.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي.

١ - بيان فضل العلم الشرعي، فإن النجاشي آمن بالنبي ﷺ لما له من عِلْم بذلك.

٢ - بيان تدبير الله في خلقه، وذلك واضح في تأخر إسلام خالد وعمرو وعثمان بن أبي طلحة من كمال عقولهم وذكائهم، وعظم دهائهم.

٣ - سماحة الإسلام إذ احتضن الثلاثة مع ما قاموا به ضده وما تصرفوا ضد أهله ومن مبادئه «التوبة تجبُّ ما كان قبلها».

وخامس أحداثها:

سرية ذات السلاسل

وبعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بَلِيّ وعذرة يدعون الناس إلى الإسلام، وكانت أم عمرو من بَلَيّ فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ ، فسار عمرو حتى وصل ماء جذام المسمى بالسلاسل، وبه سميت هذه الغزوة «غزوة ذات السلاسل» فلما كان به خاف، فبعث إلى النبي ﷺ يستمده فبعث إليه أباعبيدة بن الجراح في جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبوبكر وعمر، وقال الحبيب ﷺ لأبي عبيدة: «لا تختلفا» - أي أنت وأمير السريّة عمرو بن العاص - فخرج أبوعبيدة ومن معه، فلما قدموا على عمرو، قال عمرو: يا أباعبيدة، إنما جئتَ مدداً إليّ، فقال أبوعبيدة: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال: «لا تختلفا» فإن عصيتني أطعتك، قال: فأنا أمير عليك قال: فدونك، فصلى عمرو بالناس وبالمدد الذي بعث به رسول الله ﷺ . بلغ عدد أفراد السريّة نحواً من خمسمائة رجل فضربوا في المنطقة شرقًا وغربًا ودوخوا من فيها. وفي هذه السريّة احتلم عمرو فلم يغتسل؛ خوفًا من الموت لشدة البرد، وإنما استنجى وتوضأ وتيمم وصلى، ولما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك سكت فأقر عَمْراً على فعله.

* * *

وسادسة أحداثها:

سرية عمرو بن العاص

وبعث ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابنَيْ الجُلُنْدي بِعُمَان، فآمنا وصدقا، وأخذ الجزية من المجوس القاطنين بعمان.

وسابعة أحداثها:

سرية الخبط[1]

وفي هذه السنة الثامنة من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ سريّة، جعل عليها أباعبيدة ابن الجراح، وعدد أفرادها ثلثمائة مقاتل، وزودهم رسول الله ﷺ بجراب من التمر ووجههم نحو ساحل البحر، ونَفِدَ جرابُ التمر حتى كانوا يعطون منه تمرة تمرة، وقال أحدهم: قلت في نفسي: ماذا تُغْني هذه التمرة؟ ولما فقدتُها عرفتُ قيمتها يومئذٍ، وجاعوا حتى كانوا يضربون ورق الشجر، فيسقط فيجمعونه ويبلونه بالماء ويأكلونه؛ ولذا سميت هذه السريّة: سريّة الخبط، ولما قربوا من البحر، لاحَ لهم شيء كأنه كثيب رمل، فدنوا منه وإذا هو دابة من دواب البحر ميتة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نحواً من نصف شهر حتى سمنًا، وكنا نغترف من عينها الدهنَ بالمغراف، ونصبنا ضلعين من أضلاعها، فكانت الراحلة تدخل تحتها ولا تمسها، وتزودنا من لحمها. ولما وصلنا إلى المدينة وذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ قال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه تطعمونا»؟ فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه شيئًا فأكله.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالتالي:

١ - مواصلة الدعوة إلى الله تعالى وإبلاغ رسالته ﷺ إلى كافة الناس لإصلاحهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة.

٢ - بيان صبر الصحابة وتحملهم الشدائد في ذات الله تعالى ما كانوا به مضرب المثل.

---

(١) ورق الشجر يخبط بالمخبط.

٣ - بيان إكرام الله تعالى لأصحاب رسوله بأن ساق لهم العنبر، فأكلوا نصف شهر منه.

٤ - جواز أكل ميتة البحر.

٥ - بيان تطييب رسول الله ﷺ لخواطر أصحابه وتزكية نفوسهم، وذلك بأكله من لحم الحوت الميت. وهو القائل في البحر: «هو الطهور ماؤه الحلّ ميته».

وثامنة أحداثها:

سرية أبي قتادة

وفي شعبان من هذه السنة، وجّه رسولُ الله ﷺ أباقتادة ومعه عبدالله بن أبي حدرد - في رجال - إلى الغابة، حيث بلغ رسول الله ﷺ أن رفاعة بن قيس قد جمع جموعًا ونزل الغابة يريد حرب رسول الله ﷺ. ولما بلغوا من الحاضر[1] مع غروب الشمس، كَمنَ كل واحد منهم في ناحية، وكان لقوم رفاعة راعٍ فأبطأ عنهم، فخرج رفاعة بن قيس في طلبه معه سلاحه، قال عبدالله بن أبي حدرد: فرميته بسهم فأصبتُ فؤاده فلم يتكلم، فأخذت رأسه ثم شددت في ناحية العسكر، وكبرتُ وكبر أصحابي، فوالله ما كان إلاّ النجاء أي هرب أهل الحاضر طالبين النجاة لأنفسهم، فأخذوا نساءهم وأولادهم وما خفّ عليهم من أموالهم، واستقنا الإبل الكثيرة والغنم، فجئنا بها رسولَ الله ﷺ ورأس رفاعة، قال عبدالله: فأعطاني رسول الله ﷺ من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيرًا وعدل بعير، وعدل البعير بعشر من الغنم.

وتاسعة أحداثها:

سرية أبي قتادة إلى إضم

وفي هذه السنة أيضًا أغزى رسول الله ﷺ أباقتادة إلى «إضم» ومعه محلم بن جثامة، فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي على بعير له ومعه متاعه، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وأخذ بعيره ومتاعه، ولما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر، نزل قوله تعالى من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) الحاضر: سكان الحاضرة أي المدينة أو القرية، والمراد هنا منازل القوم التي حضروا فيها.

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وعاشرة أحداثها:

غزوة مؤتة

هذه إحدى الغزوات العظيمة في الغزو الإسلامي: وكانت في جمادى الأولى من سنة ثمان، فقد حدد الرسول ﷺ زمانها ومكانها، وعين أمراءها: فعيّن زيد بن حارثة مولاه أميرًا عليها، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة.

وكان عدد أفراد هذه السريّة ثلاثة آلاف مقاتل، ولما عين الحبيب ﷺ زيدًا أميرًا، وَجدَ جعفر في نفسه وقال يا رسول الله: ما كنت أذهب أن تستعمل عليّ زيدًا؛ فقال له رسول الله ﷺ: «امْضِ؛ فإنك لا تدري أي ذلك خير» وعندها بكى الناسُ وقالوا: هلا متعتنا بهم يا رسول الله، وكان إذا قال: «فإن أصيب فلانٌ فالأمير فلان» أصيب كلُّ من ذكره.

وتجهز الناس وودعهم رسول الله ﷺ الناسُ، ولما ودع عبدالله بن رواحة بكى فقال له الناس: ما يبكيك؟ فقال: ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية وهي: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلستُ أدري، كيف لي بالصدر بعد الورود. فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين. ولمّا تهيأ القوم للخروج، أتى عبدُالله رسولَ الله ﷺ فودعه ثم قال:

أنت الرسول فمن يُحْرَم نوافله(١)
والوجْهَ منه: فقد أزرى(٢) به القدرُ

فثبت الله ما آتاك من حسن
في المرسلين ونصرًا كالذي نُصروا

---

(١) نوافله: عطاياه وهباته.

(٢) أي قصر به.

إني تفرستُ فيك الخير نافلة
فراسةً خالفت فيها الذي نظروا

ثم خرجوا وساروا حتي نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من العرب المتنصرة من لخم وجذام والقَين وبَلى. فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره الخبر، وننتظر أمره، فشجعهم عبدالله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون: إنه الشهادة، وما نقاتل بعدد ولا قوّة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسنيين، فقال الناس: صدقَ والله، وساروا فتلقتهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها: مشارف، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها وكان على ميمنة المسلمين قَطبة بن قتادة العذري، وعلى ميسرتهم عبادة بن مالك الأنصاري، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقاتل زيد براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم أي مات، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها
طيّبة وباردًا شرابُها
والروم روم قدْ دنا عذابها
عليَّ إذ لاقيتُها ضرابُها

ثم عقر فرسه وهو أول فرس عقر في الإسلام، وقاتل حتى قطعت يده اليمنى، فأخذ الراية باليسرى، وقاتل حتى قطعت يده اليسرى، فاحتضن الراية بعضديه حتى قُتل، فوجد به بضع وثمانون رميةً وضربةً، وطعنة في جوار الله تعالى ورضوانه، وأخذ الراية عبدُالله ابن رواحة، ثم تقدم فتردد بعض التردد ثم قال يخاطب نفسه:

أقسمت يا نفس لتنزلنّه
طائعة أو لتكرهنّه
إذ أجلب الناس وشدوا الرنه
مالي أراك تكرهين الجنه؟!

قـــد طـال مـــا كـنـت مطـمـئـنـه

هل أنت إلا نـطفـــــة في شـنـه

ثم نزل على فرسه، فجاء ابن عم له بعرق لحم، فقال: شد بهذا صُلْبَك فقد لقيتَ ما لقيتَ! فأخذه فانتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية العسكر فقال لنفسه: وأنت في الدنيا!! ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتي قتل، (فإلى رحمة الله ورضوانه) واشتد عليهم الأمر، وكان قطبة قد قُتِل قبل ذلك قتله مالك بن زافلة قائد العرب المتنَصِّرة. ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني العجلان، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز، وانحيز عنه حتى انصرف الناس، ثم أقبل بهم قافلاً في طريقه إلى المدينة النبويّة.

إخبار النبيّ ﷺ بالواقعة:

وبالمدينة يخبر الحبيب ﷺ بجريان المعركة بالتفصيل كأنه يشاهدها عن كثب، فيقول - بعد أن رقى المنبر ونادى بالصلاة جامعة: «باب خير، باب خير، باب خير. أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم لقوا العدو، فقتل زيد شهيداً فاستغفر له، ثم أخذ اللواء جعفر فسد على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفر له، ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة». وصمت حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان من عبدالله ما يكرهون ثم قال ﷺ: «فقاتل القوم حتى قتل شهيداً» ثم قال: «لقد رفعوا إلى الجنة على سُرُر من ذهب فرأيت في سرير ابن رواحة ازوراراً عن سريرَيْ صاحبيه، فقلت: عَمَّ هذا؟ فقيل: مَضَيَا، وتردَّدَ بعضَ التردد، ثم مضى». ولما قتل ابن رواحة أخذ الراية ثابت بن أرقم الأنصاري، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فاصطلحوا على خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فماذ بالناس» فمن يومئذٍ سُمّي خالد سيف الله. وقال رسول الله ﷺ: «مرّ بي جعفر البارحة في نفر من الملائكة له جناحان مختضب القوادم بالدم».

امرأة جعفر تحدث:

وقالت أسماء بنت عميس زوج جعفر الطيّار بن أبي طالب ﷺ: أتاني النبي ﷺ

وقد فرغت من اشتغالي وغسلت أولاد جعفر، ودهنتهم، فأخذهم وشمهم، ودمعت عيناه فقلت: يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيءٌ؟ قال: «نعم أصيب هذا اليوم» ثم عاد إلى أهله، فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعامًا - فهو أول ما عُمِل في دين الإسلام. ولما رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله ﷺ فأخذ عبدالله بن جعفر فحمله بين يديه، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: «يا فُرّارُ يا فرار»، ويقول الرسول ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرّارُ إن شاء الله».

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١ - فضيلة الأمراء الثلاثة: زيد، وجعفر، وابن رواحة.

٢ - مشروعية توديع المسافر إلى سفر صالح كالجهاد والحج ونحوهما.

٣ - بيان حقيقة كَشَفَ عنها ابنُ رواحة، وهي أن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا قوة، وإنما يقاتلون بالدين، فإن كانوا صالحين مستقيمين انتصروا، وإلا انكسروا.

٤ - مشروعية مخاطبة النفس وترويضها على الطاعات.

٥ - آيات النبوة المحمدية تتجلى في إخبار النبي ﷺ أهلَ المدينة بسير المعركة ووصفه لها، كأنه يديرها ويشاهد سَيْرَ القتال فيها، ولم يخطئْ في شيء منها ولوقَلّ، ولم يكن يومئذٍ أخبار سلكية ولاسلكية ولا عرض تلفاز ولا فيديو، فكان إخباره أعظمَ آية على أنه رسول الله ﷺ يتلقى الوحْيَ من الله عز وجل.

٦ - بيان فضل خالد، وسبب تلقيبه بسيف الله.

٧ بيان تألم رسول الله ﷺ لموت الأمراء، وخاصة جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين -.

٨ - مشروعية صنع الطعام لأهل الميت لانشغالهم بالمصيبة وحزنهم على فَقيدهم، وأن أول طعام صُنع لهذا الغرض هو ما صنعه الرسول ﷺ لآل جعفر فكان سُنة قولية عملية.

٩ - مشروعية حمل الطفل الصغير وشمه وتقبيله؛ رحمةً به وشفقةً عليه.

وحادي عشر أحداثها:

غزوة الفتح: فتح مكة

أسباب هذه الغزوة:

لقد ورد في اتفاقية الحديبية أن «خزاعة» دخلت في عقد الرسول ﷺ «وبكر» دخلت في عقد قريش، وشاء الله عز وجل أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد شعرًا في هجاء النبي ﷺ فضربه فشجَّه، فهاجَ الشر بينهم، وثارت «بكر» على «خزاعة» حتى بيَّتوهم بالوتير، وأعانت قريشٌ بني بكر بالسلاح والدواب، وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فانحازت خزاعة إلى الحرم لائذة به إلا أن بكرًا لم تحترم الحرم وقاتلت خزاعة به وقتلت منهم.

وبهذا كانت قريش قد نقضت العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ؛ إذ أعانت بني بكر على خزاعة أحلاف النبي ﷺ. وعندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه، ثم قال: منشدًا قصيدة مطلعها:

اللهم إني ناشدٌ محمدا
حلف[1] أبيه وأبينا الأتلدا
فوالدًا كنا وكنت ولدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

إلى أن قال:

هم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا
وقتلونا ركعًا وسُجَّدا

فقال رسول الله ﷺ: «قد نُصرتَ يا عمرو بن سالم» وجاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة إلى النبيِّ ﷺ، فوافقه يغتسل فنادوه فقال: «يا لبيكم» وخرج إليهم فأخبروه الخبر، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، أي أعلموه بالذي جرى من نقض قريشٍ عهدَها. وكان النبيّ ﷺ قد قال لأصحابه: «كأني بأبي سفيان قد جاء ليجدد الهدنة خوفًا ويزيد في

(١) يذكر بحلف قديم كان بين عبدالمطلب وخزاعة.

المدة» ومضى بديل في طريقه، وإذا بأبي سفيان في عسفان في طريقه إلى المدينة وصدقت فراسة الحبيب ﷺ فقال أبوسفيان لبديل: من أينَ أقبلتَ؟ قال: من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادي، قال: أو ما أتيتَ محمدًا؟ قال: لا، فقال أبوسفيان لأصحابه - لما راح بديل -: انظروا بعر ناقته، فإن جاء المدينةَ لقد علف النواء، فنظروا بعر الناقة فرأوا فيه النوى. وواصل أبوسفيان سيره حتى أتى المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ طوَتْه عنه، فقال أرغبت به عنّي أم رغبت بي عنه؟ فقالت: هو فراش رسول ﷺ وأنت مشرك نجس. ، فلم أحبّ أن تجلس عليه، فقال: لقد أصابك بعدي شرًّا! ثم خرج حتى أتى النبيَّ ﷺ فكلمه، فلم يردّ عليه شيئًا، ثم أتى أبابكر فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر فكلمه فقال: ما أنا بشافع لكم إلى رسول الله ﷺ، ووالله لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج حتى أتى عليًّا فكلمه في ذلك، فقال له: والله لقد عزم رسولُ الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه. فنادى فاطمة قائلاً: يا بنتَ محمد، هل لك أن تأمري ابنك هذا - يشير إلى الحسن وهو يومها غلام -أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد. ثم التفت إلى عليّ، وقال: أرى الأمور قد اشتدت عليَّ فانصحني، قال: إنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، والتحق بأرضك.

فقام أبوسفيان في المسجد، وقال: أيها الناسُ قد أجرتُ بين الناس ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشًا بما جرى له وما أشار به عليٌّ عليه، فقالوا: والله ما زاد على أن سخر منك!!

التجهيز والإعداد لفتح مكة:

وعزم النبيُّ ﷺ على غزو قريش لفتح مكة لنقض قريش المعاهدة نقضًا واضحًا صريحًا، فتجهز وأمر أصحابه بذلك، وقال: «**اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**». ولما علم حاطبُ بن أبي بلتعة بعزم الرسول ﷺ على المسير إلى قريش، وذكر أهلَه وولدَه بمكة، وأن لا ولي له بها يدفعون عن أهله وولده، وعلم أن الله ناصر رسوله، فكتب كتابًا إلى قريش، يُعلِمهم بما عز عليه الرسول ﷺ، وبعث

بالكتاب مع امرأة من مزينة اسمها: كنود، تحمله وتركب راحلتها وتسير، وسبقها الوحيُ الإلهي إلى رسول الله ﷺ، فأرسل النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام لافتكاك الكتاب منها قبل وصولها مكة، فخرجا في طلبها، فأدركاها وأخذا الكتاب منها، وهذه من استجابة الله تعالى دعوة رسوله ﷺ، إذ قال: «**اللهم خُذ العيون والأخبارَ عن قريش**» وأحضر حاطبًا وقال: «**ما حملك على هذا؟**» فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما بدلتُ ولا غيْرت، ولكن لي بين أظهرهم أهلٌ وولدٌ، وليس لي عشيرة فصنعتهم عليهم. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضربْ عنقه؛ فإنه قد نافق. فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» وأنزل الله تعالى في حاطب فاتحة سورة الممتحنة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: ١].

المسير إلى مكة:

واستخلف النبي ﷺ على المدينة أبا رُهم كُلثوم بن حصن الغفاري، وخرج في عشرة آلاف مقاتل، وذلك لعشر مضين من رمضان. وأثناء مسيره أدركه عيينةُ بن حصن والأقرعُ بن حابس كما لقيه العباسُ بن عبدالمطلب بذي الحليفة مهاجرًا، فأمره أن يُرْسل رحلَه إلى المدينة ويعود معه، ففعل، وقال له: «**أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء**»، وصام ﷺ وصام أصحابه حتى بلغ ما بين عسفان وأمج فأفطروا، ولقيه في الطريق وهو نازل بنيق العقاب أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن أبي أمية، فالتمسا الدخول عليه ﷺ فكلمته أم سلمة في شانهما، فقال: «**لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فقد هتك عرضي، وأما ابن عمتي، فهو الذي قال بمكة ما قال**[1]» فلما سمعا ذلك - وكان مع أبي سفيان ولد له يقال له: جعفر، فقال أبوسفيان: والله ليأذَنَنَّ لي، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فَرقَّ لهما رسولُ الله ﷺ فأدخلهما إليه فأسلما، وأنشد أبوسفيان في إسلامه واعتذاره قوله:

---

(١) قال: لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه.

لعمرك إني يوم أحمل رايةً
لتغلب خيلُ اللاتِ خيلَ محمد
لكالمدلجِ الحيرانِ أظلمَ ليلُه
فهذا أواني حين أُهدَى فأهتدي
وهادٍ هداني غير نفسي ودلّني
على الله من طرّدته كلَّ مطرد

بمر الظهران:

ونزل الحبيب الأحبُّ والقائدُ الأعظم ﷺ بِمَرِّ الظهران غير بعيد من مكة، ونزل معه جيشه المظفر المقدر بعشرة آلاف مقاتل جلهم من المهاجرين والأنصار وباقيهم من جهينة، وغفار، ومزينة، وسليم، وتميم، وأسد، وقيس.

ونظر العباس إلى قوة الجيش وقال: يا هلاك قريش، والله إنْ باغتها رسول الله ﷺ في بلادها فدخلها عنوةً، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، ثم جلس على بغلة النبي ﷺ، وقال أخرج؛ لعلّي أرى حَطَّابًا أو رجلاً يدخل مكة لحاجة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتوه ويستأمنوه، وخرج يطوف في الأراك، وإذا به يسمع صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام وبُديل بن الورقاء الخزاعي، خرجوا يتحسسون الأخبار ويرقبون الأمور. ورأوا نيران المعسكر تشتعل ليلاً تضيء الساحة كلَّها، وهي آلاف النيران فقال أبوسفيان: ما رأيت نيرانًا أكثر من هذه، فقال بديل: هذا نيران خزاعة، فقال أبوسفيان: خزاعةُ أذلّ من ذلك أو أقل، فقال العباس: يا أبا حنظلة «كنية أبي سفيان» فقال: أبوالفضل؟ قلت: نعم، قال: لبيك فداك أبي وأمي ما وراءك؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المسلمين أتوكم في عشرة آلاف. قال: ما تأمرني؟ قلتُ: تركب معي فأستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، قال العباس: فركب معي فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ على بلغة رسول الله، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال: أبوسفيان - أي هذا أبوسفيان - الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضتُ البغلة فسبقتْ عمر، ودخل عمرُ على رسول الله ﷺ فأخبره وقال: دعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم أخذت برأس رسول الله

ﷺ وقلت: لا يناجيه اليوم أحد دوني، فلما أكثر عمر فيه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا إلا أنه من بني عبدمناف، ولو كان من بني عدي ما قلتَ هذه المقالة، فقال: مهلاً يا عباس فوالله لإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقالَ رسول الله ﷺ: **«اذهب فقد آمناه حتى تغدو عليّ به الغداة»** فرجعت به إلى منزلي وغدوت به على رسول الله ﷺ. فلما رآه قال: **«ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»**؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئًا، فقال: **«ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»**؟ فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه ففي النفس منها شيءٌ، قال العباس: فقلت له: ويحك تشهد بشهادة الحق قبل أن تُضرب عنقك، قال: فتشهَّدَ وأسلم معه حكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء.

استعراض القوة للإرهاب:

وأمر الحبيب ﷺ العباس أن يذهب بأبي سفيان فيحبسه في طريق مرور الجيش الإسلامي؛ ليرى بأم عينيه قوة الإسلام والمسلمين، قال ﷺ: **«اذهب بأبي سفيان فاحبسه عندخطم[1] الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله»** قال العباس: فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخرَ فاجعل له شيئًا يكون في قومه فقال: **«فليدخل مكة وليقل: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»**. قال العباس فخرجت فحبسته، أي أوقفتُه عند خطم الجبل، فمرت عليه القبائل فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: أسلم، فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: جهينة، فيقول: مالي ولجهينة؟ حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء[2] مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق، فقال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال: لقد أصبح ملكُ ابن أخيك عظيمًا!! فقلت: ويحك إنها النبوّة فقال: نعم إذن. فقلت: الحق بقومك سريعًا فحذرهم. فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم ابن حزام، فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فقالوا: فمه[3] قال: من دخل داري فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق

---

(١) خطم الجبل هو أنفه الخارج منه.

(٢) لكثرة الحديد وظهوره فيها قيل فيها: الخضراء.

(٣) فمه: «ما» الاستفهامية حذفت منها الألف وزيدت فيها هاء السكت، أي فما الذي تريد أن نصنعه؟

بابه فهو آمن. ثم قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا فأقبلت امرأته هند، فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخَ الأحمق. فقال: أرسلي لحيتي، وأقسم لئن لم تُسْلِمِي لتضربن عُنُقُكِ، ادخلي بيتك، فتركَتْه وذهَبَتْ.

دخول القوات إلى مكة:

ومشى رسول الله ﷺ حتى وصل ذا طوى، وقف على راحلته معتجرًا بشقة بُرْدٍ حبرة حمراء، وفرَّقَ جيشَه، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدي[1]، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء «المعلاة» وسمع سعد بن عبادة يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله اسمعْ ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صَولةٌ، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: **«أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها»** وأمر خالدًا أن يدخل من اللِّيط أسفل مكة في بعض الناس، وكان خالد على المجنبة اليُمْني، كما أن الزبير على المجنبة اليسرى، وأقبل أبوعبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ، وإنه ﷺ لتواضعه لربّه لما رأى من إكرام الله تعالى له تكاد لحيته تمس واسطة الرحل؛ تواضعًا لله تعالى - فلم يدخل دخول الظَّلَمَةِ الفاتحين - يكاد يطير بهم الزهو والخيلاء والكبر والصلف.

وقد أوصى أمراءه ألا يقتلوا إلا مَنْ قاتلهم، وكان صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسًا بالخندمة ليقاتلوا، فلما وصلهم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد ناوشوهم شيئًا من القتال، فقتل من المشركين نحوًا من ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزموا، وقتل من المسلمين كرز بن جابر وحُبَيْش بن خالد بن ربيعة بسبب سلوكهما طريقًا غير طريق خالد الذي سلكه.

من القبة إلى المسجد:

وكان قد ضربت للحبيب ﷺ قبة بالحجون، وها هو ذا ﷺ يخرج منها في طريقه إلى المسجد الحرام وإلى جنبه الصديق يحادثه وهو يقرأ سورة «الفتح» حتى بلغ

---

(٣) اسم جبل بمكة.

البيت فطاف سبعًا على راحلته، واستلم الحجر الأسود بمحجن كان بيده، وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعن بعود في يده وهي تتساقط وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، وما يُبدئُ الباطل وما يعيد».

وأمر بالصور والتماثيل التي داخل البيت، فأُخرجت ورُميت هي وسائر الأصنام خارج المسجد الحرام، ودخل ﷺ الكعبة، وصلي فيها، وكبر في سائر نواحيها، ثم خرج فجلس في المسجد الحرام كالبدر في هالته والعيونُ إليه شاخصة والقلوبُ واجفةٌ.

مظاهر الكرم المحمدي:

ثم قام ﷺ على باب الكعبة، وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ألا كل دم أو مأثرة أو مال يُدَّعى، فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

ألا وقتيل الخطأ - شبه العمد بالسوط والعصا - ففيه الديةُ مغلظة: مائة من الإبل، أو أربعون منها في بطون أولادها.

يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم»؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخٍ كريم قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فعفا عنهم بعد أن أمكنه الله تعالى منهم، فضرب بذلك المثل في العفو والصفح عن الجناة بعد القدرة عليهم والتمكن منهم.

المجرمون الثمانية:

لم يشمل ذلك العفو العام ثمانية مجرمين وأربع نسوة مجرمات.

فالرجال الثمانية هم:

عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أميّة بن خلف، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح، وعبدالله بن خطل، والحويرث بن نقيذ بن وهب، ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن الزبَعْري، وهبار بن الأسود. إذ كان هؤلاء أشد عداوةً وأذى لرسول الله ﷺ من

غيرهم، ولـذا أمر بقتلهم قبل توبتـهم. وقد تاب وأسلم وحسن إسلامـه كلٌّ من عكرمة، وصفوان، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح، وعبدالله بن الزبعري وقتل الأربعة الباقون كفراً (فإلى جهنم وبئس القرار). وقال عبدالله بن الزبعري لما أسلم - شعراً يعتذر فيه:

يـا رســـول المـليـك إن لســـانـي
راتـقٌ مـــا فـــتـــقـتُ إذ أنا بُورُ

إذ أبـاري الشـــيطانَ في سَنَنِ الغـيِّ (م)
ومنْ مــالَ مــيلَه مــثـبـــورُ

آمــن الــلحــمُ والــعـظـامُ لــربِّــي
ثم قـلبـي الشــهــيــد أنت النـذير

وأما النسوة: فهن هند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن عبدالمطلب، وقَيْنتا عبدالله بن خطل، فأسلمت هند وحسن إسلامـها كذا إحدى القَيْنَتَيْنِ والاثنتان الأخريان قـتلتا كافرتين فإلى غضب الله وأليم عذابه.

البيعة على الإسلام:

ثم جلس رسـول الله ﷺ على الصفا للـبيعـة، وعمـر بن الخطاب تحتـه، وتقدم الرجال يبـايعون رسـول الله ﷺ على الإسلام، فكان يـبايعهم على الـسمع والطاعة لله ولرسوله فيـما استطاعوا. ولما فرغ من بيـعة الرجال، جاءت النساء للبيـعة، وكانت بينهن هند بنت عتبة متنكرة؛ لمـا صنعتْ بحمزة ﷺ، فقال لهن: «تباعينني على ألا تشركن بالله شيئًا» قالت هند: إنك والله لتـأخذ علينا ما لا تـأخذه علي الرجال فـسنؤتيكه قال: «ولا تسـرقن» قالت: والله إن كنت لأصيب من مـال أبي سفيان الهنةَ[١] والهنة، فقال أبوسـفيان وكان حاضراً: أما ما مضى فأنت منه في حلّ، فقال رسول الله ﷺ : «أهند»؟ قالت: أنا هند فاعْفُ عـما سلف عفـا الله عنك، قال: «ولا تزنين» قالت: وهل تزني الحـرة؟ قال: «ولا تقتلن أولادكن» قالت: ربيناهم صـغاراً، وقتلتـهم يوم بدر كبـاراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عـمر. قال: «ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن» قالت: والله إن إتيان

---

(١) الشيء الصغير الذي لا يعرف له اسم.

البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. قال: «ولا تعصين في معروف» قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «بايعهنّ»؛ واستغفر لهن رسولُ الله ﷺ؛ إذ كان ﷺ لا يمس النساء ولا يصافح امرأة ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله له، أو ذات محرم منه.

الإنسان قبل الإيمان:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال وبيعة النساء، كان قد آن أوان الظهر، فأمر بلالاً أن يطلع على سطح البيت الحرام ويؤذن، وقريش فوق الجبال وسطوح البيوت، فمنهم من يطلب الأمان، ومنهم من أُمّن، فلما أخذ بلال في الأذان وقال: أشهد أن محمدًا رسول الله، قالت جويرية بنت أبي جهل: لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة، وقالت: لقد رفع الله ذكْرَ محمد، وأما نحن فسنصلي، ولكن لا نحب من قتل الأحبة، وقال خالد بن أسد: لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام ليتني مت قبل هذا اليوم، وقال غيرهم مثل قولهم، ولكنهم أسلموا وحسن إسلامهم، فأشرقت نفوسُهم بنور الإيمان وذهبت ظلمة الكفر والجهل التي من جرّائها قالوا ما قالوا من كلمات الكفر التي يرضى المؤمن أن يصلّب ويقطع ولا يرضى أن يقولها أبدًا.

ذكريات فيها عبر وعظات:

أ - قالت أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم، وكانت أم هانئ عند هبيرة بن أبي وهب الخزومي، قالت: فدخل عليٌّ أخي عليُّ بن أبي طالب، وقال: والله لأقتلنهما، فأغلقتُ عليهما بابَ بيتي، ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدتَه يغتسل من جفنة وإن فيها لأثر العجين وفاطمة بنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «مرحبًا وأهلاً يا أم هانئ ما جاء بك»؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليٍّ فقال: «أجَرْنا مَنْ أجرتِ وأمَّنَّا مَنْ أمنتِ فلا يقتلهما».

ب -لما طاف ﷺ بالبيت، دعا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخل فيها وصلى، وأخرج منها بعض الصور والتماثيل، فقام إليه عليّ بن أبي طالب

- ومفتاحُ الكعبة بيده - فقال: يا رسول الله اجمعَ لنا الحجابة مع السقاية، صَلَّى اللهُ عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة»؟ فَدُعِيَ له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يومُ برّ ووفاء».

حـ - لما كان الحبيب ﷺ يطوف بالبيت يوم الفتح، كان فضالة بن عمير بن المُلَوّح فكّر في قتل النبي ﷺ وهو يطوف، فلما دنا من الرسول ﷺ قال الرسول ﷺ: «أفضالة»؟ قال: نعم، فضالةُ يا رسول الله: قال: «ماذا كنتَ تحدِّث به نفسَك»؟ قال: لا شيء كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يدَه عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررتُ بامرأة كنتُ أتحدث إليها، فقالت: هلمّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعثتُ أقول:

قالت: هلمّ إلى الحديث، فقلتُ: لا
يأبى عليك اللهُ والإسلامُ
لو ما رأيت محمدًا وقبيله
بالفتح يوم تكسَّر الأصنامُ
لرأيت دين الله أضحى بيِّنًا
والشرك يغشى وجهَهُ الإظلامُ

د - لما دخل رسول الله ﷺ المسجد يوم الفتح - وذلك يوم عشرين من رمضان أتى أبوبكر بوالده أبي قحافة يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلاَّ تركتَ الشيخَ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه!!»، قال أبوبكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، فأجلسه النبي ﷺ بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال: «أسْلِمْ» فأسلم، وقال لأبي بكر: «غيروا هذا من شعره وجنبوه السواد»، وكان شعر أبي قحافة أبيض، كأن رأسه ثغامة[1].

---

(١) واحدة الثغام: نبات جبليّ أشدّ ما يكون بياضًا إذا أمحل.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي:

١ - بيان عاقبة نكث العهود وأنها وخيمة للغاية، إذ قريش نكثت عهدها فحلت بها الهزيمة وخسرت كيانها الذي كانت تدافع عنه وتحميه.

٢ - تجلي النبوة المحمدية في العلم بالمرأة حاملة خطاب ابن أبي بلتعة إذ أخبر عنها، وعن المكان الذي انتهت إليه في سيرها، وهو روضة خاخ.

٣ فضيلة إقالة عثرة الكرام، وفضل أهل بدر، تجلى ذلك في العفو عن حاطب بعد عتابه.

٤ - مشروعية السفر في رمضان وجواز الفطر والصيام فيه على حدٍّ سواء.

٥ - مشروعية التعمية على العدو حتى يباغت قبل أن يكون قد جمع قواه، فتسرع إليه الهزيمةُ وتقلّ الضحايا والأموات من الجانبين حقنًا للدماء البشرية.

٦ - بيان الكمال المحمدي في قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات الباهرة.

٧ - مشروعية إرهاب العدو بإظهار القوة له، وفي القرآن: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٨ - مشروعية إنزال الناس منازلَهم، تجلى هذا في إعطاء الرسول ﷺ أباسفيان كلمات يقولهن، فيكون ذلك فخراً له واعتزازاً، هو من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ينادي بها بأعلى صوته.

٩ بيان تواضع الرسول ﷺ لربّه شكراً له علي آلائه وإنعامه عليه، إذ دخل مكة وهو متطامن حتى إن لحيته لتمسّ رحل ناقته تواضعًا لله وخشوعًا؛ فلم يدخل - وهو الظافر المنتصر - دخول الظلمة الجبارين السفاكي الدماء البطاشين بالأبرياء والضعفاء.

١٠ بيان العفو المحمدي الكبير، إذ عفا عن قريش العدوه الألدّ، ولم يقتل منهم سوى أربعة رجال وامرأتين إذ رفضوا الإسلام.

١١ بيان الكمال المحمدي في عدله ووفائه، تجلى ذلك في ردّ مفتاح الكعبة لعثمان بن

أبي طلحة ولم يُعْطِه مَنْ طلبه منه، وهو علي بن أبي طالب صهره الكريم.

١٢ - مشروعية كسر الأصنام والصور والتماثيل وإبعادها من المساجد بيوت الله تعالى.

١٣ - تقرير مبدأ الجوار في الإسلام لقوله ﷺ: «أجَرْنا من أجرت وأمَّنَّا مَنْ أمنت يا أم هانئ».

١٤ - وجوب البيعة على الإسلام، وهي الطاعة لله ورسوله وأولي الأمر في المعروف وما يستطاع.

١٥ - آية النبوة تتجلى في علمه ﷺ بما أضمره الرجل من اغتيال الرسول ﷺ وهو يطوف.

١٦ - احترام الرسول ﷺ لأسرة الصديق وتكريمه لها، والإكبار من شأنها إذ هي الأسرة الوحيدة التي أسلم كافةُ أفرادها: آباء وأمهات وبنين وبنات.

١٧ - مشروعية صبغ الشعر بغير السواد سواء أكان شعر لحية أم رأس.

وثاني عشر أحداثها:

غزوة خالد بني جذيمة

ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة، بعث رسول الله ﷺ بعض السرايا حول مكة يدعون الناس إلى الإسلام، ولم يأمرهم بالقتال، وبعث خالد بن الوليد على رأس سرية داعيًا ولم يأمره بالقتال، فنزل على الغميصاء «ماء من مياه جذيمة» وكانت جذيمة أصابت في الجاهلية عوف بن عبدعوف أباعبدالرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد، كانا أقبلا تاجرين من اليمن فأخذت ما معهما وقتلتهما. فلما نزل خالد بسريّته ذلك الماء أخذ بنوجذيمة السلاح، فقال لهم خالد ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا فوضعوا السلاح، فأمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضوا على السيف فقتل منهم من قتل.

ولما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» ثم أرسل علي بن أبي طالب ومعه مال، وأمره أن ينظر في أمرهم فَوَدَى[1] لهم

---

(١) دفع لهم ديات أنفسهم، وغرم لهم أموالهم.

الدماء والأموال حتى إنه لَيَدِي ميلغة[1] الكلاب، وبقي معه من المال فضلة، فقال لهم: هل بقي لكم مال أو دم لم يُودَ؟ فقالوا: لا، فقال: إني أعطيكم هذه البقية احتياطًا لرسول الله ﷺ. ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «أصبتَ وأحسنتَ».

واعتذر خالد بعد أن دار بينه وبين عبدالرحمن بن عوف كلام.. وكان أمر الله قدرًا مقدورًا؛ فقد رأى هذا الحديث رسول الله ﷺ في رؤيا رآها قال: «رأيتُ كأني لقمتُ من حيس فتلذّذتُ طعمها، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها، فأدخل عليٌّ يده فنزعه»، فقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله! هذه سريّة من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب، ويكون في بعضها اعتراض فتبعث عليًا فيسهّله.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها في الأرقام التالية:

١ - وجوب مواصلة الدعوة إلى الإسلام بعد الفتح كما هي قبله.

٢ - بيان خطأ خالد في اجتهاده فيما أقدم عليه، ولما كان متأولاً عفا عنه ولم يؤاخذ.

٣ - بيان أن رؤيا الأنبياء حق، ومعرفة الصديق بتأويل الرؤيا.

٤ - بيان فوز عليّ بقول الرسول ﷺ: «أصبتَ وأحسنتَ».

حدثان هامان عقيب الفتح

الأول: إسلام عباس بن مرداس:

كان لوالد عباس بن مرداس وثنٌ يعبده يُسمى ضَمَار[2]. فلما حضره مرداس قال لولده عباس: أي بُني اعبدْ ضمار، فإنه ينفعك ويضرك. فبينما عباس يومًا عند ضمار إذ سمع من جوف ضمار مناديًا يقول:

قُلْ للقبائل منْ سليم كُلِّها
أَوْدَى[3] ضَمَارِ، وعاش أهلُ المسجدِ

---

(١) إناء من خشب تشرب فيه الكلاب.

(٢) ضمار على وزن حذام وقطام مبنيٌّ على الكسر.

(٣) هلك.

إن الـذي ورث النبـــوة والهـــدى

بعــد ابـن مــريم من قــريش مُــهــتــدي

أودى ضـــمـــار وكـــان يُعْـــبَـــدُ مـــرة

قـــبـل الـكتـــاب إلى النبي مـــحـــمـــدِ

فمزق عباسٌ ضمارِ، ولحق بالنبي محمد ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

والثاني: هدم خالد للعزى:

وفي الخمس الأواخر من شهر رمضان - والنبي ﷺ بمكة - بعث ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها - وهي عبارة عن بيت له سَدَنَةٌ، تعظمه قريش وكنانة ومضر وهو بنخلة: مكان بين مكة والطائف - لما سمع سادن العزّى بمقدم خالد إليها ليهدمها علق بها سيفه وقال يخاطبها:

أيا عُـــزّ شـــدي شـــدةً لا شـــوَى لهـــا

على خـــالد ألـقي القـناعَ وشـــمِّـــري

فلما انتـهى إليها خالد جـعل السادن يقول: أعزّى بعضَ غـضباتك، فخـرجت امرأة سوداء حبـشية عريانة مـولولة، فقتلها خـالد وكسر الصنم وهدم البيت الذي كـان فيه، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بالذي صنع، فقال ﷺ: «**تلك العزى لا تعبدُ أبدًا**».

وهدم عمرو بن العاص سواعًا - وكان برهاط لهذيل - فلما كسر عمرو الصنمَ أسلم سادنُه، وهدم سعد بن زيد الأشهلي مناة بالمشلَّل.

وثالث عشر أحداثها:

غزوة هوازن

وانسلخ شهر رمضان بانتهاء فـتح مكة المكرمة، وما زال الرسول ﷺ بها، حتى بلغه أن هوازن لما سمعت بفتح مكة، جمـعها ملاك بن عوف النصري من بني نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا خائفين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة. وقالوا: لا مانع له من غزونا، فـمن الرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، واجتمع إليـه ثقيف يقودها قارب بن الأسـود بن مسعـود سيد الأحـلاف وذوالخمار سُبَيْعَب بن الحـارث، وأخوه

الأحمر بن الحارث سيد بني مالك، ولم يحضرها من قيس عيلان إلا نصر وجشم وسعد بن بكر، وناس من بني هلال، ولم يحضرها كعب ولا كلاب وفي جشم دريد بن الصِّمَّة شيخ كيِّس ذو رأي.

رأي صائب لم يقبل:

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى حرب رسول الله ﷺ جمع مع الرجال المقاتلين النساء والأطفال والأموال، ولما نزلوا أوطاس قال دريد بن الصِّمَّة: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْمَ مجال الخيل لا حَزْنٌ ضرس، ولا سهل دهس، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير ويعار الشاء، وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس ذلك، فقال: يا مالك، إن هذا اليوم له ما بعده، ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: سُقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله. فقال دريد: راعي ضأنٍ والله، هل يَرُدُّ المنهزمَ شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل سيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال، ما فعلتْ كعبٌ وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها أحدٌ منهم، قال: غاب الجدّ والحدّ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تَغِبْ عنه كعب ولا كلاب، ووددتُ لو أنكم فعلتم ما فعلا، ثم قال: يا مالك، ارفع من معكَ إلى عليا بلادهم، ثم الق الصُّبَّاء[1] على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك.

فقال مالك: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر علمك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لاتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، ولم يقبل رأي دريد. ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سُيُوفكم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد.

عيون ترى الملائكة:

وبعث مالكٌ عيونًا له يأتونه بالخبر، فرجعوا إليه، وقد تفرقت أوصالهم وذهبت عقولهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أنّ

---

(١) جمع صابئ: المائل إلى دين غير دين آبائه يريد بذلك المسلمين.

حل بنا ما ترى، ولم ينهه ذلك عن وجهه، ولم يثنه عن عزمه على قتال رسول الله ﷺ المسلمين. والرجالُ الذي رأتهم العيون هم الملائكة، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]، أي لم يرها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يحضرون المعركة.

خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن:

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أجمعت عليه هوازن من حربه والتصدي له، إذ كان قد أرسل عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي إلى هوازن لينظر ما هم عليه، فذهب عبدالله ودخل بينهم وهم لا يعلمون به، وتعرف إلى كل ما قاموا به وأجمعوا عليه، وأتى النبي ﷺ فأخبره خبرهم. فأجمع الرسول ﷺ المسير إليهم، وبلغه أن صفوان بن أمية عنده أدرع وسلاح - وكان لم يسلم بعد - فاستعار منه مائة درع بما يصلحها من السلاح، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد وخرج في اثنى عشر ألفًا، ألفان من مسلمة الفتح وعشرة آلاف من الجيش الفاتح، ولما ساروا قال قائل: لن نغلب اليوم من قلة. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

طلب جاهلي مرفوض:

وأثناء مسير الجيش إلى حنين، مروا بشجرة من السدر خضراء كبيرة، فنادى رجال من مسلمة الفتح: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط - وهي شجرة كبيرة يزورونها كل سنة ويقيمون عندها يومًا وليلة ويعلقون بها أسلحتهم تبركًا ويذبحون عندها - فلما سمع رسول الله ﷺ طلبهم قال: «الله أكبر، قلتم والذي نفسُ محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ثم قال: «إنها السنَن، لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم» ورفض طلبهم الجاهلي، ولم يعنفهم لأنهم حديثو عهد بالجاهلية، وساروا حتى استقبلوا وادي حنين فانحدروا فيه - وهو وادٍ أجوفُ[١] حطوط[٢] - انحدارًا وهم في عماية[٣] الصبح، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادي فكمنوا لهم في شعابه وأحنائه[٤] ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فما راع

---

(١) متسع.

(٢) منحدر.

(٣) ظلامه قبل أن يتبين.

(٤) جوانبه.

المسلمين إلا الكتائبُ قد شدّوا عليهم شدة رجل واحد وانشمر(١) الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: **«أيها الناس هلمّوا إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله»** قالها ثلاثًا، ثم احتملت الإبل بعضها على بعض في معترك عجيب إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، ومنهم أبوبكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل، وأبوسفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد.

وكان في مقدمة هوازن رجلٌ على جمل أحمر بيده راية سوداء، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفع رايته على رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فتصدى له علي بن أبي طالب ﷺ فقتله وأراح الناس منه.

شماتة ذوي الضغائن:

ولما رأى مرضى النفوس - ممن ما زالت عداوة الإسلام كامنة في نفوسهم ممن أسلم من أيام قلائل - لما رأوا هزيمة المسلمين لم يتمالكوا حتى قالوا الهُجْرَ، فقال أبوسفيان بن حرب: لن تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام معه في كنانته، وصرخ جَبلة بن الحنبل قائلاً: ألا بطل السحر، فقال له صفوان بن أميّة - وهو مشرك بعد، إذ ما زال في المدة التي أعطاه الرسول إياها ينظر في أمر نفسه إما أن يسلم أو يهاجر أو يعدم - قال لأخيه جبلة: اسكت: فَضّ الله فاك، فوا؟ لأنْ يربّني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربّني رجل من هوازن، وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبوه قد قتل بأحد مشركًا، وفعلاً أراد أن يقتل رسول الله ﷺ فلما أقبل عليه، تغشى فؤاده شيء فلم يقدر على ما عزم عليه.

ودرات المعركة: وكان العباس مع النبي ﷺ آخذاً بحكمة بغلته «الدلدل»، وهو عليها، وكان العباس جسيمًا شديد الصوت فقال له النبي ﷺ : **«يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة»** ففعل فأجابوه: لبيك لبيك حتى إن الرجل يريد أن يثني بعيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه، ويؤم(٢) الصوت، فاجتمع على رسول الله ﷺ

(١) انفضوا وانهزموا.

(٢) أي يستقبله.

مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقاتلهم وهو يقول:

«أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب»

«الآن حَمِيَ الوطيس[1]، واقتتل الناس قتالاً شديداً» وقال ﷺ لبغلته الدلدل: «ألبدي دلدل» فوضعت بطنها على الأرض، وأخذ حفنة من تراب، فرمى بها في وجه المشركين فكانت الهزيمة، فما رجع الناس ممن فروا بعيداً إلا والأسارى في الحبال عند رسول الله ﷺ، وأنشدت امرأة مسلمة قائلة:

غلبت خيلُ الله خيلَ اللات

وخيله أحقّ بالثبات

ولما انهزمت هوازن قتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلاً. فأما الأحلاف من ثقيف فلم يقتل منهم غير رجلين: لأنهم أسرعوا الهرب فنجوا وقصد بعضُ المشركين الطائف ومعهم مالك رئيس حربهم، واتبعتهم خيل رسول الله ﷺ فقتلت بعضهم، وكان بعض المشركين بأوطاس، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أباعامر الأشعري في رجال، أرسلهم إلى المنهزمين المتوجهين إلى أوطاس فناوشوه بالقتال، فَرُمِي أبوعامر بسهم فَقُتل، فأخذ الراية أبوموسى الأشعري - وهو ابن عمه - فقاتلهم حتى فتح الله على يديه فهزمهم، وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا، فساقوا في السَّبي الشيماء بنت الحارث بن عبدالعزى، فقالت لهم: والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبي ﷺ فقالت له: إني أختك قال: «وما علامة ذلك؟» فقالت: عضة عضضتها في ظهري وأنا متوركتك، فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيَّرها فقال: «إن أحببت فعندي مكرمة محبّبة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك» قال: بل تمتعني وتردني إلى قومي، ففعل ﷺ، وأمر ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت إلى الجعرانة، وجعل عليها بُديل بن ورقاء الخزاعي، واستشهد بحنين أيمن بن عبيدة وزيد بن زمعة بن الأسود بن عبدالمطلب وغيرهما.

---

(١) هذه الجملة أول من قالها رسول الله ﷺ.

أنباء ذات خطر متفرقة:

وحدثت خلال غزوة هوازن أمور ذات بال إلا أنها متفرقة نذكرها هنا إتمامًا للفائدة وهي:

(أ) أمر أم سليم:

وهو أن النبي ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان - وكانت مع زوجها أبي طلحة - وهي حازمة وسطها ببردها، وإنها لحامل بعبدالله بن أبي طلحة، ومعها جمل أبي طلحة وقد خشيت أن يعزها - أي يلغبها الجمل - فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خزامتها[١] مع الخطام فقال لها رسول الله ﷺ: «أم سليم؟» قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله اقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك؛ فإنهم لذلك أهل. فقال رسول الله ﷺ: «أو يكفي الله يا أم سليم». وكان معها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته إن دنا مني أحدٌ من المشركين بعجته[٢] به، قال أبوطلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرِّميصاء؟!

(ب) أمر أبي قتادة عجب:

إنه قال: رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مسلمًا وكافرًا، وإذا رجل مشرك يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم، فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقني بيده الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت الدم فكاد يقتلني لولا أن الدم نزفه فسقط فضربته وأجهضني عنه القتال - أي شغلني عنه فلم أسلبه - ومر به رجل من أهل مكة فسلبه، فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم قال قتلتُ قتيلاً ذا سلب فأجهضني عنه القتالُ، فما أدرى من استلبه؟ فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله، وسَلَبُ ذلك القتيل عندي فأرْضِه[٣] عني من سلبه، فقال أبوبكر الصديق ﷺ: لا، والله لا يرضيه منه، تَعمد إلى أسد من أُسْدِ الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبه؟! اردد عليه سلب قتيله. فقال رسول الله

---

(١) حلقة من شعر تجعل في أنف البعير.

(٢) شققت بطنه.

(٣) بأن يعطيه بعضًا ويبقي بعضًا.

ﷺ: «صدق اردد عليه». فقال أبوقتادة: فأخذته منه فبعته، فاشتريت بثمنه مخرفًا[1]، فإنه لأول مال اعتقدته[2].

(جـ) وأمر دريد بن الصمة أعجب:

وذلك أن ربيع بن رفيع أدرك دُريد بن الصمة - وهو على راحلته - فأخذ بخطام الراحلة يقودها، يظن أن عليها امرأة، فأناخ الراحلة فإذا بالراكب رجل كبير السن أعمى، والربيع بن رفيع لا يعرفه فسأله من أنت؟ فقال: دريد وماذا تريد مني؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيع بن رفيع السلمي، ثم ضربه بسيفه فلم يُغْنِ شيئًا، فقال له: بئس ما سلحتْك به أمُّك، خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال، ثم إذا أتيتَ أمك فأخبرها أنك قتلتَ دريد بن الصِّمَّة، فرُبَّ والله يوم قد منعتَ فيه نساءك، فلما رجع وأخبر أمَّه بقتله إياه قالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالآتي:

١ - تقرير مبدأ حكيم، وهو أن الرأي الصائب السديد من ذي الخبرة والتجربة يقدم على الشجاعة مهما كانت، وحتى عن القوة مهما عظمت.

٢ - آية النبوة المحمدية تتجلى فيما شاهده عيون المشركين من الملائكة عليهم السلام.

٣ - مشروعية استعمال العيون «الجواسيس» في الحروب لمعرفة قوة العدو، وما عزم عليه.

٤ - حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة؛ إذ ترتب على ذلك هزيمة المؤمنين في أول لقائهم لعدوهم.

٥ - وجوب الحذر من التبرك غير الشرعي؛ فإنه يؤدي إلى الشرك بالله تعالى.

٦ - بيان الفرق بين من رسخ الإيمانُ في قلبه، وبين من لم يرسخ، فإن الأخير سرعان ما

---

(١) المخرف عدد من النخيل لا يتجاوز العشرة.

(٢) أي ملكته بعقد شرعيّ.

يظهر جهله وظلمه.

٧ - مشروعية إكرام الإخوة من الرضاعة.

٨ - بيان فضل أم سليم امرأة أبي طلحة لمواقفها المشرّفة.

٩ - بيان حصافة رأي دريد بن الصمة وشجاعته الفذة - وهو على جاهليته - فكيف لو آمن وأسلم!!

ورابع عشر أحداثها:

حصار الطائف

إنه بعد الفتح، والنصر على هوازن وثقيف بحنين[1] وأوطاس، وقد لاذتْ ثقيفٌ ومن معها بالطائف، حيث تحصنوا به وجمعوا فيه ما يحتاجون إلي إن طال الحصار بهم تبعهم رسول الله ﷺ وأصحابه فحاصروهم بمدينة الطائف الحصينة، واستعمل في فك الحصار دبّابة ومنجنيقًا بإشارة سلمان الفارسي، ومع هذا فلم يتيسر فتح الطائف؛ لأن المشركين استعملوا سلك الحديد المحماة وضربوا بها الدبّابة، فخرج منها رجالها وتعرضوا لنبل المشركين الذي صبوه عليهم من الحصون كالمطر، فقتل من المسلمين رجالٌ، وأمر النبي ﷺ بقطع أعنابهم لعلهم يفكون الحصارفلم يُجْدِ ذلك فيهم.

وأثناء الحصار، نزل بعض الرقيق من الحصون، فأعتقهم النبي ﷺ منهم أبوبكرة نفيع بن الحارث بن كَلدة، وكُنّيَ بأبي بكرة لنزوله من الحصن ببكرة، وطالت مدة الحصار، فاستشار النبي ﷺ بعض رجاله من ذوي الرأي فقال نوْفل بن معاوية الدؤلي: يا رسول الله هم كثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركتَه لم يضرك، فأذنَ بالرحيل بعدما أقام بضعةً وعشرين يومًا.

ولما كان ﷺ سائرًا إلى الطائف وانتهى إلى نجرة الرُّغاء، أمر بقتل رجل من بني ليث؛ قصاصًا لأنه قتل رجلاً من هذيل، فكان أول دم أُقيد به في الإسلام. ولما رجع الناس قال رجل من المسلمين: يا رسول الله! ادعُ على ثقيف، فقال: «اللهم اهْدِ ثقيفًا وائتِ بهم».

---

(١) واد وكذا أوطاس واد أيضًا.

واستشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلاً، سبعة من قريش وخمسة من الأنصار، من بينهم عبدالله بن أبي بكر الصديق، مات بالمدينة متأثراً بجراحاته وذلك بعد وفاة النبي ﷺ.

أحداث يحسن ذكرها:

وتخلل حصار الطائف أحداث نُجْمِل ذكرَها فيما يلي:

١ - أن النبي ﷺ قال لأبي بكر - وهو محاصر الطائف -: «**إني رأيت أني أهديت لي قعبة مملوءة زبداً، فنقرها ديكٌ فهَرَاقَ ما فيها**» فقال أبوبكر: ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا لا أرى ذلك**».

٢ - لما أسلمت الطائف، طالب أهل العبيد - الذين نزلوا من الحصن على رسول الله ﷺ أيام الحصار فأعتقهم - طالبوا بردهم إلى سيادتهم، أبى ذلك رسول الله ﷺ وقال: «**أولئك عتقاء الله**».

٣ - لما حاصر النبي ﷺ ثقيفًا ضربت له قبتان إحداهما لزوجه أم سلمة رضي الله عنها والثانية للأخرى، وكان ﷺ يصلي بين القبتين، فلما أسلمت ثقيف بنى على مصلى رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة بن وهب مسجداً، ولعله هو مسجد ابن عباس اليوم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي:

١ - بيان مدى ما كان عليه رسول الله ﷺ من الحزم والعزم في إنفاذ أمر الله تعالى.

٢ - مشروعية استشارة ذوي الرأي، وعدم الاستبداد بالرأي مع وجود ذوي الرأي السديد.

٣ - مشروعية استعمال أحدث الأسلحة وأجداها في الحرب لإحقاق الحق وإبطال الباطل، بألا تكون فتنة ويُعْبد الله وحده لا شريك له.

٤ - مشروعية إقامة الحدود في غير دار الإسلام إذا كان هناك أمن وعدم خوف.

٥ - استجابة دعوة الرسول ﷺ وهي آية من آيات نبوّته، إذ هدى الله ثقيفًا وأتى بهم.

٦ - مشروعية قص الرؤيا على العبد الصالح، ومشروعية تأويلها.

٧ - بيان فضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبيان مدى ما كان يَلْقى من الرسول ﷺ من التقدير والاحترام.

وخامس عشر أحداثها:

قسمة غنائم حنين

ولما رحل ﷺ من الطائف أتى الجعرانة - حيث إن المال والسَّبْي محبوسان بها - وقبل الشروع في قسمة الغنائم، جاء وفد هوازن يعلن إسلامه، ويطلب سبيه وأمواله، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك؛ فامنن علينا مَنَّ الله عليك، وقام زهير المكنّى بأبي صُرد[1] فقال: يا رسول الله! إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفُلْنَكَ، ولو أنّا مَلَحْنَا - أي أرضعنا - للحارث ابن أبي شمْر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا مثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين وأنشد يقول:

امنن علينا رسول الله في كرم
فإنك المرء نرجوه ونَدَّخِرُ
امنن على نسوة قد عاقها قدر
مُمَزَّقٌ شملها في دَهرها غِيَرُ

وعندئذٍ خيَّرهم رسول الله ﷺ بين نسائهم وأبنائهم، وأموالهم فاختاروا نساءهم وأبناءهم فقال ﷺ : «**أمّا ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم**»، ثم قال: «**فإذا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم وأسأل فيكم**».

فلما صلى الظهر بالناس، فعلوا ما أمرهم، فقال رسول الله ﷺ : «**ما كان لي لبني عبدالمطلب فهو لكم**»، وقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

وقال الأقرع بن حابس: ما كان لي ولبني تميم فلا، وقال عيينه بن حصن ما كان لي ولفزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: ما كان لي ولسُليم فلا، فقال بنوسليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال عباس: وهنتموني!!

فقال رسول الله ﷺ : «**من تمسك بحقه من السبي، فله بكل إنسان ست فرائض مِنْ أول**

---

(١) من بني سعد بن بكر الذين أرضعوا رسول الله ﷺ .

فيء نصيبه. فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم».

وغاب مالك:

وسأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف قائد الحرب الخاسرة، فقيل: إنه بالطائف فقال: «أخبروه أنه إذا أتاني مسلمًا رددتُ عليه أهله وماله» فأخبروه فجاء سِرًّا، فأسلم وحسن إسلامه، فأعطاه رسول الله ﷺ أهله وماله، ومائة بعير وأستعمله على قومه، وعلى من أسلم من تلك القبائل، وكان له عمل مشكور حيث ضيّق على المشركين بالإغارة عليهم حتى أسلموا، وقال شعرًا يمدح فيه رسول الله ﷺ هذا نصُّه:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله
في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجْتُدي
ومتى تشأ يخبرك عمّا في غَد
وإذا الكتيبة عرَّدت أنيابها
بالسَّمْهريِّ[1] وضرب كلِّ مهنّد
فكأنه ليثٌ على أشباله
وسط الهباءة[2] خادر[3] في مُرصَد

مطالبة النبي الكريم:

ولما رد النبي ﷺ السبايا، ركب على بعيره فاتبعه الناس يقولون: يا رسول الله! اقسم علينا الفيء حتى اضطروه إلى شجرة من شدة الزحام عليه، فلصق رداؤه بأغصان شجرة، فقال: «ردّوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عددَ شجر تهامة نَعَمٌ، لقسمته عليكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا» ثم رفع وبرة من سنام بعير وقال: «ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، وهو مردود عليكم».

---

(١) الرُّمح.
(٢) الغبار.
(٣) الخادر: الأسد في عرينه.

ثم أعطى المؤلفة قلوبهم - وهم أشراف الناس - يتألفهم على الإسلام، فأعطى أباسفيان بن حرب ومعاوية ابنه، وأعطى حكيم بن حزام، والعلاء بن جارية الثقفي، والحارث بن هشام وصفوان بن أميّة، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى، وعيينة ابن حصن، والأقرع بن حابس، ومالك بن عوف النَّصْري، أعطى كل واحد منهم مائة بعير، وأعطى دون المائة رجالاً آخرين، أعطى عباس بن مرداس أباعر، فسخطها، فزاده حتى رضي.

من لا يعطى، خير ممن يعطى:

ولما شاهد العطاءَ رجلٌ قال يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع وتركت جعيل بن سُراقة فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لجعيلٌ خير من طلاَّع[1] الأرض رجالاً كلُّهم مثلُ عيينة والأقرع، ولكني أتألفهم، ووكلت جعيلاً إلى إسلامه».

موجدة الأنصار:

لما أعطى رسول الله ﷺ، ما أعطى من أموال لقبائل قريش وهوازن وتميم، ولم يُعطِ - الأنصار - شيئًا، وجدوا في أنفسهم حتى قال قائل منهم: لَقِيَ رسول الله قَوْمَه!! وأخبر سعدُ بن عبادة رسول الله ﷺ بذلك فقال له: «فأين أنت يا سعد» قال: أنا من قومي، قال: «فاجمع قومك لي» فجمعهم، فأتاهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟ ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي؟ وفقراء، فأغناكم الله بي؟ وأعداءً، فألف الله بين قلوبكم بي؟» قالوا: بلى يا رسول الله، ولله ولرسوله المنُّ والفضلُ. فقال: «ألا تُجيبوني؟» قالوا: بماذا نجيبك؟ فقالَ: «والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك وعائلاً فواسيناك. أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعَة[2] من الدنيا، تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتُكم إلى إسلامكم، والذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصارُ شِعبًا: لسلكتُ شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصارَ وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار» فبكى القوم حتى أخضلوا[3] لحاهم

(١) طلاَّع الأرض: ما يملؤها حتى يطلع فوقها ويزيد.
(٢) بقلة خضراء شبّه بها زهرة الدنيا ونعيمها بجامع المنظر وسرعة الزوال.
(٣) أخضلوا لحاهم أي بلّوها من الدموع.

بالدموع، وقالوا: رضينا برسول الله قِسْمًا وحظًا، وتفرقوا فعادوا إلى رحالهم.

واعتمر الحبيب ﷺ:

وكان شهر القعدة قد دخل، فأحرم رسول الله ﷺ والمسلمون معه من الجعرانة، وأمر ببقايا الفيء فَسِيقَتْ إلى مجنّة، فحبست بها - وهي بناحية مَرِّ الظهران - ودخل مكة ملبيًا بعمرة، فطاف وسعى وحلق وتحلل، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد وجعل له راتبًا هو درهم كل يوم، وخلف معه معاذ بن جبل يعلم الناس الدين ويفقههم فيه، وخطب عتابُ الناس في مكة، فقال: أيها الناسُ أجاع اللهُ كبدً مَنْ جاع على درهم، فقد رزقني رسولُ الله ﷺ درهمًا كل يوم؛ فليستْ بي حاجة إلى أحد. وعاد الحبيب بأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة، فوصلها لِسِت ليالٍ بقين من ذي القعدة.

وبقي أهل الطائف على شركهم إلى شهر رمضان من سنة تسع من هجرة الحبيب ﷺ.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي الآتية:

١ - لحسن القول وطيبِ الكلام أثرٌ في نفس من قيل فيه كسنة عامة قلما تتخلف.

٢ - تقرير مبدأ من طالب بمكرمة، فليكن الباديَ بها؛ فإنه يُعطاها.

٣ - بيان جفاء وغلظة بعض الأعراب؛ لبعدهم عن الحضارة فلم يتروّضوا.

٤ - بيان الكمال المحمدي في خلقه ومروءته، فهي بذلك مضرب المثل، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٥ - مظاهر الكمال المحمدي في حسن السياسة والتدبير، الأمر الذي لا يجارى فيه قط.

٦ - فضل جعيل - رضي الله عنه وأرضاه - وهنيئًا له بما أولاه الله وشرفه به رسول الله.

٧ - فضيلة الأنصار، وبيان ما حباهم الله به من حب الحبيب ﷺ، ودعائه لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم، وهم أهل القرون الثلاثة المفضلة أي الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، وتابعوهم إلى ثلاثة قرون.

٨ - مشروعية الاعتمار في الشهر الحرام، وبيان أن الجعرانة ليست من الحرم.

٩ - مشروعية كفالة رزق العامل للدولة.

١٠ - مشروعية تولية الولاة، وتعيين المعلمين والمفقهين للناس في دينهم.

أهم أحداث سنة ثمان من هجرة الحبيب ﷺ

من أبرز الأحداث التاريخية في سنة ثمان - غير السرايا والغزوات - ما يلي إزاء النقاط:

• تزوج الرسول ﷺ بفاطمة بنت الضحاك الكلابية، واستعاذت من الرسول ﷺ ففارقها فوراً.

• ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ من جاريته مارية القبطية، ودفع إلى أم بردة بنت الأنصاريّة فكانت مرضعته - عليه السلام -.

• بعث الرسول ﷺ إلى ذات أطلاح من الشام إلى نفر من قضاعة، يدعوهم إلى الإسلام، ومعه خمسة عشر رجلاً، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوهُ، وَقتلوا المسلمين إلا أميرهم كعبًا فإنه نجا وعاد إلى المدينة.

• بعث النبي ﷺ عيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم، فأغار عليهم وسبا منهم نساءً، وكان على عائشة ﵂ عِتْقُ رقبة من ولد إسماعيل نذرتها نذرًا فقال لها رسول الله ﷺ: «هذا سَبْيِ بني العنبر يقدم علينا فنعطيك إنسانًا تُعْتِقِينَهُ» فجاءت وأعطاها فأعتقته، ودل هذا على أن بني تميم من ولد إسماعيل.

• بعث الرسول ﷺ جرير بن عبدالله البجلي في مائة وخمسين رجلاً إلى ذي الخلصة - وهي بيت لخثعم وبجيلة فيها نُصبٌ يعبد، يقال له: الكعبة اليمانية، فأتاها فحرقها بالنار وكسرها، ولما بلغ الخبرُ النبي ﷺ بارك على خيل أحمس ورجالها خمس مرات.

* * *

ودخلت السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ

وكان أول أحداثها:

إسلام كعب بن زهير بن أبي سُلمى

وإن كعب بن زهير كان شاعراً كأبيه زهير بن أبي سُلْمى - صاحب المُعَلَّقة - كان كعب قد هجا النبي ﷺ فكتب إليه أخوه بجير - وقد أسلم وحسن إسلامه - كتب إليه يخبره: بأن النبي ﷺ قد أمر بقتل كل من هجوه وآذوه من الشعراء، إلا أنه من جاء مُسْلمًا تائبًا يعفو عنه ويسامحه، وعليه فأنصح لك أن تأتي النبيَّ ﷺ بالمدينة وتُسْلم فتنجو، وإلا فَانْجُ بنفسك حيث تجد مكانًا للنجاة، وأن من بقي من الشعراء في قريش ابن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربوا في كل وجه لكنَّ كعبًا لم يأخذ بنصيحة أخيه وقال:

ألا أبلغا عني بُجيرًا رسالةً
فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
فبين لنا إن كنت لست بفاعل
على أيّ شيء غير ذلك دلكا
على خُلُقٍ لم تُلف أمًّا ولا أبا
عليه ولم تدرك عليه أخًا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف
ولا قائل إما عثرت: لعًا لكا
سقاك بها المأمون كأسًا رويّة
فأنهلك المأمون منها وعلّكا

ولما بلغ بُجَيْراً ما قاله كعب، أخبر به رسولَ الله ﷺ فغضب ﷺ، وأهدر دَمَه، فكتب بذلك بجير إلى كعب، وقال: إذا أتاك كتابي هذا فأسلم، وأقبل على رسول الله ﷺ فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله، فأسلم كعب وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد - ورسولُ الله ﷺ مع أصحابه - قال كعب: فعرفته بالصفة، فتخطيت الناس

إليه فأسلمتُ وقلت: الأمان يا رسول الله هذا مقام العائذ بك قال: «من أنت؟» فقلت: كعب بن زهير قال: «الذي يقول» ثم التفت إلى أبي بكر فقال: «كيف قال؟» فأنشده أبوبكر الأبيات التي أولها:

ألا أبلغا عنّي بجيرًا رسالة

فقال كعب ما هكذا قلت يا رسول الله، إنما قلت:

سقاك أبوبكر بكأس رويّة
فأنهلك المأمون منها وعلّكا

فقال رسول الله ﷺ: «مأمونٌ والله» فتجهمته الأنصار وأغلظت له القول، ولانت له قريش وأحبت إسلامه، فأنشد رسولَ الله ﷺ قصيدته التي أولها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول(1)
متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبول(2)

فلما أنهى إلى قوله:

وقال كل خليل كنت آمله
لا أُلهينَّك إني عنكَ مشغول

نبّئتُ أنّ رسول الله أوعدني
والعفوُ عند رسول الله مأمول

في فتيةٍ من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاس(3) *ولا كُشُفٌ*(4)
عند اللقاء ولا ميلٌ(5) *معازيلُ*

---

(١) متبول: أسقمه الحبّ.
(٢) مكبول: مقيّد.
(٣) جمع نكس: الرجل الضعيف.
(٤) جمع أكشف: الذي لا ترس له.
(٥) جمع أَمْيل الذي لا سيف له.

لا يقع الطعن إلا في نحورهمُ
وما لهم عن حياض الموت تهليل(١)

ونظر رسول الله ﷺ إلى قريش فأومأ إليهم أن اسمعوا حتى قال:

يمشون مشي الجمال الزُّهر(٢) *يعصمه*
ضربٌ إذا عرّد السُّودُ التنابيل(٣)

يَعَرِّضُ بالأنصار لغلظتهم التي كانت عليه، فأنكرت قريش قوله، وقالوا: لم تمدحنا إذا هجوتهم، ولم يقبلوا ذلك منه، وعظم على الأنصار هجْوُه فشكوه، فقال يمدحهم:

من سرّه كرم الحياة فلا يزل
في مِقْنب(٤) *من صالحي الأنصار*
الباذلين نفوسَهم ودماءهم
يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهُم
بدماء من قتلوا من الكفار

في أبيات كثيرة، وعندها كساه النبي ﷺ بردة كانت عليه.

ولما كان زمن معاوية، بعث إليه يطلب شراءها منه فأبى، وقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم، وبقيت تلك البردةُ زمنًا طويلاً يتوارثها الخلفاء، ولعلها الآن في متحف الآثار بتركيا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها كالآتي:

١ ـ حبُّ المدح وكراهية الذم فطريٌّ في الإنسان، فهو كما قيل:

---

(١) تهليل بمعنى تأخر.
(٢) الزهر: البيض.
(٣) جمع تنبال وهو القصير. وعرّد بمعنى فرَّ وهرب.
(٤) جماعة الخيل.

يهـــوى الثنـاء مُـبَـرِّزٌ ومُـقَـصِّـرٌ

حب الثنـاء طبيعـة الإنسـان

٢ - ذكاء كعب يتجلى في إسلامه وإتيانه النبي ﷺ ومعرفته بالصفة بدون سؤال عنه، وفي سرعة بداهته حيث يمدح ويُعَرِّض ويغضب في الجلسة الواحدة.

٣ - مشروعية مدح الرسول ﷺ وفضيلته إذا خلا من الغلوّ المحرم الذي نهى عنه ﷺ.

٤ - بيان تنافس الصحابة - ومَنْ بعدهم - في الآثار المحمدية، وَحُقَّ لهم ذلك حتى إن البردة اشتريت بعشرين ألف درهم.

٥ - تجلي الكرم المحمدي في عفوه عن كعب وكسوته بردَتَه بعد إهداره دَمَه.

وثاني أحداثها:

غزوة تبوك

غزوة تبوك[1] تعتبر من أعظم مغازي الحبيب ﷺ، وذلك لصعوبة الظرف الذي وقعت فيه، إذ هو ظرف جديد ومجاعة وشدة حرٍّ، وبُعْدِ مكان وَشُقَّةٍ، وكثرة عدو وقوة، ولم يكن هناك نفير عام في غزوة غير هذه، ولم يكن الرسول - القائد الأعظم ﷺ - ليحدد اتجاهه في غزوة من الغزوات إلا في هذه.

كل هذا - وغيره - جعل غزوة تبوك من أعظم الغزوات، ويدل على ذلك ويشهد له الآيات العديدة من سورة التوبة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، في آيات عديدة، وآخر تلك الآيات قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وسُمِّي جيشُها بجيش العسرة إذ بلغتِ العسرةُ يومَها أشدَّها.

أسباب هذه الغزوة:

إن السبب الرئيسي في هذه الغزوة الصعبة، أن النبي ﷺ بلغه أن هرقل ملك

(١) تبوك: اسم عين يُقال لها: تبوك.

الروم، ومن معه من العرب المُتَنَصِّرة من قبائل لخم وجذام، قد أجمعوا المسير إلى الحجاز لحرب محمد ﷺ والمسلمين؛ مبادرةً منهم له حتى لا يكون هو الذي يغزوهم بعد أن ذاقوا مرارة غزوة مؤتة التي جلبوا لها مائتي ألف مقاتل، ولم يتمكنوا من إبادة ثلاث آلاف مقاتل لا غير، بل ولا حتى هزيمتهم، والحمد لله.

التعبئة العامة:

وأعلن الحبيب ﷺ لأول مرة عن قصده، فلم يُوَرِّ ولم يُعَمِّ - كما كان قبل يُوَرِّي ويعمّي على العدو - بل أمر الناس بالجهاز، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم وأعلن التعبئة العامة. وتجهز أقوام وتباطأ آخرون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٤١]

جمع المال لخوض المعركة:

ولما كان المال ضروريًّا للتجهيز الكامل من رجال وسلاح وكُراع، أمر الحبيبُ القائد الأعظم ﷺ بجمع الأموال، وتسابق الصالحون في هذا الميدان فأنفق أبوبكر الصديق كل ما يملك، وأنفق عمر بن الخطاب نصف ما يملك، وأنفق عثمان نفقة قال فيها رسول الله ﷺ: «اللهم ارْضَ عن عثمان؛ فإني عنه راضٍ» إنه جهز جيش العسرة وحده - أو كاد - إذ أنفق ألف دينار وألف بعير. وحمل رجال من أهل اليسار والغنى واحتسبوا أجرهم على الله تعالى.

اعتذار كاذب:

ووجه النبي ﷺ الدعوة - رسميًّا - إلى الجد بن قيس - لضلوعه في النفاق - فقال: «يا جدّ، هل لك في جلاد بني الأصفر؟». فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي ولا تفتنّي، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر ألا أصبر. فأعرض عنه النبي ﷺ وقال: «قد أذنت لك» وفيه نزل قوله تعالى

من سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، تلويح بكفرهم، وذلك لرغبتهم بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ.

اعتذار مردود:

وجاء نفر من غفار - وهم أعراب في البادية حول المدينة - يعتذرون عن التخلف، فلم يعذرهم رسول الله ﷺ ولم يأذن لهم في التخلف. وقعد كبار المنافقين عن الاعتذار، وعن الخروج مع رسول الله ﷺ والمؤمنين، وفي هؤلاء وأولئك نزل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

تخلف من غير شك:

وقد تخلف أناس عن الخروج إلى تبوك - لا رغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ - ولكن غلبتهم نفوسهم؛ لصعوبة الظرف، لا سيما وقد آن أوان الرطب وظلال الأشجار في آخر الصيف. فاعتذروا بعد عودة الرسول ﷺ، وقبل عذرهم وتاب الله عليهم. وأرجأ توبة ثلاثة منهم امتحانًا لهم؛ لأنهم من كبار الصحابة وخيرتهم هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أميّة، حتى ذاقوا مرارة المقاطعة التي أعلنها رسول الله ﷺ، فمحصوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم.

البكاءون:

إنهم سبعة رجال من أهل الإيمان الصادق والإسلام الحسن، كانوا أهل حاجة وفقر، فلم يجدوا زادًا ولا راحلةً، وعزَّ عليهم التخلف، فأتوا رسول الله ﷺ يبكون وقالوا: احملنا يا رسول الله، فكيف نتخلف؟! فلم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا إلى بيوتهم يبكون، فكانت أعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا

أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

مسير الحبيب ﷺ:

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عُرفُطة، وعلى أهله عليّ بن أبي طالب، وأرجف المنافقون، وقالوا: ما خلف عليًّا إلا استثقالاً له، فسمع ذلك عليّ، فلحق برسول الله ﷺ حاملاً سلاحه، وأخبره بما قال المنافقون، فقال: «**كذبوا وإنما خلفتك لما ورائي فارجع فاخْلُفني في أهلي وأهلك، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي**» فرجع عليّ، وسار رسول الله ﷺ في طريقه إلا جلاد بني الأصفر.

المثبّطون:

وقبل مسير الحبيب ﷺ بلغه أن جماعة من المنافقين يجلسون في بيت أحدهم - وهو سويلم اليهودي - يثبطون الناس عن الخروج مع رسول الله ﷺ، ويقولون: لا تنفروا في الحر؛ تزهيدًا في الجهاد، وتشكيكًا في الحق، وإرجافًا برسول الله ﷺ فأنزل فيهم قوله: ﴿**وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة: ٨١]، وأمر الرسول ﷺ طلحة بن عبيدالله في نفر من أصحابه أن يحرق عليهم بيت سُويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا، وفي هذا يقول الضحاك:

كادت - وبيت الله - نار محمد
يشيط بها الضحاك وابن أبيرقِ
وَظَلْتُ وقد طبّقت كِبْس[1] سُويلم
أنوء على رجلي كسيرًا ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلها
أخاف ومن تشمل به النار يُحرقِ

---

(١) الكبس: البيت الصغير، وطبقت بمعنى علوت.

أبوخيثمة يفوز:

وتأخر عن المسيرة أبوخيثمة، وكان له زوجتان وجاءهما يومًا فوجد كلٌّ واحدة منهما قد رشت بالماء عريشَها وبردت الماء له، وصنعت الطعام، فلما رأى ذلك أبوخيثمة قال على الفور: أيكون رسول الله ﷺ في الحر والريح، وأبوخيثمة في الظلّ والماء البارد مقيمٌ ما هذا بالنَّصَفِ - أي بالإنصاف - والله ما أحل عريشًا منهما حتى الحق برسول الله ﷺ فهيأ زاده وخرج إلى ناضحه «جمله» فركبه، وجرى وراء رسول الله ﷺ فادركه في تبوك، ورآه الناس من بعيد، فقالوا: يا رسول الله راكبٌ مقبلٌ، فقال رسول الله ﷺ : «كن أباخيثمة» فقالوا: هو والله أبوخيثمة، وأتى رسول الله ﷺ وأخبره بخبره، فدعا له فقار بدعوة الحبيب ﷺ وقال أبوخيثمة في قصته هذه شعراً هذا نصه:

ولما رأيت الناس في الدين نافقوا
أتيت التي كانت أعفَّ وأكرما
وبايعتُ باليمنى يدي لمحمد
فلم أكتسبْ إثمًا ولم أغش محْرَمَا
تركتُ خضيبًا في العريش وحرمة[1]
صفايا[2] كراما بُسْرُها قد تحمّما[3]
وكنت إذا شك المنافق أسمَحَتْ[4]
إلى الدين نفسي شطره حيْث يمَّما

من أعلام النبوة:

ولما مر النبي ﷺ بالحِجْر - وهي ديار ثمود وهو في طريقه إلى تبوك - نزل بها واستقى الناس من بئرها، فلما زاحُوا قال رسول الله ﷺ : **«لا تشربوا من مائها شيئًا ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا**

---

(١) جماعة النخل.
(٢) جمع صفي، كثير الحمل.
(٣) اسودّ.
(٤) انقادت.

يخرجنَّ أحدٌ منكم الليلَ إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلاَّ إنَّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته مخالفًا أمرَ رسول الله ﷺ بعدم الخروج وحده، فخنق في طريقه، وخرج الآخر في طلب بعير له مخالفًا أمر رسول الله ﷺ فاحتملته الريح حتى طرحته في جبال طيئ، فأُخبر بذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «ألم أنهكم أن يخرج منك أحد إلا ومعه صاحبه» ثم دعا للذي أصيب بخنق الجنّ فشُفي، وأما الآخر - الذي وقع في جبال طيئ - فإن طيئًا أهدته لرسول الله ﷺ بعد عودته للمدينة. فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية.

وأخرى: فقد كان رجل من المنافقين - معروفًا بالنفاق - يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، ولما مرَّ رسول الله ﷺ بديار ثمود، غطّى وجهه بثوبه واستحث السَّير، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون؛ خوفًا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم».

وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فدعا ربّه، فأرسل الله سحابةً فأمطرت حتى ارتوى الناس، وأخذوا حاجتهم من الماء: فكانت آية من آيات النبوة، وقيل لذلك المنافق: ويحك! هل بعد هذا شيء؟ أي من الشك في نبوة محمد ﷺ فقال: سحابة مارّة!

وثالثة: ونزل الرسول ﷺ والمؤمنون منزلاً، فضلّت راحلة النبي ﷺ فخرج أصحابه يطلبونها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال: عمارة بن حزم وكان عقبيًّا[1] بدريًّا، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، - وكان منافقًا - فقال وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي ويُخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال النبي ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلاً - يعني ابن اللُّصيْت المنافق - قال هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شِعْب كذا وكذا؛ قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها» فذهبوا فجاءوا بها، فكانت آية من آيات النبوة المحمدية.

---

(١) أي من أهل بيعة العقبة.

ورجع عمارة من عند رسول الله ﷺ إلى رحله فقال: والله لعجب من شيء حدَّثناهُ رسول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا - للذي قال زيد بن اللُّصيت - فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: قال زيد - والله - هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارةُ على زيد يجأر عنقه - أي يطعن بيده في عنقه - ويقول: إليّ عبادَ الله، إنّ في رحلي لداهيةً، وما أشعُرُ!! اخرج أي عدوَّ الله من رحلي، فلا تصحبني.

ورابعة: ويمضي رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك، ويتخلف عنه الرجل فيخبر بذلك فيقول: «دعوه، فإن يَكُ فيه خير، فَسَيُلحقه اللهُ تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه» وتلوم أبوذر على بعيره - أي تمهل وتمكّث - فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إن رجلاً يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن[1] أباذر» فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله إنه هو والله أبوذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أباذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

وتمضي الأيام والأعوام، وينفى أبوذر إلى الربذة، ويحضره الموتُ هناك وليس معه إلا امرأته وغلامه، وقبل موته أوصاها إذا مات أن يغسلاه ويكفّناه ويضعاه على الطريق، وأولُ ركب يمرّ عليكم فقولوا: هذا أبوذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه، وفعلاً فَعَلاَ به ذلك، وجاء عبدالله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمّار، فلم يَرُعْهم إلا والجنازة على قارعة الطريق كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبوذر صاحبُ رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فاستهل عبدالله بن مسعود يبكي، ويقول: صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك. ثم نزل هو، وأصحابه فواروه التراب، فكانت آية من آيات النبوة المحمدية.

وخامسة: بواد المُشقّق في طريق تبوك ماء يخرج من وَشَل[2] قدر ما يُرْوِى الراكبَ والراكبين والثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقِيَنْ منه شيئًا

---

(١) كن: كذا لفظ الأمر، ومعناه الدعاء، أي اسألوا أن يكون أباذر.

(٢) الوشل صخرة في جبل أو واد يقطر منها الماء قليلاً قليلاً.

حتى نأتيه» إلا أن منافقين سبقوا إليه، فاسْتَقَوْا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله ﷺ ، وقف عليه فلم يرَ فيه شيئًا من الماء قال: «من سبقنا إليه؟» قيل له: يا رسول الله! فلان وفلان، فقال: «أولم أنههمْ أن يستقوا منه شيئًا حتى آتيه» فلعنهم ﷺ ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل، فجعل يصب في يده ما شاء أن يصب، ثم نضحه به ومسحه بيده، ودعا ﷺ بما شاء الله أن يدعو به، فانخرق من الماء - كما يقول من سمعه - ما إذا له حس كحس الصواعق، فشرب الناس، واستقوا حاجتهم منه، فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية.

المقام المبارك:

وانتهى مسير الحبيب ﷺ بنزوله بتبوك، وأقام بها بضع عشرة ليلة إلى عشرين، وكان يقصر الصلاة، ويجمع الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء؛ تخفيفًا على أصحابه، وحتى لا يوقعهم في حرج أو مشقة، ولم يتم الصلاة خلال هذه المدة؛ لأنه لم تحدد مدة إقامته وإنما ينتظر الأمرَ من ربه تعالى، إذا أمره بالإقامة أقام وإذا أمره بالمسير سار. وقد استشار أصحابه في التقدم إلى الشام والمسير إلى بلاد الروم، فقال له عمر: إذا كنت أُمرتَ بالمسير فَسرْ، فقال ﷺ : «لو أُمرتُ ما استشرتكم فيه» فقال عمر: يا رسول الله! إن للروم جموعًا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوتَ منهم وأفزعتهم دونك، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك في ذلك أمرًا، فانصرف رسول الله ﷺ عائدًا إلى المدينة، ولم يلقَ كيدًا فقد نصره الله بالرعب مسيرة شهر فلم يخرج إليه الروم، ولم يقربوا من ساحته؛ خوفًا وفزعًا منه ﷺ بعد أن عزموا على حربه وغزوه في عقر داره.

خطبة نبوية جامعة:

ولما أصبح رسول الله ﷺ بتبوك، خطب خطبة عظيمة جامعة، هذا نصُّها:

حمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرى كلمة [1] التقوى، وخير الملل ملة [2] إبراهيم، وخير السُّنن سنة محمد ﷺ ،

(١) هي لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(٢) هي أن يعبد الله وحده بما شرع، ولا يشرك في عبادته أحدًا.

وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص القرآن، وخير الأمور عَوَازِمُها[١]، وشر الأمور محدثاتها، وأحسنُ الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالةُ بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا[٢] خير من اليد السفلي، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة لا دبراً، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً، ومن أعظم الخطايا اللسانُ الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخيرَ الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخيرُ ما وَقَرَ في القلب اليقينُ، والارتيابُ: من الكفر، والنياحةُ: من عمل الجاهلية، والغلولُ: من حر جهنم، والسُّكْرُ كَيٌّ من النار، والشعرُ من إبليس، والخمرُ جماع الإثم، وشر المال مال اليتيم، والسعيد من وُعظ بغيره، والشَّقي مَنْ شَقِيَ في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريبٌ، وسبابة المسلم فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه[٣] من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومَنْ يتألّ على الله يكذبه، ومن يَغْفر يُغفر له، ومن يَعفُ يَعْفُ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجُره الله، ومن يصبر على الرزيّة يعوضه الله، ومن يبتغِ السمعةَ يُسَمِّع اللهُ به، ومن يتصبّر يغفر الله له، ومن يعص الله يعذب» ثم استغفر ثلاثًا.

إيجابيات نبوية:

وأثناء إقامته ﷺ بتبوك، اتخذ خطوات إيجابية عظيمة وموفقة، ولله الحمد وهي:

(أ) إتيانه بيحنَّة بن رؤبة صاحب أيلة ومصالحته على جزية، مقدارُها ثلثمائة دينار، وكتب له بذلك كتابًا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنَّة بن رؤبة، وأهلِ أيْلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر: لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يجول مالُه دون نفسه، وإنه طيّب لمن أخذه من الناس، وإنه

(١) أي الفرائض لحديث «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضت عليه».
(٢) أي صاحب اليد العليا وهو المتصدق خير من صاحب اليد السفلى وهو المتصدق عليه.
(٣) أي بالغيبة.

لا يحل أن يمنعوا ماء يردُونه، ولا طريقًا يريدونه من برّ أو بحر».

(ب) أتاه أهل جربَاء وأذْرُح - وهما بلدان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام - فأعطوه الجزية، وكتب لهم بذلك كتابًا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد النبي، وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين».

(جـ) بعث ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين رجلاً إلى أكيدر بن عبدالملك الكِنْدي، وكان ملكًا في دومة الجندل التي هي حصن وقرى من قريات وادي القرى، وحصنها يقال له: مارد، وهو حصن أكيدر الخاص به، وقال خالد لرسول الله ﷺ: كيف لي به في وسط بلاد كلب وأنمار وأنا في أناس قليل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«ستلقاه يصيد الوحش - أو قال البقر - فتأخذه»** فخرج خالد ومن معه فلما بلغوا قريبًا من حصنه، وكانت ليلة مقمرة صائفة، وأكيدر على سطح له في الحصن ومعه امرأته، فبات البقر يحك بقرونه باب الحصن، وأشرفت امرأته على باب الحصن فقالت: ما رأيت كالليلة، فمن يترك هذه الليلة؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، ومعه أخوه حسان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فاستأسر أكيدر، وامتنع حسانُ، فقاتل فقتل، وهرب من كان معه ودخلوا الحصن، وكان على أكيدر قباء مخوص بالذهب، فاستلبه خالد منه، وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه، قال أنس: رأيت قباء أكيدر حين قُدمَ به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه ويعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: **«أتعجبون من هذا؟ لمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ من هذا».**

ثم إن خالدًا قدم بأكيدر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحقن دمه، وصالحه على الجزية، فرجع إلى قريته وبقي بها، وكان نصرانيًا فلم يسلم، وقتل كافرًا حيث حاصره خالد على عهد أبي بكر الصديق لنقضه العهد، فهلك كافرًا مشركًا.

حدث هام:

لا شك أن أحداثًا كثيرة وقعت في ذهاب الحبيب ﷺ إلى تبوك وفي مجيئه منها، وقد ذكرنا طرفًا منها للعظة والاعتبار، وهذا حدث هام وقع في طريق العودة: إنها مؤامرة دنية قام بها أدنياء سفلة منافقون، إنهم اثنا عشر منافقًا من شر المنافقين، تواطئوا على قتل رسول الله ﷺ، وذلك بأن يضايقوه في عقبة في الطريق حتى يسقط عن راحلته فيهلك، وفعلاً لما وصل إلى العقبة - وكان حذيفة بن اليمان آخذًا بخطام ناقته ﷺ؛ وعمار بن ياسر يسوقها - وإذا باثنى عشر راكبًا قد اعترضوا ناقة رسول الله ﷺ؛ قال حذيفة رضي الله عنه فأنبهتُ رسول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فولوا مدبرين، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤] ودعا عليهم رسول الله ﷺ فأصابتهم الدُّبيلة[1] وهي خُرَّاج يخرج في الظهر، فيظهر على القلب فيهلك صاحبه ولا ينجو أبدًا.

يا ليتني كنت صاحب الحفرة:

إن صاحب هذه الأمنية، هو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وصاحب الحفرة هو عبدالله ذو البجادين، ذلك المؤمن الذي كان ينازع في إيمانه، ويأبى عليه قومُه الإسلامَ حتى اضطروه إلى أن يهاجر ويترك أهله وقومه في بجاد - وهو ثوب غلظ كالكساء - ولما وصل المدينة وقارب أن يرى رسول الله ﷺ قسم بجاده قسمين فاتّزر بنصفه وارتدى بنصفه الآخر فقيل له: ذو البجادين، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار ناحية المعسكر، فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر، وإذا عبدالله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسولُ الله ﷺ في حفرته، وأبوبكر وعمر يُدلّيَانه إليه، وهو يقول: «أدْنيا إليّ أخاكما» فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إني أمسيتُ راضيًا عنه فَارْضَ عنه». قال عبدالله بن مسعود فقلت: يا ليتني كنت صاحب الحفرة!!

مسجد الضرار:

مسجد الضرار. عبارة عن وَكْرِ مؤامرات أُقيم لمناوأة رسول الله ﷺ والمسلمين

(١) ويروى الدبلة، والدبلة اليوم خاتم العرس، ولذا يكره استعماله؛ للاسم ولأنه من عادات النصارى.

بالمدينة بناه اثنا عشر رجلاً من كبار المنافقين، ولما فرغوا منه، أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز لغزوة تبوك، وطلبوا إليه أن يأتيهم ويُصلي لهم فيه ليأخذ الصبغة الشرعية - وإنهم لكاذبون - إلا أن الرسول ﷺ اعتذر لهم بقوله: «إني على جناح سفر، وحال شغل» أو كما قال: «ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه».

ولما غزا رسول الله ﷺ تبوك وعاد ووصل إلى ذي أوان ونزل بها - وهي على ساعة من المدينة - أتاه خبر المسجد، إذ نزل فيه قرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ١٠٧]

فدعا ﷺ اثنين من أصحابه هما: مالك بن الدُّخشُم أخو بني سالم بن عوف، ومعن بن عديّ أخو بني العجلان. فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد، الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه». وفعلاً أتياه فهدماه وحرقاه، وتفرق أهله عنه وتركوه للنار تلتهمه.

عود مبارك واستقبال حافل:

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة عائداً من تبوك، خرجَ أهلُ المدينة لاستقباله، والجواري ينشدن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وَجَبَ الشكرُ علينا
ما دعا لله داع

هنا قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة رجالاً، ما سِرتُم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم؛ حبسهم العذر» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة قال: «نعم، وهم بالمدينة».

الرهط المتخلف:

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة - وذلك في رمضان - وأعلام النصر عالية خفاقة وسُرَّ المؤمنون والمؤمنات بعودة الحبيب سالمًا منتصراً ظافراً، أتى المسجد فصلى ركعتين. وجاء المخلفون من المنافقين يحلفون ويعتذرون طالبين الصفح - والعفو فعفا عنهم، وصفح، لكن الله عز وجل لم يعذرهم، وكذا رسوله ﷺ إذ لا عذر لهم ولم

يقعد بهم إلا نفاقُهم وسوء ظنهم، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ - أي لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]

وهذا، وهناك ثلاثة من صالحي المؤمنين تخلفوا عن المسير مع رسول الله ﷺ - لا شكًّا ولا نفاقًا - ولكن كسلاً وتسويفًا، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أميّة ﷺ، أعلن الرسول الحبيب ﷺ مقاطعتهم وهجرانهم حتى ينزل الله حكمَه فيهم بتعذيبه، أو بالتوبة عليهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦]

ودامت مقاطعتهم وهجرُ الناس لهم مدة خمسين يومًا، ثم تاب الله عليهم، وأنزل في توبتهم قوله: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨]

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

١ - مشروعية إعلان التعبئة العامة والنفير التام، ولا يحل يومئذ لأحد التخلفُ إلا أن يكون من أهل الأعذار، أو يتخلف بإذن الإمام الخاص.

٢ - مشروعية افتتاح اكتتابات عامة لجمع المال للجهاد في سبيل الله تعالى.

٣ - قد يقصر المجتهد، ويتأخر المتقدم كما قيل: لكل جواد كبوة، ولكل سيف نَبْوة.

٤ - بيان رفع الحرج عن ذوي الأعذار، كالعمى والعرج والمرض والعجز المالي.

٥ - من آيات الإيمان ومظاهرِه لدى المؤمنين: البكاءُ الصادق عن العجز عن السير.

٦ - بيان أن المثبطين عن الجهاد والمرجفين بين صفوف المؤمنين لم يكونوا مؤمنين.

٧ - بيان فضيلة أبي خيثمة، وأبي ذر، وذي البجادين، وعبدالله بن مسعود - رضي الله

عنهم أجمعين -.

٨ - بيان خمس آيات للنبوة المحمدية وأعلام لها.

٩ حرمة الضحك وعدم البكاء - أو التباكي - عند المرور بديار المعذبين.

١٠ - مشروعية قصر الصلاة في السفر، وجواز الجمع فيه.

١١ - مشروعية عقد الإمام الصلحَ مع المشركين إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

١٢ - بيان بطولة خالد بن الوليد وشدة بأسه في الحرب.

١٣ - بيان فضيلة عليّ وأبي بكر وعمر - رضي الله عنهم أجمعين -.

وثالث أحداثها:

غزوة طيئ وإسلام عدي

وبعث رسول الله ﷺ عليًّا في مائة وخمسين رجلاً، من بينهم خمسون فارسًا، بعث بهم إلى ديار طيئ، حيث يوجد بها صنم يقال له: (الفلس) وكان معهم راية سوداء ولواء أبيض ولما انتهوا إلى طيئ شنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي، فتمكنوا من هدم الصنم، ومن أخذ سبي وشاء ونَعَم، وكان من بين السبي فاطمة أخت عدي بن حاتم الطائي. أما عدي أخوها، فقد فرَّ إلى الشام بمجرد أن سمع ببعث السريّة إلى دياره، وكان على الصنم سيفان يقال لأحدهما: مخذم، وللآخر: رسوب، فأخذهما علي رضي الله عنه كما وجد في خزانة عدي ثلاثة أسياف وثلاثة أدراع، واستعمل على السبي أباقتادة، وعلى الأموال عبدالله بن عُتيك، وقسم الغنائم في الطريق، وعزل الصفي لرسول الله ﷺ، ووصل ببنت حاتم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة النبويّة، وكان من أمرها ما حدَّث به أخوها عدّى، فلنستمع إليه:

قال عدي - وهو يقص قصة إسلامه -: جاء خيل رسول الله ﷺ - يعني سرية علي - فأخذوا أختي وناسًا، فأتوا بهم رسولَ الله ﷺ، فقالت أختي: يا رسول الله! هلك الوالد، وغاب الوافد؛ فامنن عليَّ منَّ الله عليك!! فقال: «ومن وافدك؟» قالتْ: عدي بن حاتم، قال: «الذي فرّ من الله ورسوله» فَمَنَّ عليها، وإلى جانبه رجل قائم - وهو علي بن أبي طالب - قال: سليه حملانًا، فسألته، فأمر لها به وكساها وأعطاها نفقة، قال

عديّ: وكنت ملك طيئ آخذ منهم المرباع[1]، وأنا نصراني، فلما قدمت خيل رسول الله ﷺ هربت إلى الشام من الإسلام، وقلت: أكون عند أهل ديني، فبينما أنا بالشام، إذ جاءت أختي وأخذت تلومني على تَرْكها وهربي بأهلي دونها، ثم قالت لي: أرى أن نلتحق بمحمد سريعًا فإن كان نَبيًّا كان للسابق فضله، وإن كان ملكًا كنت في عزٍّ وأنت أنت، قال عدي بن حاتم: فقدمتُ على رسول الله ﷺ، فسلمت عليه وعرفته نفسي، فانطلق بي إلى بيته، فلقيته امرأةٌ ضعيفة فاستوقفته، فوقف لها طويلاً فكلمته في حاجتها، فقلت: ما هذا بملك، فقال لي: «يا عدي، إنك تأخذ المرباع وهو لا يحل في دينك، ولعلك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا، والله ليفيضنَّ المالُ فيهم حتى لا يوجد مَنْ يأخذه، ووالله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية علي بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله، ووالله لتسمعن بالقصور البيض من بابل وقد فتحت» قال: فأسلمت، فقد رأيت القصور البيض وقد فتحت، ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله، ووالله لتكوننَّ الثالثة، أي ليفيضنَّ المال حتى لا يقبله أحد.

قال عدي بن حاتم: ودخلت عليه ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنهم لم يعبدوهم قال: «بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم في ذلك، فتلك عبادتهم إياهم».

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا تذكر إزاء الأرقام الآتية:

١ - مشروعية هدم الأصنام وغزو أهلها ليدخلوا في الإسلام ليكملوا ويسعدوا.

٢ - بيان جهل المشركين وضلالهم في تعليقهم السلاحَ على أصنامهم لتدفع به عن نفسها.

٣ - بيان الكرم المحمدي، وتقريرمبدأ «اكرموا عزيزَ قومٍ ذَلّ».

٤ - آية النبوة المحمدية المتجلية في تحقيق ما أخبر به من الغيب.

٥ - بيان أن طاعة العلماء والحكام في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، هي عبادة لهم إن كان ذلك بغير إكراه.

(١) المرباع: ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

ورابع أحداثها:

قدوم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ

عروة بن مسعود من عظماء رجالات ثقيف، وهو الذي عناه المشركون في مكة بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، الذي حكاه القرآن عنهم في سورة الزخرف.

والرجل الثاني هلك ببدر، وهو أبوجهل الذي يكنونه بأبي الحكم ويسمونه عمرو بن هشام.

وفد عروة بن مسعود على رسول الله ﷺ في هذه السنة سنة تسع، وفد مسلمًا وذلك بعد أن رأى قريشًا قد دخلت في الإسلام بعد فتح وهزيمة هوازن ثقيف، وكان رجلاً عاقلاً فهداه الله إلى الإسلام، فلما أتى النبيَّ ﷺ وأسلم، قال للنبي ﷺ: «إنهم قاتلوك» فقال عروة: إني أحبُّ إليهم من أبكارهم، ورجا أن يوافقوه - لمنزلته فيهم - فلما رجع إلى الطائف ديار قومهم، صعد إلى عليّة له وأشرف منها عليهم، وأظهر الإسلام ودعاهم إليه فرموه بالنبل فأصابه سهم فقتله، وقبل وفاته قيل له: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها إلى، ليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ؛ فادفنوني معهم، فلما مات متأثرًا بجراحاته دفنوه معهم رضي الله عنه.

ولما بلغ الخبر النبيَّ ﷺ قال فيه: **«إن مثله في قومه كمثل صاحب «يس» في قومه، إذ دعاهم إلى خير فقتلوه»**.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها كالآتي:

١ - بيان عَلَم من أعلام النبوة المحمدية في إخباره عروة بأن قومه قاتلوه، فكان كما أخبر.

٢ - بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى وما تتطلبه من أذى، وما يلزم صاحبها من الصبر والتحمل.

٣ - بيان فضل عروة بن مسعود رضي الله عنه إذ ألحقه الرسول ﷺ بصاحب يس وهو حبيب بن النجار - عليه السلام -.

وخامس أحداثها:

قدوم وفد ثقيف

وبعد قدوم الحبيب ﷺ وفي رمضان، قدم وفدُ ثقيف على رسول الله ﷺ، وقد سبق أن النبي ﷺ لما كان محاصراً لهم قيل له: ادع الله عليهم يا رسول الله، فقال: «اللهم اهْدِ ثقيفًا وأتِ بهم» هذا سبب لقدومهم، وآخر: هو أنهم رأوا أن مَنْ يحيط بهمَ من العربَ قد نصبوا لهم القتال وشنوا عليهم الغارات، وكان أشدهم في ذلك مالك بن عوف النصْري، فلا يخرج منهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ، فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا عبدياليل بن عمر بن عمير والحكم بن عمرو بن وهب وشرحبيل بن غيلان، - وهؤلاء من الأحلاف - وأرسلوا من بني مالك عثمان بن أبي العاص وأوس بن عوف ونُميـر بن خَرَشَة، فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم في قبة في المسجد، فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلون مع خالد، وكانوا لا يأكلون طعامًا حتى يأكل خالد منه حتى أسلموا.

شروط مرفوضة:

واشترط رجال وفد ثقيف لإسلامهم شروطًا هي كالتالي:

١ - ألا يهدم النبي ﷺ طاغيتهم - وهي اللات - إلا بعد ثلاث سنوات، فأبى عليهم ذلك ﷺ، وكان قصدهم من هذا الشرط حتى يَسْلَمُوا إذا هي تُركت من سخط سفهائهم ونسائهم، وتنازلوا إلى شهر واحد، فلم يقبل منهم ولو ساعة من نهار.

٢ - أن يعفيهم من الصلاة ككل فأبى وقال: «لا خَيْرَ في دين لا صلاة فيه»، فقالوا: نصلي ولكن لا نُجبّي - أي لا نركع - بل نخر من القيام إلى السجود فقال ﷺ: «لا خير في صلاة لا ركوع فيها» أو كما قال ﷺ. ولما أسلموا أَمَّرَ عليهم عثمان بن عمرو بن أبي العاص وكان أصغرهم سنًا لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه في الدين، ثم رجعوا إلى بلادهم، وأرسل ﷺ معهم المغيرة بن شعبة وأباسفيان بن حرب لهدم الطاغية، فتقدم المغيرةُ فهدمها، وقام قومُه من بني متعب دونه؛ خوفًا أن

يُرْمى بسهم كما رُميَ عروة ابن مسعود من قبل، ولما أخذ في هدمها خرج نساء ثقيف حُسَّرًا[1] يبكين، وأخذ حليها.

قضاء ديون من مال الطاغية:

كان للطاغية مال كثير مُوَدع فيها، فلما هدمها المغيرة وأبوسفيان بأمر رسول الله ﷺ وأخذا مالها، اتصل برسول الله ﷺ أبُومُلَيح بن عروة بن مسعود وطلب منه أن يقضي دينًا كان على والده عروة من مال الطاغية، فأجابه الرسول ﷺ لذلك، وعندها قال قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقْضِهِ - وعروة والأسود أخوان شقيقان - فقال رسول الله ﷺ: **«إن الأسود مات مشركًا»** فقال قارب: يا رسول الله لكن تصل مسلمًا ذا قرابة - يعني نفسه - إنما الدين عليّ، وأنا مُطَالَب به، فأمر رسول الله ﷺ أباسفيان أن يقضي دين عروة والأسود معًا من مال الطاغية، ففعل.

عهد لابن أبي العاص:

لما أسلم وفد الطائف وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص لصفات كمال فيه، كتب لهم بذلك كتابًا. ومن جملة ما ورد فيه قوله ﷺ: **«يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم؛ فإن فيهم الكبير والصغير وذا الحاجة»**.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالآتي:

١ - بيان آية نبويّة، وهي استجابة دعوته ﷺ في ثقيف؛ إذ هداهم الله وأتى بهم.

٢ - بيان احترام النبي ﷺ للوفود وإكرامهم قبل أن يتبين إصرارهم على شركهم وكفرهم.

٣ - مشروعية إبطال كل شرط يتنافى مع مراد الله تعالى وشرعه بين خلقه، وهكذا كل شرط يحل حرامًا أو يحرم حلالاً، فهو شرط باطل في أي عقد أو اتفاقية.

٤ - بيان أعظم أركان الدين بعد التوحيد وهو الصلاة، وأعظم أركانها الركوع والسجود.

---

(١) أي حاسرات الرءوس ليس عليهن غطاء.

٥ بيان ضعف النساء العقلي، وبيان مدى تعلقهن بالشرك وأسبابه لجهلهن وضعفهن.

٦ - مشروعية قضاء الديون من بيت مال المسلمين إذا رأى الإمام ذلك.

وسادس أحداثها:

قدوم الوفود على الحبيب ﷺ

إن الوفود التي بدأت في هذه السنة التاسعة تتوافد على رسول الله ﷺ في دار نبوته المدينة الطيبة الطاهرة تعلن عن ولائها لله ورسوله وعن رضاها بالإسلام ودخولها فيه: وفود كثيرة، ذكر منها كل مؤرخ للإسلام طرفًا مما تهيأ له ولم يأتِ عليها أحدٌ كلُّها؛ وذلك لكثرتها.

والسبب الظاهر لهذا الحدث الكبير - الذي هو كثرة الوفود في هذه السنة بالذات - هو دخول قريش زعيمة العرب في الإسلام، ففتح مكة ثم الطائف وغزو الروم في تبوك لم يُبقِ لأحدٍ التفكير في غلبة صاحب الرسالة والانتصار عليه بحال من الأحوال.

فلهذا أخذت وفود القبائل العربية تتوافد من اليمين والشمال والشرق والغرب، وقد أخبر تعالى بهذا في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣].

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ هو الانتصارات التي تحققت لرسول الله ﷺ في بدر وحمراء الأسد والأحزاب والحديبية وخيبر وغيرها، والفتح هو فتح مكة والطائف، والطائف - وإن لم تفتح عَنْوةً - فقد جاء وفدها وسلم زمام قيادتها للقائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ فهو فتح وأي فتح؟

وقوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢]، يعني الوفود في هذه السنة.

وها هي ذي أهم الوفود، مع ذكر بعض مميزاتها وأحداثها:

١ - وفد بني أسد: وكانوا أقوياء أشداء، يسكنون شمال شرق الحجاز، وعددُ رجال هذا الوفد عشرة، وقالوا لما وفدوا على رسول الله ﷺ: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولاً، يمنون بهذا على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وسألوا رسول الله ﷺ عن العيافة[١]، والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك.

٢ - وفد بَلِيّ: وقد نزلوا على أحد البَلَوِيين بالمدينة، وهو رُوَيْفع بن ثابت البلوي، فلما رآهم قال: الحمد لله الذي هداكم إلى الإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار.

وقبل أن يودعوا رسول الله ﷺ قال له أبوالضُبَيْب شيخ الوفد: يا رسول الله! إني رجل في رغبة من الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: «نعم، وكلّ معروف صنعته إلى غَنِيٍّ أو فقير فهو صدقة» وقال الرجل: يا رسول الله ﷺ كم وقت الضيافة؟ قال: «ثلاثة أيام، ما كان بعد ذلك فصدقةٌ ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يُحرجك».

ثم ودّعوا رسول الله ﷺ بعد أن أجازهم[٢].

٣ - وفد تميم: وقد كان عدد أفراده يزيد على عشرة الأنفار وكلهم من أشراف بني تميم، وعلى رأسهم عطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدَس التميميّ، ومن بينهم الأقرع بن حابس والحجاب والزِّبْرقان بن بدر بن يزيد أحد بن دارم بن مالك، وعيينة بن حصن، وقد كان عيينة والأقرع شهدا مع النبي ﷺ فتح مكة وحنينًا والطائف.

جفاء هذا الوفد وسوء أدبه:

ودخلوا المسجد النبوي ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: بلفظ الجفاء وسوء الأدب قائلين: يا محمد يا محمد، اخرجْ إلينا؛ فآذوا بذلك رسول الله ﷺ بصياحهم ورفع أصواتهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك؛ فأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال رسول الله ﷺ: «قد أذنتُ لخطيبكم فليقل» فقام رئيس الوفد عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهلُه، الذي جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالاً عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدّةً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدّد ما عدّدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعْرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس؛ ثم قال رسول الله ﷺ لثابت بن

(١) العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها.

(٢) أي: أعطاهم جوائز من مال أو متاع إكرامًا لهم.

قيس: «أَجِبِ الرجُلَ» فقام ثابت فقال:

الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمْرَهُ، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسبًا وأصدقهم حديثًا، وأفضلهم حسبًا، فأنزل عليه كتابه وأْتَمنه على خلقه؛ فكان خيرة الله تعالى من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس نسبًا وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق استجابة له حين دعاه نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله مَنَع ماله ودمه، ومن كفر جاهَدْنَاهُ في الله أبدًا وكان قتله علينا يسيراً. والسلام عليكم.

ثم قالوا: يا رسول الله! ائذن لشاعرنا، فأذن له فقام - وهو الزبرقان بن بدر - فقال:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البِيَعُ[1]

في ثمانية أبيات.

وكان حسان بن ثابت غائبًا فدعاه الرسول ﷺ ليجيب شاعرهم فحضر وأجاب قائلاً:

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم
قد بَينوا سُننًا للناس تتَّبعُ
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم
أو حالوا النفع في أشياعهم نفعوا

في ثلاثة عشر بيتًا.

ومما لا شك فيه أن فرقًا كبيراً بين خطيب المشركين وشاعرهم، وبين خطيب المسلمين وشاعرهم؛ إذ شتان ما بين مَنْ في قلبه ظلمةُ الشرك والكفر، ومَنْ في قلبه نورُ الإيمان وحكمة الإسلام والإحسان، لذا لما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن

---

(١) البيع: جمع بيعة مواضع الصلاة.

هذا الرجل لمؤتّى[1] له؛ خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، ثم أسلموا وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

٤ - وقدم وفد عبدالقيس: وهي قبيلة كبيرة ينسبون إلى عبدالقيس بن أفصى بن دِعْمِيّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار. وفدوا على رسول الله ﷺ فقال لهم: «من القوم؟» قالوا: من ربيعة، قال: «مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى»؛ فقالوا: يا رسول الله! إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر، وإنا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام، فَمُرْنا بأمر فَصْلٍ، نأخذ به ومن وراءنا، وندخل به الجنة، فقال: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربعٍ، آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن أربع: الدُّبَّاءَ والحَنْتَم[2] والنقير والمزفّت: فاحفظوهن ادعوا إليهن مَنْ وراءكم» ثم قال رسول الله ﷺ لأشج عبدالقيس: «إن فيك خَصْلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».

٥ - وقدم وفدُ بني حنيفة: ومن بينهم مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ إلا أن مسيلمة خلفوه في رحالهم، فلم يشرُف بمقابلة رسول الله ﷺ إلا أنهم أسلموا وأمر لهم بجوائز، وذكروه له، فأمر له بمثل ما أمر لهم، ثم انصرفوا وأعطوا مسيلمة الذي أعطاه رسول الله ﷺ.

فلما قدم اليمامة ارتد عدواً لله، وادّعى النبوة وتنبّأ كذبًا، وأخذ يسجع ويقول - مضاهيًا بقوله القرآن -: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين شغاف وحشا. ووضع عنهم الصلاة، وأباح لهم الخمر والزنا إلى آخر هرائه العفِن. وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء

(١) أي لموفّق.

(٢) الحنتم: كل أسود أو أخضر.

من عباده والعاقبة للمتقين» ردًا على كتابه الذي بعث به إلى رسول الله ﷺ ونصه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإني قد أشركتكم في الأمر، وليس قريش قومًا يعدلون.

٦ - وقدم وفد رسل ملوك حِمْير: وهم الحارث بن عبدكُلال، ونعيم بن عبدكُلال، والنعمان قَيْلِ ذي رُعَين، ومعافر وهمدان يبلغونه إسلام أقوامهم، وكان رسولهم إليه ﷺ هو مالك بن مرّة الرهاوي، بعث به زرعة ذو يزن إليه ﷺ فكتب إليهم ﷺ كتابًا هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبي إلى الحارث بن كُلال وإلى نعيم بن عبدكُلال وإلى النُّعمان قيل ذي رُعين، ومعافر وهمدان. أما بعد ذلكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبًا من أرض الروم فَلَقِيَنا بالمدينة فبلَّغ ما أرسلتم به، وخبر ما قلتم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم أطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم نبيّه وصفيّه، وما كتب على المؤمنين من الصدقة». وبين لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم. ثم قال: «فمن زاد فهو خير له، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديّته أو نصرانيّته فإنه لا يرد عنها، وعليه الجزية على كل حالم ذكرًا كان أو أنثى، حرًا أو عبدًا دينار واف من قيمة المعافر[1] أو عوضه ثيابًا فمن أدّى ذلك إلى رسول الله فإن له ذِمَّةَ الله وذمةَ رسوله، ومن منعه فإنه عدو لله ورسوله».

٧ - وقدم وفد بَهْراء: من اليمن الجنوبي، وكان مكونًا من ثلاثة عشر رجلاً، ونزلوا على المقداد بن عمرو، وأقاموا بالمدينة أيامًا تعلموا فيها الفرائض، وواجبات الإسلام ثم ودَّعوا رسول الله ﷺ، وأمر لهم كغيرهم بجوائز فأخذوها وانصرفوا إلى ديارهم.

٨ - وقدم وفد عُذْرَة: وكانوا اثنى عشر رجلاً منهم حمزة بن النعمان، ولما شرفوا بالمثول بين يدي رسول الله ﷺ سألهم قائلاً: «من القوم؟» فقال مُتكَلِّمهُم: ممن لا تنكر نحن بنوعذرة إخوة قصيّ لأمه، نحن الذين عَضَدُوا قُصَيًّا وأزاحوا من بطن مكة

(١) المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

خزاعة وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام، فقال رسول الله ﷺ: «مرحبًا بكم وأهلاً، ما أعرفني بكم» فأسلموا وبشرهم رسول الله ﷺ بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده. ونهاهم عن سؤال الكهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، ثم أجازهم رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى بلادهم.

٩ - وقدم وفد ذي مرّة: وكان مكونًا من ثلاثة عشر رجلاً، ورئيس الوفد الحارث بن عوف، فسألهم رسول الله ﷺ قائلاً: «كيف البلاد؟» قالوا والله إنّا لمستنون[(١)] فادع الله تعالى لنا، فقال الحبيب ﷺ: «اللهم اسقهم الغيث»، ثم أقاموا أيامًا، وأجيزوا بجوائز رسول الله ﷺ، ثم عادوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ.

١٠ - وقدم وفد سعد بن بكر: وكان رئيسهم ضمام بن ثعلبة، فتقدم فسأل رسول الله ﷺ أسئلة انتظمت قواعد الدين وكثيرًا من الواجبات والمحرمات فأسلم، ولما قفل راجعًا إلى قومه - ليبلغهم دعوة الله تعالى - قال رسول الله ﷺ: «لئن صدق ذو العقيصتين[(٢)] دخل الجنة»، فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به قوله: بئست اللات والعزى، فقالوا محذرين له: اتقِ البَرَصَ والجذام والجنون أي أن تصيبكَ من أجل ذمك للات والعزى - وهما إلهان عندهم - فقال ضمام: ويحكم إنهما لا يضران ولا ينفعان، وإن الله قد بعث محمدًا رسولاً، وأنزل عليه كتابًا، وقد استنقذكم به مما كنتم فيه، وأظهر لهم إسلامه، فما أمسى في ذلك اليوم رجل مشرك، ولا امرأة مشركة، فما سُمع بوافد قوم كان أبركَ ولا أفضلَ من ضمام بن ثعلبة.

١١ - وقدم وفد الأزد: قال سُوَيْد بن الحارث الأزديُّ: وفدتُ سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ، فلما دخلنا عليه وكلمناه، فأعجبه ما رأى من سَمْتنا وزيِّنا قال: «ما أنتم؟» قلنا: مؤمنون، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟» قلنا: خمس عشرة خصلة؛ خمس منها أَمَرَتْنا بها رسلُك أن نؤمن

(١) أصابتهم سنة الجدب والقحط.

(٢) غديرتين من الشعر لأنه كان أشعر أي كثير الشعر.

بها، وخمسٌ أمرتنا أن نعمل بها، خمس تخلقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «**ما الخمسة التي أمَرَتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟**» قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: «**وما الخمسة التي أمرتكم أن تعملوا بها؟**» قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، فقال: «**وما الخمسة التي تخلقتم بها في الجاهلية؟**» قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمُرّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال رسول الله ﷺ: «**حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**» ثم قال: «**وأنا أزيدكم خمسًا فيتم لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدًا تزولون، واتقوا الذي إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون**»، وانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيّته وعملوا بها.

١٢ - وقدم وفد طيئ: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ وعلى رأسهم زيد الخيل، فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ كلموه، وعرض عليهم ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ: «**ما ذُكرَ لي رجلٌ من العرب بفضلٍ ثم جاءني إلا رأيته دون ما يُقَال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه**»، ثم سَمَّاه زيد الخير، وقطع له فَيْدًا[1] وأرضين معه، وكتب له بذلك كتابًا فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعًا إلى قومه فقال رسول الله ﷺ: «**إن ينجُ زيد من حمى المدينة**»، فإنه قال[2]... قال وقد سماها رسول الله ﷺ غير الحمى وغير أمْ حَلْدَم، فلم يثبته. فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له: فردة، أصابته الحمى بها فمات، ولما عمدت امرأتُه إلى ما كان معه من كتبه التي قَطَع له رسولُ الله ﷺ فحرقتها بالنار.

عبر ونتائج:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي:

(١) اسم مكان شرقيّ سلمى أحد جبلي طيئ.

(٢) أي: لم يكتب الراوي لعدم معرفة اللفظ، ولعله أم كُلبة.

وفد بني أسد: حرمة العيافة، والكهانة وضرب الحصى.

وفد بليّ: من مات على غير دين الإسلام فهو في النار.

فضل الضيافة وأنها ثلاثة أيام، وكل معروف صدقة.

وفد تميم: الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه.

وفد عبدالقيس: الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وفضل الحلم والأناة.

وفد بني حنيفة: بيان ردة مسيلمة الكذاب، وادعائه الكاذب في النبوّة.

وفد رسل ملوك حِمْير: بيان أصول الدين، وحكم الجزية، وممن تؤخذ وبيان مقدارها. مشروعية قول: مرحبًا وأهلاً.

وفد عذرة: بيان آية النبوة المحمدية، إذ أخبره بغيبٍ فكان كما أخبر ﷺ. ليس على المسلم ذبائح تذبح إلا الأضحية.

وفد ذي مرّة: فيه بيان آية النبوة، إذ دعا لهم رسول الله ﷺ بالغيث، فسقوا في نفس اليوم.

وفد سعد بن بكر: فيه بيان كرامة ضمام وفضله إذ أسلمتْ قبيلته كلها بدعوته.

وفد الأزد: فيه بيان أن لكل قول حقيقة، وبيان عشرين خصلة، هي جماع الخير كله.

وفد طيّئ: فضل زيد الخيل وفوزه برضا رسول الله ﷺ عنه وتعديل اسمه بزيد الخير.

وسابع أحداثها:

حج أبي بكر الصديق بالناس

وفي أواخر شهر ذي القعدة من هذه السنة سنة تسع خرج أبوبكر الصديق بإذن رسول الله ﷺ أميرًا على الحج، ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وله هو خمسون بدنة، وكان في ثلثمائة رجل من أهل المدينة، فلما كان بذي الحليفة «آبار علي» على سبعة أميال من المدينة، أرسل رسول الله ﷺ في أثره علي بن أبي طالب، وأمره بقراءة سورة «براءة» على المشركين، فعاد أبوبكر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وقال: يا رسول الله! أنزل فيّ

شيء؟ قال: «لا ولكن لا يبلغ عني إلا أنا أو رجلٌ منّي، ألا ترضى يا أبابكر أنك كنتَ معي في الغار، وصاحبي على الحوض؟» قال: بلى يا رسول الله، فسار أبوبكر أميراً على الموسم، فأقام الناس الحج، وحجت العرب والكفار على عادتهم في الجاهلية. وعلي رضي الله عنه يؤذّن ببراءة، فنادى يوم الأضحى قائلاً: لا يحجّنّ بعد العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجلهُ إلى مُدته. ورجع المشركون، فَلاَمَ بعضُهم بعضًا، وقالوا: ما تصنعون، وقد أسلمت قريش؟! فأسلموا.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

١ - فرضُ الحج يسقط بالعجز، وهو على التراخي لا على الفور، إذ لم يحج مع أبي بكر سوى ثلثمائة رجل، مع وفرة الرجال والنساء بالمدينة يومئذ.

٢ - مشروعية تعيين أمير للحج.

٣ - فضيلة كل من أبي بكر وعلي رضي الله عنهما.

٤ - مشروعية سَوْق الهدْي، وإرساله مع تخلف المُهْدِي عن الحج.

٥ حرمة دخول الحرم على المشركين والكافرين، ووجوب ستر العورة في الطواف.

٦ - شرف مركز قريش بين العرب، إذ العربُ تَبَعٌ لها.

أهم أحداث السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ

لقد وقعت في هذه السنة أحداث تاريخيّة هامة يحسن ذِكْرُ طرفٍ منها إزاء النقاط الآتية:

- بعث الرسول ﷺ جرير بن عبدالله البجلي إلى ذي الخلصة، فهدمها.
- فيها توفى إبراهيم ابن الرسول ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً، ودفن بالبقيع.
- فيها طلع جبريل على النبي ﷺ والناسُ حوله في المسجد في صورة رجل، وسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعن أمارات الساعة.

• فيها بعث النبي ﷺ المصدقين[1] إلى كافة أنحاء البلاد التي أسلم أهلها.

• فيها توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنهما.

• فيها توفى رأس النفاق عبدالله بين أبيّ ابن سلول، وصلى عليه الرسول ﷺ، ثم نهاه الله عن الصلاة على المنافقين مطلقًا بقوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]

• فيها توفى النجاشي وصلى عليه الرسول والمؤمنون بالمدينة صلاة الغائب (رحمه الله رحمة واسعة)

ودخلت السنة العاشرة

من هجرة الحبيب ﷺ

وكان من أول أحداثها:

بعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد

إلى بني الحارث بن كعب بنجران

في هذه السنة العاشرة، بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس سريّة، بعثه إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثًا فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلهم.

فخرج رضي الله عنه إليهم منفذًا لأمر رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وأسلموا فأقام فيهم يعلمهم، وكَتَبَ إلى رسول الله ﷺ كتابًا يَعْلمه فيه بإسلامهم.

ولما قضى فترة تعليمهم، عاد إلى المدينة ومعه وفد منهم، من بين أفراده قيس بن الحصين بن يزيد بن قينان، يزيد بن عبدالمدان وغيرهما، فقدموا على رسول الله ﷺ، ثم عادوا إلى ديارهم، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ عمرو بن حزم يعلمهم شرائع

(١) جباة الزكوات.

الإسلام، ويأخذ صدقـاتهم «زكواتهم» وكتب معه كتـابًا، وتوفى رسول الله ﷺ وعمرو ابن حزم على نجران.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً هي كالآتي:

١ - وجوب الدعوة إلى الإسلام.

٢ - وجوب تعليم من دخل في الإسلام شرائع الإسلام.

٣ - وجوب نصب الولاة في البلد الذي يدخل في الإسلام أو ذمة المسلمين.

وصول وفد نصارى نجران إلى الحبيب ﷺ

وفي هذه السنة العاشرة، وصل وفد نجران، على رأس الوفد العاقبُ والسيدُ، يريدون مباهلة رسول الله ﷺ ليهلك من لم يكن على الحق في دعواه، إذ هم يدعون أن عيسى - عليه السـلام - ابن الله - تعالى الله عـن ذلك علواً كبيـراً - وأن المسـيحـية دين الله. والرسول محمد ﷺ يقول: عيسى عبدالله ورسوله، والدين عند الله الإسلام.

وفعـلاً خرج رسـول الله ﷺ ومعه علي وفـاطمة والحسـن والحسين فـلما رأوهم خافوا، وقـالوا: هذه الوجوه، لو أقسمتْ على الله أن يزيل الجبـال لأزالها، ولم يباهلوه، وصالحـوه على ألْفَيْ حلّة ثمن كل حلة أربعـون درهمًا، وعلى أن يضـيفـوا رسل الرسول ﷺ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده أن لا يفتنوا في دينهم ولا يعشروا، وشرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به. وفيهم نزل نيّف وثمانون آية من سورة آل عمران، وفيها آية المباهلة، وبيان حقيقة عيسى وأنه عبدالله ورسوله، ولم يكن ابن الله، ولا بإله مع الله؛ إذ قص عليهم نشأة عـيسى ابتداءً من جدته حنة إلى وِلادة مريم له صـلى الله عليه وعلى نبينا وسلم تسليمًا كثيراً.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يلي:

١ - هروبُ نصـارى نجران من المـباهلة: دليـلٌ على نبوّة مـحمـد ﷺ، وصحـة دينه الإسلام، وبطلان المسيحية وألوهيّة عيسى - عليه السلام -.

٢ مشروعية إقرار أهل الكتاب على دينهم - وإن كان باطلاً - لنسخه بالإسلام.

٣ - حرمة أكل الربا والتعامل به حتى على أهل الذمة من يهود ونصارى.

وثالث أحداثها:

قدوم وفود عديدة على الرسول ﷺ

والسنة العاشرة كالتاسعة، كانت سنةَ وفودٍ أيضًا، وها هي ذي قائمة بأسماء تلك الوفود، وبعض أحوالها:

١ وفد سَلاَمَان: في شوال، وكانوا ستة عشر نفرًا، وعلى رأسهم حبيب السلاماني، فأسلموا، وشكوا إلى رسول الله ﷺ جدب بلادهم وقحطها، فدعا لهم رسول الله ﷺ، ثم أمر لهم بجوائز فأخذوها وودعوا الحبيب ﷺ ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في نفس الوقت الذي دعا لهم فيه، وفي نفس الساعة بالضبط، فكانت آية نبوته ﷺ.

٢ - وفد غسّان: في رمضان من هذه السنة.

٣ - ووفد عامر: في شهر رمضان منها أيضًا.

٤ - وفد الأزد: وكان يتألف من بضعة عشر رجلاً، على رأسهم صرد بن عبدالله، فأسلموا وأمَّرَ النبي ﷺ صردًا على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد المشركين بمن معه من المسلمين. فسار صرد الأمير إلى مدينة جرش - وفيها قبائل من اليمن فيهم خثعم - فحاصرهم قريبًا من شهر، فامتنعوا منه، فرجع حتى كان بجبل يقال له: كشر، فظن أهل جرش أنه منهزم؛ فخرجوا في طلبه فأدركوه، فعطف عليهم فقاتلهم قتالاً شديدًا، وقد كان أهل جرش قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ ينظران حاله، فبينما هما عنده إذ قال: «بأي بلاد الله كشر؟ وإن بدن الله لتنحر عنده الآن» فقال لهما أبوبكر أو عثمان: ويحكما، إنه ينعى لكما قومكما، فسألاه أن يدعو الله يرفع عنهم، ففعل فقال: «اللهم ارفع عنهم» فخرجا من عنده إلى قومهما، فوجداهم قد أصيبوا ذلك اليوم في تلك الساعة التي ذكر فيها رسول الله ﷺ حالهم، وخرج وفد جرش إلى رسول الله ﷺ فأسلموا.

٥ - وفد مراد: مع فروة بن مُسَيْك المرادي على رسول الله ﷺ مفارقًا لملوك كِنْدَة، وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقْعَةٌ(١) ظفرت فيها همدان وأكثروا القتلَ في مراد، وكان يقال لذلك اليوم: يوم الرذم(٢)، وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك، وفي ذلك يقول فروة:

فإن نَغْلِبْ فغلاّبون قدمًا
وإن نهزم فغير مُهزَّمينا

وما إنْ طِبُّنا جبنٌ ولَكِن
منايانا ودولة آخرينا

كذاك الدهر دولته سِجَالٌ
تكرُّ صروفه حينًا فحينا

فبينا ما يُسَرُّ به ويُرضَى
ولو لُبِسَتْ غضارته(٣) سنينا

إذ انقلبت به كرَّات دهرٍ
فألفى للألى غبطوا(٤) طحينا

ومن يغبط بريب الدهر منهم
يجد ريب الزمان له خئونا

فلو خلد الملوك إذًا خَلَدْنا
ولو بقي الكرام إذًا بقينا

فأفنى ذاكم سروات(٥) قوم
كما أفنى القُرون الأوَّلينا

(١) معركة حرب.

(٢) موضع.

(٣) طرواته ونعمته.

(٤) استحسنت حالهم.

(٥) أشرافهم.

ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ قال:

لمـــا رأيت ملوك كندة أعــــرضت

كـالرَّجل خـان الرجلَ عِـرْقُ نسـائهـا[1]

قــرَّبتُ راحلتي أؤم مـــحـــمـــدًا

أرجــو فــواضلـهـا وحـسن ثرائهـا

فلما وصل إلى رسول الله ﷺ سأله قائلاً: «**هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟**» قال: يا رسول الله! مَنْ ذا يُصيب قومَه مثلُ ما أصاب قومي يوم الردم ولا يسوؤه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ له: «**أما إن ذلك لا يزيد قومَك في الإسلام إلا خيراً**» واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزُبَيد ومَذْحِج كلها، وبعثَ معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ .

٦ - إرسال فروة بن عمرو الجذامي: رسولاً إلى رسول الله ﷺ يُعلمه بإسلامه، وبعث معه بغلة بيضاء أهداها إلى رسول الله ﷺ ، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله بُمعان في أرض الشام، ولما بلغ الروم إسلامَه، طلبوه فأسروه وحبسوه ليقتلوه، فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له: «عِفْرَى» بفلسطين قال:

ألا هـل أتـى سلمـى بأن خليلهـــا

على مـاء عـفـري فـوق إحـدى الرواحل

علـى ناقــة لـم يلقـح الفـحل أمَّـهـا

مـشـــذّبة أطرافــهــا بالمـناجل

فلما قدموه ليصلبوه قال:

بلغ ســراة المـســلمــين بأنني

سِلْمٌ لربّي أعظُمي، ومـقـــامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه، فمات شهيداً من أجل إسلامه لله وجهه وقلبه.

---

(١) عرق مستبطن في الفخذ وهو مقصور نسا، ومدّ للوزن لا غير.

٧ - قدوم وفد زبيد: على رسول الله ﷺ برئاسة عمرو بن مَعْديكَرِبَ وكان النبيّ ﷺ قد استعمل على زُبَيد ومراد فروة بن مسيك في هذه السنة، وذلك قبل قدوم عمرو عليه، فلما عاد عمرو من عند رسول الله ﷺ إلى بلاده أقام في بني زُبيد، فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو، وقال حين ارتد:

وجدنا مُلْكَ فروة شَرَّ مُلْك
حماراً سَافَ[1] مَنْخَرَه بِثَفْرِ[2]
وكنت إذا رأيت أبا عمير
ترى الحِوَلاء[3] من خَبَثٍ وَغَدْرِ

٨ - قدوم وفد عبدالقيس: على رسول الله ﷺ، وفيهم الجارود بن عمرو، وكان نصرانيًا فأسلم هو ومن معه، وكان الجارود حسن الكلام، نهى قومه عن الردة بعد موت الرسول ﷺ لما ارتدوا مع الغرور المنذر بن النعمان، وقد كان النبي ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة بعثه إلى المنذر بن ساوَى العبديّ فأسلم وحسن إسلامُه، ثم هلك بعد وفاة النبي ﷺ وقبل ردة أهل البحرين، والعلاء يومها أمير على البحرين من قبل رسول الله ﷺ.

٩ - قدوم وفد كِنْدة: برئاسة الأشعث بن قيس - وكانوا ستين راكبًا - فقال الأشعث: نحن بنوآكل المرار وأنت ابن آكل المرار، فقال النبي ﷺ: **«نحن بنوالنضر بن كنانة لا نقفوا أمَّنا، ولا ننتفي من أبينا»**، فقال الأشعث: والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ كانوا قد رجلوا جُمَمَهُم[4] وتكحّلوا، عليهم جُبَبٌ[5] الحبرة وقد كفّفوها بالحرير، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ألم تسلموا؟»** قالوا: بلى، قال: **«فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوه منها وألقوه»**.

١٠ - قدوم وفد محارب

---

(١) ساف أي شمّ.
(٢) الثفر من البهائم كالرحم من النساء.
(٣) الحَوَلاء: جلدة ماؤها أخضر تخرج من الولد شبه المهجوّ بها دناءةً وقذارةً.
(٤) جمع جمة: الشعر في مقدمة الرأس.
(٥) جمع جبة: من الثياب معروفة تصنع في اليمن.

١١ - قدوم وفد عبد عَبّس

١٢ - قدوم وفد صَدف: وَافَوْا رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

١٣ - قدوم وفد الرهَاويين: وهم بطن من مذْحِج.

١٤ - قدوم وفد خولان: وكانوا عشرة أنفار.

١٥ - قدوم وفد بني عامر: بن صَعْصَعَة فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قَيْس وجبار بن سُلْمى بن مالك بن جعفر، وكان عامر يريد الغدر برسول الله ﷺ فقال له قومه: إن الناس قد أسلموا فأسلم، فقال: لا أتّبع عَقِبَ هذا الفتى، ثم قال لأربد: إذا قدمنا عليه، فإني شاغله عنك، فَاعْلُهُ بالسيف مِنْ خلفه.

فلما قدموا، جعل عامر يكلم النبي ﷺ ؛ يَشْغله ليفتكَ به أربد، فلم يفعل أربدُ شيئًا، فقال عامر للنبي ﷺ : لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فلما ولّى قال رسول الله ﷺ : «اللهم اكفني عامراً»، فلما خرجوا، قال عامر لأربد: لِمَ لمْ تقتله؟ قال: كلما هممتُ بقتله دخلتَ بيني وبينه حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟ ورجعوا، فلما كانا ببعض الطريق أرسل الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون فقتله وإنه لفي بيت امرأة سلولية. فمات وجعل يقول: يا بني عامر أغدَّة كغدَّة البعير وموت في بيت سَلُولية؟!!، وأرسل الله على أربد صاعقة فأحرقته، وكان أربد بن قيس أخًا للبيد بن ربيعة لأمه.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها كالآتي:

١ - من آيات النبوة المحمدية استجابةُ دعائه ﷺ في موطنين مرتين.

٢ - حرمة لبس الحرير على الرجال ووجوب سرعة الامتثال لأمر الله ورسوله.

٣ - آية النبوة المحمدية في نزول الصاعقة بأربد، والطاعون بابن الطفيل (لعنة الله عليه).

❊ ❊ ❊

ورابع أحداثها:

إرسال النبي ﷺ عليًا إلى اليمن، وإسلام همدان

وفي هذه السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ، بعث النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى اليمن، وقد كان أرسل فيها خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يُجيبوه، فأرسل عليًا وأمره أن يقْفِل[1] خالدًا أو من شاء من أصحابه ففعل، وقرأ عليّ كتاب رسول الله ﷺ على أهل اليمن، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «السلام على همدان»، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فسجد شكرًا لله تعالى.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي الآتية:

١ - فضيلة همدان؛ إذ أسلموا في يوم واحد، وسلم عليهم رسول الله ﷺ ثلاثًا.

٢ - مشروعية سجود الشكر عند حصول النعمة.

٣ - فضيلة علي بن أبي طالب إذ هدى الله على يديه ما لم يَهْدِ على يد خالد - رضي الله عنهما معًا -.

وخامس أحداثها:

بعث النبي ﷺ أمراء على الصدقات

إن شأن الزكاة في الدولة الإسلامية عظيم، فهي - من جهة - حدٌّ فاصلٌ بين الكفر والإيمان، ومن جهة أخرى، فإن مصالح الدولة والأمة قائمة على المال، والزكاة هي المورد الثابت لذلك، فمن هنا كان النبي ﷺ يختار الأكفاء لهذه المهمة.

وها هي ذي قائمة بأسماء المصدقين - أي جباة الزكاة وجامعيها - وسميت الزكاة صدقة، فإنها تدل على صدق إيمان مؤديها -:

١ المهاجر بن أميّة بن المغيرة، بعثه إلى صنعاء فخرج عليه العَنْسِي وهو بها.

---

(١) أي يأمره بالرجوع إلى المدينة.

٢ ـ زياد بن لبيد الأنصاري بعثه إلى حضرموت.

٣ ـ عدي بن حاتم الطائي، بعثه إلى طيئ، وأسد.

٤ ـ مالك بن نُوَيْرة بعثه إلى بني حنظلة.

٥ ـ الزبرقان بن بدر.

بعثهما إلى بني سعد بن زيد مناة بن تميم.

٦ ـ قيس بن عاصم.

٧ ـ العلاء بن الحضرمي بعثه إلى البحرين.

٨ ـ علي بن أبي طالب بعثه إلى نجران ليجمع الزكاة والجزية من نصارى نجران، واستخلف ﷺ على الجيش الذي كان معه رجلاً من أصحابه وسبقهم إلى النبي ﷺ بمكة حاجًّا حجة الوداع، فعمد الرجل المستخلف - إلى الجيش فكساهم كل رجل حلّة من البزّ[1] الذي مع على، فلما دنا الجيش خرج عليٌّ ليتلقاهم، فرأى عليهم الحلل فنزعها عنهم، فشكا الجيشُ إلى رسول الله ﷺ فقام النبي ﷺ خطيبًا فقال: «**أيها الناس، لا تشكوا إليَّ عليًّا، فوالله إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يُشكَى**».

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالآتي:

١ ـ أهمية الزكاة وجبايتها والتأمير عليها في الإسلام ودولته الرشيدة.

٢ ـ مشروعية أخذ الجزية على أهل الكتاب.

٣ ـ مشروعية المبادرة إلى تغيير المنكر، إذ نزع عليٌّ ما كان قد كساه خليفته أفراد الجيش بدون إذن الأمير.

٤ ـ فضل عليّ؛ إذ أخذ النبي ﷺ أنه أخشن في ذات الله أو سبيله من أن يُشكى، وتُقْبل الشكوى فيه.

---

(١) الثياب من الكتان.

وسادس أحداثها:

حجة الوداع والبلاغ

هذا الحدث ذو أهمية كبرى؛ لما بيَّنَ الحبيب ﷺ في حجته هذه من شرائع وأحكام وآداب، وسمِّيت حجة الوداع؛ لأن قوله ﷺ فيها: **«لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»** كان مشعرًا بالوداع، وكذلك كان، إذ لم يعشْ بعدها ﷺ إلا بضعة شهور وتوفاه الله عز وجل، وتُسَمَّى أيضًا حجة البلاغ؛ لأن الرسول ﷺ بلغ الكثير من الأحكام: إنه لما دخل شهر ذي القعدة أخذ رسول الله ﷺ يتجهز وأمر الناس بالجهاز كذلك، معلنًا لهم أنه يريد الحج، ولما بقي خمس ليالٍ من شهر ذي القعدة، استعمل ﷺ على المدينة أبادجانة أو سبع بن عُرفطة الغفاري، وخرج، وخرج المسلمون معه وهو لا يريد إلا الحج، فلما كان بوادي العقيق على سبعة أميال من المدينة، نزل عليه جبريل - عليه السلام - بالسلام من ربِّ العالمين فقال له: «إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إنك بالوادي المبارك؛ فَصَلِّ فيه وقل عمرة في حجة» وَخَيَّرَ أصحابه بين الإفراد والتمتع والقران، فمنهم من أهلَّ بحج، ومنهم من أهل بعمرة، ومنهم من أهل بحج وعمرة، وساروا حتى إذا بلغوا «سَرِف» حيث جاءت عائشة رضي الله عنها العادةُ الشهرية، فبكت وطمأنها الحبيب ﷺ بقوله: **«هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي يا عائشة كلَّ ما يفعله الحاجُّ إلا أنك لا تطوفين بالبيت حتى تطهري»**، ثم أمر من لم يَسُقِ الهديَ أن يجعل حجه عمرة تخفيفًا عليهم ورحمة بهم وبمن يأتي بعدهم.

ولما دخل مكة طاف بالبيت وسعى، ولم يتحلل لسوقه الهدي، وبقي بعض أصحابه، مفردين - وليس معهم هدي - فلم يتحللوا فأمرهم بالتحلل، وقال مُرَغِّبًا لهم: **«لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لما سُقْتُ الهديَ، ولجعلتها عمرة»** فحلّوا من إحرامهم، وسألوه: هل هذا لعامنا هذا خاصة - أي التحلل بالعمرة - فقال: **«لا بل لأبد الأبد»**، أي يجوز لأيِّ مسلم يأتي مفردًا بالحج وليس معه هدي أن يفسخ الحج إلى عمرة.

ومكثوا بمكة مُحِلِّين حتى يوم التروية، فأحرموا بالحج، وخرجوا إلى منًى وباتوا بها وبعد صلاة الصبح من يوم عرفة (تاسع الحجة) خرجوا إلى عرفة وعلَّم أثناء ذلك الناسَ مَنَاسكهُم وَسُنَنَ حَجِّهم، وخطب خطبة بعرفة لم يُسمع مثلها في طولها، ولما اشتملت

عليه من الشرائع والهدى. وهذه جُلُّ فقراتها، فلتُقرأ وليُتوقفْ عند كل جملة منها؛ فإنها كواكب هدى تضيء للمسلم الدُجى. فقد حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، وقال:

«أيها الناس! اسمعوا قولي: فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة، يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربَكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغتُ. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ كلَّ رِبًا موضوعٌ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله. وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مسترضعًا في بني ليث، فقتلته هُذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد؛ أيها الناس! فإن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكن إن يُطعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيها الناس! إن النّسيء زيادة في الكفر، يُضَل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويُحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر[1] الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس! فإن لكم على نسائكم حقًا، ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح[2] فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت. وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّنًا: كتاب الله وسنة نبيّه.

أيها الناس! اسمعوا قولي واعقلوه، تعْلَمُنّ أن كل مسلم أخٌ للمسلم، أن المسلمين إخوة،

---

(١) قيل إنما قال ذلك؛ لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبًا فبيّن ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة.

(١) أي غير شديد فلا يكسر عضواً ولا يشين جارحة.

فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمَنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغتُ؟!!!».

فقال الناس: اللهم، نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم فاشهد».

«أيها الناس! إن الله قد أدَّى إلى كل ذي حق حقَّه، وإنه لا تجوز وصية لوارث، والولدُ للفراش وللعاهر الحَجَرُ، ومن ادَّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبلَ منه صرف ولا عدل».

وإنه ﷺ بعد أن زالت الشمس وصلى بالناس وخطبهم، أتى جبل عرفة فوقف في صفحه وقال: «ووقفتُ ههنا، وعرفةُ كلها موقفٌ»، ولما غبرت الشمس، ركب إلى مزدلفة. فوصلها بعد العشاء جمعًا، وبات بها، ولما طلع الفجر، صلى الصبح، ووقف على جبل قزح وقال: «وقفتُ ههنا، ومزدلفة كلها موقف»، ولما أسفر جداً أتى الجمرة فرماها، ثم المنحر فنحر ثم قال: «نحرت ههنا ومنًى كلُّها منحر»، ثم أفاض من يومه وعاد إلى منى، فبات بها ثلاث ليالٍ يرمي الجمرات الثلاث بعد زوال كل يوم، يبدأ بالصغرى، ويختم بالكبرى وخطب أيام منًى وعلّم كل ما الأمةُ في حاجة إليه إلى يوم الدين، ولذا كانت هذه الحجة تسمَّى حجة الوداع؛ لأنه ﷺ ودَّع أمته فيها إذ لم يحج بعدها، فصلى الله عليه وسلم يوم وُلد، ويوم دعا وجاهد، ويوم حج واعتمر، ويوم ودع، ويوم مات، فالتحق بالرفيق الأعلى في جنة عرضها السموات والأرض.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نسجلها إزاء الأرقام الآتية:

١ - وقوعُ حجة الوداع - بعد تطهير الحرم من الشرك والمشركين - دالٌّ على حصاد جهاد دام نيِّفًا وعشرين سنة، وفي هذا عبرة لمن يعتبر.

٢ - بيان أن وادي العقيق مبارك، وأنه ميقات أهل المدينة؛ إذ ذو الحليفة على شاطئه الأيمن.

٣ - مشروعية الإهلال بأيّ نسك من الأنساك الثلاثة: الإفراد، والتمتع، والقِرَان.

٤ - بيان أن الحائض لا يمنعها الحيضُ من الإحرام، إذ تفعل كما يفعل الحاج إلا أنها لا

تطوف حتى تطهر وتغتسل.

٥ - من مظاهر الرحمة المحمدية الإذنُ بفسخ الحج إلى عمرة؛ تيسيرًا وتسهيلاً على الأمة.

٦ - مشروعية الحرص على مخالفة اليهود والنصاري والمشركين؛ إذ كان المشركون يعدون الاعتمار في أشهر الحج من أفجر الفجور، وكانوا يقولون: إذ برأ الدبر، وعفا الأثر، وانسلخ صفر، حلت العمرة لمن اعتمر، فلذا أمر النبيُّ ﷺ أصحابه بالتحلل والاعتمار، ولما تردد أصحابه في ذلك غضب حتى أذعنوا لأمره وتحللوا ﷺ.

٧ - بيان باقي المناسك عمليًا؛ إذ كان يقول: «**حجوا كما رأيتموني أحج**».

٨ - الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض.

٩ - الإعلام عن تحريم الظلم والربا، وكل عادات الجاهلية.

١٠ - الإعلان عن حقوق النساء، والأمر بالاعتراف بها وأدائها، وكذا حقوق الزوج على زوجته.

١١ - تحريم الوصيّة للوارث، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم.

١٢ - حرمة التبني والانتساب إلى غير الموالي.

١٣ - تقرير أن الولد يُنسب إلى مَنْ وُلِدَ على فراشه، وأن العاهر لا حق له فيه، وإنما له الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنا.

ودخلت السنة الحادية عشرة من هجرة الحبيب ﷺ

وكان أول أحداثها:

بعث جيش أسامة إلى الشام

إن آخر بعث في الجهاد المحمدي، هو بعث أسامة بن زيد الحِبّ بن الحِبّ ﷺ.

ففي المحرم - وبعد العودة من حجة الوداع - رأى النبي ﷺ أن يبعث بعثًا إلى الشام، وأن يكون أسامة بن زيد - الشاب الذي لم يتجاوز من العمر ثماني عشرة سنة -

هو قائد هذا الجيش، الذي عقد لواءه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يوطئَ الخيلَ تخومَ البلقاء، والداروم من أرض فلسطين. وتكلم بعضٌ طاعنًا في أسامة؛ لصغر سنه، فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله: «**إن تطعنوا في إمارة أسامة فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل**»، وذلك لكون كل من زيد وأسامة ولده مولًى وليس بسيد.

وتجهز الناس للخروج، وفي هذا الجيش كبارُ المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وغيرها، وبينما الناس في التجهيز والإعداد للخروج إذا برسول الله ﷺ يبتدئه مرضه الذي قبض فيه. فوقف الجيش في انتظار شفاء الحبيب ﷺ ، ولم يمض إلا أسبوع واحد ويقبض رسول الله ﷺ ، ويلتحق بالرفيق الأعلى، ويبقى جيش أسامة في انتظار ما يحدث بخصوصه، ولي أمرَ المسلمين أبوبكر، وأنفذ جيش أسامة كما أراد رسول الله ﷺ وأحبّ، وذلك نزول من الصديق على رغبة الحبيب ﷺ في تنفيد ما يحب، فرضي الله عن أبي بكر ما أرضاه وأوفاه؛ فاللهم اجعل الجنة مأوانا ومأواه.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في الآتي:

١ - بيان مواصلة الرسول ﷺ الجهادَ حتى آخر يوم من حياته.

٢ - جواز إسناد قيادة الجيوش إلى الشباب الكفء المقتدر، إذا كان في قيادته ذوو الرأي والمشورة من كبار السن من كهول وشيوخ.

٣ - بيان أن الطبع البشري لم يتبدل؛ فقد طُعِنَ في إمارة أسامة وإمارة أبيه وفي حضرة الرسول ﷺ .

٤ - بيان كمال أبي بكر الصديق، وصادق وُدِّه وعظيم طاعته لرسول الله ﷺ حيًّا وميتًا؛ وذلك بإنفاذه جيش أسامة وفي أصعب الظروف وأشدها حلوكة.

* * *

خاتمة الجهاد المحمدي

ببيان عدد غزواته ﷺ وسراياه

لقد غزا ﷺ ستًا أو سبعًا وعشرين غزوة في خلال سنوات هجرته العشر. باشر القتال بنفسه في تسع غزوات منها، وهي: بدر الكبرى، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. وباقي الغزوات أعدها وحضرها إلا أنه لم يباشر القتال فيها بنفسه، وإما بواسطة أصحابه - رضوان الله عليهم - وهي: ودّان وهي الأبواء، ثم بُواط، ثم العُشَيْرة، ثم بدر الأولى، ثم غزوة بني سُلَيم، ثم غزوة السويق، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة نجران بالحجاز، ثم حمراء الأسد، ثم بني النضير، ثم ذات الرِّقاع، ثم بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة بني لحيان ثم غزوة ذي قَرَد.

وأما سراياه ﷺ فقد بلغت نحواً من خمس وثلاثين سريةً وبعثًا. وقد مرت هذه السرايا والبعوث، وتلك الغزوات مفصلة واحدة بعد أخرى في سنوات الهجرة العشر المباركة، والحمد لله أولاً وآخراً.

وآخر أحداثها وأجلها:

مرض الحبيب ﷺ ووفاته

بداية مرضه ﷺ:

في أوائل شهر ربيع الأول، وفي يوم الأربعاء بالذات بدأ وجع الحبيب ﷺ، فأصابه صداع وحُمّى. وقبل هذه البداية المؤلمة ببعض الأيام، خطب ﷺ الناسَ فنعى إليهم نفسه وهم لا يشعرون، إذ صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال: «إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله»، فبكي أبوبكر، فعجب الناسُ من بكائه. بكى لأنه فهم أن المخيَّر هو رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «إن مَنْ أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله: أبابكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبابكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقينّ في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر».

وفي جوف الليل، يوقظ رسولُ الله ﷺ مولاه أبامُويهِبة ويقول: «يا أبامُويْهِبَة، إني قد أمرتُ أن أستغفر لأهل هذا البقيع؛ فانطلق معي»، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام

عليكم يا أهل المقابر ليهنكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتنُ كقطع الليل المظلم، يتبع أولَها آخرُها. الآخرةُ شر من الأولى». ثم أقبل على أبي مويهبة وقال: «يا أبامويهبة، إني قد أوتيت مفاتح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة»، فقال له أبومويهبة: بأبي أنت وأمّي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة، فقال: «لا والله يا أبامويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم استغفر ﷺ لأهل البقيع ثم انصرف. فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبض فيه، إذ دخل على عائشة بعد رجوعه من البقيع فوجدها تشكو صداعًا وتقول: وارأساه! فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه!!» ثم قال لها: «وما ضرك لو متِّ قبلي فقمتُ إليك وكفّنتك، وصلّيتُ عليك ودفنتك» فقالت عائشة: والله لكأني بك لو قد فعلتَ ذلك، لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيه ببعض نسائك. قالت عائشة ﵂: فتبسم رسول الله ﷺ وتَتامَّ به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى استعز به - وهو في بيت ميمونة - فدعا نساءه فاستأذنهنَّ أن يُمَرَّض في بيتي، فأذِنَّ له.

في بيت عائشة:

وبعد أن أذن له أمهات المؤمنين في أن يُمرض في بيت عائشة ﵂ خرج ﷺ يمشي بين رجلين من أهله، هما: العباس وعليّ، وهو عاصب رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة ﵂، ثُمّ حُمَّى ﷺ واشتد به الوجع، فقال: «هريقوا عليَّ سبع قرب من ماء؛ حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم»، قالت عائشة: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صبّ عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم!!» ثم خرج إلى الناس، فصلى بهم وخطبهم، ثم ازداد مرضه فقال: «مُرُوا أبابكر فَلْيُصَلِّ بالناس» فقالت عائشة: إن أبابكر إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء فَمُرْ عمرَ، فليصل بالناس، وكررتْ عليه عائشةُ القولَ؛ فكرر الإجابة حتى قالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبابكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فَمُرْ عمرَ، فليصل بالناس، فقالت له فقال ﷺ: «مَهْ، إنكن لأنتنّ صواحب يوسف، مُروا أبابكر فليصل بالناس»، فقام أبوبكر يصلّي بالناس، ووجد النبيُّ ﷺ من نفسه خفّةً، فخرج بين رجلين: العباس وعلي، لصلاة الظهر، فلما رآه أبوبكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه: ألا يتأخر، وقال للرجلين: «أجلساني إلى جنبه» فأجلساه

إلى جنب أبي بكر، أبوبكر يصلي - وهو قائم - بصلاة رسول الله ﷺ وهو قاعد، والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

وفي مرضه هذا قال لعائشة: «ما زلت أجد ألَمَ الطعام[1] الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم».

ولما كان يوم الخميس - وقبل وفاته ﷺ بأربع ليالٍ - اجتمع عنده ناس من أصحابه فقال: «ائتوني بِكَتِفٍ[2] ودواة، أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا». فتنازعوا عنده وأخذوا يردون عليه، فقال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه» وأوصاهم بثلاث: فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفود بنحو ما كنتُ أجيزهم»، وسكت عن الثالثة.

ولما كان يوم الاثنين الذي قُبض فيه ﷺ - والناس في صلاة الصبح وأبوبكر يصلي بالناس - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ يكشف ستر حجرة عائشة، فينظر إليهم وهم صفوف في الصلاة، ثم تبسّم يضحك، فنكص أبوبكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهَمَّ الناس أن يفتتنوا في صلاتهمْ فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستار، وانصرف الناس وهم يرون أن النبي ﷺ قد أفاق من وجعه، فرجع أبوبكر إلى أهله بالسُّنح. ودخل عبدالرحمن بن أبي بكر - وفي يده سواك - وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدري فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك؟ فأشار أنْ نعم، فتناولته فاشتد عليه، فقلت ألَيِّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليّنته بأمره فاستن به، وهو مستند إلى صدري، وبين يديه ركوة ماء فجعل يُدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» وآخر كلمة قالها[3]: «اللهم الرفيق الأعلى».

ومن سفهي وحداثة سنّي أن رسول الله ﷺ قد قبض في حِجْري، ثم وضعت رأسه

(١) يعني ﷺ الشاة المسمومة التي قدمت له بخيبر وأكل منها فلم تضرهُ في ذلك الوقت. واستمر الداء كامنًا حتى ظهر في هذه الأيام، وقد مات أحد أصحابه لما أكل منها كما تقدم في فتح خيبر، والأبهر عرق في الإنسان إذا انقطع هلك صاحبه.

(٢) عَظْم الكَتِف يُكتب عليه.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

على وسادة، وقمتُ ألتدمَ[١] مع النساء وأضربَ وجـهي. وكانت تقول ﵂: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفى في بيتـي، وفي يومي، وبين سَحْري[٢] ونَحْري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه؛ أن لَيَّنتُ له السواك فاستاك به.

وتوفى رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة المباركة، وفي مثل الوقت الذي دخل في المدينة.

فيوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع، وُلِدَ فيه، وأُوحي إليه فيه، ووَصلَ دار الهجرة فيه، وتوفى فيه، ولذا كان يَصومه ﷺ ويقول: «يوم الاثنين ولدتُ فيه وأُوحيَ إليّ فيه».

اشتداد الكرب وكمال الصديق:

وما إن علم الناس بوفـاة الرسول ﷺ حتى طاشت عقـولهم، وعمتهم الـحيرة، وأقعـدتهم الدهشة، وأظلمت الحيـاة في وجوههم حتى إن عـمر - على جلالتـه - قام يحلف للناس بأن الرسول ما مات، حتى جاء أبوبكر من السنح، فدخل على رسول الله ﷺ فوجده مـسجًّى في ثوب حبِرَة، فكشف عن وجهـه وقبَّلَهُ وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي طبتَ حيًا وميِّتًا، والذي نفسي بيـده، لا يذيقك الله الموتتين أبدًا، ثم خرج وعمرُ يكلم الناس، فـقال: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فأقـبل عليه الناس وتركوا عمر. فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فـمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبـد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، وقال عز وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فنشج الناس يبكون، قال ابن عـباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر، فتلقَّاها الناس منه كلُّهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

غسل الحبيب، وكفنه، ودفنه:

ولما فرغ الصـديق، وفرغ الأصحاب من البـيعة، وبويع لأبي بكر الصديـق بالخلافة لرسول الله ﷺ على أمتـه، أقبلوا على تجهيـز الحبيب ﷺ، فتولـى غسلَه آلُ البيت

(١) تلطم خدّها من شدة الواقعة.

(٢) أي ورأسه ﷺ بين ثغرة نحرها، وهو سَحرُها، ونهاية حلقها وهي منتهى الذقن.

وهم: على بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب، والفضل وقثم ابنا العباس، وأسامة بن زيد وشُقران مولى رسول الله ﷺ، وكان العباس وولداه يقلبانه، وأسامةُ وشقران يصبان الماء، وعليٌّ يغسله بيده فوق ثيابه، فلم يُفْضِ بيده إلى جسده الطاهر قط، فلم ير من رسول الله ﷺ ما يرى من الميت، وكان علي يغسله ويقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيًّا وميّتًا، وكفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب، ثوبين صُحَارِيَّين وبُرْدِ حَبِرَةٍ أدرج فيها إدراجًا.

ومن آيات نبوته ﷺ، أنهم اختلفوا، هل يغسلونه كما يُغَسَّل الرجال بأن يُجَرَّد من ثوبه؟ فأخذهم النوم وهم كذلك، وإذا بهاتف يقول: غسّلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابهُ، ففعلوا، ولما أرادوا دفنه اختلفوا في موضع دفنه، فجاء أبوبكر رضي الله عنه وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قُبِضَ نبيٌّ إلا دُفِن حيث قبض». فرفع فراشه ﷺ وحفر في موضعه، وذلك بأن حفر له أبوطلحة الأنصاري لحدًا، ثم دخل الناس أرْسالاً يصلون عليه فرادى: الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، ثم العبيد، ولما فرغوا من الصلاة عليه دفن ﷺ وذلك ليلة الأربعاء، وكان الذي نزل في قبره علي بن أبي طالب، والفضل وقثم ابنا العباس وشقران، وأثناء ذلك قال أوس بن خولى الأنصاري لعليّ: أنشدك الله وحظَّنا من رسول الله ﷺ، أي أن تأذن لي في النزول إلى قبر رسول الله ﷺ، فأذن له بالنزول في القبر معهم فنزل، وسووا عليه التراب ورفعوه مقدار شبر عن الأرض.

وقبض رسول الله ﷺ، وعمره ثلاث وستون سنة، ولم يخلف من متاع الدنيا دينارًا ولا درهمًا، بل مات ودرعُه مرهونةٌ في كذا صاعًا من شعير، فصلى الله عليه وسلم، يوم وُلِد، ويوم مات، ويوم يبعث حيًّا.

بكاءٌ ودموع على فراق الحبيب ﷺ

لا أحبُّ أن أثير شجون المؤمنين والمؤمنات، ولا أن أهيج نفسي بالبكاء الذي لا يُجدي، بلى يُجدي إذ يطفئُ نار أحشاء تلتهب، ولكن كيف أواصل الحديث والقلبُ جريح، والعين تذرف والدمع منهمر، فلذا نكتفي بتسجيل دالية حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ، فإنها تعبر عن حزن وألم ودموع كل مؤمن ومؤمنة في هذه الحياة.

قال - رضي الله عنه وأرضاه -:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد
منيرٌ وقد تعفوا الرسوم وتهمد
ولا تمَّحى الآياتُ من دار حرمة
بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم
وربَعٍ له فيه مصلى ومسجدُ
بها حجرات كان ينزل وسطها
من الله نورٌ يستضاءُ ويُوقدُ
معارف لم تطمس على العهد آيُهَا
أتاها البلى فالآي منها تجدَّد
عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقَبْراً بها واراه التُّرب مُلحِدُ
ظللت بها أبكي الرَّسول فأسعدت
عيونٌ ومثلاها من الجَفْنِ تسعد
تذكرن آلاء الرسول وما أرى
لها مُحْصيًا نفسي فنفسي تبلَّد
مفجَّعةٌ قد شفَّها فَقْدُ أحمد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عُشَيْرهُ
ولكن لنفسي بعد ما قد توجُّد
أطالت وقوفًا تذرف العين جهدَها
على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركَ يا قبر الرسول وبوركتْ
بلادٌ ثوى فيها الرشيد المسدد

وبورك لحدٌ منك ضُمِّنَ طيِّبًا
عليه بناء من صفيح منضدُ
تهيل عليه التربَ أيد وأعينٌ
عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيَّبوا حلمًا وعلمًا ورحمةً
عشية علّوه الثرى لا يوسَّدُ
وارحوا بحزن ليس فيهم نبيهم
وقد وهنتْ منهم ظهورٌ وأعضد
يبكّون من تبكي السموات يومه
ومن قد بكتْه الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يومًا رزيّةُ هالك
رزيةَ يومٍ مات فيه مُحمَّدُ؟!
تقطع فيه منزل الوحي عنهم
وقد كان ذا نور يغور وينجد
يدل على الرحمن مَنْ يقتدي به
وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمامٌ لهم يهديهم الحق جاهدًا
معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفوٌّ عن الزَّلاَّت يقبل عذرهمْ
وإن يحسنُوا، فالله بالخير أجودُ
وإن ناب أمرٌ يقومُوا بحمله
فمن عنده تيْسَير ما يَتَشدَّدُ
فبيناهم في نعمة الله بينهم
دليلٌ به نهج الطَّريقة يُقصدُ
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوفٌ عليهم لا يُثنّي جناحه
إلى كنفٍ يحنو عليهم ويمهدُ

فبيناهم في ذلك النُّور إذ غدا
إلى نورهم سهمٌ من الموت مقصدُ

فأصبح محمودًا إلى الله راجعًا
يبكّيه حقّ المُرسَلاتِ ويحمدُ

وأمست بلادُ الحرم وحشًا بقاعها
لغيبة ما كانت من الوحي تعهدُ

إلى أن قال:

فبكّي رسولَ الله يا عين عبرة
ولا أعرفنّك - الدهرَ - دمعك يجمدُ

ومالك لا تبكين ذا النعمة التي
على الناس منها سابغٌ يتغمّدُ؟!

فجودي عليه بالدموع وأعولي
لِفَقْدِ الذي لا مثلُه الدهرَ يُوجَدُ

وما فَقَدَ الماضون مثلَ محمد
ولا مثله حتى القيامة يُفْقَدُ

إلى أن قال:

أقول ولا يُلقي لقولي عائبٌ
من الناس إلا عازب العقل مبعدُ

وليس هوائي نازعًا عن ثنائه
لعلّي به في جنة الخُلدِ أخْلدُ

مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفي نيْل ذاك اليوم أسعى وأجهد

الذات المحمدية

إن الحبيب - صلوات الله وسلامه عليه - بشر، إلا أنه أكمل البشر وأفضلهم، وواهب كماله وفضله هو الله جل جلاله، وتعالى جده، وعظم سلطانه.

ومن هنا، كان الكمال المحمدي - ذاتًا وصفات - عطاء إلهيًّا لا يسامى رسول الله ﷺ فيه، ولا يقوى القلم على رسم حقيقته، ولم يخطئ من قال في هذا الشأن:

وما مثلوا صفاتك للناس

إلا كما مثل النجوم الماءُ

وقد وصف الحبيبَ محمداً ﷺ بعضٌ من أصحابه ومواليه وآل بيته، وكل واصف لم يعْدُ الحقيقة، بل لم ينته إليها، وذلك لعجزه وعدم قدرته على رسم الصورة الحقة للذات المحمدية.

وبناء على هذا الذي قلنا، فإنا نكتفي بوضع رسمٍ أمام القارئ كان قد رسمه أعلمُ أصحابه به، والصقهم بجنابه؛ لأنه فرع دوحته، وبعل ابنته، وأبوحَسَنَيه؛ هو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وأرضاه - إذ يقول:

الرسم الكريم لمحمد الحبيب ﷺ

كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا القصير، فخم الرأس واللحية، شَثْن[١] الكفين والقدمين، ضخم الكراديس[٢]، مشربًا وجهه حمرةً، طويل المسربة[٣]، إذا مشى تكفَّأ تكفؤًا، كأنما ينحط من صبَب[٤]، لم أرَ قبله ولا بعده مثله، وكان أدعج[٥] العينين، سبط الشعر، سهل الخدين، ذا وَفْرة، كأن عنقه أبريق فضةٍ. وإذا التفتَ: التفتَ جميعًا، كأن العرق في وجهه اللؤلؤُ الرطبُ؛ لطيب عرقه وريحه وخاتم النبوة بين كتفيه، وهو بَضْعَة لحم ناشزة[٦] حولها شعر طيب جميل.

---

(١) أي ممتلئ لحم الكفين والقدمين.

(٢) ألواح الأكتاف.

(٣) شعر الصدر.

(٤) أي الانحدار.

(٥) أسود العينين.

(٦) أي مرتفعة.

كانت تلك صورة رسول الله ﷺ رسمها أبلغ أصحابه بيانًا وأفصحهم لسانًا، ومن أصدقهم لهجة، وأكثرهم تحريًا للحقيقة والصواب، فلو أراد المصورون اليوم - وقد لعنهم الله على لسان رسوله - لو أرادوا أن يرسموا صورة لمثل رسول الله ﷺ والله ما قدروا ولو اجتمعوا لذلك، ولكانوا كاذبين، وملعون من كذب على رسول الله ﷺ فيما تخيلوه ورسموه. وبلغني - وأنا أكتب هذه الرسالة في السيرة المحمدية العطرة - أن منظمة مَّا في بلد مَّا، رسمت صورة في شكل لتمثال وقالوا: هذا محمد ﷺ، فكَرَّ عليها رجال سفارة خادم الحرمين الشريفين، فهدموها وحطموها فجزاهم الله خير الجزاء، حفظ الله خادم الحرمين وحكومته التي تذب عن الإسلام، وتدفع عن حرمات شرائعه أصولاً وفروعًا آمين.

أسماء الذات المحمدية

إن لكل ذات اسمًا - أو أسماء - تُعرف بها من بين سائر الذوات، وهذا أمر مقرر في جميع الشرائع، ومستقر في النفوس، وملازم للفطرة، ومقبول لدى العقول، وبقدر شرف الذات وسموها وكمالها تكثر أسماؤها وصفاتها، حتى تجل عن الحصر؛ فإن لله تعالى مائة اسم إلا اسمًا، وقد ذكرت في القرآن متفرقة وذكرت في السنة مجملة.

وأما الحبيب ﷺ فإن له خمسة أسماء، وليس هذا لغيره من سائر إخوانه الأنبياء فضلاً عمن دونهم، وقد جاء ذكر أسمائه الخمسة في حديث مالك في موطئه وهي: محمد، وأحمد، والمقفّى، والعاقب، والحاشر.

وأما صفاته ﷺ مثل نبيّ الرحمة، ونبيّ الملحمة، ونبيّ التوبة، فهي كثيرة جداً ويطول ذكرها، وقد كتب قدرٌ منها في الجدار القبلي لمسجده ﷺ. وما كان ينبغي أن تكتب أسماؤه وصفاته على الجدران والحيطان، وإنما على ألواح الذهب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

ماله علاقة بالذات المحمدية كالزوجات والأولاد والموالي والممتلكات له كالمراكب وأنواع السلاح

(أ) أزواجه ﷺ:

أجمل ابنُ الكلبي - كما ذكر ذلك ابنُ الأثير - القولَ في زوجات الرسول ﷺ فقال: تزوج النبي ﷺ خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة منهن، وجمع بين إحدى عشرة منهن، وتوفى عن تسع منهن - رضي الله عنهن -.

وتفصيل ذلك كالآتي:

تزوج رسول الله ﷺ أول من تزوج خديجة بنت خويلد، وكانت قَبْلُ تحت عتيق ابن عائذ بن عبدالله بن مخزوم، فمات عنها وتزوجها بعده أبوهالة بن زرارة بن النَّبَّاش التميمي، فولدت له هند بن أبي هالة، ثم مات عنها فتزوجها رسول الله ﷺ وهي أم أولاده كافة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية جاريته، التي أهداها إياه الملك المقوقس ملك القبط، وهو بالمدينة النبوية.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت صغيرة السن، فلم يَبْنِ[1] بها حتى هاجر إلى المدينة المنورة وهاجرت أسرتها الكريمة. ثم تزوج ﷺ بمكة سودة بنت زمعة وهي ثيب؛ إذ كانت تحت السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، وكان قد هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافراً، فزوجه بها والدها زمعة بن قيس، وخطبتها له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، فدخل بها بمكة وأصدقها أربعمائة درهم.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خُنَيْسِ بن حذافة السهمي وأمهرها ﷺ أربعمائة درهم، ثم تزوج أم سلمة بنت أبي أميّة المخزوميّة، وكانت عند أبي سلمة بن عبدالأسد شهيد أحد ﷺ. ثم تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين، وكانت عند الطُفَيْل بن الحارث بن عبدالمطلب، وماتت عند رسول الله ﷺ ولم يمت في حياته من نسائه ﷺ إلا هي وخديجةُ قبلها. ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت عند مالك بن صفوان المصطلقي، ولم تلد له شيئاً،

---

(١) بنى بها ﷺ وعمرها تسع سنين، ومات عنها وعمرها ثماني عشر سنة.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت عند عبيدالله بن جحش وهو من مهاجرة الحبشة وتنصر ومات بها، فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها عليه وتزوجها وهي بالحبشة، وتولى عَقْدَ نكاحها خالدُ بن سعيد بن العاص، ودفع مهرها النجاشي، وكان أربعمائة دينار. واسم أم حبيبة رَمْلة. ثم تزوج زينب بنت جحش، وكانت عند زيد ابن حارثة مولاه، فزوجه الله تعالى بها، وبعث في ذلك جبريل، فكانت رضي الله عنها تفخر على نساء رسول الله ﷺ وتقول: أنا أكرمهن وليًا وسفيرًا، وهي أول من توفى من زوجات الرسول ﷺ بعد وفاته، فقد توفيت في خلافة عمر - رضي الله عنهما وأرضاهما -، ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب النضريّة وكانت قبله عند سلاَّم بن مشكم فمات عنها، وخلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقتل في خيبر، ثم أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها؛ لأنها كانت من سَبْي خيبر، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكانت قبله تحت عمير بن عمرو الثقفي، ثم تزوجها بعد عمير أبوزهير بن عبدالعزى ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعده، وهي خالة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، عقد عليها بمكة بعد التحلل من العمرة، وبنى بها بسَرِف كما تقدم بيانه في عمرة القضاء. ثم تزوج شراف بنت خليفة الكلبي، وتوفيت قبل أن يبني بها وهي أخت دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه. ثم تزوج امرأة من بني كلاب وتوفيت قبل البناء بها، ثم تزوج السَّنَبَاءَ بنت عمرو الغفاريّة، فلما مات ابنُه إبراهيم قالت: لو كان نبيًا ما مات ولده، فطلقها، ثم تزوج عربة بنت جابر الكلابية، فلما قدمت عليه ﷺ استعاذت بالله منه، ففارقها وقال: «منيعٌ عائذُ الله». ثم تزوج العالية بنت ظبيان فبنى بها، ثم فارقها وردَّها إلى أهلها لعلّة كانت بها.

المذكورات هن النسوة اللاتي تزوجهن رسول الله ﷺ ذكرناهن تفصيلاً لا إجمالاً. وأما السّراري[1] فلم يكن له ﷺ سوى مارية بنت شمعون القبطية وريحانة بنت زيد القرظية أو النضريّة.

ومما ينبغي أن يقال هنا ويعلم، أن النبيّ ﷺ لم يتزوج بكرًا قط إلا عائشة رضي الله عنها، وكان زواجه بها إكرامًا لوالدها الصديق الوفيّ والأخ الصادق الأخوة، الذي آزره منذ

(١) جمع سُرِّيّة: الجارية يتسرى بها مالكها، وإن ولدت تكون أمَّ ولد؛ فلا يحل بيعها كمارية أم إبراهيم.

اللحظات الأولى في دعوته وحمل رسالته. وبهذا يتبين بوضوح لذوي العقول والبصائر أن النبيّ ﷺ لم يتزوج امرأة من نسائه الثلاث عشرة اللائي بنى بهنّ لمجرد الرغبة في الاتصال الجنسي، وإنما كان لأهداف سامية وغايات شريفة لم يَسْمُ إليها غير الحبيب محمد ﷺ. فقد تزوج خديجة بعد رغبتها في الزواج منه لتكون قاعدة دعوته، وأمينة سرّه، ومأوى نفسه عند اشتداد الخوف به وحلوكة الأيام والليالي عليه. وتزوج أم حبيبة وأم سلمة وسودة وميمونة وأم المساكين وهن أرامل مرملات؛ إيواء لهن لما فقدن أزواجهن، ولما أصابهن من عذاب واضطهاد في ذات الله تعالى.

وزوجه ربّه تبارك وتعالى زينب بنت جحش وهو كارهٌ لذلك خاشٍ من أن يقول الناس: محمد تزوج امرأة زيد الذي تبنّاه. وتزوج حفصةَ بنتَ عمر الثيب؛ إكرامًا لعمر وتحقيقًا لرغبته في أن تكون بنته في بيت النبوة الطاهر وتصبح حفصة بنت عمر من أمهات المؤمنين. وإذا لم يكرم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من أصحابه فمن يكرم إذًا؟

وتزوج صفية وجويرية مسحًا لدموعهما وإذهابًا لحزنهما لموت زوجيهما في معركة قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما.

وهكذا ما تزوج رسول الله ﷺ لغير الله، ولا بدون إذن من الله ورضاه. ألا قاتل الله الطاعنين في الكمال المحمدي، وقطع ألسنة الجاهلين ببغاوات أعداء الإسلام من يهود ونصارى ومجوس ومشركين الذين يهرفون بما لا يعرفون.

(ب) أولاده ﷺ:

إن النبي ﷺ مثله مثل غيره من أنبياء الله ورسله إذ كانت لهم أزواج وكان له أولاد من بنين وبنات وهذا من الكمال لا من النقصان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد ٣٨]، وقال تعالى في خطابه إياه ﷺ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١) [الأنعام ٩٠]. ومن هنا تزوج رسول الله ﷺ ما سبق بيانه من النساء اللائي شرّفهن الله تعالى بصحبة نبيِّه وخليله محمد ﷺ إلا أنه لم يُنجب من نسائه إلا اثنتان، هما خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية، ومارية بنت شمعون القبطية المصرية، فخديجة أنجبت من الذكور: القاسم، وعبدالله، والطيب أو الطاهر، وماتوا صغارًا لم يبلغ الحدثَ

---

(١) «اقتده» زيدت فيه هاء السكت.

منهم أحدٌ، وماتوا ودفنوا بمكة قبل الهجرة، وأنجبت من الإناث زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وكلهن كبرن وتزوّجن. فزينب تزوجت من أبي العاص بن الربيع، ورقية وأم كلثوم تزوجهن عثمانُ بن عفان واحدة بعد واحدة، وتوفاهن الله تعالى عندهُ، وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنجبت الحسن والحسين وهما أصل الأشراف في العالم الإسلامي إلى اليوم وبعد اليوم إذ بارك الله تعالى في نسلهما كرامة الله لآل البيت.

ومارية القبطية أنجبت إبراهيمَ، ومات وهو رضيع لم يُفْطم بعد، ودفن بالبقيع كما دفنت كل من أم كلثوم ورقية بالبقيع، وكذا فاطمة رضي الله عنها.

هؤلاء هم أبناء النبيّ ﷺ وبناته - فعلى جميعهم السلام -.

(جـ) موالي الحبيب ﷺ:

إن المراد من الموالي، أولئك الأرقاء الذين أعتقهم رسول الله ﷺ وشرفوا بخدمته يومًا من الدهر، وهذه قائمة بأسمائهم:

- زيد بن حارثة الكلبي وولده أسامة بن زيد، وهما الحِبّ وابن الحِبّ رضي الله عنهما.
- ثوبان، ويكنى بأبي عبدالله أصابه من السَّراة، سكن حمص بعد وفاة رسول الله ﷺ ومات بها.
- شقران، واسمه صالح، قيل: إنه من الحبشة وقيل: من الفرس، وغالب الظن أنه من الفرس الذين كانوا يسكنون اليمن من بقايا الجيوش التي دخلت اليمن من الفرس في الجاهلية قبل الإسلام كما تقدم بيانه في هذه الرسالة.
- أبورافع، واسمه إبراهيم القبطي كان لآل العباس فأسلم، ووهبه العباس لرسول الله ﷺ فأعتقه وزوجه فأنجب أولادًا وكان ينحت القِداح، وكان كاتبًا، واستكتبه علي رضي الله عنه.
- سلمان الفارسي الأصبهاني كان مملوكًا في آخر أيامه قبل الإسلام ليهودي، فكاتب اليهوديّ، وأعانه رسول الله ﷺ حتى عُتِق.
- سفينة [1] وكان لأم سلمة فأعتقته، واشترطت عليه خدمة رسول الله ﷺ مدة

(١) يسمى سفينة؛ لأنه كان في سفر، فكان الرجل إذا أعيا يرمي عليه درعه أو سيفه، فيحمل ذلك فقال له رسول الله ﷺ: «أنت سفينة» فلقبّ بسفينة.

حياته، فقبل بالشرط ونفّذه، فخدم رسول الله ﷺ وشرف بذلك ويا ليتني كنت أنا وأمي وأولادي خدمًا لرسول الله ﷺ مدة حياته.

• أَنَسَة ويكنى أبا مِشْرح وهو من مولدي السراة، وكان يأذن[1] على رسول الله ﷺ إذا جلس، توفي في حياة أبي بكر رضي الله عنه.

• أبوكبشةَ، واسمه سُلَيم، اشتراه الرسول ﷺ وأعتقه، وشهد بدراً والمشاهد كلها توفي يوم استخلف عمر رضي الله عنه.

• رُوَيْفع، ويكنى أباموبهبة كان من مولدي مزينة، اشتراه النبيّ ﷺ وأعتقه.

• رباح الأسود، وكان يأذن على رسول الله ﷺ في المجلس، وهو الذي أخذ الإذن لعمر حتى دخل على رسول الله ﷺ أيام آلى من نسائه.

• فضالة اليماني نزل الشام.

• مدْعَم، قُتِلَ بوادي القرى بسهم عائر، أي بسهم لا يُعرف من رماه به.

• أبوضُمَيْرةَ، قيل: كان من الفرس، أصابه رسول الله ﷺ في بعض الوقائع وأعتقه.

• يسار، وكان نوبيًّا، أصابه رسول الله ﷺ في بعض غزواته فأعتقه، وهو الذي قتله العرنيون الذين أغاروا على لِقاح النبيّ ﷺ.

• مهران مولاه حَدَّثَ عن النبي ﷺ.

• حُنَين مولى رسول الله ﷺ، وهو جد إبراهيم بن عبدالله بن حنين كان يخدم رسول الله ﷺ ويوضئه، ثم وهبه رسول الله ﷺ لعمه العباس فأعتقه.

• زيد أبويسار رواي حديث[2] : «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب أليه غُفر له، وإن كان فرّ من الزحف».

• كركرة، كان على ثَقَلِ النبيّ ﷺ في بعض غزواته، ومات وهو غالٌّ عباءة فقال النبيّ ﷺ : «هو في النار».

---

(١) بمعنى يستأذن في الدخول لمن أراد أن يدخل على رسول الله ﷺ، وفي الكلام لمن أراد أن يكلمه ﷺ.

(٢) رواه أبوداود، والترمذي ووصفه بالغرابة.

● كيسان رواي حديث: «إنا أهل بيت نُهينا أن نأكل الصدقة». رواه البغوي.

● أبوبكرة نويفع الثقفي، تدلى ببكرة من حصن الطائف، فأعتقه رسول الله ﷺ مع أعبد كانوا معه، وطالبَ أهلُ الطائف بهم بعد إسلامهم، فلم يردهم رسول الله ﷺ إليهم وقال: «هم عتقاء الله».

(د) إماء رسول الله ﷺ:

وكان للحبيب ﷺ إماء كثيرات منهن:

● بركة أم أيمن وأم أسامة بن زيد، فازت بحضانة النبيّ ﷺ مع والدته آمنة، كان قد زارها أبوبكر وعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ فبكت أمامهما فقالا لها: أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى ولكني أبكي؛ لأن الوحي قد انقطع من السماء، فجعلا يبكيان - رضي الله عنهم أجمعين -.

● خولة خادمة[1] رسول الله ﷺ.

● رَضْوى بنت كعب.

● ريحانة بنت شمعون القرظية أو النضريّة.

● سانية مولاة رسول الله ﷺ.

● سلمى أم رافع امرأة أبي رافع.

● ميمونة بنت سعد، روى عنها أصحاب السنة.

● عنقودة أم مليح الحبشيّة جارية عائشة كان اسمها عِنبَة، فسماها رسول الله عنقودة.

● أم عياش، بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته تخدمها حين زوّجها عثمان رضي الله عنه.

● ميمونة بنت أبي عسيب، رواية حديث: «ضعي يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه وقولي: باسم الله، اللهم داوني بداوئك، واشفني بشفائك، وأغنني بفضلك عمن سواك» حيث طلبت دعوة من رسول الله ﷺ يسكن بها قلبها وتطمئن بها نفُسها، فقال لها رسول الله ﷺ: «قولي» الحديث...

(١) ويُقال: خادم وهو أفصح، وخادمة أقرب إلى فهم الناس اليوم.

هؤلاء مواليه، وهم خدمه، أمـا مواليه وخدمه من الأحرار[١] فأفضل الصحابة كأبي بكر الصديق فـقد خدمـه واعتزّ بخـدمته، فلذا من خـدمه من أصحـابه لا يقلون عن عدد الموالي من خدمـه بل هم أكثر[٢]. فَصَلِّ اللهمَّ على نبـيّك وصفيك وخـيرتك من خلقك محمد وعلى آله وصحبه ومواليه ومن آمن به واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

(هـ) كتابه ﷺ:

إن من صفات الكمال المحمدي، الأميّة؛ إذ بها نُعِتَ في الكتب الأولى ومعناها:

أنه لا يقرأ في كـتاب ولا يكتبه، إذ لو كـان كذلك لارتاب المبطلون، فكانت الأمـيةُ صفةَ كمالٍ له دون غيره من سائر الناس.

ومن هنا كان لابد من كُتّاب يكتبـون له ﷺ الوحي النازل إليه من ربّه تعالى، وغيرَ الوحي مما لابد من كتابته، كالوثائق والعهود السياسية وكمراسلة الملوك والرؤساء، لإبلاغ دعوة الله عز وجل. وللحبيب ﷺ كتاب كثيرون هذا طرف منهم:

- أبوبكر الصديق.
- عمر بن الخطاب.
- عثمان بن عفان.
- علي بن أبي طالب.
- خالد بن سعيد.
- أبان بن سعيد.
- العلاء بن الحضرمي.
- أبيّ بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة.
- زيد بن ثابت، وقد أمره أن يتعلم العبرانية[٣] فتعلمها قراءةً وكتابة في نصف شهر لا غير.

(١) من أشهر من خدم رسول الله ﷺ من الأحرار أنس بـن مالك الأنصاري، قال خدمتُ رسول الله ﷺ عشـر سنوات، ما قال لي في شيء فـعلتُه لم فعلتَـه؟ ولا في شيء تركتُه لم تركـتَه؟ وذلك لكمال خُلقه ﷺ.

(٢) اختلف في عدد الصحابة وهم ما بين الستين ألفاً إلى مائة وعشرين ألفاً.

(٣) لغة اليهود الدينية والسياسية.

• عبدالله بن سعد بن أبي السرح، ثم ارتد وعاد إلى الإسلام يوم الفتح وحسن إسلامه.

• حنظلة الأُسَيْدي.

• الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته.

• خالد بن الوليد المخزومي صاحب المواقف البطولية في الجهاد.

• ثابت بن قيس بن شماس.

• عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

• عبدالله بن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي.

• عبدالله بن زيد بن عبدربّه صاحب رؤيا الأذان.

• محمد بن سلمة الأنصاري.

• معاوية بن أبي سفيان، وكان يكتب بين يدي رسول الله ﷺ.

• المغيرة بن شعبة الثقفي راوي حديث المسح على الخفين.

(و) أسماء خيله ﷺ:

إن تسمية الدواب من إنسان وحيوان وغيرهما أمرٌ مقرر في الشرع والعقل، إذ لا نعرف الذات إلا بسمة أي بعلامة تدل عليها، ومن ذلك تسمية الأشياء.

وللحبيب ﷺ خيل يركبها للجهاد عليه لا للفخر والمباهاة؛ إذ ذلك شأن أبناء الدنيا. وأما الحبيب ﷺ فقد كان أرقى البشر فكرًا وأرجحهم عقلاً، وأصفاهم ذهنًا، وأطهرهم روحًا وأزكاهم[1] نفسًا، فكيف يكون للدنيا ابنًا وهي بئست الأم؟! ومن خيول النبي ﷺ التي عرفت بأسمائها ما يلي:

• السَّكْبُ، وهو أول فرس ملكه، وغزا غزوة أحد عليه، وسُمّي بالسكب لأنه كثير الجري.

• مُلاح.

---

(١) لا فرق بين الروح والنفس إلا تلوين العبارة للبيان.

- المُرْتَجز.
- اللحيف، أهداه إليه ربيع بن أبي البراء.
- الظَّرِب، أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامي.
- الورد، أهداه إليه تميم الداري، فوهبه ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- اللزاز، أهداه إليه المقوقس كما أهدى إليه مارية والبغلة «الدُّلْدُل».

(ز) أسماء بغال الحبيب ﷺ:

لقد كان للنبي ﷺ بغلتان: الأولى «الدُّلْدُل». وهي بغلة بيضاء. أهداها إليه المقوقس ملك القبط، وهي أول بغلة رؤيت في الإسلام. والثانية «فضة» أهداها إليه فروة بن عمرو، فوهبها ﷺ إلى أبي بكر الصديق، وكان له حمار واحد يقال له يعفور أو عفير، أهداه إليه المقوقس ملك القبط.

(ح) أسماء إبله ولقاحه ومنائحه ﷺ:

أما الركائب من الإبل، فلم يكن له ﷺ من الإبل سوى القصوى، ويقال لها: العضباء، والجدعى أيضًا أخذها من أبي بكر بأربعمائة درهم. وهاجر عليها من مكة إلى المدينة، وبقيت معه مدة طويلة. وأما اللقاح، فكان له عشرون لقحة ترعى بالغابة، وهي التي أغار عليها العرنيّون، ومنهن: الحسناء، والسمراء، والعريس والسعدية، والبغوم[1]، واليسيرة، والريّا، ومهرة، والشقراء كان يأتي لبنها أهله كل ليلة.

وأما المنائح[2] فقد كان له ﷺ سبع منائح من الغنم، وهي: عجوة، وزمزم، وسقيا، وبركة، وورسة، وأطلال، وأطراف. كما كان له سبع أعنز كان يرعاهن أيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ.

(ط) أسماء سلاح الحبيب ﷺ:

من أشهر سلاحه ﷺ سيفه «ذوالفقار» الذي غنمه يوم بدر، وكان لمنبّه بن الحجاج، وغنم من بني قينقاع ثلاثة أسياف، هي: القلعي، والبتار، والحتف، وكان له

---

(١) البغام: صوت الإبل.

(٢) جمع منيحة: الشاة تعطى لأجل لبنها.

سيف يدعى المخذم وآخر يسمّى رسوب، وكان له بمكة سيفان، قدم بهما المدينة وحمل أحدهما معه إلى بدر وهو القضب.

وأما الرماح والقسيّ، فقد كان له ﷺ ثلاثة رماح، وثلاث قسي إحداها تسمى الروحاء، والثانية البيضاء، والثالثة الصفراء.

وأما الدروع فقد كان له ثلاثة دروع، الأولى تسمى الفضة غنمها من بني قنيقاع، والثانية تسمى ذات الفضول، كانت عليه يوم أحد من الفضة، والثالثة الصعدية. وكان له تُرْسٌ واحد فيه تمثال رأس كبش فكرهه لذلك، فأصبح وقد أذهبه الله تعالى عنه، وكان له قضيب يُسمّى الممشوق.

هذا، ويقول الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى -: نظراً إلى ما صح من قولي عليّ وخبر الصحابة أن النبي ﷺ مات ولم يترك ديناراً ولا درهمًا، وأن درعه مرهونة في ثلاثين صاعًا من شعير أن جميع ما ذكر من العبيد والإماء والحيوان والسلاح قد أنجز التصدق به قبل موته، وهو كذلك، وكيف وقد قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

الخصائص المحمدية

إن للحبيب ﷺ خصائص اختصه الله تعالى بها؛ لكماله الذاتي والروحي لم تكن لغيره من أفراد أمته. وهذا طرف منها:

١ - النبوة: فليس لأحد بعده أن يدعيها، أو أن تكون له بحال؛ لأن الله تعالى ختم بنبوته سائر النبوات، وبرسالته سائر الرسالات قال تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فمن ادعى النبوة معه كمسيلمة الكذاب أو بعده فهو كاذب كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل كفراً.

٢ الوحي: فليس لأحد بعده أو معه أن يدعي أنه أوحي إليه بكذا أو يوحى إليه في كذا لا يقظة ولا منامًا، لا بإلقاء في الروع، ولا بهتاف ملك فضلاً عن رؤية الملك والتلقي عنه، وذلك لانقطاع الوحي بموت النبي ﷺ، ولكمال الشريعة وتمامها، وعدم حاجتها إلى إكمال أو إتمام، فمن ادعى الوحي - وإن قل - فهو كافر يعامل معاملة مدعي النبوة.

٣ - نوم العينين دون القلب: فهذا من خصائصه ﷺ؛ إذ هو الذي تنام عينه ولا ينام قلبه، خصوصية أخبر بها له ﷺ فلم تكن لغيره، فمن ادعاها فهو كاذب مفتر لا تقبل منه دعواه.

٤ - إباحة الله تعالى له نكاح أكثر من أربع زوجات: وعدم إباحة ذلك لغيره من سائر رجالات أمته؛ إذ قال: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وكان تحته تسع نسوة يوم نزلت هذه الآية. هذا له، ولأمته قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] فلم يحل لهم أكثر من أربع، فكانت الزيادة على الأربع من خصائص النبي ﷺ.

٥ - وصال الصيام: إذ من خصائصه ﷺ مواصلة الصوم، فيصوم يومين متتاليين لا يفطر إلا في نهاية اليوم الثاني، ولم يُؤْذَنْ لأحد من أمته في ذلك، وقد قيل له في ذلك فقال: «إني لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» رواه الشيخان. والإطعام والسقي هنا معنويان على حد قوله في المريض: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم».

٦ - حرمة أكل الصدقة: ويشاركه في هذه الخصوصية آل بيته دون سائر أفراد أمته؛ فإنه يحل لأي فقير ومحتاج أن يأكل الصدقة ويطلبها إن احتاج إليها إلا رسول الله ﷺ وآل بيته.

٧ - قيام الليل: فإنه ﷺ كان يقوم الليل على سبيل الوجوب؛ لقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٢] وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] بخلاف أفراد أمته، فقيام الليل ليس واجبًا على أحد منهم، وإنما يقومونه تطوعًا ونافلة لا غير.

٨ - عدم إرثه ﷺ: فما تركه كان صدقة، فلم ترث فاطمة نصفها، ولا أزواجه أمهات المؤمنين ثُمُنَهُنَّ، ولا العباس العاصب ما أبقت الفرائض، بل قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] فليس المراد منه إرث المال بل النبوة والملك؛ إذ لا يخبر تعالى - في مقام الإنعام والتكريم - بأن ولدًا ورث والدًا فيما ترك من مال إن هذا أمر معلوم بين سائر الناس، ولا فضل فيه لأحد على آخر.

٩ - هبة النكاح: وهي من خصائصه ﷺ فأيما امرأة وهبت نفسها للنبي ﷺ له أن يتزوجها بدون مهر يقدمه لها، ولم يكن هذا لأحد من أفراد أمته قط، إذ لابد للنكاح من مهر معجلاً أو مؤجلاً، إلا ما كان لرسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. ومن لم تهب له نفسها، فعليه أن يدفع لها مهراً، وقد أمهر الكثير من نسائه أربعمائة درهم.

١٠ - حرمة نكاح نسائه بعده: وليس هذا لأحد سواه قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فلا يحل لمؤمن أنْ يتزوج امرأة من نساء النبي اللاتي توفى عنهن، بخلاف أفراد أمته من علماء وصلحاء - وكلُّهم أولياء، فلا يحل لأحدهم أن يمنع امرأته من الزواج بعده إلا أن تشاء هي ذلك، فلها ما شاءت ما شاء الله تعالى لها ذلك.

المعجزات المحمدية

إن المراد من المعجزات: ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فيكون ما يأتي به النبيّ مُعجزًا لغيره من سائر الناس، بحيث لم يقدروا عليه أفرادًا أو جماعات، لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم، إن قُرن بالتحدي كان المعجزة الخاصة بالأنبياء، وإن لم يُقرن بتحدٍّ فهو كرامة يكرم الله تعالى بها من يشاء من أوليائه وصالحي عباده، إذ الفرق بين المعجزة والكرامة: أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي غالبًا، والكرامة خالية من ذلك؛ لأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: «صدقوا النبي فيما يخبر به عني»، فالمعجزة مثبتة للنبوة مُقررة لها؛ إذ بها يُعرف النبي الحق من المدعي الكاذب.

ولفظ المعجزة غير وارد في القرآن الكريم، وإنما الوارد لفظ «الآية»؛ لأن الأصل في «الآية» العلامة الدالة على الشيء، إذ يقول الإنسان لأخيه: فلان يقول لك: أعطني كذا أو كذا، فيقول له: ما آية ذلك؟ أي ما علامته أنه قال: أعطه كذا وكذا؟ فيريه خاتمه، أو كتابه، أو سيفه، أو أي شيء خاص به فيكون ذلك آية وعلامة على صدق ما ادعاه وطالب به.

ومن القول الشائع عند الناس قولهم: «لا نبي إلا بالمعجزات، ولا ولي إلا

بالكرامات؛ وهو قول في - الجملة - صحيح.

هذا، وللحبيب محمد ﷺ معجزات أكرمه الله بها، وصدق رسالته بمثلها بلغت ألف المعجزة، هكذا قرر أهل العلم إن لم تكن أكثر من ذلك وها نحن أولاء نورد ما يحضرنا منها:

وأولى تلك المعجزات أو الآيات:

القرآن الكريم

لأنه كلام الله تعالى أوحاه إليه، فدل ذلك على نبوته، وصدقه في رسالته؛ لأن القرآن الكريم معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه، ومعانيه، وأخبار الغيوب التي وردت فيه، فكانت كما أخبر، كما هو معجز بالأحكام الشرعية والقضايا العقلية التي لا قبل للبشر بمثلها، مع التحدي القائم إلى اليوم بأن يأتي الإنس أو الجنُّ - متعاونين - بمثله قال تعالى مُوحيه ومنزِلَهُ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]، وتحدى العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان على أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا؛ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[هود: ١٣] وتحداهم بسورة واحدة من مثله فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾[البقرة: ٢٣، ٢٤] نفيًا لقدرتهم على الإتيان بسورة مثل القرآن في مستقبل الأيام، وقد مضى حتى الآن ألف وأربعمائة واثنان وعشرون سنة، ولم يستطع الكافرون أن يأتوا بسورة من مثله.

وبهذا كان القرآن معجزة خالدة باقية ببقاء هذه الحياة، ولذا سيخلد الإسلام ويبقى إلى نهاية الحياة، لأن معجزته باقية كذلك.

وثانية المعجزات:

انشقاق القمر

فقد روى أحمد، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية، فأراهم القمر شقين. قال مطعم: انشق القمر على عهد رسول الله

ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، وأنزل الله تعالى مصداق ذلك وهو قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ١ - ٣].

وثالثة المعجزات:

نزول المطر بدعائه

لقد أمحلت البلاد، وأصابها قحط شديد، فدخل[(١)] رجل المسجد - ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب - فاستقبل الرجلُ النبي ﷺ وقال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله لنا يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «**اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا**» قال أنس: والله ما في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء، وما بيننا وبين سَلْع[(٢)] من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، والله ما رأينا الشمس ستًّا. ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة - ورسول الله ﷺ قائم يخطب - فاستقبله الرجل، وقال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، ادع الله يُمسكها، فرفع رسول الله ﷺ يديه، وقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام[(٣)] والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**». قال أنس: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس.

فهذه المعجزة - وهي نزول المطر بدعائه ﷺ - قد كررت مرات عديدة، وهي معجزة سماوية كانشقاق القمر لا دخل لغير القدرة الإلهية فيها، وهي آية نبوته ﷺ ولكثرة تكرار هذه الآية كانوا يرددون قول أبي طالب:

وأبيض[(٤)] يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

---

(١) رواه البخاري وغيره.
(٢) جبل داخل المدينة النبوية اليوم.
(٣) جمع أكمة: تل صغير أو كدية من تراب.
(٤) أي رسول الله ﷺ.

ورابعة المعجزات:

نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ

ومن معجزات الحبيب ﷺ الدالة على نبوته وصدق رسالته: نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة، فقد قال أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناسُ الوَضوء[1]، فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوَضوء، فوضع رسول الله ﷺ يَدَهُ في ذلك الإناء، وأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى يتوضئوا من عند آخرهم. قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال زهاء ثلثمائة رجل.

فهذه معجزة ظاهرة؛ إذ ليس في طوق البشر أن يأتوا بمثلها؛ إذ لم يَجْرِ سنة الله في الكون أن الماء ينبع من بين أصابع الإنسان مهما كان إلا أن تكون آية تدل على صدق نبوة من ادعاها، فقد كانت هذه آية نبوته ﷺ، إذ وقعت في سوق المدينة العاصمة وحضرها وشهدها قرابة ثلثمائة الرجل من أصدق الرجال وأذكاهم، وأتقاهم.

وخامسة المعجزات:

فيضان ماء بئر الحديبية[2]

ومن معجزاته ﷺ أنه لما كان بالحديبية - هو وأصحابه - سنة ست من الهجرة وكان الحديبية بئر ماء فنزحها أصحابه بالسقي منها حتى لم يَبْقَ فيها ما يملأ كأس ماء، وكانوا ألفًا وأربعمائة رجل، وخافوا العطش، فشكوا ذلك إليه ﷺ فجاء يجلس على حافة البئر، فدعا بماء، فجيء به إليه فتمضمض منه، ومَجَّ ما تمضمض به في البئر فما هي إلا لحظات، وإذا البئر فيها الماء، فأخذوا يسقون فسقوا وملئوا أوانيهم وأدوات حمل الماء عندهم وهم - كما تقدم - ألف وأبعمائة رجل، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم، وأنزل فيهم قوله تعالى من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] فقيضان

(١) الوضوء بفتح الواو الماء يتوضأ به.

(٢) مكان يبعد عن مكة بنحو عشرين ميلاً.

الماء من بئر جافة لا ماء بها حتى سقي منها أهلها معسكر بكامله لم يكن إلا آية نبوية صادقة، تنطق قائلة: أنْ صدِّقوا محمدًا فيما جاءكم به ودعاكم إليه؛ فإنه رسول الله ﷺ إليكم حقًّا وصدقًا.

وسادسة المعجزات:

قدح لبن روى فئامًا من الناس ببركته ﷺ

روى البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه القصة التالية: قال: والله، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشُدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبوبكر فسألته عن آية من كتاب الله عز جل ما سألته إلا ليستبعني[1] فلم يفعل، فمر عمر رضي الله عنه فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليستبعني. فلم يفعل، فمر أبوالقاسم ﷺ فعرف ما في وجهي، وما في نفسي فقال: «أباهريرة» قلت له: لبيك يا رسول الله ﷺ فقال: «الحَقْ» واستأذنت فأذن لي، فوجدت لبنًا في قدح، قال: «من أين لكم هذا اللبن؟» فقالوا: أهداه لنا فلان - أو آل فلان - قال: «أباهرٌ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «انطلق إلى أهل الصُفَّة فادعهم لي» قال - أي أبوهريرة -: وأهلُ الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل، ولا مال؛ إذا جاءت رسول الله ﷺ هديةٌ أصاب منها وبعث إليهم منها، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم، ولم يُصب منها. قال أبوهريرة: وأحزنني ذلك؛ وكنت أرجوا أن أصيب من اللبن شربة أتقوّى بها بقية يومي وليلتي، وقلت: أنا الرسول!! فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم، وقلت: ما يبقى لي من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله ورسوله بدٌّ فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: «يا أباهريرة خُذ فأعطهم» فأخذت القدح، فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعتُ إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة، ثم رفع رأسه ونظر إليّ وابتسم، وقال: «أباهريرة»، فقلت: لبيك رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت» فقلت: صدقت يا رسول الله.

---

(١) يستتبعني: يطلب مني أن أتبعه.

قال: «فاقعد فاشرب» قال: فقعدت فشربت، ثم قال لي: «اشرب» فشربت فما زال يقول لي: «اشرب»، فأشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له فيّ مسلكًا، قال: «ناولني القدح» فرددته إليه فشرب من الفضلة.

وهكذا تتجلي هذه المعجزة - وهي آية النبوة المحمدية؛ إذ قدَحُ لبن لا يُروى ولا يشبع جماعة من الناس - كلُّهم جياعٌ - بحال من الأحوال، فكيف أرواهم وأشبعهم؟ إنها المعجزة النبوية! وآية أخرى للكمال المحمدي أن يكون ﷺ هو آخر من يشرب من ذلك القدح الذي شرب منه جماعة من الناس.

وهنا يقال: ما بال الذين يتقززون من شرب السؤر ويرفضونه في كبرياء - وخوف أيضًا - أن يصابوا بمرض من ذلك؟ أين هم من هذا الكمال المحمدي؟ إنهم بعيدون كلَّ البعد، ذاهبون في أودية الأوهام حيث لا يسمعون ولا يبصرون.

وسابعة المعجزات:

امتلاء عكة سمن بعد فراغها

روى الحافظ أبويعلى عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أنه قال: كانت لأمي أم سليم شاة، فَجَمَعَت من سمنها في عكة، فملأت العكة، ثم بعثت بها ربيبة فقالت: يا ربيبة أبلغي هذه العكة رسول الله ﷺ يأتدم بها، فانطلقت بها ربيبة حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أمُّ سليم قال: «أفرغوا لها عكتها». فَأُفْرِغَت العكة ودُفِعَتْ إليها قالت: فانطلقت بها، وجئت - وأمُّ سليم ليست في البيت - فعلقت العكة على وتد، فجاءت أم سليم فرأت العكة ممتلئة تقطر، فقالت: يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى قد فعلتُ، فإن لم تصدقيني فانطلقي فسلي رسول الله ﷺ، فانطلقت ومعها ربيبة، فقالت يا رسول الله! إني بعثت معها إليك بعكة من سمن قال: «قد فعلت قد جاءت» قالت: والذي بعثك بالحق، ودين الحق: إنها لممتلئة تقطر سمنًا. قال أنس: فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم أتعجَبين إن كان الله أطعمك كما أطعم نبيه، كلي وأطعمي» قالت: فجئت إلى البيت، فقسمت في قعب لنا، كذا أو كذا وتركت فيها ما ائتدمنا به شهرًا أو شهرين.

فهذه إحدى المعجزات المحمدية؛ إذ ليس مما جرت به سنة الله في الخلق أن يمتلئ الإناء سمنًا بعد إفراغه منه، ويرى ذلك رأي العين وينتفع به.

وثامنة المعجزات:

الطعام القليل يشبع العدد الكثير

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: قال أبوطلحة لأم سليم: لقد سمعتُ صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلك أبوطلحة؟» فقلت: نعم، قال: «بطعام؟» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا» فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أباطلحة فأخبرته فقال أبوطلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس ليس عندنا ما نُطعمهم فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبوطلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبوطلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلم يا أم سليم ما عندك؟» فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ فَفُتَّ، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأكل القوم كلهم، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً.

أليست هذه من أعظم المعجزات؟ بلى وربِّي إنها لمن أعظم المعجزات؛ إن أقراصًا عدة حملها غلام تحت إبطه يَطْعَم منها ثمانون رجلاً، ويشبع كل واحد منهم شِبعًا لا مزيد عليه، إن لم تكن هذه معجزة فما هي المعجزات إذًا يا ترى؟

❊ ❊ ❊

وتاسعة المعجزات:

تكثير الطعام

إن معجزة تكثير الطعام والشراب قد تكررت فبلغت عشرات المرات، وفي ظروف مختلفة، ومناسبات عديدة، منها ما تقدم، ومنها هذه. فقد قال أبوهريرة رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها - وهي غزوة تبوك - فأرمل[1] فيها المسلمون، واحتاجوا إلى الطعام فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل، فأذن لهم، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إبلهم تحملهم وتبلغهم عدوهم ينحرونها؟ ادع يا رسول الله بغبّرات[2] الزاد، فادعُ الله عز وجل فيها بالبركة، قال: «أجل» فدعا بغبّرات الزاد، فجاء الناس بما بقي معهم، فجُمعت ثم دعا الله عز وجل فيها بالبركة ودعاهم بأوعيتهم فملئوها وفضل كثيرٌ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبدالله ورسوله، ومن لقي الله عز وجل بها غير شاك دخل الجنة».

فهذه معجزات ظاهرة في تكثير الطعام القليل حتى أصبح كثيراً وهي - كما قدمنا - واحدة من عشرات المعجزات في تكثير الطعام والشراب.

وعاشرة المعجزات:

توفية دين جابر الذي استغرق كل ماله

فقد روى البخاري - رحمه الله تعالى - في دلائل النبوة المحمدية قصة جابر الآتية:

فقال: حدثنا أبونعيم - وساق السند إلى جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما فقال: إن أبي توفيَ وعليه دين، فأتيت النبي ﷺ فقلت: إن أبي ترك ديناً، وليس عندي إلا ما يخرج نخله، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه، فانطلق معي لكيلا يفحش عليَّ الغرماء، فمشى حول بيدر[3] من بيادر التمر فدعا، ثم آخر، ثم جلس عليه فقال: «انزعوه» فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم، وهكذا بعد أن كان الدين قد استغرق

---

(١) نفد زادهم واحتاجوا إلى الطعام.

(٢) غبرات الزاد: بقاياه.

(٣) الموضع الذي يجمع فيه التمر.

كل التمر ولسنين عدة أيضًا، وفّى التمر الموجود كل الديون، وبقي التمر في البيادر مثل ما سددت به الديون الكثيرة، وذلك ببركة وجود الرسول ﷺ بين البيادر ودعائه بالبركة فيها، فباركها الله عز وجل فوفت الديون وزادت. فكانت آية النبوة والمعجزة الظاهرة التي يبعث بها الأنبياء، ويكرم الله تعالى بها الأولياء متى شاء وهو على كل شيء قدير.

وحادية عشر المعجزات:

انقياد الشجر له ﷺ

روى مسلم بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح[1]، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فأتبعته بإداوة فيها ماء، فنظر فلم يرَ شيئًا يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق إلى إحداهما، فأخذ ببعض من أغصانها وقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش[2] الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعضًا من أغصانها وقال: «انقادي علي بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يُصانع قائده حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما لاءم بينهما - أي جمعهما - وقال: «التئما علي بإذن الله» فالتأمتا، قال جابر: فخرجت أحضر[3]؛ مخافة أن يحس بقربي منه فيبعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني التفاتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلٌ، وإذا الشجرتان قد افترقتا، وقامت كل واحدة منهما على ساق؛ إلى آخر الحديث...

فهذه إحدى المعجزات الخارقة للعادة التي لا تكون إلا لنبي من الأنبياء - عليهم السلام -؛ إذ كون الشجرة تستجيب وتنقاد مطيعة لأمر رسول الله ﷺ، هو أمر خارق للعادة لم تَجْرِ به سنن الله تعالى في الكون، وبذا كانت معجزة للحبيب ﷺ.

* * *

(١) أي واسعًا رحبًا.
(٢) الذي جعل في أنفه الخشاش، وهو العود يجعل في عظم أنف الجمل لينقاد.
(٣) أي أعْدُو بشدّة.

وثانية عشرة المعجزات:

حنين الجذع شوقا إليه ﷺ

فقد روى أحمد - رحمه الله - عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - وكان لها غلام نجار -: يا رسول الله! إن لي غلامًا نجارًا، أفآمره أن يتخذ لك منبرًا تخطب عليه؟ قال: «بلى»، فاتخذ له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة خطب ﷺ على المنبر، فأنَّ الجذعُ الذي كان يقوم عليه كما يئن الصبي، فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر». وفي رواية البخاري: فصاحت النجلة «جذع النخلة» صياح الصبي، ثم نزل ﷺ فضمه إليه، يئنُّ أنين الصبي الذي يسكن، قال: «كانت تبكي» النخلة على ما كانت تسمع من الذكر عندها. فحنين الجذع شوقًا إلى سماع الذكر وتألمًا لفراق الحبيب الذي كان يخطب إليه واقفًا عليه - وهو جماد لا روح له ولا عقل في ظاهر الأمر، وحسب علم الناس بالجمادات - آية من أعظم الآيات الدالة على نبوة الحبيب ﷺ وصدق رسالته وهي معجزة كبرى على مثلها آمن البشر لعجزهم على الإتيان بمثلها.

وثالثة عشرة المعجزات:

تسبيح الحصى في يديه وسلام الشجر عليه

روى الحافظ أبوبكر البيهقي - رحمه الله تعالى - عن سويد بن يزيد السُّلمي قال: سمعت أباذر الغفاري رضي الله عنه يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته، وبيَّنَ ذلك الخبر الذي رآه فقال: كنت رجلاً أتَّبع خلوات رسول الله ﷺ، فرأيته يومًا جالسًا وحده، فاغتنمت خلوته، فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبوبكر فسلم عليه، ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ فجاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر، وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، فأخذهن في كفه، فسبَّحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل[1] ثم وضعهن فخرسن - أي سكتن - ثم

(١) أي جذع النخل الذي حَنَّ؛ حزنًا على فراق الرسول ﷺ والذكر الذي يسمعه من الرسول وهو يخطب فوقه.

أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر، فسبّحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبّحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، فقال النبي ﷺ: «**هذه خلافة النبوة**».

فهذه المعجزة ذات شطرين، الأول: تسبيح الحصى في أيدي الراشدين، والثاني: الخلافة فعلاً قد انحصرت في الصديق والفاروق وذي النورين، ثم اضطربت.

ورابعة عشر المعجزات:

سلام الحجر عليه ﷺ

فقد روى مسلم بسنده عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»، فسلام الحجر - وهو جماد - أمر خارق للعادة، معجزة للبشر أن يأتوا بمثله، فلذا هو آية النبوة المحمدية ومعجزة من معجزات الحبيب ﷺ.

وخامسة عشرة المعجزات:

سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه

روى النسائي وأحمد بسنديهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون[1] عليه، وأنه استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره[2]، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا**» فقاموا فدخل الحائط[3]. والجمل في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقال الأنصار: إنه صار مثل الكلب[4]، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «**ليس عليّ منه بأس**»، فلما نظر الجمل

(١) يستخرجون الماء من البئر بالسنى عليه.
(٢) أي منعهم من استخدامه في السنى عليه.
(٣) البستان وقيل فيه: حائط، لأنه محاط بالجدران.
(٤) أي الذي به داء الكَلَب.

إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا رسول الله! هذه بهيمةٌ لا تعقل تسجد لك، ونحن أحق أن نسجد لك، فقال: «**لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**».

كما روى مسلم أن النبي ﷺ دخل يومًا مع بعض أصحابه حائطًا من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فَسَكَنَ، فقال ﷺ: «**مَنْ صاحبُ الجمل؟**» فجاء فتى من الأنصار، قال: هو لي يا رسول الله. فقال له ﷺ: «**أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكها الله لك إنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه**» أي تواصل العمل عليه بدون انقطاع.

أليست هذه آية من آيات النبوة ومعجزة من عظيم معجزاتها؟ بلى. ولذا كان الكفر بنبوة محمد ﷺ من أقبح الكفر وأسوئه، ولا يكون إلا من جهل كامل، أو حسد قاتل، أو خوف فوات منافع مادية طائلة، كما كان شأن الجهال من الأمم والشعوب وحسد اليهود، وخوف رجال الكنيسة من زوال سلطانهم الروحي، وما يترتب عليه من فقدانهم المال والرئاسة الروحية على الشعوب المسيحية.

وسادسة عشرة المعجزات:

شهادة الذئب برسالته ﷺ

فقد روى أحمد - رحمه الله تعالى - في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدَا الذئب على شاة فأخذها، فطلبها الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذَنَبه فقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقًا ساقه الله إلي، فقال: يا عجبي!! ذئبٌ يكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد بشرٌ يخبر الناسَ بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر النبي ﷺ فنُوديَ «الصلاة جامعة»، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**».

فهذه آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته بكلا شطريها: الأول: الذي فيه كلام الذئب للراعي، والثاني: الذي في إخبار بغيب لم يكن فكان اليوم، فعذبة السوط ظاهرة في تلفون الشرط، وتكليم الفخذ وشراك النعل ظاهرة كذلك في آلات التسجيل الصغيرة التي يستعملها رجال المخابرات بمهارة خاصة.

وسابعة عشرة المعجزات:

توقير الوحش له ﷺ واحترامه

فقد روى أحمد بسنده عن مجاهد قال: قالت عائشة رضي الله عنها: كان لآل رسول الله ﷺ وَحْش[1]، فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يترمرم - أي لم يتحرك - ما دام رسول الله ﷺ في البيت كراهية أن يؤذيه (بحركاته).

فكون الحيوان الوحشي يسكن فلا يتحرك مدة ما هو ﷺ في البيت، وإذا خرج لعب فأقبل وأدبر - كعادة الحيوان في ذلك - آيةٌ من آيات النبوة المحمدية ومعجزة؛ إذ مثل هذا لا يقع لغير النبي ﷺ. وإن قال قائل: إن الإنسان في إماكنه تربية الحيوان على سلوك معين، قلنا: هناك فرق بين التربية وبين عدمها، فالرسول ﷺ ما كان ربّى هذا الحيوان ولا كان له به أدنى صلة، وإنما الحيوان أُلهِمَ احترام النبي ﷺ وتوقيره، فكان إذا أحس بدخول الرسول البيت: سكن وربض وترك الترمرم، وإذا خرج ﷺ من البيت لعب فأقبل وأدبر حسب فطرته التي فطره الله تعالى عليها، فكان سلوكه الخاص آية من آيات النبوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية والتسليم.

وثامنة عشرة المعجزات:

احترام الأسد لمولاه ﷺ

فقد روى عبدالرزاق صاحب المصنف، أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أُسر في أرض الروم، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش، فإذا هو بأسدٍ

(١) حيوان بري غير مستأنس.

فقال له: يا أبا الحارث «كنية الأسد» إني مولى رسول الله ﷺ ددن من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد يبصبصه حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوته أهوى إليه، ثم قام يمشي إلى جنبه فلم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش، ثم همهم ساعة، قال: فرأيت أنه يودع، ثم رجع عني وتركني.

فهذه وإن كانت كرامة لسفينة مولى رسول الله، فإنها معجزة نبوية؛ إذ الأسد ألان جانبه ورق لسفينة وماشاه حتى وصل به إلى الجيش بعد أن قال له: يا أباالحارث إني فلان مولى رسول الله ﷺ، فكان ما فعله الأسد من احترام سفينة من أجل رسول الله ﷺ، فلذا عدت هذه من المعجزات المحمدية.

وتاسعة عشرة المعجزات:

نطق الغزالة ووفاؤها له ﷺ

فقد روى أبونعيم الأصبهاني في كتابه «دلائل النبوة» قصة الغزالة هذه، فقال: عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مرَّ النبي ﷺ على قوم قد اصطادوا ظبية، فشدوها على عمود فسطاط، فقالت: يا رسول الله إني أخذت ولي خشفان[1]، فاستأذن لي أرضعهما وأعود إليهم، فقال النبي ﷺ: «أين صاحب هذا؟» فقال القوم: نحن يا رسول الله، قال: «خلوا عنها حتى تأتي خشفيها ترضعهما وترجع إليكم» فقالوا: مَنْ لنا بذلك؟ قال: «أنا»، فأطلقوها فذهبت فأرضعت خشفيها ثم رجعت إليهم، فأوثقوها فَمَرَّ بهم رسول الله ﷺ فقال: «أين صاحب هذه؟» فقالوا: هذا يا رسول الله، فقال: «تبيعونيها؟» فقالوا: هي لك يا رسول الله، فقال: فخلوا عنها؛ فأطلقوها فذهبت.

فنطق الغزالة ووفائها له ﷺ آيةٌ من آيات النبوة المحمدية ومعجزة من معجزاته الموجبة للإيمان به وطاعته ومحبته ﷺ.

* * *

(١) الخشف ولد الغزال الصغير.

المعجزة الموفية عشرين:

خروج الجن من الصبي بدعائه ﷺ

فقد قال أحمد - رحمه الله تعالى - وساق سنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن به لَمًا، وإنه يأخذه عند طعامنا فيُفْسد علينا طعامَنا، قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له، فَثَعَّ[1] ثَعَّة، فخرج منه مثلُ الجرو الأسود يسعى.

فهذه إحدى الآيات النبوية، إذ بمسحه ﷺ بيده على صدر الصبيّ المصاب والدعاء له: خرج الجنُّ منه، وشفي فلم يَرَ بأسًا بعد ذلك.

المعجزة الحادية والعشرون:

شفاء الضرير بدعائه ﷺ

فقد روى أحمد بسنده عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً ضريرًا أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يعافيني فقال: **«إن شئتَ أخرتُ ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئتَ دعوتُ لك»** قال: لا، بل ادع الله لي، قال: فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: **«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيِّك محمد نبيّ الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك في حاجتي هذا فتقضي، اللهم شفِّعْه فيّ»** ففعل الرجل فبرأ.

فشفاء هذا الضرير بعودة بصره إليه، بسؤال الله تعالى له، وبما علّمه من صلاة ودعاء آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته ﷺ وآله وصحبه وسلم.

المعجزة الثانية والعشرون:

شفاء عليّ رضي الله عنه بتفاله ﷺ

ففي الصحيح قال ﷺ في غزوة خيبر: **«لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يده»**، فلما أصبحوا نادى عليًّا فقالوا: مريض يا رسول الله يشكو عينيه. فقال: **«ائتوني به»** فأتي به، فنفث في عينه بقليل من ريقه ﷺ فبرأ لِتَوِّه

---

(١) ثعَّ: قاء أو سعل مرة واحدة.

ولم يمرض بعينه بعد قط.

فكانت آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته وصدق رسالته ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

المعجزة الثالثة والعشرون:

ردّ عين قتادة بعد تدليها

إذ في أُحُد أصيب قتادة بن النعمان في عينه حتى سقطت وتدلت على وجنته[1] فردها ﷺ بيده الشريفة فبرئتْ على الفور، وكانت أحسن منها قبل.

فهذه معجزة، إذ ليس في استطاعة أي طبيب أو غيره أن يرد عينًا سقطت بضربة حتى تدلت على الوجنة فتبرأ لتوِّها، وتكون أحسن منها قبل إصابتها وسقوطها.

المعجزة الرابعة والعشرون:

شفاء الصبي بفضل سؤره ﷺ

روى ابن أبي شيبة أن امرأة من خثعم أتت النبي ﷺ بصبيٍّ به بلاء لا يتكلم. فأتى النبيُّ ﷺ فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسحه به، ففعلت فبرئَ الولد وعقل عقلاً يفضل به عقول الناس، فهذه آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة ظاهرة التي لا يقدر عليها البشر.

المعجزة الخامسة والعشرون:

تحول جذل[2] الحطب سيفًا

لقد انكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر فأعطاه النبي ﷺ جذل حطب فقال له: «اضربْ به» فانقلب في يده سيفًا صارمًا طويلاً أبيض شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد عكاشة في قتال أهل الردة. فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة خارقة للعادة مقررة لنبوته ورسالته ﷺ وآله وصحبه وسلم.

---

(١) الوجنة: أعلى الخد وهما وجنتان يمنى ويسرى.

(٢) الجذل: عود غليظ من أصل الشجرة والحطب: ما يبس من أغصان الشجر.

المعجزة السادسة والعشرون:

صدق إخباره بالغيب ﷺ

فقد روى أبوداود بسنده عن أم ورقة بنت نوفل، أن رسول الله ﷺ لما غزا بدراً قالت له: يا رسول الله! ائذن لي في الغزو معك أُمَرِّض مرضاكم؛ لعل الله يرزقني بالشهادة، فقال لها: «قَرّي في بيتك؛ فإن الله يرزقك الشهادة»، فكانت تسمى الشهيدة، وكانت قد قرأت القرآن، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في بيتها مؤذنًا يؤذن لها، وكانت قد دبّرت غلامًا لها وجارية، فقاما إليها بالليل فغمّاها في قطيفة لها حتى ماتت، وذهبا، فأصبح عمر فطلبهما فجيء بهما فصلبهما عمر رضي الله عنه فكان أول من صلب بالمدينة.

فهذا إخبار بغيب، فكان كما أخبر ﷺ، فكان آية نبوته ﷺ ومعجزة من معجزاته فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

ومن آيات النبوة والمعجزات المحمدية صدق أخباره الغيبيّة الآتية:

أول خبر: قوله ﷺ في الحسن رضي الله عنه: **«إن ابني هذا سيد، وسيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين»**. فكان الأمر كما أخبرَ ﷺ فقد أصلح به بين من كان مع الحسن وبين من كان مع معاوية - رضي الله عنهم أجمعين -.

وثاني خبر: قوله ﷺ: **«اثبتْ[1] أحُدُ، فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيق وشهيدان»**، فكان كما أخبر ﷺ، فمات أبوبكر بمرض أصابه، وقتل عمر في المحراب شهيدًا، وقتل عثمان في داره شهيدًا، - فرضي الله عنهم أجمعين -.

وثالث خبر: قوله ﷺ لسراقة بن مالك - وقد خرج في ملاحقته ﷺ يوم هجرته حيث أعطت قريش جوائز لمن يأتيها بمحمد ﷺ - قال له: وقد ساخت قوائم فرسه في الأرض مرتين قال له: **«كيف بك إذا ألبستَ سواريْ كسرى»**. فلما أتي بهما عمر رضي الله عنه ألبسهما إياه، وقال: «الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة»، فهذا غيب محض، وقد تم كما أخبر به ﷺ، فكان آية نبوّته ومعجزتها التي لا يقدر عليه أحد من عباد الله إلا نبيّ أوتي المعجزات.

---

(١) لأنهم لما صعدوا عليه رجف بهم.

ورابع خبر: قوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة» وقد وقع هذا كما أخبر، فقد اقتتل عليّ ومعاوية رضي الله عنهما بجيشهما في صِفِّين، ودعواهما واحدة. فكان ما أخبر به ﷺ كما أخبر فهي آية نبوّته ﷺ ومعجزته التي على مثلها آمن البشر.

وخامس خبر: قوله ﷺ : «إن هذا قبر أبي رِغال، وإن معه غصنًا من ذهب؟». فحفروه فوجدوه كما أخبرَ ﷺ . وذلك حين كان ذاهبًا إلى الطائف، فكان هذا الخبر آية نبوّته ﷺ ، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوّته.

وسادس خبر: قوله ﷺ لخباب بن الأرت - وقد جاء يشكو إليه ما يلقى المؤمنون من كفار قريش ويطلب منه أن يستنصر الله تعالى لهم - قال له، وقد احمرَّ وجهه ﷺ أو تغير لونه: «لقد كان من قبلكم تحفر له الحفرة، ويُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه»، وقد تم هذا كما أخبر ﷺ ، فكان آية نبوته ومعجزتها التي لا يقدر عليها أحد إلا الله جل جلاله، وعظم سلطانه.

وسابع خبر: قوله ﷺ : «منعت العراق درهَمَها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر أردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم».

فهذا الخبر قد وقع كما أخبر النبي ﷺ ؛ فقد منعت العراق، ومنعت الشام، ومنعت مصر ما كانوا يؤدونه إلى أهل الحجاز من خراج وغيره، وعاد أهل الحجاز كما بدءوا فمسّهم الجوع، ونالهم التعب بعد ما أصابهم من رغد العيش وسعة الرزق. فكان هذه آية النبوة المحمدية ومعجزة على مثلها آمن البشر.

وثامن خبر: قوله ﷺ : «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله ملكه من يشاء». فهذا الخبر من أنباء الغيب؛ إذ كانت خلافة أبي بكر سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليالٍ، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة إلا اثنى عشر يومًا، وكانت خلافة علي خمس سنوات إلا شهرين وتكميل الثلاثين كان بخلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما، إذ كانت نحوًا من ستة أشهر، ثم نزل عليها لمعاوية عام أربعين من الهجرة. ومصداق هذا في قوله ﷺ : «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين». فهذان الخبران من دلائل نبوته ﷺ .

وتاسع خبر: قوله ﷺ في عثمان ؓ: «افتح له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه».

وذلك في الحديث الصحيح ونصه: إن النبي ﷺ دخل حائطًا «بستانًا» فدلّى رجليه في القفّ(١) فقال أبوموسى وكان معه: لأكوننّ اليوم بواب رسول الله ﷺ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال: افتح، فقلت من أنت؟ قال أبوبكر، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: «افتح له وبشره بالجنة» ثم جاء عمر، فقال كذلك، ثم جاء عثمان فقال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه». فهذا الخبر من أنباء الغيب الدالة على نبوّته ﷺ.

وعاشر خبر: قوله ﷺ لفاطمة ؓ: «إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرّة، وإنه عارضني العام مرتين، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي». فبكت ثم سارّها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وأنها أول أهله لحوقًا به. فكان كما أخبر إذ ماتت بعده بستة أشهر، ولم يَمُتْ قبلها من آل البيت أحد، فكان هذا الخبر آية نبوّته ﷺ.

وحادي عشر خبر: قوله ﷺ لنسائه: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب».

وكان ذلك كما أخبر، فقد خرجت عائشة ؓ تريد الصلح بين علي ومعاوية ؓ في وقعة الجمل، فلما بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلابُ، فقالت ؓ: أي ماء هذا؟ فقالوا: ماء الحوأب، فقالت: ما أظنني إلا راجعة. فقال بعضُ مَنْ كان معها: بل تقدمين، فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم. قالت: إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب». فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر به قبل وقعه بكذا سنة، فكان كما أخبر فهو إذًا آية النبوّة، ومعجزة الحبيب ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

وثاني عشر خبر: قله ﷺ في حديث أحمد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ حين ولّى غزوة العشيرة: «يا أباتراب ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه - يعني قرنه - حتى يبل - أي بالدم - هذه» أي لحيته. فكان كما أخبر؛ ﷺ فقد ضرب عبدالرحمن بن ملجم أحد الخوارج عليًّا بالكوفة، فقتله على نحو ما أخبر به ﷺ فكان هذا من دلائل نبوّته ﷺ، ومن معجزاته التي رافقت حياته ﷺ.

(١) القف: الدكة تجعل حول البئر يجلس عليها وتدلي الأرجل في الماء المستخرج من البئر.

وثالث عشر خبر: قوله ﷺ: «سيكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، فكان كما أخبر ﷺ، فقد حدث أبوهريرة رضي الله عنه فقال: حدثني خليلي الصادق المصدوق رسول الله ﷺ قال: «يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، فإن أدركته فاستشهدت فذاك، وإن أنا رجعت فأنا أبوهريرة المحدث قد أعتقني من النار.

فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر ﷺ فقد غزا المسلمون الهند أيام معاوية سنة أربع وأربعين ثم توالى الغزو والفتح كما أخبر ﷺ. فكان آية النبوة المحمدية والمعجزة الدالة على صدق الحبيب ﷺ في نبوّته ورسالته.

ورابع عشر خبر: قوله ﷺ في سهيل بن عمرو: «عسى أن يقوم مقامًا يسرك يا عمر» وذلك يوم صلح الحديبية حيث غضب عمر رضي الله عنه من تعنت سهيل، وكان ممثلاً لقريش يومئذ فقال له ﷺ: «عسى أن يقوم مقامًا يسرك يا عمر» وكان الأمر كما أخبر ﷺ؛ إذ مات الرسول ﷺ واضطربت البلاد ونجم الكفر، ووقف سهيل بن عمرو رضي الله عنه بباب الكعبة بمكة، فخطب فثبّت أهل مكة وقوّى بصائرهم فحفظهم الله من الردة بسببه، وهو موقف سرَّ عمر والمؤمنين. وكان آية نبوّته ﷺ، ومعجزة من معجزاته.

وخامس عشر خبر: قوله ﷺ: «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها في النار إلا واحدة في الجنة» وسئل عنها فقال: «هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وقال: «إنها ستكون أنماط[1]، ويغدو أحدهم في حلة، ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صَحْفَة[2] وترفع أخرى، ويسترون مشوا المُطَيْطاء[3]، وخدمتهم بناتُ فارس والروم ردّ الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم على خيارهم».

فهذا القول النبوي الشريف، الجزء الأول منه كما أخبر؛ حيث بلغت فرق هذه الأمة ثلاثًا وسبعين فرقة كما أخبر. فكان آية النبوة المحمدية. والجزء الثاني - وهو قوله: إنها ستكون، وإن ضعف سنده فقد صح واقعًا - فقد بسط الله الرزق على أمةَ الإسلام بعد وفاة نبيها ﷺ، فكانوا كما وصف في كثير من البلاد والأوقات، وقد

(١) الأنماط: جمع نمط البسط والفرش النفيسة.
(٢) أي صحفة الطعام.
(٣) أي التبختر في المشي.

حدث ما في الخبر من وعيد إذ جعل تعالى بأسهم بينهم وسلط عليهم شرارهم في أكثر من زمان ومكان، والله المستعان.

كانت تلك أربعين معجزة للحبيب ﷺ، وقد تقدم في ثنايا سيرته العطرة عشرات الآيات والمعجزات، ولقد صدق من قال: إن المعجزات المحمدية قد بلغت ألف المعجزة. والمراد من إيرادها تقوية إيمان المؤمنين، ودعوة غيرهم إلى الإيمان به ﷺ نبيًا ورسولاً، تجب متابعته وتتحتم طاعته، وتلزم محبته من أجل النجاة من الخسران، والفوز بالمغفرة والرضوان، في دار السلام مع مواكب النبيين والصدِّيقيين والشهداء والصالحين؛ إذ قال تعالى، وقوله الحق من سورة النساء من كتابه الكريم: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

الأخلاق المحمدية التي فيها أسوة للمؤمنين

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. شهادةٌ من الله تعالى له ﷺ بأنه على أكمل الأخلاق وأتمها وأرفعها وأفضلها، بحيث لا يداني فيها بحال من الأحوال.

وشاهد آخر في قوله: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي».

وفي قوله: «بُعثْتُ لأتمم صالح الأخلاق».

وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. إعلام من الله تعالى لعباده المؤمنين بما أوجب عليهم من الاقتداء برسوله الذي كمله خَلْقًا، وشرفه أصلاً ومَحْتِدًا، ورفعه منزلة وقدرًا، حتى لا تأنف النفوس في اتباعه والاقتداء به في كل ما هو في استطاعتها التَّحلِّي به، والتقرب إلى ربها عز وجل باتباعه والاقتداء به فيه.

ومن هنا كان الكمال المحمدي ضربين: ضربًا لم تشرع الأسوة فيه لعجز المرء عن كسب مثله، وذلك كشرف الأصل، وجمال الذات، وعلوّ القدر، والاصطفاء للرسالة،

وتلقي الوحي الإلهيّ، وضربًا مأمورًا بالاقتداء به فيه، والمنافسة في تحصيل أكبر قدر منه، والمسابقة إليه، والجدّ في الطلب للظفر به والحصول عليه. وهو ما سنذكر جملاً صالحة منه، سائلين الله تعالى أن يرزقنا التحلّي به، والحياة والموت عليه، اللهم آمين.

الآداب المحمدية

لقد كان ﷺ يتجمل بالآداب التالية ويتحلى بها، وهي:

أولاً: غض الطرف فلا يُتبع نظرَه الأشياء، وكان جل نظره الملاحظة، فلا يحملق إذا نظر، ونظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء.

ثانيًا: إذا مشى مع أصحابه يسوقهم أمامه فلا يتقدمهم، ويبدأ من لقيه بالسلام.

ثالثًا: إذا تكلم يتكلم بجوامع الكلم. كلامُه فصل، لا فضول ولا تقصير؛ أي على قدر الحاجة، فلا زيادة عليها ولا نقصان عنها، وهذا من الحكمة وكان يقول: «من حُسْن إسلام المرء تَركُه ما لا يعنيه» ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت». ويبدأ كلامه، ويختمه بأشداقه من أجل أن يُسْمع محدثَه ويُفهِمَهُ لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت.

رابعًا: متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، دمث الخُلُق، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النّعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا ولا يمدحه.

خامسًا: لا تُغْضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تُعُرِّضَ للحقّ لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها.

سادسًا: إذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جُل ضَحِكه التبسُّم، ويفترُّ عن مثل حبّ الغمام.

سابعًا: إذا تكلم تكلم ثلاثًا، وإذا سلّم سلّم ثلاثًا، وإذا استأذن استأذن ثلاثًا؛ وذلك ليعقل عنه ويفهم مراده من كلامه نظرًا إلى ما وجب عليه البلاغ.

ثامنًا: كان يشارك أصحابه في مباحِ أحاديثهم؛ إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم، وإذا ذكروا طعامًا أو شرابًا ذكره معهم.

تاسعًا: كان إذا جلس نصب إحدى ركبتيه واحتبى بيديه، وإذا جلس للأكل نصب

رجله اليمنى وجلس على اليسرى.

عاشراً: كان لا يعيب طعامًا يُقدم إليه أبدًا، وإنما إذا أعجبه أكل منه، وإن لم يعجبه تركه. هذه الآداب مجملة كلها يمكن الاقتداء به فيها، وهو غاية الطلب، وبغية أولي الأربَ.

الأخلاق المحمديّة

إن لذوي الأخلاق الفاضلة منزلة عالية. ففي الحديث الصحيح: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**». «**إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا**».

وسئل ﷺ عن البر، فقال: «**حسن الخلق**» وسئل عن أي الأعمال أفضل فقال: «**حسن الخلق**».

ومن هنا كان اكتساب الأخلاق الفاضلة خيرًا من اكتساب الذهب والفضّة، والأموال الطائلة. والطريق إلى ذلك هو الائتساء بالنبيّ الحبيب ﷺ، إذ هو المثل الأعلى في باب الأخلاق؛ ولذا كان إيرادنا للأخلاق المحمدية في آخر هذا الكتاب من باب حمل المسلم على اكتساب تلك الأخلاق المحمدية الفاضلة، ودفعًا له على التجمل والتحلي بها؛ ليكمل بها ويفضل ويشرف عليها، بعد أن عرف صاحبها، وعرف كمالاته الذاتية والروحيّة، وقوى إيمانه به نبيًا ورسولاً تجب طاعته ومتابعته وتعظيمه ومحبته وتوقيره.

وهذه نماذج من تلك الأخلاق فلننظر إليها، ولنُوَطِّن النّفس على اكتسابها والتخلق الصادق بها.

الكرم المحمدي

إن الكرم المحمدي كان مضرب الأمثال، وقد كان ﷺ لا يردّ سائلاً هو واجدٌ ما يعطيه. فقد سأله رجل حلّةً كان يلبسها، فدخل بيته فخلعها، ثم خرج بها في يده وأعطاه إياها. ففي صحيحي البخاري ومسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط، فقال: لا. وقال أنس بن مالك - رضي الله عنه: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا على الإسلام إلا أعطاه، سأله رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى الرجلُ قومه فقال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة. إن كان الرجل ليجيء إلى

رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يُمسي حتى يكون دينُه أحبَّ إليه وأعزَّ من الدنيا وما فيها. وحسبنا في الاستدلال على كرم رسول الله ﷺ حديث عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سئل عن جود الرسول ﷺ وكرمه فقال: «كان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة» بمعنى أن عطاءه دائم لا ينقطع بيسر وسهولة، وها هي ذي أمثلة لجوده وكرمه ﷺ:

• حُملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

• أعطى العباس رضي الله عنه من الذهب ما لم يُطقْ حملَه.

• أعطى معوذ بن عفْراء ملء كفّه حليًّا وذهبًا لما جاءه بهدية من رطب وقِثّاء.

• جاءه رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء ولكن ابتع[1] عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه».

وكيف لا يكون الحبيب ﷺ أكرم الناس وأجودهم على الإطلاق، وهو القائل: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا». والقائل أيضًا: يقول الله تعالى: «ابن آدم أنفق أنفق عليك». وقد نزل عليه قول ربّه: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ [سبأ: ٣٩].

الحلم المحمدي

إن الحلم - وهو ضبط النفس حتى لا يظهر منها ما يُكره، قولاً كان أو فعلاً عند الغضب، وما يثيره هَيَجَانُه من قول سيئ أو فعل غير محمود - هذا الحلم كان فيه الحبيب ﷺ مضرب المثل. والأحداثُ التالية شواهد لحلمه - فداه أبي وأمي - وصلى الله عليه وسلم؛ وذلك لتربية الله تعالى له، وإفاضته الكمالات على روحه ﷺ:

• لما شجّت وجنتاه وكسرت رباعيته ودخل المغفر في رأسه ﷺ يوم أُحُد قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فهذا منتهى الحلم والصفح والعفو والصبر منه ﷺ.

• لما قال له ذو الخويصرة: اعدل؛ فإن هذه قسمة ما أريد بها وجهُ الله، حَلُمَ

(١) ابتع بمعنى اشترِ ما تحتاجه على حسابي وأنا أسدده عنك إن شاء الله تعالى.

عليه وقال له: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل»، ولم ينتقم منه ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك.

• لما جذبه الأعرابيّ بردائه جذبة شديدة حتى أثرت في صفحة عنقه ﷺ وقال: احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك، حلم عليه ﷺ ولم يزد أن قال: «المال مال الله وأنا عبده، ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي» فقال الأعرابي: لا، فقال النبي ﷺ: «لم؟» قال: لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة، فضحك ﷺ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر، فأي حلم وأي كمال هذا يا عباد الله؟؟

• لم يثبت أنه ﷺ انتصر لنفسه من مظلمة ظُلمَها قط، ولا ضرب خادمًا ولا امرأة قط. بهذا أخبرت عائشة رضي الله عنها، فقالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرًا من مظلمة ظُلمًا قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله. وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا قط ولا امرأة.

• وجاءه زيد بن سَعْنَة - أحد أحبار اليهود بالمدينة - جاءه يتقاضاه دينًا له على النبي ﷺ فجذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وقال مغلظًا القول: إنكم يا بني عبدالمطلب مُطْل، فانتهره عمرُ وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم، وقال ﷺ: «أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر؛ تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي»، ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث» وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لما روّعه، فكان هذا سبب إسلامه فأسلم، وكان قبل ذلك يقول: ما بقي من علامات النبوّة شيء إلا عرفته في محمد ﷺ إلا اثنتين لم أخْبرهما: يَسْبق حلمُه جهلَه ولا تزيده شدة الجهل إلا حلمًا، فاختبرهُ بهذه الحادثة فوجده كما وصف. هذه قطرةٌ من بحر الحلم المحمدي تُذهب ظمأ من أراد أن يتحلى بالحلم يتجمل به.

العفو المحمدي

إن العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة على الأخذ من المسيء المبطل، وهو من خلال الكمال، وصفات الجمال الخلقي، أمر الله تعالى به رسوله في قوله من سورة الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وسأل ﷺ

جبريل عن معنى هذه الآية فقال له: «حتى أسأل العليم الحكيم»، ثم أتاه فقال: «يا محمد! إنَّ الله يأمرك أن تَصلَ من قطعك[1]، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وامتثل رسول الله ﷺ أمر ربّه، فكان مضرب المثل في الخصال الثلاث في صلة من قطعه، وإعطاء من حرمه، والعفو عمن ظلمه، وفي الأمثلة الآتية شاهد ذلك ودليله.

• قالت عائشة ﵂: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه[2] إلا أن تنتَهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها».

• تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ﷺ، ورسول الله ﷺ مطرح تحت شجرة وحده قائلاً، وأصحابه قائلون كذلك، وذلك في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وغورث قائمٌ على رأسه، والسيفُ مصلت في يده، وقال: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: «الله». فسقط السيف من يد غورث، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك؟» قال غورث: كن خير آخذ؛ فتركه وعفا عنه، فعاد إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس، فهكذا كان العفو المحمدي.

• لما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح، ووجد رجالات قريش جالسين مُطأطئين الرءوس ينتظرون حكم رسول الله ﷺ الفاتح فيهم، فقال: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فعفا عنهم بعد ما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقادر قدره، ولا يُحصى عدّه، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف، ولم يضرب ولم يقتل، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

• سَحَره لبيد بن الأعصم اليهودي - وقد نزل الوحي بذلك - فعفا عنه، ولم يؤاخذه، بل لم يثبت أنه لامه أو عاتبه مجرد لوم أو عتاب، فضلاً عن المؤاخذة والعقاب. فكان موقفه هذا مظهرًا من مظاهر العفو المحمدي في أجلى صوره، وأبهى مظاهره فصلى الله عليه وسلم ما عفا عافٍ وآخذَ مؤاخذٌ إلى يوم الدين.

• تآمر عليه المنافقون - وهو في طريق عودته من تبوك إلى المدينة - تآمروا عليه

(١) هو تفسير الآية التي سأل جبريل عن معناها.

(٢) هو معنى أن يعفو عمن ظلمه.

ليقتلوه، وعلم بهم، وقدر عليهم، فعفا عنهم وقال: «لا يُتحدث أن محمداً يقتل أصحابه».

● جاءه رجل يريد قتله، فاكتشف أمره، وظهرت حاله، فقال له أصحابه إن هذا جاء يريد قتلك؛ فاضطرب الرجل من شدة الخوف وفزع، فقال له: «لن تراع، لن تُراع ولو أردت ذلك - أي قتلي - لم تسلط عليّ»؛ لأن الله أعلمه بعصمته له من الناس، فعفا عنه ﷺ وقد أراد قتله، فلم يؤاخذه بل لم يعاقبه، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

الشجاعة المحمدية

إن الشجاعة خلق فاضل، ووصفٌ كريم، وخلة شريفة، لا سيما إذا كانت في العقل كما هي في القلب، وكان صاحبها من أهل الإيمان والعلم، والشجاعةُ في القلب عدم الخوف مما يخف عادةً، والإقدامُ على دفع ما يخاف منه بقوةٍ وحزم. وفي العقل المضاء فيما هو الرأي وعدم النظر إلى عاقبة الأمر متى ظهر أنه الحق والمعروف. وقد كان الحبيب محمد ﷺ أشجع إنسان على الإطلاق، فلم تكتحل عين الوجود بمثله ﷺ، ومن أدلة ذلك تكليف الله تعالى له بأن يقاتل وحده في قوله من سورة النساء: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤].

ومن أدلة شجاعته ﷺ ومظاهرها ما يلي:

● شهادة الشجعان الأبطال له بذلك، فقد قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكان من أبطال الرجال وشجعانهم - بلا مراء - قال: كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق[1] نتقي برسول الله ﷺ. أي نتقي الضرب والطِّعان.

● موقفه البطولي الخارق للعادة في أحد، حيث فرّ الكماة ووجم الأبطال، وذهل عن أنفسهم الشجعان، ووقف محمد رسول الله ﷺ كالجبل الأشم حتى لاذ به أصحابه، والتفوا حوله، وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير وهزيمة نكراء حلت بالقوم؛ لمخالفة أمره ﷺ.

● في حنين حيث انهزم أصحابه، وفرّ رجاله لصعوبة مواجهة العدو، من جراء الكمائن التي نصبها وأوقعهم فيها وهم لا يدرون، بقي وحده ﷺ في الميدان يطاول

---

(١) جمع حدقة: ما تحت الأجفان وذلك من شدة الغضب.

ويصاول وهو على بغلته يقول:

أنا النبيّ لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

وما زال في المعركة وهو يقول: «إليّ عباد الله!! إليّ عباد الله» حتى فاء أصحابه إليه، وعاودوا الكرَّة على العدو، فهزموه في ساعة. وما كانت هزيمتهم أول مرة إلا من ذنب ارتكبه بعضهم وهو قوله: لن نغلب اليوم من قلة؛ إذ هذا القول كان عُجْبًا والعُجْبُ حرم وقد ذكرهم تعالى به في كتابه إذ قال تعالى من سورة التوبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

• في أحد - والمعركةُ دائرة - رأى أبيّ بن خلف - لعنه الله - رأى النبيّ ﷺ فصاح أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، وتقدم على فرسه نحو رسول الله ﷺ فاعترضه رجال من المسلمين فقال ﷺ: «خلوا طريقه»، وتناول الحربة من يد الحارث بن الصِّمَّة، وانتفض انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الوبر من ظهر البعير إذا انتفض، واستقبله بطعنة نجلاء في عنقه تدأدأ[1] منها عن فرسه مراراً وهو يقول: قتلني محمد، فمات منها بسرف، وهو عائد إلى مكة مع جيش المشركين.

• فزع أهل المدينة ليلة؛ فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ[2] الخبر على فرس لأبي طلحة عُرْي، والسيفُ في عنقه وهو يقول: «لن تراعوا». في هذه يقول أنس بن مالك: كان النبيّ ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، وقص هذه القصة.

• شهادة عمران بن حصين رضي الله عنه إذ قال وهو صادق: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب.

كانت تلك شواهد شجاعته القلبيّة. أما شجاعته العقلية فنكتفي فيها بشاهد واحد، فإنه يكفي عن ألف شاهد ويزيد، وهو موقفه من تعنّت سهيل بن عمرو وهو يملي وثيقة صلح الحديبية، إذ تنازل ﷺ عن كلمة «باسم الله» إلى «باسمك اللهم». وعن كلمة

(١) تزعزع بشدة.

(٢) يُقال: استبرأ الخبر، إذا طلبه حتى وقف على حقيقته.

«محمد رسول الله» إلى كلمة «محمد بن عبدالله» وقد استشاط أصحابه غيظًا، وبلغ الغضب حداً لا مزيد عليه، وهو صابر ثابت حتى انتهت، وكانت بعد أيام فتحًا مبينًا، فضرب ﷺ بذلك المثل الأعلى في الشجاعتين القلبية، والعقلية، مع بعد النظر وأصالة الرأي وإصابته؛ فصلى الله عليه وسلم ما بقي شجاعة أو جبن في العالمين.

الصبر المحمدي

إن الصبر، وهو حبس النفس على طاعة الله تعالى حتى لا تفارقها، وعن معصية الله تعالى حتى لا تقربها، وعلى قضاء الله تعالى حتي لا تجزع له، ولا تسخط عليه، هذا هو الصبر في مواطنه الثلاثة. وهو خلق من أشرف الأخلاق واسماها، هو خلق مكتسب، يحمل العاقلُ عليه نفسَه ويروضها شيئًا فشيئًا، حتي يصبح ملكة لها ثابتة عفواً بدون طلب.

يدل على ذلك أمره تعالى رسوله به في غير موطن من كتابه العزيز، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقوله في أمر كافة المؤمنين به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقد صبر رسول الله ﷺ وصابر طيلة عهد إبلاغ رسالته الذي دام ثلاثًا وعشرين سنة، فلم يجزع يومًا، ولم يتخلَّ عن دعوته وإبلاغ رسالته حتى بَلَغ بها الآفاق التي شاء الله تعالى أن تبلغها، وباستعراضنا المواقف التالية تتجلى لنا حقيقة الصبر المحمدي الذي هو فيه أسوة كل مؤمن ومؤمنة في معترك هذه الحياة.

• صبره ﷺ على أذى قريش طيلة ما هو بين ظهرانيها بمكة؛ فقد ضربوه، وألقوا سَلَى الجزور على ظهره، وحاصروه ثلاث سنوات مع بني هاشم في شِعْبِ أبي طالب، وحكموا عليه بالإعدام، وبعثوا رجالهم لتنفيذه فيه إلا أن الله سلّمه وعصم دمه. كل هذا لم يرده عن دعوته، ولم يثْنِ عزمَه عن بيانها وعرضها على القريب والبعيد.

• صبره عام الحزن، حيث ماتت خديجة الزوجة الحنون، ومات العم الحاني الحامي المدافع أبوطالب. فلم تفتّ هذه الرزايا من عزمه، ولم توهن من قدرته؛ إذ قابل ذلك بصبر لم يعرف له في تاريخ الأبطال مثل ولا نظير.

• صبره في كافة حروبه: في بدر، وفي أحد، وفي الخندق، وفي الفتح، وفي حنين وفي الطائف، وفي تبوك، فلم يجبن ولم ينهزم، ولم يفشل، ولم يكلَّ ولم يمل حتى خاض حروبًا عدة وقاد سرايا عديدة؛ فقد عاش من غزوة إلى أخرى طيلة عشر سنوات، فأي صبر أعظم من هذا الصبر؟

• صبره على تآمر اليهود عليه بالمدينة وتحزيبهم الأحزاب لحربه والقضاء عليه، وعلى دعوته.

• صبره على الجوع الشديد، فقد مات ﷺ ولم يشبع من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط.

• لقد صبر ﷺ على كل ذلك فلم يهن ولم تضعف همته، ولم تمس كرامته ولم يدنس عرضه، ولو أوذي غيره بمعشار ما أوذي أو أصابه من البلايا والرزايا دون ما أصابه لتحلي عن دعوته، وهرب من مسئوليته، ووجد في نفسه مبررًا لذلك، ولكن الله عصمه فصبّره وجبره، وحماه وقواه ليبلغ عنه رسالته، ويجعله آية للناس في صبره وحكمته وعفوه وكرمه وشجاعته وفي سائر أخلاقه، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

العدل المحمدي

إن العدل خلاف الجور، أمرَ الله تعالى به في القول والحكم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. وعلى العدل قام أمر السماء والأرض. ومن هنا كيف لا يكون رسول الله ﷺ عادلاً وهو القائل: «ثلاثةٌ إجلالهم من إجلال الله تعالى»، وذكر من بينهم الإمامَ العادل، وذكر أن سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وعدّ منهم الإمام العادل، وقال: «إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة»، وبين أنهم الذين يعدلون في حكمهم وما وُلُّوا. ولذا كان ﷺ عادلاً في قوله وفعله وحكمه، لا يجور ولا يحيف، وكان العدل من أخلاقه وأوصافه اللازمة له، فقد عرف به في الجاهلية قبل الإسلام. وهذه مواقف له ﷺ يتجلى فيها هذا الخلق النبوي الكريم وهي:

• تحكيم قريش له في وضع الحجر الأسود بعد خلاف شديد بينهم كاد يفضي بهم إلى الاقتتال. فقالوا - بتوفيق من الله تعالى - نُحكِّمُ أول قادم علينا غدًا، فكان ﷺ أول

قادم، فقالوا هذا الأمين هذا الحكم، رضينا به فحكم بأن يوضع الحجر في ثوب وتأخذ كل قبيلة بطرف، ثم أخذ الحجر بيديه ووضعه في مكان من جدار البيت، فحكم فعدل، وكان مظهراً من مظاهر عدله ﷺ.

• لما سرقت المخزومية، وشقّ على المسلمين إقامةُ الحد عليها فتقطع يدها فتوسطوا له بحبِّه وابن حبِّه أسامة بن زيد فرفع إليه القضية، فقال: «**أفي حد من حدود الله تشفع يا أسامة؟ والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**»، فكان هذا مظهراً عظيماً للعدل المحمدي.

• وكانت تحته تسع نسوة، وكان يعدل ويتحرى العدل ثم يعتذر إلى ربّه وهو مشفق خائف فيقول: «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك**».

• وقوله للأعرابي الذي قال له: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: «**ويحك لمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل**».

• في الطعام والشراب كان يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه، فإن كان ولابد فاعلاً، فثلثٌ للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس**». وكان ﷺ يقسم وقته ثلاثة أجزاء جزءاً لربه تعالى، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، يقسم الجزء الذي لنفسه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «**أبلغوا حاجة مَنْ لا يستطيع إبلاغي، فإنه مَنْ أبلغَ حاجةَ مَنْ لا يستطيع إبلاغها، آمنه الله يوم الفزع الأكبر**».

وكان الحسن يقول: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحداً بِقِرْفِ[1] أحد، ولا يصدّق أحداً على أحد.

وهكذا يتجلى خلق العدل في الحبيب ﷺ بصورة واضحة، يدعو كلّ مؤمن إلى التّخَلُّق به اتساءاً به ﷺ، وهو إِسَةُ كل مؤمن ومؤمنة في هذه الحياة.

الزهد المحمدي

إن المراد بالزهد الزهد في الدنيا، وذلك بالرغبة عنها، وعدم الرغبة فيها، وذلك بطلبها طلبًا لا يشق، ولا يحول دون أداء واجب، وسد باب الطمع في الإكثار منها والتزيد

(١) القرف: التهمة والذنب.

من متاعها، وهو ما زاد على قدر الحاجة، وقد كان ﷺ يقول: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**» وقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأقلهم رغبة فيها، حتى كان الزهد خلقًا من أخلاقه الفاضلة وسجيّة من سجاياه الطيبة الطاهرة.

والمواقف الآتية تدل على ذلك وتشهد له وتقرره:

• قوله ﷺ في الصحيح: «**لو كان لي مثلُ أُحُد ذهبًا لما سرّني أن يبيت عندي ثلاثًا إلا قلتُ فيه هكذا وهكذا إلا شيئًا أرصده لِدَيْنٍ**». فهذا أكبر مظهر للزهد الصادق الذي كان الحبيب ﷺ يعيش عليه ويتحلّى به.

• قوله ﷺ لعمر - وقد دخل عليه فوجده على فراش من أدم حشوه ليف - فقال: «إن كسرى وقيصر ينامان على كذا وكذا، وأنت رسول الله ﷺ تنام على كذا وكذا!»، فقال له ﷺ: «**ما لي والدنيا يا عمر، وإنما أنا فيها كراكبٍ استظل بظل شجرة، ثم راح وتركها**».

فكان هذا أقوى مظهر من مظاهر الزهد المحمدي الصادق.

• عَرَض عليه ربُّه تعالي أن يُحَوِّلَ له الأخشبين[1] ذهبًا وفضة، وذلك بعد عودته من الطائف جريحًا كئيبًا حزينًا، فقال: «**لا يا رب، أَشْبَعُ[2] يومًا فأحمدك وأُثني عليك، وأجوع آخر، فأدعوك وأتضرّع إليك**».

• وأكبر مظهر لزهده ﷺ في الدنيا سؤاله المتكرر: «**اللهم اجعل قوت آل محمد كفافًا**». وفي لفظ: «**قوتًا**» أي بلا زيادة ولا نقصان. وكان يقول: «**قليل يكفي خيرٌ من كثير يُلهي. وما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى أو أطغى**».

• قول عائشة رضي الله عنها مات رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي. وقد قُبِض رسولُ الله ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير.

وبالتأمل في هذه المواقف تتجلى الحقيقة واضحةً وهي أن الزهد الحق كان خلق النبي الحبيب ﷺ. وهو القائل: «**الدنيا دارُ مَنْ لا دار له، ومال من لا مال، ولها يجمع من لا عقل له**».

---

(١) جبلان من جبال مكة معروفان.

(٢) الحديث مروي بالمعنى لا باللفظ.

فَصَلِّ اللهم وبارِكْ وسلِّم على عبدك ورسولك أزهد الزهّاد، وأفضل العُبّاد إلى يوم التلاقي والميعاد.

الحياء المحمدي

إن الحياء خلق فاضل فاقده لا خير فيه؛ إذ هو من الإيمان، وهو خير كله. وحقيقته: أنه تغيّر يسببه الخوفُ مما يكره قوله أو فعله، أو يُذم عليه. ويظهر أثره في احمرار الوجه، وترك ما يخشى معه الذم والملامة وهو في المرأة بمنزلة الشجاعة في الرجل، أي كما أن الشجاعة محمودة في الرجل أكثر ما هي محمودة في المرأة، فكذلك الحياء هو في المرأة محمودٌ أكثر مما هو في الرجل. ومع هذا خلق فاضل كريم، قال فيه رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان»، وقال: «الحياء كله خير»، «والحياء لا يأتي إلا بخير»، «والحياء شعبة من الإيمان» في أحاديث صحاح.

ومن مظاهر الحياء المحمدي التي يتجلى فيها بوضوح ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فهذه شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بالحياء وكفى بها شهادة.

- رواية الشيخين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيها، قال: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من البكر في خدْرها[1]، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه.

- قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكره، لم يَقُلْ ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا»، ينهى ولا يسمي فاعلَه.

- قول أنس بن مالك رضي الله عنه في رواية أبي داود قال: دخل رجل على النبيِّ ﷺ به أثر صفرة، فلم يقل له شيئًا، وكان لا يواجه أحدًا بمكروه، فلما خرج قال: «لو قلتم له يغسل هذا» أي أثر الصفرة في الثوب.

- رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا[2]، ولا متفحشًا، ولا سخّابًا[3] في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وهذا

---

(١) الخدر: الستر في البيت.

(٢) الفاحش: من يصدر عنه الفحش وهو القول أو الفعل القبيح، والمتفحش من يتعمد الفحش ويبالغ فيه.

(٣) السخب والصخب: رفع الصوت، والسخّاب فاعل ذلك.

وصفُه في التوراة أيضًا كما رواه عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

• وكان ﷺ من شدة حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد، ويكْنِي عما اضطره الكلام إليه مما يكره ولا يصرح به.

• قول عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت من رسول الله ﷺ، ولا رأى مني» أي من العورة.

كانت هذه مظاهر حيائه ﷺ وشواهده، وفيها كفايةٌ لمن أراد أن يأتسي به ﷺ في حيائه، وفي سائر أخلاقه؛ فقد جعله الله تعالى أسوة المؤمنين فقال تعالى في آية من كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ[1] حَسَنَةٌ[2]﴾ [الأحزاب: ٢١].

أدب مخالطته ﷺ وحسن عشرته

إن من كمال خلق المرء حُسْنَ صحبته ومعاشرته لأهله، وكمال أدبه في مخالطته لغيره، وقد كان الحبيب ﷺ مضرب المثل في حسن الصحبة وجميل المعاشرة وأدب المخالطة. وفيما نعرضه من مواقف له ﷺ في هذا الشأن كفايةٌ لمن أراد الائتساء به ﷺ في كمالاته الروحية والخلقية والأدبية:

• وصف عليّ رضي الله عنه له ﷺ في قوله: «كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشْرة» وهو كما قال رضي الله عنه، والقصة التالية تؤكدُ ذلك وتقرره: مرّ ﷺ على ابن أُبيّ - وهو جالس مع بعض المسلمين وغيرهم - فقال ابن أُبيٍّ لرسول الله ﷺ وهو راكب على دابته: لا تغبروا علينا، ارجع إلى رحلك[3] فَمَنْ جاءك منا فاقصُصْ عليه؛ فغضب المسلمون، واستبوا مع المشركين حتى كادوا يقتتلون، فهدَّأهم رسول الله ﷺ ومنعهم من التواثب على بعضهم البعض، ومضى رسول الله ﷺ على دابته، فنزل على سعد بن معاذ وذكر له ما جرى، فقال له سعد: يا رسول الله! اعفُ عنه واصفح؛ فقد اتفق أهل هذه البُحيرة «المدينة» على أن يعصبوه - يتوّجوه ملكًا عليهم - فلمَّا ردَّ الله ذلك بالحق الذي بعثتَ به شرق بذلك، فعفا عنه ﷺ، فلما أراد ﷺ الانصراف قرّب إليه سعدٌ حمارًا ووطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ

(١) القدوة.

(٢) الصالحة.

(٣) الرحل: المنزل من دار وغيرها.

ثم قال سعد لابنه قيس: اصحب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لقيس: «إمَّا أن تركب - أي معي على الحمار - وإمَّا أن تنصرف». قال: فانصرفتُ.

وفي رواية أخرى قال: «اركبْ أمامي، فصاحب الدابَّة أولى بمقدَّمها»[١].

فأي كمال أعظم من هذا الكمال المحمدي في أدبه ومخالطته لأصحابه؟ ولنستمع إلى ابن أبي هالة[٢] في وصفه له ﷺ إذ يقول: كان دائم البِشْر، سهل الخلق، لَيِّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سخاب ولا فاحش، ولا عيَّاب ولا مدَّاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيسُ منه، وكان ﷺ يجيب من دعاه، ويقبل الهدية ممن أهداه، ولو كانت كراعَ شاة، ويكافئ عليها.

● قال أنس بن مالك خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنوات، فما قال لي: أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعتُه: لم صنعتَه؟ ولا لشيء تركتُه: لم تركتَه؟

● قالت عائشة ﵂: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: «لبيك» أي أجاب دعوته.

● وصفه عارف به ﷺ فقال: كان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم، ويُجلسُهم في حِجْره، ويجيب دعوة الحرّ والعبد، والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر.

● قال أنس ﵁: ما التقم[٣] أحدٌ أُذُنَ رسول الله ﷺ فينحِّي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي يُنَحِّي رأسه، وما أخذ أحد بيده ﷺ فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، ولم يُرَ مُقَدِّمًا ركبته بين يدي جليس له.

● ووصفَه عليم به فقال: كان ﷺ يبدأ مَنْ لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم يُرَ قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيّق بهما على أحد. يكرم مَنْ يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في

---

(١) القصة: واردة في الصحاح.

(٢) ووصف ابن أبي هالة صحيح كذلك.

(٣) أي لأجل يُسارُّه في أذنه حتى لا يسمع أحد ما يقوله.

الجلوس عليها إن أبى ويكنّي[1] أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم: تكرمةً لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز - أي يُكثِر فيتجاوز الحد - فيقطعه، بنهيٍ أي له أو قيام. وكان إذا جلس إليه أحد - وهو يصلي - خَـفَّفَ صلاته وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

وحسبنا في بيان أدبه ﷺ وحسن عشرته وجميل مخالطته قولُ ربّه عز وجل فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد فعل ﷺ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء.

خشية الحبيب ﷺ وطول عبادته

إن خشية الله تعالى في السرّ والعلن ثمرةُ العلم بالله ربًا وإلهًا ذا جلال وكمال لا حدَّ لهما تقصر الفهوم دون إدراكها قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال رسول الله ﷺ: «إني أعلَمُكم بالله وأشدكم له خشية»، فدل على هذا أن الخشية يثمرها العلمَ الصحيح، العلمَ بالله ذي الجلال والإكرام، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وبمحابه من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والذوات، وبمكارهه من ذلك كله.

مَنْ أعلمُ بالله من رسول الله؟ اللهم لا أحد، ولذا فلا أتقَى لله من رسول الله في سائر عباد الله، ولا أكثر طاعة من رسول الله ﷺ، ولا أرغب فيما عند الله من رسول الله ﷺ، ولا أرهب مما لدى الله من رسول الله ﷺ، ولا أشد انقطاعًا وتبتّلاً لله من رسول الله ﷺ، وهذه الأحاديث والآثار تقرر ذلك وتؤكده.

(أ) مظاهر خشيته ﷺ:

● روى الترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني أرى ما لاترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت[2] السماء، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم

(١) أي يدعوهم لا بأسمائهم بل بكناهم كأن يقول: يا أباالحسن، وأباحفص، وأباأميمة مثلاً.
(٢) الأطيط: صوت القتب إذا ضغطه ثقلُ ما عليه من الحمل.

بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات[1] تجأرون إلى الله تعالى» لوددت أني شجرة تعضد[2]. فهذا الحديث شاهد حقٌّ على خشية رسول الله وخوفه من ربّه تعالى، ويؤكد قوله: «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

• ما حَدّثَ به عبدالله بن الشِّخّير حيث قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجَل.

• ما تقدم عن ابن أبي هالة في وصفه ﷺ إذ قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليس له راحة.

• ما صَحّ عنه ﷺ من قوله: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» وفي رواية: «سبعين مرة» فهو دائم الاستغفار، ويومًا يستغفر سبعين، ويومًا يستغفر مائة، وهذا من كمال خشيته وعظيم تقواه لربّه عز وجل.

• ما حدث به عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، إذ قال: كنا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد قوله «رب اغفر لي، وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم» مائة مرة.

(ب) مظاهر طول عبادته ﷺ :

• حديث الصحيح عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه إذ قال فيه: قام ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟».

• ما حدثت به عائشة رضي الله عنها في قولها: كان عمل النبي ﷺ دِيَمةً، وأيكم يطيق ما كان يطيق؟ كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وكنتَ لا تشاء أن تراه من الليل مصليًّا إلا رأيته مصليًّا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا.

• روى أبوداود في سننه عن عوف بن مالك قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاك ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول:

---

(١) الطرقات.

(٢) تفطع: كناية عن تمنيه أن لو لم يكن في هذه الحياة إنسانًا حيًّا. وهذا تمنى أبي ذر، وليس قول الرسول ﷺ.

«سبحان ذي الجبروت والملك والملكوت والعظمة»، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك.

• ما حدثت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: إذ قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلةً هي آخر سورة المائدة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

• ما صحّ عنه ﷺ من قوله: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة».

فهذه مظاهر إطالة العبادة، وطول التبتّل وبه ائتسى الصالحون من هذه الأمة، ففازوا بالقرب والرضا. جعلنا الله تعالى منهم، وحشرنا في زمرتهم، وصلى الله وسلم وبارك على أسوة المؤمنين وقرة عين المحبين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

التواضع المحمدي

إذا كان التواضع معناه إظهار الضعة وذلك من رفيع القدر عالي المقام، شريف الأصل والمحتد وهو كذلك، فإن خلق التواضع من أفضل الأخلاق وأسماها، وقد بلغ فيه رسول الله ﷺ شاواً لا يلحقه فيه أحد من الأولين ولا من الآخرين.

وباستعراضنا لأقواله ﷺ وأفعاله وأحواله الظاهرة، تتجلى هذه الحقيقة ويطمع كل مؤمن - يستعرض ما نورده في هذا الباب - في أن ينال قدرًا من التواضع ائتساءً بنبيّه ﷺ. وهذا ما رجوناه من كتابة هذه السيرة العطرة وتقديمها للمسلمين.

مظاهر التواضع المحمدي:

• أخبر ﷺ أنه قد خيّر بين أن يكون نبيًّا ملكًا، أو نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا، وأخبر أن الله تعالى كافأه على اختياره العبوديّة بأن يكون سيد ولد آدم، وأول من تنشقّ عنه الأرض، وأول شافع. فاختياره العبوديّة على الملوكيّة أكبر مظهر من مظاهر التواضع المحمدي.

• حدَّث أبوأمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا، فقمنا له، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظِّم بعضها بعضًا»، وقال: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

●ما عرفَ به ﷺ وشهد به غيرُ احـد من أصحابه، وأنه كان يركب الحمار ويُرْدفُ خلفه، ويعـود المساكين، ويجـالس الفقراء، ويجـيب دعوة العبد، ويجلس بين أصـحابه مختلطًا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السّنخة فيجيب.

●قوله ﷺ : **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله»**.

●في حجه الذي أهدى فيه مائة بدنة، حج على بعير فوقه رحل عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم.

●ولما فـتح الله تعالى على رسـوله ﷺ مكة ودخلها ظافـراً منتصراً - والجـيوش الإسلامية قد دخلتها من كل أبوابها - دخل راكبًا على ناقته، وإن لحيته الشريفة تكاد تمسُّ قائم رحله تطامنًا وتواضعًا لله عز وجل، وهو موقف لم يقفه غيره في دنيا البشر قط.

●قوله ﷺ : **«لا تُفَضِّلُوني عـلى يونس بن متى، ولا تفضلوا بيـن الأنبياء، ولا تخـيّروني على مـوسى، ونـحن أحقّ بالشك من إبراهيم، ولـو لبثتُ مـا لبثَ يوسفُ في السـجن لأجبتُ الداعي»**.

● وقوله ﷺ للذي قال له: يا خير البريّة: **«ذاك إبراهيم»**.

● ما أخبر به بعضُ نسائه، وتحدثن، وهو أنه ﷺ يكون في بيته في مهنة أهله يفلّي[1] ثوبه، ويحلب شـاته، ويرقع ثوبه ويخـصف[2] نعله، ويخـدم نفسـه، ويقمُّ البيت، ويعـقل البعير، ويـعلف ناضحه، ويأكل مع الخـادم، ويعجن معهـا ويحمل بضاعته من السوق.

● دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رِعْدة فقال له: **«هوّن على نفسك؛ فإني لست ملكًا، وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»**.

● حدث أبوهريرة رضي الله عنه فقال: دخلت السوق مع النبيّ ﷺ فـاشترى سراويل، وقال للوازن: **«زن وارجح»**، فوثب الوازنُ إلى يد النبي ﷺ يقبلهـا، فجذب يده وقال: «هذا

(١) أي ينقيه من القمل إن كان به.

(٢) يلصق بعضه ببعض إذا تقطع ويخرزه ليلصق ولا ينحل.

تفعله الأعاجم بملوكها، ولستُ بملك، إنما أنا رجل منكم» ثم أخذ السراويل، فذهبتُ لأحملها فقال: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

إن كل مظهر من هذه المظاهر التي بلغت أحد عشر مظهرًا دالٌّ بمفرده على كماله ﷺ ثم تواضعه، وأنه مضرب المثل في ذلك. ولما كان كماله لا يداني فيه، فتواضعه يكون آية نبوته ومعجزة رسالته. وغير مانع محاولة الائتساء به، لأن التواضع من الأخلاق المكتسبة، وبقدر صدق النية والرغبة الصادقة يحصل للعبد ما يرغب فيه من الكمالات المحمدية التي هي موضع الائتساء به ﷺ.

المزاح المحمدي

إن المزاح كالمداعبة والملاعبة، والهزل الذي هو خلاف الجدّ، يقال: هزل في قوله أو فعله، أو مزح، أو داعب: الكل بمعنى واحد. والسؤال: هل كان رسول الله ﷺ على جلال قدره وسموّ مكانته، وانشغال باله بمهام الرسالة وأعباء القيادة وهداية الناس يمزح؟ والجواب: نعم، كان يمزح ويداعب ويهزل بقلة لاستيعاب الجدُّ وقته كلَّه إلا أنه كان في مزاحه ومداعبته وهزله لا يخرج أبدًا عن دائرة الحق وبحال من الأحوال، وهو في مزاحه ومداعبته يقدم معروفًا لأصحابه بما يدخل عليهم من الغبطة والسرور وعلى أطفالهم إذا داعبهم من الفرح والمرح والسرور والحبور.

وباستعراضنا للمواقف النبوية الآتية تتجلّى لنا الحقيقةُ، وهي أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقًّا. وفي الإمكان الائتساءُ به في ذلك، لأنه من المقدور المستطاع، وليس من خصائصه ﷺ، بل هو أدبٌ عام يأخذ به كل مؤمن قدر عليه.

●حدّث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: إن رجلاً أتى النبيّ ﷺ فاستحمله - أي طلب إليه أن يحمله على بعير ونحوه - فقال له ﷺ: «إنا حاملوك على ولد الناقة» فقال الرجل: يا رسول الله! ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تلد الإبلَ إلا النوقُ؟» فكان قولُه مداعبةً للرجل ومزحًا معه، وهو حق لا باطل فيه.

●وحدث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: استأذن أبوبكر النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عاليًا على رسول الله ﷺ، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ، فجعل النبي ﷺ يحجزه. وخرج أبوبكر مغضبًا، فقال

رسول الله ﷺ حين خرج أبوبكر: «كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟».

فمكث أبوبكر أيامًا، ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سِلْمكما كما أدخلتماني في حربكما، فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلنا قد فعلنا».

ففي هذه الحديث من حسن العشرة وطيب المداعبة ما لا يخفى على متأمِّل.

● وحدث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال له: «يا ذا الأذنين»، وهي مداعبة ظاهرة، وهي حق واضح، إذ كل إنسان ذوأذنين اثنتين.

● وحدث أنس بن مالك فقال: كان رجل من أهل البادية يقال له زاهر، وكان يُهدي للنبيّ ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه النبيّ ﷺ إذا أراد أن يخرج فقال رسول الله ﷺ فيه يومًا: «إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضرُه»، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وكان هو رجلاً دميمًا، فأتاه النبيّ ﷺ، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه مِنْ خلفه - ولا يبصره الرجل - فقال: أرسلني مَنْ هذا؟ فالتفت، فعرف النبيّ ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبيّ ﷺ، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يشتري هذا العبد» فقال لرسول الله ﷺ: إذن والله تجدني كاسدًا، فقال رسول الله ﷺ: «لكن عند الله لستَ بكاسد أنت عند الله غال» فالمزاح في هذا الحديث ظاهرٌ بصورة واضحة، ومعه من كمال الخُلُق وحسن الصحبة، وطيب المخالطة ما لا مزيد عليه.

● وروى البخاري - رحمه الله - أن رجلاً كان يقال له: عبدالله، ويلقَّب بحمار، وكان يُضحك النبيّ ﷺ، وكان يؤتى به في الشراب - أي السُّكْر ليقام عليه الحد - فجيء به يومًا فقال رجلٌ: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به!! فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله». فقوله: وكان يضحك النبي ﷺ دليلٌ على أنه يمازحه حتى يضحك، والمزاح يكون بين اثنين، فكل واحد يمازح الثاني.

● وحدث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: كان للنبيّ ﷺ حادٍ يحدو بنسائه يقال له: أنْجَشَة، فحدا فأعنقت الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أنجشة ارفق بالقوارير» أي بالنساء؛ فإطلاق القوارير على النساء مداعبة ظاهرة ووصفهن بالقوارير لضعفهنّ، فلو سقطت إحداهن من هودجها لتكسّرت، ولو كنّ غير أمهات المؤمنين لصحّ أن يقال: إن

الحداء - وهو صوت الحادي الرقيق - قد يُوجِد في نفس المرأة أثرًا غير صالح.

• وحَدَّثَ مسروق عن عائشة ﵂ قالت: حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثًا، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله! كأن الحديث حديث خرافة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أتدرين ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من بني عذرة أسرته الجنّ في الجاهلية، فمكث فيهم دهراً طويلاً، ثم ردوه إلى الإنس، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس: حديث خرافة**»[1]، والمداعبة في هذا الحديث ظاهرة في الرد على القائلة: حديث خرافة، فبدل أن يؤنبها لاَطَفَها وداعبها، وقصّ عليها قصة خرافة العذرى.

• حدث الحسن البصري - رحمه الله تعالى - فقال: أتت امرأةٌ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله! ادع الله لي أن يُدخلني الجنة، قال: «**يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز**» فولت العجوز تبكي، فقال: «**أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾** [الواقعة: ٣٥، ٣٧]».

• وحدث أن امرأة جاءت تسأل عن زوجها، فقال النبي ﷺ: «**زوجك الذي في عينيه بياض**» فبكت، وظنت أن زوجها عَمِي، فأُعْلِمَتْ أن العين لا تخلو من بياض، فكانت مداعبة كمداعبته ﷺ للعجوز، ومصداقًا لما قدمناه من أنه ﷺ لا يقول في مزاحه إلا حقًا، فقد قال أبوهريرة ﵁ قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا، قال: «**إني لا أقول إلا حقًا**».

الفصاحة المحمدية

نترك صاحب «الشفا» يصف لنا فصاحة الحبيب ﷺ فيقول: **تحت «فصل» وأما** فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهد سلامة طبع، وبراعة[2] منزع، وإيجاز[3] مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخُص ببدائع الحِكَم، وعلم ألسنة

(١) الحديث رواه الترمذي إلا أن ابن كثير أعله وضعفه، وذكرناه لأنه حل لنا إشكال قول الناس: هذا حديث خرافة.

(٢) براعة منزع: أي هو ذو تفوق في قوم هم أفصح الناس.

(٣) إيجاز مقطع: أي هو ذو إيجاز في قوله، وفصل في كلامه مع قلة الألفاظ وتحديد المعنى وتوضيحه.

العرب، يخاطب كل أُمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويُباريها في منزع بلاغتها، حتى كان من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.

ومما اختص به وتفوّق فيه - فلا يدانيه فيه غيره، ولا يساميه فيه سواه - أنه ﷺ يتكلم مع كل قوم بلهجتهم وفصاحة لسانهم، وبلاغة كلامهم، فكلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ليس هو ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطفهة[1] النهدي، وقطن ابن حارثة العُلَيْمِيّ والأشعث[2] بن قيس، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقيال[3] حضرموت وملوك اليمن.

وهذه نماذج من كلامه ﷺ مع الأقوام المتباينين اللهجات، وإن شملتهم الجزيرة العربيّة دارًا، واللسان العربي منطقًا، فنراه يخاطب كل قوم بلهجتهم، وفصاحتهم في كلامهم ويتفوق عليهم.

- لما وفد عليه ﷺ ذو المشعار الهمداني كتب إلى همدان وبعثه مع ذي المشعار:

وهذه جمل منه:

«إن لكم فراعها[4] ووهاطها[5]، وعزازها[6] تأكلون بملافها[7]، وتَرْعون عفاءها[8]، لنا من دفئهم[9] وصرامهم[10] ما سلّموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب[11] والناب والفصيل، والفارض والداجن[12] والكبش الحُوَري، وعليهم فيها الصالغ[13] والقارح»[14].

(١) هو خطيب نهد ووافدها عام الوفود وهو سنة تِسع.

(٢) وقدموا من اليمن في ستين راكبًا فأسلموا كلهم ورجعوا إلى اليمن.

(٣) جمع قيل: بمعنى الملك.

(٤) ما ارتفع من الأرض.

(٥) ما سفل وانخفض.

(٦) ما صلب واشتد.

(٧) ما يعلف للدواب.

(٨) ما ليس لأحد فيه ملك.

(٩) الإبل والغنم.

(١٠) جمع صرمة القطعة من النخل والثمر.

(١١) الجمل المسن.

(١٢) ما يربض حول البيوت لهرمه وهزاله.

(١٣) ما انتهى سنه إلى السادسة من البقر والغنم.

(١٤) الذي شق نابه من ذوي الحافر مطلقًا.

فهذا الكلام بلهجة همدان إذا سمعه الحجازي أو النجدي وحتى القرشي يحتاج في أكثره إلى شرح وتفسير.

● وفد عليه طِفْهة النهدي، وشكا إليه ما أصاب قومَه من القحط، وطلب منه إن يدعو لنهد القبيلة فقال: «اللَّهم بارك لهم في محْضها ومخضها ومَذقها، وابعث راعيها في الدَّسر[١]، وافجُر لها الثمد وبارك له في المال والولد. من أقام الصلاة كان مسلمًا ومن آتى الزكاة كان محسنًا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا، لكم يا بني نهد ودائع الشرك ووضائع الملك، لا تُلطَط[٢] في الزكاة، ولا تلحد[٣] في الحياة، ولا تثاقل في الصلاة».

● وكتب لبني نهد في الوظيفة والفريضة فقال: «ولكم الفارض والفريش وذوالعنان والركوب والفَلُق الضبين، لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم، ولا يحبَس درّكم ما لم تضمروا الرماق[٤] وتأكلوا الرباق[٥]، من أقرّ فله الوفاء بالعهد والذّمّة ومن أبى فعليه الرِّبْوَةُ»[٦].

● وكتب إلى وائل بن حجر فقال: «إلى الأقيال العباهلة والأرواع[٧] المشابيب».

وجاء فيه: «في التيعة[٨] شاة لا مُقْوَرَّة الألياط[٩] ولا ضناك، وأنطوا[١٠] الثبجة، وفي السُّيوف[١١] الخمس. ومن زنى مم[١٢] بكر، فاصعقوه مائة، واستوفضوه عامًا، ومن زنى مم ثَيِّب فضرّجوه بالأضاميم، ولا توصيم[١٣] في الدين، ولا غمّة في فرائض الله، وكل مسكرٍ حرام، ووائل بن حجر يترفّل[١٤] على الأقيال».

---

(١) الإبل الكثيرة.
(٢) أي لا تمنعها.
(٣) لا تجر عن الحق ولا تعدل عنه.
(٤) النِّفاق.
(٥) أي تظهروا نقض العهد.
(٦) أي الزيادة على الفريضة عقوبه له.
(٧) السادة الزُّهْر الألوان، والمشابيب: الزهر الحسان الوجوه.
(٨) الأربعون من الغنم.
(٩) المهازيل المسترخية الجلود.
(١٠) أعطوا الوسط.
(١١) الركاز والمال المدفون.
(١٢) مم: أي مِنْ كذا.
(١٣) أي لا عيب في إقامة الحد.
(١٤) كناية عن جعله رئيسًا لأن التَّرفُّلَ إطالة الثوب والرداء وهما من مظاهر الغنى والسيادة عند الناس.

• وقوله ﷺ : «فإن اليد العليا هي المنطية واليد السفلى هي المنطاة» في حديثه مع عطية السعدي فقال: كلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا.

• وقوله في حديث العامري حين سأله فقال له ﷺ : «سل عنك» أي: سَلْ عما شئتَ وهي لغة بني عامر.

من كل ما تقدم من نماذج كلامه ﷺ يتبيَّن أنه كان يخاطب كل قوم بلهجتهم ويتفوق عليهم في الفصاحة والبيان، وهو ﷺ مأمور بذلك؛ ليبيّن للناس ما نزل إليهم، وإذا خاطب الأنصار والمهاجرين من قريش وأهل نجد والحجاز بكلامه المعتاد حَلّق في سماء البلاغة والبيان، ونثر الدر من كلامه الجامع للحكم المشتمل على فنون الهداية وضروب البيان، وهذه نماذج منه:

• قوله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويَسْعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم».

• أقواله ﷺ : «الناس كأسنان المشط، والمرء مع من أحب، ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له»، «الناس معادن»، «وما هلك امرؤ عرف قدره»، «المستشار مؤتمن»، «ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أوسكت فَسَلِم»، «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطئون[1] أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون». «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا»، «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»، ونهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

• ما قاله من الكلم الذي لم يُسْبَق إليه، ولا قاله أحد قبله كقوله: «حَمِي الوطيس». «ومات حَتْفَ أنفه». «لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين»، «السعيد من وُعظَ بغيره».

• وقيل له ﷺ يومًا: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني؟ وإنما أنزل القرآن بلساني بلسان عربي مبين». وكيف لا يكون كذلك وهو من قريش، ونشأ في بادية بني سعد، وأنزل عليه القرآن، وأوتى جوامع الكلم، فصلى الله عليه وسلم.

---

(١) الموطأ الكنَف - أي الجانب: من فيه لين ورفق.

وخلاصة القول إن فصاحة الرسول ﷺ لا عجب فيها ولا غرابة ما دام مضريًّا هاشميًّا، خصه ربُّه بالعناية في التأديب والتربية، وهيأه للوحي، وحمّله البلاغ والبيان فصلى الله عليه وسلم ما نطق ناطق وأبان، من كلِّ مخلوق من إنس وجان.

الرحمة المحمدية

إن الرحمة المحمدية التي أودعها الله تعالى قلب نبيّه وصفيه وخليله من عباده محمد ﷺ رحمة عامة لسائر الخلق قال تعالى فيها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ورحمة خاصة قال تعالى فيها: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وللرحمة في القلب مظاهر في الحياة تتجلّى فيها، وهذه بعض مظاهر تلك الرحمة المحمدية.

(أ) الرحمة العامة:

• لما كذبه قومه أتاه جبريل وقال له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك إليك ما ردوا عليك، وقد أمر مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم»، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: «مُرْني بما شئتَ، وإن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين»[(١)]. قال ﷺ: «لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا». فكان هذا مظهرًا من مظاهر الرحمة المحمدية العامة.

• ركبت عائشة ﵂ جملاً، وكان فيه صعوبةٌ، فجعلت تردده - أي تذهب به وتجيء تروضه - فأتعَبَتْهُ، فقال لها رسول الله ﷺ: «عليك بالرفق يا عائشة»، فهذا مظهر من مظاهر الرحمة العامة إذ شملت الحيوان.

• وقوله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر» مظهر من مظاهر الرحمة العامة أيضًا.

• وقوله ﷺ: «دخلت امرأة النارَ في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها حين حبستها، ولا تركتها تأكل من خشاش[(٢)] الأرض».

(ب) مظاهر الرحمة الخاصة:

• قوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة». فهذا مظهر من

---

(١) جبلان بمكة ويضافان إلى منًى لقربهما من مكة ومنًى.

(٢) ما يخش فيها ويدخل من حشرات، ومن غيرها كالفئران ونحوها.

مظاهر الرحمة والشفقة المحمدية على أمته ﷺ، وهو من مظاهر الرحمة الخاصة.

• قوله ﷺ: «**لا يبلغني أحدٌ منكم عن أحد من أصحابي شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**».

فهذه من رحمته وشفقته على أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - وهي من مظاهر الرحمة الخاصة.

• جاءه ﷺ أعرابي يطلب شيئًا فأعطاه، ثم قال له: «**هل أحسنتُ إليك؟**» قال الأعرابي: لا، ولا أجملتَ، فغضب المسلمون لمقالته وقاموا إليه ليضربوه - على سوء أدبه مع رسول الله ﷺ - فأشار إليهم: أنْ كفوا، ثم قام فدخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئًا، ثم قال له: «**أحسنتُ إليك؟**» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، فقال له الرسول ﷺ: «**إنك قلتَ ما قلتَ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدي حتى يُذْهب ما في صدورهم عليك**» قال: نعم، فلما كان الغد أو العشي، جاء فقال النبيّ ﷺ: «**إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟**» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل هذا، مثلُ رجلٍ له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس فلما يزدها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحله واستوى عليها. وإني لو تركتم - حيث قال الرجل ما قاله - فقتلتموه: دخل النار**».

فهذا أكبر مظهر من مظاهر الرحمة المحمدية الخاصة والعامة، فصلى الله عليه من نبيّ رءوف رحيم، وحقًّا إنه الرحمة المهداة والنّعمة المعطاة وسفينة الرأفة والشفقة والرحمة المرساة، فَوَيْلٌ لمن عاداه وما والاه، وويل لمن عصاه وآذاه، وويل لمن كفر به أو كذبه في الممات والمحياة.

الوفاء المحمدي

إن الوفاء بالعهد، وعدم نسيانه أو الإغضاء عن واجبه خلقٌ كريم، ولذا كان رسول الله ﷺ فيه بالمحل الأفضل والمقام الأسمى، والمكان الأشرف، فوفاؤه، وصلته لأرحامه كان مضرب المثل، وحق له ذلك وهو سيد الأوفياء والأولياء والأوصياء والأنبياء من بني آدم.

والمظاهر التالية تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها:

(أ) وفاؤه:

• حديث عبدالله بن أبي الحُمساء، إذ قال: بايعتُ النبيَّ ﷺ ببيع قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم تذكَّرت بعد ثلاثة، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «**يا فتى لقد شققتَ عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك**».

ومثل هذا كان لجده إسماعيل - عليه السلام - فأثنى الله تعالى به عليه في قوله: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**﴾[مريم: ٥٤، ٥٥].

• روى البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك قال كان النبي ﷺ إذا أتي بهدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقةلخديجة؛ إنها كانت تحب خديجة**». أيُّ وفاء هذا يا عباد الله؟ إنه يكرم أحباء خديجة وصديقاتها بعد موتها ﵂.

• وَحَدَّثَتْ عائشة ﵂ فقالت: ما غِرْتُ من امرأة ما غَرِتُ من خديجة؛ لما كنتُ أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيُهديها إلى خلائلها، واستأذنتْ عليه أختها فارتاح إليها، ودخلت عليه امرأة فهشَّ لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجتْ، قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسْنَ العهد من الإيمان!**».

وهكذا يتجلى خلق الوفاء في الحبيب ﷺ، فلم يَنْسَ بوفائه مَنْ مات فضلاً عمن هو حيٌّ ويهاب لومه أو عتابه.

(ب) صلته لرحمه:

صلة الرحم واجبة، ومن أقدر الناس على القيام بالواجب من رسول الله ﷺ؟ اللَّهم إنه لا أحد، ومع هذا نذكر نموذجين أو ثلاثة لما كان عليه ﷺ من صلة أرحامه، ليقتدي به في ذلك.

• قوله ﷺ في أبي العاص بن أمية - وكان مشركًا ظالمًا في أول أمره ثم أسلم وحسن إسلامه - قال فيه وهو مشرك: «**إن آل أبي فلانٍ ليسوا بأوليائي غير أن لهم رحمًا**

سابلها[1] ببلالها».

• حديث أبوالطفيل قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ وأنا غـلام، إذ أقبلت امـرأة حتى دَنَتْ منه، فبسط لها رداءه فجلست عليه، فقلتُ: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

• صلاته ﷺ بأمامة بنت زينب ابنته ﷺ إذ كان يحملها عـلى عاتقه وهو يصلي، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملهـا على عاتقه، فهذا مظهر من مظاهر صلة الرحم، كالذي قبله من بسطه رداءه لمن أرضعته.

• كان ﷺ يبعث إلـى ثُوَيْبة مولاة أبي لهب مرضـعته بصلة وكسوة، فـلما ماتت، سأل: «مَنْ بقيَ من قرابتها؟» فقيل: لا أحد، ولو قيل: بقي فلان أو فـلانة لوصلهما؛ قيامًا بواجب صلة الأرحام - ولو بعدوا - ولـو كانوا لمجرد رضاع بلا أرحـام؛ فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *

(١) أي أصلها بصلتها الواجبة لها.

خاتمة

في بيان حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له على كل مسلم ومسلمة:

إن الحقوق الواجبة للنبيّ ﷺ على كل فرد من أفراد هذه الأمة المسلمة عشرة وهي كالآتي:

«الإيمان به. محبته. طاعته. متابعته. الاقتداء به. توقيره. تعظيم شأنه. وجوب النصح له. محبّة آل بيته صحابته. الصلاة عليه ﷺ».

وهذا بيان أدلة وجوبها، وشرح معانيها، وعرض مظاهرها في الحياة.

(أ) الإيمان به ﷺ:

إن الإيمان به ﷺ مستلزم للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، قال تعالى في الأمر به الواجب القيام به: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال عز من قائل: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال هو ﷺ في الإخبار بوجوب الإيمان به: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» وقال في حديث آخر له في موقف آخر: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

ومعنى الإيمان به ﷺ التصديقُ بنبوته ورسالته التي جاء بها من عند الله تعالى، وأن كل ما جاء به من الدين، وما أخبر به عن الله تعالى هو حق وصدق، ولا يكتفي بالنطق باللسان، والقلبُ مُنكرٌ لذلك غير مصدق به، بل لابد من مطابقة القلب للسان.

من مظاهر الإيمان به ﷺ طاعته ومحبته وموالاته وباقي الحقوق العشرة.

(ب) محبته ﷺ:

إن محبته ﷺ واجبة بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فهذه الآية دليل واضح على وجوب محبته ﷺ لما فيها من التهديد الشديد على من آثر على حب الله ورسوله حبَّ غيرهما من الأهل والمال والولد.

وقال ﷺ في حديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

ولما سمع عمر رضي الله عنه - هذا الحديث - قال للرسول ﷺ: لأنتَ أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبيَّ، فقال له النبيّ ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه**»، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب، لأنتَ أحبُّ إليّ من نفسي التي بين جنبيّ، فأجابه الرسول قائلاً: «**الآن يا عمر**» أي بلغتَ حقيقة الإيمان.

وقال ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد أن أنقذه الله منه - كما يكره أن يُقذَفَ في النار**».

ومعنى محبته ﷺ: إيثار ما يحب ﷺ على ما يحب العبد.

مظاهر محبته ﷺ:

ومن مظاهر محبته ﷺ ما يلي:

١ - طاعته، الاقتداء به، ومحبة ما جاء به ودعا إليه، ونصرته في دينه ونصرة المؤمنين به من آل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢ - توقيره وتعظيمه عند ذكره وذكر شمائله، عند الوقوف على قبره للسلام عليه وعلى صاحبيه، وعند الجلوس في مسجده والصلاة فيه، وذلك بخفض الصوت، وغض البصر، وعدم ارتكاب أيّ حدث فيه من قول أو عمل، وعدم إقراره أو الرضا به.

علامات حبه ﷺ:

من علامات حبه ﷺ ما يلي:

١ - كثرة ذكره، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

٢ - كثرة الشوق إليه، إذ كل محب يحب لقاء حبيبه ويتشوق إلى لقائه.

٣ - البكاء عند ذكره شوقًا وحنينًا إليه ﷺ.

(جـ) طاعته ﷺ:

إن طاعته ﷺ واجبة بأمر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]. وبقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]. وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. ويدل على عظم شأن طاعته ﷺ قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤].

ومعنى طاعته ﷺ: فِعْلُ ما أمر به، وترك ما نهى عنه من اعتقاد أو قول أو عمل، إذا كان الأمرُ للوجوب والنهيُ للتحريم، فإن كان الأمر للندب، والاستحباب، والنهيُ للتنزيه، فلا معصية في الفعل ولا في الترك.

مظاهر طاعته ﷺ:

من مظاهر طاعته ﷺ:

١ - التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، وذلك كالمحافظة على رغيبة الفجر، وسنة الوتر، والرواتب مع الفرائض، والمحافظة على صلاة الجماعة، والرغبة في الصف الأول والذي يليه، ونافلة الضحى، والصلاة بعد الوضوء، وترك الصلاة في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها.

٢ - الالتزام بحسن السمت وخفض الصوت، ونظافة الثوب والجسم، وتحري الصدق في القول والعمل.

٣ - طلب الحلال في الطعام والشراب واللباس والنكاح.

٤ - حب المساكين والإحسان إليهم، وزيارة القبور للترحم عليهم والاستغفار لهم والتذكر بحالهم.

٥ - الالتزام بمبدأ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وبمبدأ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[1].

---

(١) مسلم وغيره.

(د) متابعته ﷺ:

إن متابعته ﷺ في المعتقد والقول والعمل واجبة وهي الدين كله، ومخالفته في ذلك هي الخروج من الدين كله إذ قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فمتابعته ﷺ سبيل الهداية، وتركها سبيل الغواية، وقد اشترط تعالى لحبه العبد أن يتابع العبدُ رسولَه في كل ما جاء به، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومعنى المتابعة للرسول ﷺ أن يكون اعتقاد العبد وقولُه وعملُه تابعًا لاعتقاد رسول الله ﷺ وقوله وعمله، فلا يخالفه في شيء من ذلك، بتقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان. ومن مظاهر المتابعة له ﷺ ما يلي:

١ - ألا يبتدع المسلم بدعة، وألا يعمل ببدعة ابتدعها غيره مهما كان هذا المبتدع إلا أن يكون أحد الخلفاء الراشدين الأربعة أبابكر وعمر وعثمان وعليًا - رضي الله عنهم أجمعين - وذلك لقوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

٢ - ردُّ كل قول لقوله، وترك كل تشريع لشرعه، والإعراض عن كل ما خالف هديه في الاعتقاد والقول والعمل. والأخذ بكل ما صح عنه وثَبَت نسبتُه إليه ﷺ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئًا ترخص فيه فتنزه عنه قوم؛ فبلغ رسولَ الله ﷺ، فحمد الله ثم قال: «فما بال أقوام يتنزهون عن شيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

٣ - التمسك بالسنة الواجبة والمستحبة على حد سواء.

فضل المتابعة:

وفي بيان فضل المتابعة نورد الحديث الآتي:

روى الترمذي وابن ماجة عنه ﷺ: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد». وقوله ﷺ: «إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن أمتي ستفترق على

ثلاثة وسبعين، كلُّها في النار إلا واحدة» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الذي أنا عليه[1] اليوم وأصحابي»، رواه الترمذي وابن ماجة بألفاظ مختلفة. والحديث دليل على فضل المتابعة للرسول ﷺ وأصحابه في العقيدة والعبادة والسلوك، إذ خلاف ذلك يفضي بالعبد إلى النار.

(هـ) الاقتداء به ﷺ:

لقد أمر تعالى رسولَه بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل، فقال عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأمرنا تعالى نحن أيها المسلمون بالاقتداء به ﷺ فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. أي قدوة صالحة فاقتدوا به. ورتب تعالى هدايتنا على طاعته، والاقتداء به فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، ولازم هذا أن ترك الاقتداء به ﷺ مُفْضٍ بصاحبه إلى الضلال الموجب للهلاك في الحياتين، وهو كذلك. فَهِمَ هذا سلفُ هذه الأمة، فالتزموا بطاعته ﷺ ومتابعته والاقتداء به.

هذه مظاهر تلك المتابعة وذلك الاقتداء:

- صلى عمر بن الخطاب، فكأنما قيل له في ذلك فقال: أنا أفعل كم رأيت رسول الله ﷺ يفعل.
- قرن عليٌّ بين الحج والعمرة على عهد عثمان رضي الله عنه فقال له عثمان: ترى أني أنهى الناس عنه وتفعله؟!! فقال عليٌّ: لم أكن أدَعُ سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس.

وقال مرة: ألا إني لست بنبيٍّ، ولا يوحى إليّ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

- وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: القصد في السنة[2] خيرٌ من الاجتهاد في البدعة، يريد

---

(١) في لفظ: «هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وهو الصحيح، وإن كان لفظ الحديث دالاً عليه ولو لم يذكر، وفي لفظ: «افترقت النصارى بعد أن افترقت اليهود».

(٢) يريد أن القليل من العمل الموافق للسنة خير من الكثير المخالف لها.

أن المتابعة للنبيّ ﷺ - وإن اقتصد العبد في العمل الصالح ولم يكثر منه - خير من عمل كثير في غير متابعة للرسول ﷺ.

• وكان أبيّ بن كعب ﷺ يقول: إن اقتصاداً في سبيل[1] وسنة خيرٌ من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، وموافقة بدعة، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً واقتصاداً أن يكون على منهج الأنبياء وسنتهم.

• روى أحمد أن ابن عمر ﷺ رؤي يدير ناقته في مكان، فسئل عنه فقال: لا أدري، إلا أني رأيتُ رسول الله ﷺ فعلَه ففعلتُه.

• وقال أبوعثمان الحيري: من أمَّرَ السنةَ على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّرَ الهوى على نفسه نطق بالبدعة.

والمقصود من هذا كله، أن الاقتداء بالرسول ﷺ واجب فعله محقّق للنجاة من الهلاك، وتركه مقتض له والعياذ بالله تعالى، فالخير كلٌّ الخير في اتباعه ﷺ والاقتداء به في الصغير والكبير، والقليل والكثير. وفي كل الأحوال وسائر الظروف.

(و) توقيره ﷺ:

إن توقير النبيّ ﷺ واجبٌ أكيد، إذ خلافه - وهو الاستخفاف به ﷺ - ما هو من الكفر ببعيد، بل هو كفر عتيد. أمر تعالى بتوقير نبيّه ﷺ في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨، ٩].

فالتعزيز: النصرة، والتوقير للتعظيم والإجلال، وهذه له ﷺ، والتسبيح لله عز وجل، وهو تنزيهه تعالى عن النقائص والشريك والشبيه والنظير والصاحبة والولد.

فما أرسل الله تعالى رسولَه مبشراً ونذيراً إلا ليؤمن الناسُ به تعالى وبرسوله، ويعزروا الرسول: أي ينصروه، ويوقروه: أي يجلوه ويعظموه بما يليق بمنصبه الرفيع ومقامه السامي الشريف.

ومعنى توقيره ﷺ تعظيمُه وإجلاله والإكبار من شأنه والرفع من قدره حتى لا يدانيه

---

(١) المراد من السبيل سبيل الله تعالى الذي هو سبيل المؤمنين.

أحدٌ من الناس. وكون أصحابه قد عرفوا قدره فأجلّوه وعزروه ووقروه، فليس ذلك عائداً لكونه فيهم وبينهم فحسب، بل هو لما أوجبه الله تعالى عليهم، وأفاضه في نفوسهم وأجراه على ألسنتهم من حبه وتقديره وإجلاله وتعظيمه.

ومن مظاهر توقيره ﷺ ما أمر الله تعالى به وأرشد إليه في كتابه العزيز كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]. أي لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، فلا يحل لأحدهم أن يسبق بقوله قوله، ولا برأيه رأيه، ولا بقضائه قضاءه، بل عليهمُ أن يكونوا تابعين له في كل ذلك. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢]. فقد منعهم في هذا الخطاب من رفع أصواتهم فوق صوته لمنافاة ذلك للأدب معه والوقار له، كما منعهم من الجهر بالقول له إذا خاطبوه وكلموه، لما في ذلك من سوء الأدب والجفاء والغلظة المنافية للإجلال والتوقير والتعظيم، وقوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. فقد نهاهم عن ندائه باسمه العَلَم: يا محمد، وأرشدهم أن يدعوه بلقب النبوة والرسالة نحو: يا نبيّ الله، ويا رسول الله، وبأحب كناه إليه نحو: يا أباالقاسم، واستجاب أصحابه البررة لأمر الله تعالى، فقال أبوبكر الصديق: والله يا رسول الله لا أكلمك وبعدها إلا كأخي السرار[1]، وفعلاً لمَّا نزلت هذه الآية كان عمر إذا حدثه حدثه كأخي السرار، فما كان يُسْمع الرسول حتى يستفهمه، ليبين مراده من كلامه، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

مظاهر توقيره:

ومن مظاهر توقير الأصحاب - رضوان الله عليهم - لنبيّهم ﷺ ما يلي:

● حدث عمرو بن العاص يومًا فقال: ما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه، إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه.

---

(١) أي كلامًا خفيًا كالمسارّة التي لا يسمعها غير من سارّه بها من الحاضرين.

•روى الترمذي عن أنس قوله: كان رسول الله ﷺ يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبوبكر وعمر، فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبوبكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه، ويبتسم إليهما.

•روي عن أسامة بن شريك قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وأصحابهُ حوله كأن على رءوسهم الطير.

•قال عروة بن مسعود - حين وجهته قريش إلى رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية، ورأى من تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وَضُوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا ولا يتنخّم نُخامة إلا تلقوها بأكفهم، فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرةٌ إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتَدرُوا أمرَه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظر؛ تعظيمًا له. فلما رجع إلى قريش - قال: يا معشر قريش، إني جئتُ كسرى في ملكه وقيصرَ في ملكه، والنجاشيَّ في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا من قوم قط مثل محمد في أصحابه. فهذا الذي حكاه عروة بن مسعود رضي الله عنه - وهو حق ثابت - أكبر مظهر من مظاهر توقير أصحاب رسول الله لنبيّهم ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

(ز) تعظيم شأنه ﷺ:

إن المراد من تعظيم شأن النبي ﷺ: إكرام وإكبار كل ما تعلق به ﷺ كاسمه وحديثه، وسنته، وشريعته وآل بيته، وصحابته وأفراد أمته، ومسجده وقبره، وكل ما له اتصال به من قريب أو بعيد، إذ كل هذا داخل تحت وجوب توقيره وحبه وتعظيمه كما هو مندرج تحت حرمات الله، والله يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج ٣٠]. ويدل لذلك ويشهد له: أن الله تعالى نهى عن رفع الصوت بحضرته، وأمر بغَضّه بين يديه، ولم يأذن بأن يُدْعي كما يُدعى غيره، وذلك لما له من الفضل والتَفوق على سائر الناس.

ولنستعرض الآن مواقف الصحابة والتابعين في هذا الشأن، لنزداد يقينًا بوجوب تعظيم شأنه ﷺ كلّه. وهذه مظاهر ذلك:

مظاهر تعظيم حديثه:

• رُوي عن عبدالرحمن بنَ مهدي أنه كان إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت، وقال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ﷺ، يَرى أنه يجب له الإنصاتُ عند قراءة حديثه كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ.

• ما رُوي عن جعفر بن محمد الصادق - وكان كثير الدعابة والتبسّم - أنه إذا ذكر عنده النبيّ ﷺ اصفرّ وجهه، وما رئي يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة.

• ما رُوي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه إذا حَدَّثَ فقال: قال رسول الله ﷺ علاه كرب، وتحدّر العرق من جبينه - رضي الله عنه وأرضاه -.

• مرّ مالك بن أنس - إمام دار الهجرة - رحمه الله - مرّ على أبي حازم - وهو يحدث - فجازه ولم يقف عنده وعلل لذلك بقوله: إني لم أر موضعًا أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وكان - رحمه الله تعالى - إذا أراد أن يحدث بحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه، ثم خرج فحدث.

مظاهر تعظيم آل بيته ﷺ:

إن من مظاهر تعظيم آل بيت الحبيب ﷺ - الذي قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً - ما يلي:

• قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ارقُبُوا محمدًا ﷺ في أهل بيته، وقوله: والذي نفسي بيده، لَقرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُ إليّ أن أصل من قرابتي.

• ما رُوي أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قد قَبَّلَ يد ابن عباس، وقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيِّنا.

مظاهر تعظيم أصحابه ﷺ:

إن تعظيم أصحابه ﷺ من تعظيمه - فداه أبي وأمي - إذ لولا صحبتهم له ما عظموا هذا التعظيم الخاص دون غيرهم من سائر الناس.

ومن مظاهر تعظيمهم ما يلي:

• قول عبدالله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحبُ أصحابِ

محمد ﷺ.

•قول أبي أيوب السَّخْتِيَاني: مَنْ أحبَّ أبابكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحب عليًا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ برئ من النفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف ألا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا.

مظاهر تعظيم آثاره ﷺ:

ومن مظاهر تعظيم آثار الحبيب ﷺ ما يلي:

•من أنه كانت لأبي محذورة قصة في مقدم رأسه، إذا قعد وأرسلها وصلت إلى الأرض، فقيل له: ألا تحلقها؟ قال: لم أكن بالذي يحلقها وقد مسّها رسولُ الله ﷺ بيده.

•ما رُوي أن خالد بن الوليد ﷺ كانت له قلنسوة، فيها شعرات من شعر رسول الله ﷺ فسقطتْ منه في بعض حروبه، فشدّ عليها شدة، أنكرها عليه أصحابه، لكثرة مَنْ قُتِلَ فيها، فقال: لم أفعلها من أجل القلنسوة، بل لما فيها من شعر رسول الله ﷺ، لئلا أسلَب بركتها، وتقع في أيدي المشركين!!

•قول مالك: من قال: تربة المدينة رديئة، يُضرب ثلاثين درّة ويُحبس. وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه!! تُربة دُفِنَ فيها رسول الله ﷺ يزعم أنها رَدِيئة!!

•قول الرسول ﷺ: «منْ حلف على منبري كاذبًا فليتبوأ مقعده من النار». ففي هذا شاهد قوي على وجوب تعظيم منبر رسول الله ﷺ، إذ هو أثر من آثاره ﷺ.

•قوله ﷺ - في المدينة كل المدينة -: «**من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف**[1] **ولا عدل**». وقوله: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**».

---

(١) أي لا يقبل منه نفل ولا فرض حتى يتوب.

(ح) وجوب النصح له ﷺ:

إن لوجوب النصح له ﷺ أدلة من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]. فذكر النصح لرسوله ﷺ وأنه نافع لصاحبه رافعٌ عنه الحرجَ ما دام ناصحًا لله ولرسوله ﷺ غير غاش ولا خادع بهما.

ومثل قول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله» فجعل النصح له دينًا.

معنى النصح: أنه إرادة الخير للمنصوح له، ولا يتم هذا إلا بعد تخليص النفس من كل الشوائب حتى تصل إلى درجة تريد فيها الخير كاملاً لمن تريده له.

والنصيحة لرسول الله ﷺ تكون بأمور، هي مظاهر لها، وهي:

١ - التصديق بنبوّته المثمر لطاعته في أمره ونهيه، ومؤازرته ونصرته،وحمايته حيًا وميتًا وإحياء سنته بتعليمها بعد العمل بها، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ﷺ.

٢ - شدة المحبة له ولأهل بيته، وكافة أصحابه، وموالاة من يواليه، ويوالي أهل بيته وأصحابه في صدق، ومعاداة من يعاديه ويعادي أهل بيته وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين -.

٣ - إبلاغ رسالته بعده، ونشر دعوته وإقامة شريعته، وإعزاز أهل ملته، وإذلال أهلَ بغضته وعداواته من الكافرين بدينه، والكائدين لأمته وملّته.

(ط) محبة أهل بيته وصحابته:

إن محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه من محبته ﷺ، وما دامت محبته واجبةً، فمحبة ما يحب واجب أكيد أيضًا، وعليه فما أحبَّ رسولَ الله مَنْ لم يحبَّ أهل بيته وأصحابه، إذ كان ﷺ يحبهم. وحسْبنا في التدليل على وجوب محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه: إيرادُ الأحاديث والآثار الآتية:

● ما حدث به زيد بن أرقم رضي الله عنه: إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي» أي أسألكم بالله وأقسم به عليكم، قالها ثلاثًا. وسئل زيد بن أرقم عن أهل بيته فقال: هم آل عليّ وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس.

• قوله ﷺ للعباس: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ رجلٍ الإيمانُ حتى يحبكم لله ورسوله، ومن آذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صِنْوُ[1] أبيه».

• قوله ﷺ في أسامة بن زيد والحسن بن علي: «اللهم إني أحبهم؛ فأحبَّهما».

• قول أبي بكر الصديق ﷺ ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته.

• قوله ﷺ لأم سلمة: «لا تؤذيني في عائشة».

• قول عمر بن عبدالعزيز لعبدالله بن الحسن بن حُسَيْن: إذا كانت لك حاجة فأرسل إليّ، أو اكتب، فإني أستحيي من الله أن يراك الله على بابي. فهذا تعظيم وأي تعظيم من عمر لأهل بيت رسول الله ﷺ.

• قول عمر لابنه عبدالله لما أعطى أسامةَ ثلاثة آلاف وخمسمائة، وأعطى ولده عبدالله ثلاثة آلاف، فقال: لم فضّلته عليّ؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، قال: لأن زيداً كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحب إليه منك فآثرت حبّ رسول الله ﷺ على حبّي!!

كانت تلك الأخبار الموجبة لحب أهل بيت رسول الله ﷺ. وأما أصحابه - رضوان الله عليهم - ففي كتاب الله ما يُوجب حبهم وتقديرهم والترضّي عنهم، وما يُحرّمُ انتقاصهم، والطعن فيهم، والنيلَ من كرامتهم، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح ١٨]. فهل يرضى الله عن عبده، ويجوز السخط عليه من قبَل عباده؟؟ اللهم لا، لا، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فهل يمدح الله تعالى أقواماً ويُثني عليهم في كتابه، ويجوز ذمهم وعدمُ إجلالهم وتقديرهم؟ اللهم لا، لا.

• قوله ﷺ - في أبي بكر وعمر ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر».

• قوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنفق أحدُكم مثل أحد ذهباً ما بَلَغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه[2]».

---

(١) الصنو: المثل.

(٢) المد: الحفنة، والنصيف نصفها.

• قوله ﷺ في الأنصار: «اعفوا عن مسيئهم، واقبلوا من مُحسنهم».

• قول سهل بن عبدالله التُّسْتُرِيّ - رحمه الله تعالى -: لم يؤمن بالرسول مَنْ لم يوقر أصحابه، ولم يُعزّ(٢) أوامره.

• قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة: من غاظه أصحابُ محمد فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

• قوله وقول غيره أيضًا: من أبغض أصحاب رسول الله ﷺ وسبهم لا حقّ له في فيء المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [الحشر: ٦]. إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]. فالذين في قلوبهم غلّ على أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في الفَيْء؛ إذ يخرجون بهذه الآية الكريمة من سورة الحشر. وهذا فقه عظيم، وفَهْمٌ لكتاب الله كبيرٌ سديد.

(ي) الصلاة عليه ﷺ :

هذا آخر الحقوق العشرة الواجبة لرسول الله ﷺ صاحب هذه السيرة العطرة، الواجبة له على كل مؤمن ومؤمنة، وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ. إن هذا الحق الواجب الأكيد ثابتٌ بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وقال رسول الله ﷺ: «رغم أنف امرئٍ ذُكِرت عنده فلم يُصَلِّ عليّ». وقال: «صلوا عليّ حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني»، وقال له أصحابه ﷺ أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». فالصلاة عليه ﷺ واجبة في الجملة وتتأكد عند ذكره ﷺ، وفي التشهد الأخير من كل صلاة. وجاء في فضلها قولُه ﷺ: «من صلى عليّ مرّة صلى الله عليه بها عشرًا». وقوله: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن، ثم صلوا عليّ، أي قولوا: اللهمّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك

---

(٢) فينصرها ويقويها ويجلّها ويعظمها.

حميد مجيد ثم سلوا لي الوسيلة والفضيلة، أي قولوا: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدته، فإن من فعلَ ذلك حلت له شفاعتي يوم القيامة».

المواطن التي تستحب فيها الصلاة عليه ﷺ :

إن هناك مواطن كثيرة تستحب فيها الصلاة على النبيّ ﷺ نجملها إزاء النقاط الآتية:

• قبل الدعاء وبعده، فالداعي يبدأ دعاءه بحمد الله والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء من الخير ثم يختم دعاءه بالصلاة على النبي ﷺ لما ورد: «الدعاء بين الصلاتين عليّ لا يُرَدّ». ولقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «إذا أراد أحدكم[1] أن يسأل الله شيئًا، فليبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهلُه، ثم يصلي على النبي ﷺ ، ثم ليسأل؛ فإنه أجدر أن يُنجح» أي يفوز باستجابة دعائه.

• يوم الجمعة وليلتها؛ إذ رَوى النسائي بسنده أن النبي ﷺ أمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة، وورد ليلتها أيضًا.

• عند سماع ذكره أو كتابته لحديث: «رَغِمَ أنف أمرئٍ ذكرتُ عنده ولم يُصَلِّ عليّ».

• عند دخول المسجد بأن يقول: «باسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنبي، وافتح لي أبواب رحمتك» وعند الخروج كذلك إلا أنه يقول: «وافتح لي أبوابِ فضلك» بدل «رحمتك».

• وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنائز؛ إذ الأولى يقرأ بعدها الفاتحة، والثانية يصلى بعدها على النبيّ ﷺ الصلاة الإبراهيمية، وهي التي يصلي بها في التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة.

صيغ الصلاة على النبي ﷺ :

لقد ورد في الصلاة على النبي ﷺ صِيَغ كثيرة، بعضُها مرفوع إلى النبي ﷺ ،

---

(١) ورد بهذا اللفظ أو بقريب منه مرفوعًا وصحيح الإسناد وهو أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته، فلم يصل على النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ : «عجل هذا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا أراد أحدكم .... إلخ».

وبعضها مأثور عن السَّلَف الصالح، وبعضها محدَث مبتدَع (١).

ونظرًا لذلك، فإنا نكتفي بذكر أعلى الصلاة وذكر أدناها، فأعلى الصلاة وأفضلها على الإطلاق الصلاة الإبراهيمية التي علمها رسولُ الله ﷺ أصحابه كما تقدم قريبًا، إذ قال لهم: «قولوا: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وأدنى الصلاة عليه ﷺ: اللهم صَلِّ على محمد وسلم تسليمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فاللهم صَلِّ على محمد عبدك ورسولك، النبيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

المدينة النبوية في ٢٠/١١/١٤٠٧هـ.

* * *

(١) من تلك الصلوات المحدثة: صلاة الفاتح عند الطائفة التيجانية.

فهرس الكتاب

تمت فهرسة كتاب هذا الحبيب والحمد لله رب العالمين

* * *